عشرة آلاف ليلة وليلة

مذكرات

مذكرات

مذكرات

سندرسن باشا

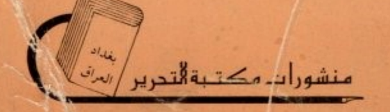
طبيب العائلة الملكية في العراق

١٩١٨ - ١٩٤٦



ترجمة وتعليق

سليم طه التكريتي



عشرة آلاف ليلة وليلة

مذكرات

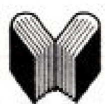
سندرسن باشا

طبيب العائلة الملكية في العراق
١٩١٨-١٩٤٦

ترجمة وتعليق

سليم طه التكريتي

الطبعة الثالثة
مزيدة ومنقحة



منشورات مكتبة التحرير
بغداد - العراق

الطبعة الاولى مكتبة المثنى ١٩٨١

الطبعة الثانية مكتبة اليقظة العربية ١٩٨١

الطبعة الثالثة مكتبة التحرير ١٩٨٥

طبع بموجب موافقة وزارة الثقافة والاعلام

في إجازتها المرقمة ١٠٥٦ بتاريخ ٧ /٨/١٩٨٥

الطبعة الثالثة ١٩٨٥

تقديم الطبعة الثالثة

تمهيد للطبعة الثانية

يعد الطبيب الانكليزي «هاري سندرسن» من أشهر الشخصيات البريطانية التي عملت في العراق أثناء الحكم الملكي. فهو بحكم عمله طبيباً للعائلة المالكة، استطاع ان يطلع على الكثير من أسرار هذه العائلة، وأن يلعب دوراً بارزاً في حياة بعض أفرادها، كما أن اتصاله الوثيق بالسفارة البريطانية في بغداد، وبعدد كبير من رؤساء الوزارات والوزراء، والشخصيات الأخرى في البلاد، قد مكنه من أن يلم إلماماً جيداً وواسعاً بكل الأوضاع السياسية والاجتماعية في العراق، وأن يسهم - من طريق خفي - في رسم بعض السياسات التي انتهجت أثناء الحكم الملكي حتى أواخر سني الأربعينات. في سنة ١٩٧٣ نشر سندرسن مذكراته التي وضع لها عنواناً طريفاً هو «عشرة آلاف ليلة وليلة» وهي المدة التي أمضاها في الخدمة الرسمية في العراق. ومع أن كثيراً من الأسرار التي عرفها سندرسن معرفة دقيقة، وخبر البعض منها بنفسه، لم يحاول بسطها بكل صراحة في مذكراته تلك، إلا ان المذكرات تكشف عن كثير من النواحي التي خفيت عن عامة أبناء الشعب خلال تلك الحقبة من تاريخ العراق الحديث.

ولقد كان الإقبال الشديد على الطبعتين الاولى والثانية من الترجمة التي اعددناها للمذكرات، من الأسباب التي شجعتنا على اصدار طبعة جديدة

ومع أن مندرسن، وأي كاتب آخر مثله، يمثل فيها كتبه وجهة النظر البريطانية في كل القضايا والأحوال، إلا أن وجهة النظر هذه لا تمنع من القارىء من الاطلاع عليها، بل إن من واجب كل فرد مخلص لوطنه ان يطلع على وجهة نظر غيره، سواء كان من الأصدقاء أم من الأعداء، وهو ما هدفنا إليه في الدرجة الأولى من ترجمة هذه المذكرات.

بغداد اول حزيران ١٩٨٢

سليم طه التكريتي

المقدّمة

بقلم فريا ستارك

عثرتُ قبل أيامٍ خَلَتْ، في دُرْجٍ مليء بأشياء لا أتذكرها، على صندوق مستطيل مصنوع من معدن أسود مطلي، وفي داخله تسعةُ أوعية صغيرة ذات أغطية لولبية. وسرعان ما ظهر أمام ناظري شريط حياتي بأكملها. ولا سيما الأشياء البهيجة منها.

كان من بين تلك الأشياء وليمةُ عشاء لدى «آل سندرسن» في بغداد، عند زيارتي لهم لأول مرة، ولم أكن أعرفهم من قبلُ إلاّ نادراً، وقد طُلب إليّ أن أبحث في أمورٍ طبيّة في جبال «ألبُرز»[1].

كنت قد بدأت رحلتي إلى إيران، وكنتُ آمل أن أزور قلاع «الحشاشين»[2] في وقتٍ لم تكن فيه معروفة إلاّ بصفة نادرة، حيث يستطيع

---

(١) جبال البرز: في منطقة إيران الشمالية الغربية والمتاخمة للمنطقة التي يقطنها الأكراد الإيرانيون.

(٢) قلاع الحشاشين: هي الحصون أو القلاع التي كانت منتشرة على سفوح الجبال الشاهقة التي تقع في الشمال والشمال الغربي من إيران، أي في منطقة أذربيجان الإيرانية. أما الحشاشون هؤلاء فإنهم من غلاة الشيعة الإسماعيلية الباطنية، وكان زعيمهم هو الحسن بن الصباح ـ بتشديد الباء ـ وهو صديق قديم لكل من عمر الخيام ونظام الملك. وقد سمي أتباعه بهذه التسمية لأنهم كانوا يتناولون الحشيش كما قيل. غير أن اسم الحشاشين هذا أصبح يعرف لدى الغربيين باسم القتلة أو المغتالين أي «Assassins» وكانت قلعة «الموت» بفتح الألف واللام ـ من أشهر قلاع الحشاشين، وقد استولى عليها الحسن بن الصباح سنة ١٠٩٠ م واتخذها قاعدة له وكان الاسما عليه ومنهم النصـــيرية ؛ من
اشد الفرق المتطرفة تعاون مع اعداء العروبة والاسلام في كل الازمان الصليبيين في العصور التي ضعفت في الدولة العباسية وقامت ما عرفت بدول الطوائف، النصيرية لم يحجموا حتى عن التعاون المكشوف مع اسرائيل اثناء الحرب الاهلية في لبنان والتطورات التي ادت الى غزو اسرائيل لاراضي لبنان وملاحقة الفلسطينيين في كل مكان وكان ذلك في مدينة بيروت .

«سنباد» رئيس المدرسة الطبيّة العراقية أن يقدّم نصحه بشأن الأمراض التي قد يصادفها المرءُ هناك.

لقد كان هو وزوجته الغالية «إلزي» يعيشان في منزل وحديقة غارقين (بسبب الإرواء) مثل الحدائق المنتشرة في بغداد، تحت مستوى الطريق المغبرّة، وعلى مقربة من النهر، في الناحية الشمالية من المدينة.

ففي هذه الواحة المنعشة المفرحة، ازدهرت حياتهما في جوّها الخاص الذي تغمره روحُ التعاون والود.

وفي هذه الأمسية الأولى التي هيّأنا فيها الحبوبَ والمساحيقَ في ذلك الصندوق الأسود، استطعتُ أن أميّز الطيبة التي كانا يتحليان بها، والتي بقيت أتحسّسها خلال سنين عديدة، بل اثنتين وأربعين سنة على وجه التحديد.

لقد وصل إليّ هذا الكتاب بجوّه الخاص به. ومع ذلك فإنني أعتقد بأنه كان قوياً بشكل وافٍ، بطريقته الصريحة التي يستطيع أن يكسبَ بها الجمهور، الذي لا يعرف شيئاً ما عن «سندرسن باشا»، ولا عن العالم الذي كان فيه مستقرّاً ومحبوباً.

لقد أصبح المستشار الطبي للملك فيصل الأول في الأيام الأولى لتكوين العراق، واستمرّ في صداقته العميقة النادرة مع كِلا الطرفين، لكي يخدم الأسرة المالكة التعسة حتى نهايتها الأخيرة.

إنّ هذا السجل الهادىء المعتمد على الثقة بالنفس، وحرارة القلب، يسرّ من يقرأه، ويَدَع المرء يتحقق بامتنان، وبشيء من الدهشة، كيف استطعنا نحن، ولسنين عديدة، أن نضع «باشتنا» الموهوب هذا، بين الكثيرين من الطبّيين، الذين خدموا هذا البلد، وتجوّلوا في أماكن غريبة على امتداد الطريق الذي سار فيه، وطريقنا، وتقاليدنا، بقلب جيّاش وشجاع.

كلمة المؤلف

ينبغي أن تُعربَ أولى كلماتي عن الامتنان العميق للسيدة فريا ستارك، العزيزة، الصديقة الشهيرة المعروفة، وذلك للمقدّمة السخيّة والكريمة جداً التي وضعتها لهذا الكتاب.

لقد كان من حُسن حظّي أن أُقيم في بغداد، أثناء تحوّل العراق ـ تلك الولاية التركية المضطهدة المعوزة ـ إلى دولة العراق العصرية الناهضة، وأن يتوافر لي عدد من الأدوار المستوعبة التي كنتُ أقوم بها خلالها. ولقد كانت تلك الأيام، هي الأيام حقاً!

وكنتُ حتى وفاة زوجتي في شهر تموز (يوليو) سنة ١٩٦٧، أقاوم كلَّ طلب بأن أدوّن ذكرياتي. ولكن في الأيام الأخيرة رحتُ ـ أثناء وحدتي ـ أتطلّع إلى السلوى بتذكّر السنوات السعيدة الملأى بالحوادث التي عشناها سوية في بلد أحببناه، والذي كانت تباركنا فيه صداقات عزيزة ومستديمة جداً.

كانت أوثق علاقاتنا مع العائلة المالكة الرحيمة في العراق، تلك العائلة التي قُضي عليها بوحشية سنة ١٩٥٨. وإنني لأتجرأ فآمل أن تصبح مذكّراتي التي سُطّرتْ أخيراً على الورق، إحدى وسائل المشاركة المتواضعة للحفاظ على ذكرى تلك العائلة المحبوبة الأثيرة المبرزة.

لم يُكتب هذا الكتاب بمثابة سيرة ذاتية، لأن تلك مهمةٌ استنتاجيةٌ، تأمّلية، ومعوقةٌ خارجَ نطاق مقدرتي. غير أنني وجدتُ ـ كمتحدث ـ أنَّ من المستحيل أن يظل هذا الكتاب برُمَّته في أجواء الذاكرة. ذلك لأنه يتعلق،

في الدرجة الأولى، بحياتي الخارجية، وبالأحداث، والأماكن، والناس، في بلد مُشرقٍ عريقٍ في القِدَم، تاريخُه غني بالأحداث والقصص.

كانت ترجمة الأسماء العربية إلى حروف الهجاء الأخرى، من المهام الجسيمة التي ينبغي القيام بها. فحيثما كان ذلك مستطاعاً كنتُ أستعمل أفضل الألفاظِ الشائعة، أو التهجئة الإنكليزية التي يؤيدها الأشخاص المهتمون بهذه المواضيع.

وفي الختام، فإنني مدين إلى كل من: ستيوارت بيرون، وجورج غرينفلد، والمس مورين رسِّلك، والمس إلزي هيرون، والمس أليزا سكوت، والمس بربارا برو، وذلك للمساعدة القيِّمة التي أدّوها لي في تهيئة مسودّات هذا الكتاب وإعداده للطبع، والإشراف على طبعه ونشره.

هاري سندرسن

الفصل الأول

ظلال مِن حيَاتي

كانت أول نظرة ألقيتها على العراق، من خلال ناظور ميدان، وأنا على جسر السفينة «منتونكا» التابعة لشركة خطوط الأطلسي، وذلك في مُبكر سنة ١٩١٨.

كانت الأرض القائمة بين نهرَي دجلة والفرات تُعرف في ذلك الوقت باسم: «ما بين النهرين»[1] وهي التسمية التي كانت تُستعمل بصفة رسمية حتى بعد أن تم عقد معاهدة الصلح بين تركيا والحلفاء بمدة سنتين. وكان استعمال الإغريق لاسم سامي قد تم اختصاره بصفة غير محترمة إلى كلمة «مسبوت» من قِبَل أفراد الحملة حتى قبل أن يتم إنزالها بصفة مؤكدة في «الفاو» في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٤، وقد ظلّت هذه الكلمة تُستعمل لمدة طويلة بين المدنيين البريطانيين الذين خلفوا أفراد الحملة.

كان على ظهر سفينة نقل الجنود التي تقرّر أن تتوجّه إلى البصرة من مدينة «سلانيك» الهيئة والتجهيزات الكاملة لمستشفى يضمّ خمسمائة سرير، عُرف باسم المستشفى الخامس والستين.

كنت قد عُيّنت في هذا المستشفى قبل أشهر قلائل، بعد أن نُقلتُ إليه من القيادة العسكرية لسفينة مستشفى، وكنت أعمل آنذاك برتبة مُقدّم وقتية

---

(١) ما بين النهرين أو «بلاد الرافدين» ترجمة حرفية لكلمة مسوبوتاميا Mesopotamia اليونانية التي تطلق على العراق بحدوده الأصلية من منابع نهري دجلة والفرات حتى الخليج العربي. وقد ظل الغربيون يطلقون هذه التسمية على العراق حتى وقت متأخر من سني العشرينات ولذلك فان افضل ترجمة لهذه العبارة هي اسـم العراق، لان حدوده الاصلية تمتاز من الخليج العربي جنوبا الى جزيرة ابن عمر شـمالا والى ضفاف الفرات الاعلى وسهل الناجور في الشـمال الغربي حيث قامت منذ العهد الآشوري مملكة تابعة العراق الاشوري هناك على ضفاف الفرات عرفت باسـم مملكة ماري التي تعرف آثارها الآن باسـم تل الحريري . انظر كشاف بـلاد آشور المترجمة عن اندوره پارد المنقب الفرنسي

في القوة الاحتياطية، وقد أُرسلت في مهمة تعزيزات طبيّة تضم عدداً من الضباط الأطباء الذين تم تجنيدهم مؤقتاً.

سافرنا على سفينة نقل الجنود إلى مدينة «شيربورغ»[٢]، ومن هناك واصلنا سفرنا بالقطار إلى «تارنتو»[٣]. وبعد استراحة ثلاثة أو أربعة أيام في أحد المعسكرات، أتممنا مسيرتنا بحراً.

كان أحد أعضاء البعثة يُدعى (سندرسن) وقد أُلحقنا كلانا، أنا وهو عند وصولنا، بالمستشفى الخامس والستين. وكان في هيئة الأركان قبلاً نقيب يُدعى «سندرسن». وكانت وثائق التعيين، مع كل المعلومات الخاصة بالخدمات السابقة للضباط المنقولين، قد وصلت إلى القيادة قبل ذلك الوقت ببضعة أيام.

قدّم ذلك النقيب هذه المعلومات إلى رئيسة المؤسسة، فأودعتها هذه إلى مساعدتها مع اقتراح يقول: «إنّ الاضطراب الذي حصل في تحديد الهويات كان أمراً حتمياً». ولما كان الدور الذي كنت أقوم به قبلاً، هو دور بحّار، فقد اقترحت المساعدة عندئذٍ إيجاد تفرقة غير رسمية بيني وبين ذلك الشخص الذي يحمل ذات الاسم، وذلك بإطلاق لقب «سنباد» عليّ، وهو اللقب الذي أُلصق بي منذ ذلك الوقت. وكانت تلك المساعدة هي «المس إلزي مون غافن» التي أصبحت زوجتي بعد ثلاث سنوات.

كانت إلزي هي وشقيقتها قد تطوّعتا ممرضتين بعد اندلاع نيران الحرب مباشرة. وبعد تدريب امتدّ سنةً واحدة أمضيناها في مستشفى «سانت توماس» أُرسلنا إلى جزيرة «مالطة» للالتحاق بالمستشفى الخامس والستين.

يؤكد الشاعر الاسكوتلندي المبدع «توماس كامبل» بأنّ الحوادث المقبلة تلقي بظلالها قبل وقوعها. ولما كان هذا هو الواقع، فلا بدّ لي من

(٢) من المدن الفرنسية الشهيرة.

(٣) إحدى مدن إيطاليا الساحلية.

أن أشير هنا إلى تفصيلات قليلة عن وظائفي ومؤهلاتي العلمية، بعد وصولي إلى «سلانيك» مباشرة، والتحاقي بالمستشفى الخامس والستين.

ولقد أقدمت على ذكر ذلك لأنني آمل أن يكون مستطاعاً، إزاء هذه الخلفية، توجيه نظرة إلى فترة امتدت «عشرة آلاف ليلة وليلة»، لا تشوبها سوى ظلال خفيفة، حتى وإن لم يكن الترابط بين المقدّمات والنتائج واضحاً دوماً.

تخرّجت في كليّة الطب مترسماً خطى الآخرين من أفراد أسرتي، في جامعة «أدنبره» في أوائل صيف سنة ١٩١٤، بعد بلوغي العام الثالث والعشرين من عمري بأيام قليلة. وكانت أيام تخرّجي جد سعيدة، في حين كانت أيام دراستي جمة المصاعب، ومع ذلك فقد نجحت في كل امتحان دخلته في المراحل الأولى، واستطعت أن أحصل على جوائز قليلة. وقد احتلّت الرياضة قدراً لا بأس به من وقت فراغي، فظفرت بالشارة الزرقاء لفرقة كرة القدم، فكنت نقيباً لأحد عشر لاعباً في الفترة بين سنة ١٩١٢ وسنة ١٩١٣، كما أنني مثّلت الجامعة في لعبة «الكريكت».

وكنت خلال السنوات الخمس التي أمضيتها في الجامعة بأدنبره أُقيم في «بلاكي هاوس» وهي إحدى الصالات الأربع في الجامعة في ذلك الوقت. ولقد اشتركت أثناء العطلة الصيفية لسنة ١٩١٣، في أعقاب ثلاث سنوات من التحاقي بالجامعة، في دورة الاحتياط الخاصة للتدريب في «الدرشوت»، حيث انهمكت في تمارين يومية عنيفة للفروسية في الكليّة العسكرية في «كليّة ساندهرست» فجُنّدت بصفة تامة بعد أن وُجدت ملائماً للقيام بواجبات ضابط خيّال في الميدان، وتلك صفة ربما كان من حُسن حظي أنني لم أُدع إلى تطبيقها أثناء القتال.

كنت أستمتع بأوقات فراغي في «الدرشوت». غير أنّ التدريب الرتيب لم يكن يناسب طبيعتي المتمثلة بالعناد والاستقلال، ولذلك تحقق لديّ أنّ من واجبي أن أبحث عن التربية العسكرية، وعن الصفة الجامدة لمشاقها الرئيسة، وعن انتهاز الفرص للعمل الطبي الذي كان محدوداً جداً بالنظر إلى ذوقي.

وحينما أصبحتُ من قوة الاحتياط الخاصّة، استدُعيتُ للخدمة عند بدء التعبئة العامة في شهر آب (أغسطس) سنة ١٩١٤، ومن ثم غدوت طبيباً داخلياً لدى الدكتور «هوب فاولر» في مستشفى المرضى من الأطفال في أدنبره. كان تعييني لهذا العمل من دون مرتّب، لكنه كان تعييناً يُحسد صاحبه عليه. في ذلك الوقت كانت مكافأة الأطباء المقيمين نسبية بالنظر إلى القيمة المقررة للتجربة الطبيّة المقدّمة.

كانت الأوامر التي تلقيتها تقضي بأن ألتحق بالعمل في مستشفى فكتوريا الملكي في «نتلي» خلال ثمانٍ وأربعين ساعة. ولذلك كان عليّ أن أتعجلّ الأمر، لأن سفرتي نحو الجنوب تستلزم مني أن أتوقف عند بيت أبويّ في «نورث لندسي» كيما أُعدّ كسوتي العسكرية.

وفي الوقت الذي كنت موجوداً خلاله في «نتلي» لفترة أسابيع قليلة، كانت وظيفتي تتطلب مني - بالإضافة إلى القيام بالواجبات الملقاة على عاتقي - أن أؤدي امتحان الاحتياط تمهيداً للخدمة الفعلية، وتطعيم اللائقين للخدمة ضد الحمّى التيفوئيدية.

كان تعييني الثاني قد جرى في سفينة مستشفى «سانت أندرو» وهي واحدة من ثلاث سفن تم سحبها من خط مسيرتها بين انكلترا وارلندة وحُوّلت لأغراض حربية، وشُرع باستعمالها عبر القنال الإنكليزي غدواً ورواحاً. في الجو الهادىء، وفي الجو المضطرب حين تتطلب الأحوال ذلك حيث تكون أسرتها ملأى وظهرها يغص بالأسباب المتحركة، بالإضافة إلى الاحتمال الدائم في ان يطلق قائد احدى الغواصات الالمانية نيرانه عليها، أو أن يجابهها لغم طاف. ومع ذلك فقد كانت أمثال هذه التوقعات بعيدة عند بداية الحرب.

كان الدور الذي التزمنا به هو أن نهيء العلاج المباشر، والنقل السريع للمرضى وللجرحى الذين يتم نقلهم من فرنسا إلى الموانىء البريطانية، ومن ثم توزيعهم على قطارات إسعاف إلى المستشفيات في مختلف أنحاء البلاد.

ولقد كان هذا العمل مشابهاً كثيراً لعمل الإسعاف الطبي في الميدان. مع وجود فرقين رئيسين، أولهما أننا كنّا نحظى بمساعدة الممرّضات وما أعظمهنّ، والثاني أننا كنّا بعيدين عن مسرح القتال.

بعد أشهر قليلة نُقلت إلى السفينة «كرسبروك كاسلي» التي كانت تعمل تحت إمرة أحد العقداء الذين تختلف مهامهم عن مهام قائد السفينة. ولقد كانت القاعدة التي اتخذناها للسفينة المذكورة هي مدينة «سوثمبتون». وكان من بين الموانىء البحرية التي كنا نتنقل فيما بينها هي كل من: «الهافر»، و «سان نازير»، و «فالتا»، و «مدروس».

كانت المدة التي أمضيْتها في السفينة «كرسبروك كاسلي» قصيرة، إذ لم تزد عن أشهر قلائل، نُقلت بعدها إلى ميناء «دوفر» على السفينة «ستار انتورب»، وهي سفينة بلجيكية حُوّلت حديثاً إلى مستشفى تعويضاً عن سفينة أغرقتها ألغام العدو مؤخراً.

لقد أمضيت على السفينة «ستار انتورب» مدة سنة كاملة، وكانت تجربة مهمة، مليئة بالأحداث، وغير خالية من الإثارة، ففي معظم الأوقات كانت الإصابات في الجبهة الغربية كثيفة جداً، ولذلك فلم يكن من المعتاد أن تتم روحات سفينتنا وغدواتها في يوم واحد.

كان الامتياز الذي حظيت به أنني جلبت أوائل أسرى الحرب البريطانيين إلى إنكلترا، ففي أحد الأيام تسلّمت ببالغ الدهشة أوامر تقضي بأن أتوجه في الحال إلى مدير الخدمة الطبيّة في وزارة الحربية وعندما وصلت إلى الوزارة أخبرني مدير الخدمة الطبية بأنّ جمعية الصليب الأحمر الهولندية قد أعدّت العدّة لتبادل أربعين أسيراً ألمانياً مقابل نفس العدد من الأسرى البريطانيين، وإنني أنا الشخص الذي سيقوم بنقل الأسرى الألمان إلى ميناء «هوك» في هولندا على ظهر السفينة «ستار انتورب» فأُسلّمهم هناك إلى رئيس جمعية الصليب الأحمر الهولندية، وأعود بذات العدد من الأسرى البريطانيين.

كانت السفرة إلى هولندا خالية من الحوادث. كانت إحدى الغوّاصات الألمانية قد شخصت هوية سفينتنا تماماً، لكنها غطست في البحر دون أن

تبدي أي اهتمام آخر. كانت وثيقة تبادل الأسرى تشير إلى أجسام أربعين إلمانياً عاطلين من أسرى الحرب وقد طبق ذات الاجراء على المصابين الذين عدت بهم وذلك اجراء استعملته اتفاقية جنيف وهو يشمل أي أسير حرب قد يموت أثناء السفر. وكان معظم هؤلاء الأسرى من الألمان والإنكليز، قد فقدوا واحداً أو أكثر من أطرافهم، أو شُوِّهت هيئاتهم، بحيث أصبح الجميع عاجزين عن الحركة بطريقة ما أو أخرى. كان رئيس جمعية الصليب الأحمر الهولندية على رصيف الميناء يحيط به موظفوه الذين يرتدون بزاتهم الرسمية من الرجال والنساء عندما وصلنا إلى الميناء.

تم إنزال الأسرى الألمان بسرعة من السفينة، ونُقل إليها الأسرى البريطانيون مكانهم، بحضور رئيس جمعية الصليب الأحمر الهولندية وبقيّة أعضاء الجمعية.

بعد إنجاز هذه المهمة بوقت قصير تم إرسالي إلى «لفربول» لأراقب تجهيز السفينة «ونديلا» التي كان يجري تحويلها إلى سفينة مستشفى، بعد أن عُيِّنت فيها برتبة مُقدّم وقتي في الجيش.

كانت هذه السفينة ملائمة للخدمة بشكل عجيب، وقد أُطلقت يدي حرة في كل ما يخص الأمور الطبيّة فيها. ولقد سكنتُ على ظهر السفينة ذاتها، وأنفقتُ أسابيع الإعداد الخمسة البهيجة هناك، ولقيتُ المعاونة الغيورة من ربانها المختص، ذلك لأننا عزمنا على أن نجعلها نموذجاً لتحويل السفن الأخرى للأغراض الحربية. وليس في مستطاعي أن أقول ما إذا كان هدفنا قد تم انجازه، لكنني أشرت بكل اعتدال إلى أن ذلك ربما كان أكثر سوءاً.

وبعد أن تم إعداد السفينة، أخذنا نمضي معظم أوقاتنا نمخر بها عباب البحر الأبيض المتوسط، لنقل المصابين من المحاربين من اليونان إلى المستشفيات في مصر، ومالطة، بالإضافة إلى سفرات عرضية كنا نقوم بها من هذه المنطقة لنقل المصابين الخطرين جداً، والذين يحتاجون إلى علاجٍ أفضل في بريطانيا.

كانت سفراتنا هذه محفوفة بالمخاطر، حتى قبل أن تصبح سفن

المستشفيات أهدافاً لغوّاصات العدو. ولذلك كنا نسافر في حماية مدمرتين، ولا نكشف عن هوية سفينتنا بعد حلول الظلام.

في صباح أحد الأيام، وإذ كنا في سفرة خارجية، وفي خطٍ يبلغ زهاء مائة ميل غربي البرتغال، استدعاني الربان «سنتر» إلى جسر السفينة. كانت أمامنا مباشرةً باخرة تجارية دانمركية، وإلى جانبها غوّاصة المانية. كان من الحماقة أن نحاول المراوغة، ولذلك واصلنا مسيرتنا إلى أن أشارت إطلاقة وقعت على مقربة من مقدّمة سفينتنا بأن نتوقف.

في ذلك الوقت كان كل فرد على ظهر السفينة قد أعدّ نفسه للتخلّي عن السفينة ذاتها. ذلك لأن السفينة الدانمركية قد تعرّضت للهجوم، وأُنزل ملّاحوها إلى قارب، وشرعوا يجذفون نحونا.

عادت الجماعة التي هاجمت السفينة الدانمركية إلى الغوّاصة، بعد أن تمّ وضع كمية من المتفجرات في السفينة الضحية، حيث انفجرت بعد ربع ساعة من ذلك، وغابت عن الأنظار تحت مياه البحر الهادئة الزرقاء.

أخذت الغوّاصة الالمانية بعد ذلك تسير إلى جانب سفينتنا «ونديلا»، وبعد أن استدارت حولها مرتين بقيت ملاصقة لها مدة عشر دقائق، وكأنها غير واثقة مما إذا كان ينبغي لها أن تعاملنا بنفس ما عاملت به السفينة الدانمركية. لكنها ما لبثت، ومن دون إشارة من أيِ نوعٍ كان، أن تحرّكت تلك الغوّاصة ـ لحسن حظنا ـ واتجهت نحو الشرق.

بقينا خلال عدة دقائق في غمرة المخاوف من أن تصوّب الغوّاصة أحد طوربيداتها إلينا بمثابة هدية ناضجة. غير أن مثل هذا الاحتمال المخيف قد زال، وإذ ذاك أُنزل حبل السُلَّم إلى أسفل، وصعد البحارة مجدداً إلى ظهر السفينة، وكان الربان الملتحي يهتف، وهو مبهور الأنفاس: «تباً لكم أيها القرصان الأذلاء!».

كان علينا أن نمخر كل قناة تقريباً في أرخبيل اليونان، وكانت جزيرتا «سكلاديس» و«سورراديس» تؤلفان قمة الجبال البركانية الأصل، والتي كانت في وقتٍ من الأوقات تربط شبه جزيرة البلقان بآسيا الصغرى.

أما الآن فقد غدت غارقةً بصفة جزئية تحت مياه البحر الإيجي الزرقاء، والتي يبلغ عمقها في تلك المواقع أقلّ من عشرة آلاف قدم.

قمنا بسفرة إلى «مدروس» على الساحل الجنوبي من جزيرة «لامنوس» وأفرغنا آخر حمولة من المرضى هناك. ولقد لعبت «مدروس» دوراً فعّالاً أثناء معركة «غاليبولي» حيث دفن «روبرت بروك» هناك، لكنها ما لبثت أن استعادت سباتها الذي ألفته قبل الحرب. لقد كانت الضفادع اللذيذة الخضراء متوافرة في أسواقها، لكن طعمها لا يُلتذّ به إلّا خلال رحلة تجري في السواحل.

ويبدو أنّ الممرضات قد استبشرن بالأسطورة القديمة القائلة بأنّ نساء جزيرة «لمنوس» اللواتي هجرهنّ أزواجهنّ، استطعن أن يقتلن كل الرجال الموجودين في الجزيرة، وصرن يحكمنها من دون أدنى تحد إلى أن وصل «الأرناؤوط»(٤) إليها، ومن ثم أخذن يعشن معهم بسعادة فيما بعد.

خلال إحدى المرات التي توقفنا فيها عند «سلانيك» وبفضل الربان «بويل»، الذي وصل فيما بعد إلى رتبة أميرال، توافرت لدي فرصة قصيرة في أن أطوف بغواصته، وهي السفينة التي كان يديرها في أوائل الحرب بمهارة فائقة ضد الأسطول التركي في بحر «مرمرة»، مما هيّأ له الظفر بمكافأة سامية.

لم يكن «بويل» يرغب في أن يتحدث عن مغامراته الجريئة، لكنه قصّ عليّ حكايات كثيرة عن الزوار الذين كانوا يقبلون على غوّاصته في الموانىء الإنكليزية. كان من بين أولئك الزوّار سيدة كبيرة السن راحت تلقي المزيد من الأسئلة أثناء مرافقته إياها. وبعد أن أتمت جولتها، وراحت تشكره على توضيحاته، أنهت ذلك بقولها: «هنالك شيء واحد ليس إلّا لم أفهمه جيداً، وهو كيف أنكم تتنفسون عن طريق المنظار؟».

---

(٤) الأرناؤوط: هم سكان ألبانيا الحالية، وقد دخلوا في الإسلام بعد أن افتتح العثمانيون بلادهم عقب الاستيلاء على القسطنطينية عاصمة البيزنطيين. وقد خرجت ألبانيا بعد الحرب العالمية الثانية دولة شيوعية مثل بقية دول شرقي أوروبا، لكنها ما لبثت أن قطعت علاقاتها مع الاتحاد السوفياتي أولاً ومع الصين ثانياً، وشرعت تعود إلى الصفة القومية في الحكم.

كنا في كلِّ مرة نُستدعى فيها بصفة دائمة إلى جزيرة «مالطة» لمعالجة المصابين هناك، نجد حاكم الجزيرة الفريق اللورد «مثوين» وهو شخص وقور ومهيب، يقف على رصيف الساحل بكامل بدلته ينتظر وصولنا. لقد كان يحسّ بكلٍ وضوح أنّ من واجبه أن يزور كل ردهة، وأن يتبادل بضع كلمات مع كلِّ مريض. وكانت تلك مهمة ثانية لفيلد مارشال نابه. كان نفسه من الذين أُصيبوا في حرب «البوير». وكانت زياراته هذه تطيل مكوث السفينة بشكلٍ ملموس جداً، وتضايق ضبّاطها وملاّحيها الذين يتشوّقون إلى مغادرة الشاطىء في وقتٍ أقصر.

في إحدى المناسبات اتصل الضابط الرئيس لسفينتنا بمساعد اللورد «مثوين» وبعد أن أوضح له التعب الذي تسبّبه جولة الحاكم المعتادة في السفينة، سأله قائلاً: «ألا تستطيع أن تقنع هذا الشيخ بأن يتفقد المصابين من المرضى والجرحى بعد أن يتم نقلهم إلى المستشفى بدلاً من يوم وصولهم إلى هنا؟» وقد ردّ المساعد على ذلك برقّة يقول: «أخشى أن لا يكون ذلك أمراً هيّناً لأنّ اللورد أصبح بمثابة أبي!».

كان اللورد شديد العطف عليّ جداً. فقد اعتاد عندما تغادر السفينة مالطة أن يختم زيارته لها بالدعوة إلى تناول الطعام معه في اليوم التالي. وكانت مثل هذه المناسبات الممتعة من الأشياء التي لم أمتنع عن تقبّلها. كانت زوجته ذات مرح مستحب. وكان هو نفسه مضيفاً شديد المجاملة. وكنت أنا ضيفاً محبوباً.

عند عودتنا إلى مدينة «سوثمبتون» في أواخر ربيع سنة ١٩١٧، بلّغني الجنرال الجرّاح «دونوفان» بقرار وزارة الحربية القاضي بنقل كل الضباط الأطباء الذين تقلّ أعمارهم عن أربعين سنة، إلى مناصب أكثر فعالية. لم أكن في ذلك الوقت قد أكملت السنة السادسة والعشرين من عمري. وكان ذلك الجنرال الأريب لطيفاً بشكلٍ وافٍ، إذ دعاني لتناول العشاء معه في تلك الليلة ذاتها بمثابة حفلة وداع رسمية ولقد راح يحاول أثناء ذلك أن يقنعني بأن أقدّم طلباً للالتحاق بالخدمة العسكرية الاعتيادية، ووعدني بأن يساعدني في ذلك، وأكد لي بأنّ طلبي سوف يُلبّى. وقد أضاف إلى ذلك قوله: «إنّ سني

خدمتك في الجيش سيتم احتسابها لأغراض الترفيع». وقد شكرته على لُطْفِ اهتمامه بي، لكنني أوضحت له بأنني كنت قد وطّنت نفسي منذ البداية على أن أكون طبيباً مدنياً، وأن نشوب الحرب هو الأمر الوحيد الذي حال دون تنفيذ خططي وأنني أعتقد بأنّ مطامحي قد تركزّت في أن أصبح طبيباً مدنياً بدلاً من أن أكون طبيباً عسكرياً.

غير أنّ الجنرال «دونوفان» لم يقتنع بما أبديته، ومع ذلك فقد ودّعني بهاتين الكلمتين: «لتعش ووداعاً»، تلكما الكلمتان اللتان بقيَ صداهما في أذنَيّ وأنا أسير ببطء عائداً إلى السفينة.

كنت في ذلك الوقت قد تلقيت الأوامر بأن أتوجّه إلى معسكر بالقرب من مدينة «بلاك بول»، وأن أنتظر هناك تلقّي تعليمات أخرى. ولقد وصلتني تلك التعليمات بعد أسبوعين أو ثلاثة أسابيع، فأعفتني من الأمرية كيما يتم استخدامي بصفة أوسع نشاطاً، حيث عُيّنتُ للعمل في مستشفى القاعدة العسكرية في مدينة «سلانيك» باليونان.

الفصل الثاني

بلاد الرافدين تلك الكلمة المباركة

کے

استُخلص عنوان هذا الفصل من عبارة تُعزى إلى «جورج وايتفيلد» مؤسّس طائفة الميثوديست الكلفنيين، والذي قيل عنه، بأنه كان يخاطب جلساءه بالعبارة التالية:
«تلك الكلمة المباركة بلاد الرافدين».

كانت بلاد الرافدين أرضاً مجهولةً لكلٍّ من كان على ظهر السفينة «منتونكا». وكانت معلوماتنا المختزنة عن جغرافيتها وشعوبها وديانتها ضعيفة. ولم يستطع مقرّ الجيش الإنكليزي في اليونان أن يضيف إلى ذلك الشيء الكثير.

ولم تكن مثل هذه المعلومات المتوافرة محدودة جداً فحسب، بل إنّ الكلمة الترحيبية «مسبوت» قد أصابت شهرة سيئة، بعد أن خبر القوم النوبات القلبية والدزنتري، ودمامل بغداد[1] والبلهارزيا وغيرها، بالإضافة إلى انتشار أمراض أُخرى شائعة الانتشار في الأجواء الاستوائية، فضلاً عن الحجر الصحي الذي فُرض على رؤساء الجيش في الهند في السنة السابقة.

---

(١) يقصد بها الدمامل التي كانت تصيب وجوه الأطفال، ولاسيما سكان البساتين، والتي كانت تعرف باسم «حبة بغداد» أو «أخت بغداد» وكانت تنتشر بصفة خاصة في منطقة الأعظمية

ينبغي عليّ الاعتراف بأنّ معلوماتي عن تاريخ بلاد الرافدين كانت محدودة جداً وبشكلٍ مخجل، ولو أنها لم تكن بذلك لتقلّ عن معلومات بقيّة أفراد الشلّة.

فلقد كنا جميعاً نعرف أنّ بلاد الرافدين كانت في التوراة تُعرف بأنها تضم تاريخ أثور وبابل، وأنّ فيها يقع المكان التقليدي لجنّات عدن، وأنها كانت مسرح مغامرات كلٍ من النبي يونس والنبي نوح، وأنّ مدينة «أور» التي تقع على نهر الفرات هي المكان الذي وُلد فيه «إبراهيم»، وأنّ «الجنائن المعلّقة» التي أنشأها «نبوخذ نصّر» في بابل كانت إحدى عجائب الدنيا.

وكذلك كنا نعرف بأنّ الإسكندر الكبير قد توفي هناك، وأنّ «بغداد» هي عاصمة البلاد قبل أكثر من ألفِ سنةٍ خلت، وهي موطن الخليفة العباسي «هارون الرشيد» الذي أبرزت شهرته قصص «ألف ليلة وليلة». أما فيما عدا هذه الحقائق الضئيلة المعروفة لكلّ طالب مدرسة، فإننا لا نعرف شيئاً آخر مع الأسف.

توقّفت سفينتنا «منتونكا» مرة واحدة، وهي في طريقها إلى العراق، ولم يكن هذا التوقف محدداً مُسبقاً ـ بين «سلانيك» وجرف «الفاو» في الخليج العربي[٢]، وكان ذلك التوقّف قد حصل في مدينة «كانيا» على الساحل الشمالي لجزيرة «كريت»، وهي أكبر ميناء في تلك الجزيرة، ويبدو أنّ شهرة «كانيا» الوحيدة تكمن في حقيقة أن هذا الميناء كان قد أُقيم في موقع مدينة «سيدونيا» القديمة.

عند وصولنا إلى الجرف الذي يربط بين الخليج العربي وشط العرب؛ الذي تألّف من اختلاط نهر دجلة بنهر الفرات، ألقت السفينة بمراسيها، انتظاراً لوصول سفينتين صغيرتين من سفن شركة الملاحة

---

(٢) على عادة غلاة المستعمرين، وبعض الكتاب السوفييت حتى الوقت الحاضر، أشار سندرسن إلى الخليج العربي باسم «الخليج الفارسي».

الإنكليزية الهندية، واللتين تقرّر أن نكمل بهما سفرتنا إلى «ماركيل»[٣] والتي هي على أكثر احتمال «المعقل» في ميناء البصرة. ولقد كان الانتقال من سفينتنا ضرورياً. ذلك لأن احتمال حجم «منتونكا» يحول دون مرورها فيما وراء جرف أو سدّ الفاو.

كان المستشفى الخامس والستون الذي أنشىء من خيام أُقيمت في مالطة في أوائل الحرب، فريداً في نوعه، وذلك لاحتوائه على ضابط اعتيادي أشرف على إنشائه. أما الضابط الآمر فيه فهو العقيد «سْكنِر» ذو الخبرة الطبيّة الواسعة أيام السلم. وكان هناك ضابط اعتيادي آخر برتبة مُقدّم يشرف على موظفي المستشفى في «سلانيك»، لكنه نُقل إلى مكان آخر، بعد وصولي إلى هناك مباشرة، ونظراً للحاجة إلى طبيب مطلع ممن عرف بذي الشريط الأحمر، فقد طُلب إليّ بأن أترسّم خطوات ذلك المُقدّم فأقدم المشورة عندما تُثار بعض المسائل ذات الصبغة العسكرية.

لم تكن الإصابات الجراحية كثيفة، غير أن وسائل الإسعاف في القسم الطبي كانت قد توسعّت توسّعاً خطيراً أثناء الصيف والخريف، عندما انتشرت أمراض الملاريا، والدزنتري، والزّحار الأميبي والباسيلي، والتي تقع الإصابة بها عند اقتراب فصل الشتاء.

أصبحت الحياة تحت الخيام في جنوبي اليونان، عندما اشتد البرد، أمراً غير مرغوب فيه. ونظراً لسقوط الصقيع والجليد، فقد أصبح المستشفى معزولاً، وغدا استقبال المرضى أمراً مستحيلاً، وسرعان ما أصبحت الأحوال الجوية شديدة إلى درجة أن الممرضات والمشرفات قد تم نقلهن إلى العمل في مستشفيات أخرى، ولذلك أصبح إخلاء الموضع امراً مؤكداً، وهكذا تقرر أن يكون حل المشكلة عن طريق إرسال وجبات المصابين إلى العراق حالما يصبح ذلك ممكناً.

---

(٣) ماركيل: بالكاف المعجمة، وهو تحريف لاسم «المعقل» المنطقة التي يمر فيها نهر المعقل شمالي البصرة، والتي تقع فيها منشآت الموانىء في الوقت الحاضر. وكان بعض العوام يسميها «ماركين» أيضاً.

تمّ، في أثناء السفر، نقل العقيد «سْكِنر» وكل ضبّاطه الأطباء ما عدا ثلاثة منهم، إلى مستشفى عام آخر. أما الضباط الثلاثة الذين تخلّفوا، وكنت أنا واحداً منهم، فقد عُهد إليهم بأعمال رزم مواد المخازن والتجهيزات، وهكذا تمّت العملية بسلام، وبمساعدة قيِّمة من آمر المقرّ.

في الوقت الذي أُعدّت فيه المواد للنقل، كانت السفينة «منتونكا» في الميناء متهيئة للإبحار. ولم يمض سوى وقت قصير حتى بدأت الرحلة إلى النصف الآخر من العالَم، ولم يكن يخالجني سوى تفكير ضئيل في أنّ تلك الرحلة ستكون مقدّمة لخدمة استمرت ثماني وعشرين سنة في ذلك القطر الذي توجهنا نحوه الآن.

لا يمكن تصنيف رحلة تمتد زهاء خمسة آلاف ميل في سفينة تقلُّ الجُند أثناء الحرب، بأنها رحلة سارّة. لكننا مع ذلك كنا جميعاً على استعداد لأن تعدّد تبريكاتنا. ذلك أنّ الخوف الوحيد الذي كان يراودنا هو أن تهاجمنا إحدى الغوّاصات الألمانية.

كان الذين يستحقون العطف من بيننا هم نوّاب الضباط وبقية الرجال الذين كانوا يحتشدون سوية في خلوة أشبه بخلوة الرهبان، لمدة ثلاثة أسابيع. ومع ذلك فلم تبرز صعوبة حقيقية لأنهم كانوا يعيشون في انتظام، ويدركون إدراكاً جيداً الوباء الذي كان يعيش فيه رفاقهم في الخنادق.

ألقينا مراسينا خارج «الفاو» لمدة ساعتين، ومن ثم أبحرت الباخرتان الصغيرتان اللتان نُقلنا إليهما في نهر شط العرب الذي صبغه الطين، لكنه كان مع ذلك هادئاً أشبه ببركة الطاحونة.

كانت الفترة التي أعقبت الظهر ساخنةً بشكلٍ بهيج، وقد أشرقت الشمس في سماءٍ لا سُحب فيها، في الوقت الذي كانت فيه ضفاف النهر المنبسطة التي لا تبعد عنا أكثر من ألف متر، قد ظهرت للعيان تتوّجها خضرة بساتين النخيل.

كان كلُّ من في السفينة يحدّق بدقّة في الأفق. وكان انتباه الجميع يتركز بين الفينة والفينة، في منظر «المهيلات» الجميل، وهي موسقة

بالحمولة إلى المرافىء، أو منها على امتداد ساحل المحيط الهندي.

وفي الظلال، وعلى مقربة من الضفاف، وفي الماء، كنا نشاهد مصادفةً «البلام» وهي الزوارق الضيقة التي تشبه «الجندول»، والتي تُعَدّ من المظاهر البارزة في أنهار البصرة والمناطق المحيطة بها.

عند وصولنا إلى البصرة أُنبئنا بأننا سوف نُنقل إلى مستشفى أُنشىء حديثاً، ويقع على ضفاف نهر دجلة، وعلى بُعد بضعة أميال جنوبي بغداد[٤] وأننا سوف نتوجّه إلى هناك حالما يتمّ توفير واسطة النقل النهري إلى ذلك المكان. ولقد تمّ إسكان الممرضات والمساعدات وغيرهنّ في مستشفى القاعدة، أما نحن البقية فقد نُقلنا إلى معسكرٍ متنقّل واسع.

كان السر «برسي كوكس» قد عُيّن مندوباً سامياً على العراق كلّه، لكنه مع ذلك كان ما يزال يقيم في البصرة. ولقد كان هو وزوجته من الأصدقاء الحميمين لأبَوَيْ «إلزي» زوجتي المقبلة. ولذلك تم الترحيب بإلزي وشقيقتها ترحيباً حاراً، وعوملتا مثل بقية أفراد الأسرة طوال مكوثهما في الميناء.

أصبح العراق الآن يخضع للاحتلال البريطاني، وذلك أمرٌ تم تثبيته حتى في طوابع البريد الهندية التي كانت تُستعمل في تلك الأيام. وكانت الحياة الاجتماعية في البصرة تحوم حول دار المقيميّة البريطانية فيها. وكانت هذه الحلقة طبعاً تتألف من الذكور، ومن رجال الجيش. ولذلك كان وصول رهط من الجنس اللطيف حدثاً ذا أهمية كبيرة داخل حدود ذلك المجتمع الضيّق.

إنهالت علينا الدعوات، واستمرّ الوافدون الجُدد يتبارون في

---

(٤) أقيم هذا المستشفى في بستان الحاج ناجي في الكرادة الشرقية على الضفة اليسرى من نهر دجلة. وإلى هذا المستشفى بالذات انتقلت الكلية العسكرية العراقية من مكانها القديم في «الكرنتينة» (مديرية التجنيد العامة في الوقت الحاضر) وذلك بعد أن تم تشييد مستشفى الهنيدي التابع لمعسكر الهنيدي، أي مستشفى الرشيد العسكري الحالي في معسكر الرشيد.

الاستمتاع إلى أن وضعت مأساة، وقعت مفاجأة، حدّاً لتلك النزهات والدعوات.

كانت رئيسة الممرّضات قد دُعيت هي وخمس عشرة ممرضة ومساعدة معها إلى حفلة شاي في معسكر للنّاقهين. وكان من بين منهاج الحفل، القيام بنزهة نهرية. وعند العودة اصطدم الزورق الذي يقلّ بعض المدعوين بقارب أكبر فغرق ثلاثة منهم.

كانت إلزي وأختها من المدعوين إلى تلك الحفلة. ولكن كان من حسن حظّيهما وحظّي أنا، أن تخلّفتا عنها، لأنهما كانتا مدعوتين إلى حضور حفلة استقبال في دار المقيمية.

برهنت الأسابيع الثلاثة التي أمضاها رجال المستشفى في المعسكر المتنقل، على أنها كانت متعبة جداً. ولذلك ما إن وصلت الأنباء عن تحرّكنا إلى بغداد، حتى استُقبلت بالهتاف والتهليل.

تحرّكنا نحن بالسفر مُسبقاً، وكانت رحلة شيّقة وبهيجة حقاً. ذلك أننا سافرنا في سفينةٍ ذات رفاس كنا ننام على ظهرها، وقد توافرت لدينا فرص استثنائية لكي نعرف بعض الشيء عن طبوغرافية القطر، وعن الحياة البدائية التي كان يحياها الفلاّحون فيه، وهم الذين يؤلّفون النسبة الغالبة بين سكانه، ويعيشون في أكواخٍ من الطين لمن يشتغلون بالزراعة، وبيوتٍ من الشعر الأسوَد للرحالين، والجميع حفاة يتلفّعون بخرق بالية.

كتب «ج. جسترتون» يقول: «إنه طبعاً أشبه شيء بالأوزة المحتقرة خالصة البياض، أو السماء الإيطالية الزرقاء». ذلك لأنه لم يكن في المنظر سوى تصوير طفيف. وقد تحقق لدي بأنني لم أكن مذنباً في استعمال العبارة القصيرة التي لا تغتفر، عندما استعملت كلمة «منبسط تماماً» لكي أصف بها تلك الصورة.

ولقد علق أحد نواب الضباط من الذين لا يكترثون بوضع الأفق والأرض القفراء، فوصف المنظر بقوله: «ميل بعد ميل من الأشياء المقيتة التي يجري في وسطها نهر موحل!».

كان التقاء النهرين العظيمين، وهو مصدر نهر شط العرب، يؤلف أول ظاهرة طبيعية جديرة بالاهتمام. وكان موقع التقاء النهرين على مسافة غير بعيدة من «القرنة»، حيث ما تزال شجرة المعرفة في «عدن»(*) مزدهرة هناك وتحظى باهتمام السيّاح.

كان في أسفل مدينة العمارة خليجٌ واسعٌ يمتد إلى مملكة الأهوار أو المستنقعات التي يسكنها عرب الأهوار المتوحشون. وقد تناثرت في هذا الخليج «المشاحيف». توقفنا لفترة قصيرة في العمارة كانت كافية لرحلة نحو الشاطىء، ولشراء مصوغات من حانوت صائغ صابئي شهير اسمه «زهرون»، كانت نقوشه المحفورة، وتطعيماته بالمينا، تكشف عن صناعة شهيرة.

إنّ كلمة «صابئة» هي الكلمة العربية التي تُطلق على خَلف طائفة قديمةْ ذات ديانة غريبة. ذلك أنّ معتقدات الصابئة هي خليط من اليهودية والمسيحية والإسلامية، والوثنية البابلية، وأنّ الصابئة قد وُجدوا على شكلِ جماعاتٍ صغيرةٍ في المدن التي تقع بجوار الأنهار في القسم الجنوبي من العراق.

ويعمل معظم رجال هذه الطائفة الملتحين إما بصفة صاغة أو نجارين. وكانت الأصداف البحرية التي يستعملها عرب الأهوار من صنُع الصابئة أنفسهم. والثابت أنهم يتّبعون تعاليم «يوحنّا المعمدان»(٦)، لكنهم ليسوا من

(*) تقع هذه الشجرة حتى الآن على الشاطىء الأيمن من الفرات في «القرنة»، وقد وصلت إليها المباني وتجاوزتها. والأسطورة الشائعة أن هذه الشجرة هي التي استظل بها آدم وحواءعندما أغواهما إبليس وطردهما الله من الجنة، وقد حفرت عليها تواقيع وتواريخ تعود إلى سنين عديدة. وكانت التوراة قد أطلقت اسم «جنات عدن» على الجزء الجنوبي من العراق. ويرى علماء الآثار أن كلمة «عدن» مأخوذة من الكلمة الأشورية «إدينو Edinu» وهي تعني «السهل».

(٦) يوحنا المعمدان: «John Pabtist» بن زكريا وأمه «أليصابت» **خالة السيد** المسيح، عاش متقشفاً في الضفة الغربية للأردن (اليهودية) وقد ظهر في الثلاثين من عمره على نهر الأردن يتعمد به للتوبة والرجوع عن الخطيئة. وكان يوحنا ممن بشر بظهور السيد المسيح، ولذلك سمي بالسابق، ولهذا اعتقله هيرود ملك اليهودية وحاكمه ثم قطع رأسه.

أتباع المسيح. وكان وصفهم بأنهم «مسيحيّو يوحنّا» وصفاً مغلوطاً. أما تأكيدهم بأنهم من تلامذة يوحنّا المعمدان، وليس تلامذة «يوحنّا» آخر غيره، فإنه مدعاة للشك، لكنهم يطبّقون المعمدانية عملياً، إلاّ أنهم لا يتجمعون إلاّ في جوار الماء الجاري، وهذا ما يجعل تعميدهم أمراً ممكناً.

والغالب أنّ هؤلاء هم الصابئة الذين ورد ذكرهم في كتاب النبيّ «أيوب»، وأنّ كلمة «مندائي» في لغتهم الخاصة يُقصد بها «التابع» أو «الحواري». وهناك المزيد من الغموض حولهم، لكنهم بالنسبة إلى المسلمين هم الصابئة الذين ورد ذكرهم في القرآن. الذين وصفوا بالصبر، ربما لأنهم ينتسبون إلى المندائيين الذين تتألف ديانتهم من الغنوصية.

كان كلُّ من على السفينة، قد خرج على ظهرها عندما تحرّكنا باتجاه الكوت «كوت الإمارة»، مسرح المقاومة البطولية التي أبداها الجنرال «تاونسند» ضد انحصار في أوائل الحرب.

يُعتقد بوجود عدد من حاخامي اليهود مدفونين في العراق، ولذلك فلم يُثر ظهور قبر «عيزرا» أية دهشة[٧]. ومع ذلك فقد تضاعف الاهتمام عندما مررنا على مسافة خمسة وعشرين ميلاً جنوبي بغداد بقرية «طيسفون» التي كانت تقع على الجهة اليسرى من نهر دجلة، ومن ورائها الأطلال الهائلة، ومن بينها الإيوان العظيم لقصر كان يُعرف باسم «تختي خسرو» الذي أقامه «كسرى الأول» سنة ٥٥٠ للميلاد.

كانت الأنقاض وهي من الآجُرّ - نتيجة انعدام وجود الحجر في هذه المنطقة السهلية - أجمل مثال على فنّ العمارة الساساني الذي ما يزال شاخصاً حتى اليوم، أما مدينة طيسفون ذاتها فإنّ تاريخ تشييدها يعود القهقرى إلى سنة ١٢٩ قبل الميلاد، في عهد السلالة «الفرتية»، وعندما أصبحت المنتجع الشتوي للأرشاقيين[٨].

---

(٧) المقصود به قبر «عزيز» وهو الآن ناحية على الطريق بين القرنة وقلعة صالح.

(٨) الأرشاقيون: هم السلالة الفرتية التي حكمت بلاد فارس والعراق في الفترة ما بين سنة ٢٥٠ ق. م. وسنة ٢٢٦ ميلادية. وكان مؤسس هذه السلالة هو «أرشاق» فسميت بالأرشاقيين.

ولقد شُيّدت مبانٍ فخمة كثيرة، لكن مدينة طيسفون، ومدينة «سلوقية»[٩] التي تقابلها على الضفة الأخرى من النهر، كانتا طوال قرون عديدة من ضحايا الحرب والنهب. أما الآن؛ فإنّ ذكرى طيسفون لم تخلّدها سوى أطلالها القائمة.

امتدّت الرحلة من البصرة إلى بغداد ثلاثة أيام. ولقد غادرنا السفينة في «الكرادة» القريبة من المستشفى الجديد، وهو عبارة عن بناية ثابتة تقع على بُعدِ ثلاثةِ أميالٍ أو نحوها جنوبي العاصمة. لم يكن عدد موظفي المستشفى قد كمل بعد، وانتظاراً لوصولهم، فقد نُصبت الخيام مُسبقاً لإقامتنا في بستانٍ بهيجٍ داخل حدود المستشفى. ولقد كانت كل واحدة من تلك الخيام تكفي لسكنى ضابطين بمنتهى الراحة. وبعد أسبوع واحد أُصيب زميلي في الخيمة بالحمّى، ولذلك نُقل إلى مستشفى الضباط في بغداد[١٠].

كان المعسكر مصاقباً لأحد الطرق. وكان يحرسه على الدوام نواب ضبّاط ورجال ينتمون إلى المستشفى الخامس والستين. ولما لم يكن هؤلاء من المحاربين، فقد كانوا يمارسون وظيفتهم المتعبة هذه، وهم مجرّدين من السلاح.

بعد يومين أو ثلاثة أيقظني حارسي، وهو يفضي إليّ بأنباء لا يمكن تصديقها، مؤداها أن جميع حاجياتي ـ بما فيها الصندوق المغلّق الذي يضم بزّتي العسكرية، والذي أخفيته تحت السرير الواطىء الذي كنت أنام عليه ـ كانت قد اختفت. لقد جُرِّدتُ من كلِّ شيءٍ ما خلا «البيجاما» التي كنت أرتديها.

---

(٩) سلوقية: نسبة إلى سلوقس الأول أحد قواد الاسكندر الكبير الذي تولى الحكم، بعد وفاة الإسكندر في بابل، في العراق وسوريا وجزء من بلاد فارس. وقد أقام هذه المدينة على الضفة اليمنى من نهر دجلة جنوبي منطقة الدورة الآن في محل يدعى «تل عمر» وذلك في الفترة ٣١٢ ـ ٢٨١ ق . م .

(١٠) مستشفى الضباط: يقصد به المستشفى الجمهوري الحالي والذي كان يدعى باسم «المجيدية» نسبة إلى السلطان العثماني عبد المجيد خان، وبقيت هذه التسمية شائعة لدى أهالي بغداد حتى بعد تشكيل الحكم الملكي وتسميته بالمستشفى الملكي بسنوات عديدة.

أنبئت الشرطة العسكرية بالأمر. وطبقاً لما قالوه فإنني كنت محظوظاً حينما بقيتُ على قيد الحياة، لأنني كنت غارقاً في النوم. وأخيراً عُثر على صندوقي في صباح ذلك اليوم، وقد حُطّم وأُخذت محتوياته، باستثناء بعض الأشرطة التصويرية التي فُتحت نتيجة الجهل بطبيعتها.

أعقب سرقة أمتعتي تعيين عدد من الحراس الهنود للقيام بواجب الحراسة. فعندما كان أحد ما يقترب من المعسكر ليلاً يُفاجأ بصوت يقول له: «قف! من الذي يمشي هناك؟» حتى إذا ما تأكد الحرس منه قيل له: «أدخل أنت صديق حسناً»، دون أدنى توقف يمكن أن يردّ فيه على السؤال.

بعد أسبوعين انتهى مكوثنا في الخيام، فنُقلنا إلى أكواخ مريحة حسنة البناء في تشكيلةٍ أشبه بالشريط. وفي الوقت ذاته وصلت هيئة الممرضات والمساعدين، وبذلك تم افتتاح المستشفى رسمياً، وعُيّنت أنا بوظيفة مسجّل، لكنني بقيت أمارس عملي في القسم الطبي أيضاً.

كان أول الزائرين للمستشفى هو صاحب الموقع. كان المكان قد أخذ منه، وقد جاء لأداء زيارة مجاملة. كان هذا الرجل من الأفراد المحليّين المعروفين، وذا مظهر متميّز، ومن أصحاب الأملاك في المنطقة، ويُدعى «الحاج ناجي»[11]، وسرعان ما أطلق قومنا على أراضيه الخصبة الخضراء اسم «ديفون شاير»[12]. وقد بقيت هذه الأراضي طوال أيام خدمتي في العراق من أشهر الأماكن التي يقصدها المقيمون البريطانيون للنزهة فيها. كان لقب «الحاج» اشارة إلى انه قد أدى فريضة «الحج» إلى مكة، وهو مطمح كل مسلم متدين.

كان الحاج ناجي أثناء مجيئه إلى المستشفى يصحبه مترجم وخادم.

---

(١١) الحاج ناجي: من أصحاب الأراضي في منطقة «الكرادة الشرقية» ببغداد، وكان الحاج ناجي هذا من أصدقاء «المس بل» وأسكنها في داره الواقعة في بستانه ذاك.

(١٢) ديفون شاير: مقاطعة بحرية في جنوب غرب انكلترا. تقع بين القناة البريطانية وقناة بريستول، وهي ثاني مقاطعات انكلترا من حيث المساحة (٢٦١٢ ميل مربع) أراضيها عامرة بالمراعي والوديان والغابات الخضراء.

وقد طاف به العقيد «سِكْنر» في أرجاء المستشفى قبل أن يأخذه إلى الحانوت ويقدّم له هدية من السجائر والحلويات.

ولقد صادف أن كانت رئيسة الممرضات، وبعض أفراد طاقمها موجودات في الحانوت، ولذلك سأل الحاج ناجي العقيد «سِكْنر» بكل أدب عما إذا كانت هؤلاء النسوة هنّ زوجاته. ويبدو بأنه لم يقتنع عندما أنكر العقيد «سِكْنر» ذلك، وشرح له العمل الذي تنهض به هؤلاء النسوة.

أُصبتُ خلال فترة التأقلم بالحمّى الوريدية، فنقلتُ إلى مستشفى الضباط، الذي أُقيمت فيه الكليّة الطبيّة العراقية فيما بعد. وكان هذا المستشفى يمثل الأبنية التي ابتلعتها المستشفى التعليمي الكبير والذي أصبح قسماً من كلية الطب العراقية الملكية. والحمى الوريدية تكون حادة وقصيرة العمر لكنها تكون مضعفة للجسم مثل الأنفلونزا. وجرثومة هذه الحمى (ذبابة الرمل) صغيرة جداً، لكنها حشرة صغيرة شرهة متهيئة للدغ القادمين الجدد. كان معظم المقبولين في المستشفى الخامس والستين من المرضى العاملين في ميدان الصحة، وقد أصابت معظمهم الحمى، وضربة الشمس والدزنتري وكان القسم الطبي يمتد إلى مسافة بعيدة. زوّد المستشفى الخامس والستون بواسطة للنقل. وكانت فرصتي الأولى أن القي أكثر من نظرة خاطفة على بغداد، من سيارة الاسعاف التي أقلتني إلى المستشفى، والتى اشتملت مسيرة على الأقدام. لقد سقطت في اليوم السابق امطار استوائية. ولكن لم يكن لدي سوى تفكير ضئيل عن طول المسيرة وكثافتها، عندما كنت اتطلع إلى أحد الرفاق. لقد حبيت ببصيرة أبهى إلى درجة أن أحداً من أفراد النادي لم يقتنع باصطحابي. وإذ انتعلت حذائي المصنوع من مادة صمغية، انطلقت بكل عناد أخوض في أوحال سحيقة، في طريق غير معبد، لا يمكن للسيارات أن تمر فيه من دون سلاسل.

إن أوحال العراق لا يمكن أن تبارى! فهي مصيدة لمن لا يدرك ذلك. كان انطباعي الأول عن «مدينة السلام» التاريخية المأهولة بالسكان، يمثل خيبة أمل شديدة. فلقد رحت أصور «مدينة الخلفاء» بأنها في الواقع مدينة

البهجة الكلية التي تستنير بضوء القمر. لقد أصبت بخيبة أمل قاسية وماحقة، للأوهام بشكل مؤلم.

فلم تكن هنالك من دلائل على العظمة أو النفوذ. بل هناك أبنية واهنة وكلوحة كانت تواجهني. وكانت النساء اللواتي مررن بي، شخوصا ملفعة بالسواد الذي يخفيهن، ولا يفعلن أي شيء من شأنه أن ينير المشهد. وهكذا انطلقت وعدت أدراجي بذات الطريق إلى «الكرادة» تائهاً في لجة الوهم. ترى أية أشياء عجيبة سوف أشهدها خلال ربع القرن القادم!.

العراق مدين ـ كما قلت قبلاً ـ إلى تأثير التعقيم الذي تحدثه الشمس أيام الصيف. ذلك لأن أشعّة الشمس لا تتلف بويضات الميكروبات فحسب، بل إنها أيضاً تجفف الكثير من المواطن التي تفرّخ الحشرات المجنّحة فيها. وحين أخذت فعاليات المستشفى تتناقص أخذت أتبرّم مما أُلقيَ عليَّ من مهام.

راجت إشاعات مفادها أنّ أحد الأرتال، وهو رتل «دنستر» قد تم إرساله لمساعدة الروس البيض[١٣]. لقد أصبحت نهاية الحرب وشيكة، وتوِّجتٍ فرص مسلكي العسكري بالمشاركة في مثل هذا العمل الذي يقودني إلى التطوّع. وبعد إقناع ملحوظ وافق العقيد «سِكْنر» على أن يُقدّم إسمي إلى قيادة المنطقة. وقد فعل ذلك في الوقت الذي تم فيه إرسالي لسمّاع الإشاعات ومع ذلك فقد أظهرتُ عدم موافقتي على الاشتراك في خدمةٍ غير فعّالة قد تقرّر بالمصادفة مستقبلي.

عُيّن العقيد «بتي» آمراً مدنياً، كانت وظيفته هي أن يُنسّق كل المؤسسات الطبيّة القائمة، وما أقلّها في ذلك الوقت، وأن يُنشيء مصلحة طبيّة وطنية حديثة. ومهما يكن الأمر فقد وجد نفسه، بعد فترة قصيرة، أنه في حاجة إلى مساعد. وحدث ذات مرة أن تناول العشاء بدعوة من العقيد

---

(١٣) الروس البيض: هم الذين قاوموا الثورة البلشفية التي قامت في روسيا في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٧، وقد جندهم الإنكليز والفرنسيون والأمريكان وأمدوهم بالسلاح للقضاء على الحكم الذي أقامه الثوار.

«سِكْنر» في نادينا، فتم تقديمي إليه. وهكذ انتُدبتُ للعمل معه وبقيت أعمل في دائرته.

مكثتُ فترة قليلة في المستشفى الخامس والستين، وكنت أقضي النهار في بغداد. وإذا ذاك دُعيت للانضمام إلى زمرة الحاكم المدني. وعلى أثر ذلك تم تزويدي بمقبض أبيض صغير، وبعرى بيضاء لجلبابي، وبشريطٍ أبيض لقبّعتي، وذلك للتدليل على التحاقي بالخدمة السياسية.

ولقد برهن رئيسي على نجاحه كضابط تجنيد. ففي ذلك الوقت الذي انتهت فيه الحرب، أوعز إلى عددٍ من الأخصائيين بأن يؤخروا مغادرتهم العراق، وأن يقبلوا التعيين في المصلحة الجديدة. كان أول هؤلاء هم كوينبير (أخيراً السير جون طبيب مستشفى، «غي» و«كاري الفانس» الجراح في مقر نائب الملك في الهند.

كان في بغداد مستشفيان تركيان قديمان، على كلٍّ من جانبي النهر، أي في الرصافة والكرخ، ولقد أنشأ ضباط الجيش البريطاني عدداً فاخراً من المعاهد التي كان من حُسنِ حظ المصلحة الجديدة، أن أصبحت وافيةً بالغرض، من أمثال معهد البكترولوجي، ومعهد التلقيح، ومعهد أشعة إكس، ومعهد باستور وغيرها. وبمرور الزمن أصبحت بغداد مركزاً لمعالجة داء الكلَب، ولتجهيز لقاح الجدري، وغيره من اللقاحات الاخرى.

أجرينا أنا والعقيد «بتي» حديثاً مستفيضاً مع السيد «ولسون» الحاكم البريطاني المدني العام في العراق، حول سياسة المستقبل، وفي ذلك الحديث طُرح اقتراح بأن تُسمّى المؤسسة الحديثة التي نعمل فيها باسم مصلحة الصحة تفضيلاً على اسم مصلحة الطب. ذلك لأنه لا يوجد سبب يستلزم أن يفضّل الرفاه في العراق على العلاج. وبعبارة طبيّة أن يتم الاهتمام بالوقاية بدلاً من العلاج.

ولقد رحّب السيد «ولسون» بهذا الاقتراح، وأضاف إلى ذلك قوله: انّ من المفيد جداً أن يتم إقناع الأطباء بممارسة مهمات سياسية، لأنّ إسهام الطبيب والحاكم هو الأمر الذي يحتاج إليه العراق فعلاً.

تمّت خطوبتي على «إلزي مون غافن» قبل أن تسرّحتُ من الخدمة، وغادَرتْ العراق لكي تقيم مع أخيها الذي كان يشغل منصب القنصل البريطاني في «بندر عباس»، وقد بقيتْ هناك إلى أن تم زواجنا فيما بعد.

لم يكن المجتمع الذي كان يضمنا مع «ولسون» يعتبر مبهجاً، إلا في حدود العيش سوية. فقد كان ذلك من الأمور الطارئة. ولكن ما خلا تناولنا وجبات الطعام معاً، لم يكن أحدنا يرى الآخر إلا قليلاً. فقد كنا نسرع بالعودة إلى دوائرنا أثناء النهار، وإلى غرف منامنا بعد فترة العشاء مباشرة.

لقد كان الجو فظاً غير ملائم للحياة الاجتماعية جداً. إنها حياة تنسك كان يشارك فيها من ستة إلى ثمانية من الأعضاء الدائمين في ذلك المجتمع، مع عدد واسع من الضيوف، وهم في العادة من الضباط السياسيين من مراكز خارجية، كان يجري استدعاؤهم لغرض التشاور أو التعزير.

كان مساعد المشير الذي تولى منصب «محافظ بغداد» هو «فكتور مكلاغن»، وهو رجل ذو شخصية ظريفة، كان في ذلك الوقت أملاً طيباً في التغلب على «جاك جونسون» بطل العالم في الملاكمة من الوزن الثقيل، لكنه اشتهر أخيراً بأن أصبح واحداً من نجوم السينما. كان المعتاد بالنسبة إلى الضباط الذين يريدون معاقبة المذنبين عقوبة جسدية، أن يبعثوا بهؤلاء إلى «مكلاغن» لينالوا بضع ضربات منه بعصا السجان الذي يعمل تحت امرته. وفي إحدى المناسبات أرسل ضابط غاضب حماله الهندي المذنب، إلى مساعد المحافظ ومعه مذكرة مختومة يطلب إليه فيها بأن ينهال على ذلك الهندي بنصف «دزينة» من أفضل الضربات!.

وإذ راودت المذنب الشكوك حول تسليم المذكرة، فقد توقف عند مدخل دائرة المساعد، حتى إذا ما اقترب منه أحد الاعراب الذي لم يرتب فيه، نفحه بأربع «آنات»، وطلب إليه أن يسلم المذكرة. وقد فعل الاعرابي ذلك ممتناً، لكنه أصيب بدهشة كبرى من الطريقة التي قوبلت بها الرسالة!.

أخذت عملية تسريح الخدم الهنود تسير قدماً. وذلك ان الكثيرين منهم كانوا يتطلعون إلى العمل في الخدمات المدنية. وإنني أتذكر كلمات تذكرتين قدمهما بكل مباهاة اثنان من الطباخين. كانت كلتا التذكرتين تحمل تواقيع ضباط الجيش. كانت الأولى تقول «إن حاملها يطبخ الطعام حسب كفايته هو، ويتركني على شفا صحة منهارة!». أما الأخرى فتقول «إذا كنت تود الحصول على طباخ جيد، فاعط هذا علقة لأنني أشك في أن أياً من الراغبين لن يحقق غرضه!..»

كانت مهمة الحاكم العام في إنشاء ادارة مدنية بريطانية في هذا البلد المحتل حديثاً، والذي لم تتخل بعد تركيا عن السيادة فيه، والذي كانت حكومتنا لاإدرية بشكل محزن بالنسبة إليه، كانت هذه المهمة هائلة ومعقدة. فالقوات البريطانية والهندية ما تزال تنتشر في القطر. ولكن الحفاظ على الأمن الداخلي لم يكن من اختصاص تلك القوات، ناهيك عن الثورة العلنية التي انضم الأكراد إليها تحت زعامة «الشيخ محمود».

ففي أحوال مثل هذه يكون التعاون بين الادارة المدنية والعسكرية، أقل من المطلوب في بعض الأحيان، وتكون مشاكل الحكومة الداخلية أكثر تعقيداً. ولم يكن ولسون، ولا الفريق «ايلمر هالدن» يراقبان عدداً من الأمور بالاهتمام الزائد.

لقد كان الأمن أكثر وضوحاً في الفترة القصيرة التي أمضاها السر جورج مكماهون في منصب الحاكم العام. وكان مثار الجدل يتركز حول اختيار الجيش لإرساله إلى منطقة «كرند» داخل الحدود الفارسية، واتخاذ هذه المنطقة الجبلية محطة صيفية لمقره، وعملية اصطياف لأفراد الجيش.

لم يوافق ولسون على هذا القرار باعتباره احتمالاً للاستسلام، ولأن الاحصاءات الصحية قد أظهرت أيضاً بأن هذا «الفردوس المقصود» مغاير حتى للمناطق الواطئة من جنوبي العراق والتي ترتفع درجة الحرارة فيها عادة.

كانت واجبات الشرطة تدخل هي الأخرى، في الوظائف الكثيرة التي أسندت إلى «ولسون»، ولذلك فأنني لم اعتبره محظوظاً. فقد كان، كما هو

الواقع، إنساناً سريع التأثر.

كان إيجاد ادارة بريطانية مؤقتة أمراً ضرورياً. وكان عدد العراقيين الملمين بالخبرة والتعليم في ذلك الوقت قليلاً جداً. كما كانت هناك فروق واضحة في العرق، والدين، ونموذج الحياة بين سكان المدن، والفلاحين وأفراد العشائر، والبدو.

وإذا أخذت الشهور تمضي، تراخى جلاء القوات البريطانية والهندية، فاستدعي الضباط، وكان من بين الذين استدعوا بهذه الطريقة من قبل مصلحة الصحة، هو العقيد «باتي» نفسه، الأمر الذي اثار خيبة الأمل، والأسف الواسع لدى موظفيه. فقد كان «باتي» إدارياً قديراً ومخلصاً مليئاً بالآراء المعتدلة والصالحة للخدمة. وقد خلفه في منصب سكرتير مصلحة الصحة ضابط آخر هو العقيد «لين» الذي كان يعمل قبلاً في القطر وعين بوظيفة مفتش السجون العام. كان «لين» هذا من الماسونيين، وعن طريقه تم تقديمي إلى الجمعية الماسونية.

وحتى في الوقت الذي كان فيه مؤتمر السلام في باريس يوالي عقد جلساته، كان إجلاء القوات المحاربة متواصلاً وبلا أدنى تأخير. وفي شهر أيار (مايو) سنة ١٩٢٠ أقر المجلس الأعلى لمؤتمر السلام، بأن يعهد إلى بريطانيا بأمر الانتداب على العراق، ولكن لم يتم التوصل إلى قرار بشأن شكل الحكومة التي يراد انشاؤها في العراق. فلقد كان حذف هذا «الشكل» بالإضافة إلى السلطة العسكرية المتدهورة، من الأمور الكافية لتشجيع العناصر المتمردة على الثورة، وهكذا وقعت هذه المأساة بعد ذلك الوقت بمدة شهرين.

الفصل الثالث

في مياه بابل

بدأ صيف سنة ١٩١٩ بعواصف من أمطار ورعود وصواعق أدّت إلى جملة وفيات في الأنفس، كما تلفت الحاصلات الزراعية بفعل البرَد (بفتح الراء) الذي كان حجم الواحدة منه بقدر حجم بيضة الدجاج. ولقد غرقت شوارع بغداد بفعل الأمطار الغزيرة القوية الهاطلة.

ولقد شاهدت بعض ضحايا الصواعق قد جُرِّدوا من ملابسهم، وظهرت على أجسامهم آثار الحروق التي أحدثتها الصواعق. وفي أوائل هذا الفصل، وفي الوقت الذي تتكرر فيه الظواهر الطبيعية كل سنة، فاض النهران العظيمان، دجلة والفرات، فغطيّا ضفافهما بالمياه، كما أصاب الفيضان مساحات شاسعة من جنوبي العراق. وإلى حد ما كانت هذه الظاهرة مباركة، لأن مادة الإخصاب الغنيّة كانت تنتشر بهذه الوسيلة على نطاق واسع.

كانت بناية سكرتارية الصحة التي تطل على نهر دجلة قد ابتلعتها مياه الأمطار والثلوج الذائبة المنحدرة من المرتفعات الشمالية. وفي وسط التيّار كانت تجري وسائل النقل النهرية وكأنها في سباق، سواء منها الزوارق، أو القوارب التجارية، والقفف، والأكلاك الواسعة المحمّلة بالرَّقي، أو أي منتوج آخر.

استُدعيتُ بعد ظهر أحد الأيام في أوائل شهر تموز (يوليو)، إلى دائرة العقيد «لين» لأسمع منه بأنّ الحاكم العام قد أصدر إليه الأوامر بأن يعين

أحد الجرّاحين المدنيين في مدينة «الحلّة»، وذلك استجابة لطلب عاجل من لدن الضابط السياسي في ذلك اللواء.

كانت قد حدثت في أواخر فصل الربيع من تلك السنة، وافدة شديدة من الطاعون في مدينة «الحلّة»، وقد تم إرسالي أنا إلى هناك لتنظيم حملة ضد المرض. ولقد أمضيت ثلاثة أسابيع في تلك المدينة الريفية الجميلة التي تقبع على ضفتي نهر الفرات. وقد تعاظم حُبيّ لنادي الضباط السياسيين الذي سكنت فيه، وللمدينة وضواحيها وسكانها.

واستطعتُ بمساعدة من الوحدات الطبيّة العسكرية أن أهيء مستشفى صغيراً للعزل مؤلّفاً من خيام. غير أنّ هذا العمل قد دلّل على فشله، ذلك لأن ضحايا الوباء رفضوا قبول ذلك، بل إنهم تجنّبوا حتى التبليغ عن المرض وقبول العلاج؛ إلاّ إذا نُقلوا من بيوتهم.

كان الحل الوحيد الممكن، بالإضافة إلى شنّ الحرب على الجرذان، يتمثل في عملية التطعيم الجماعي. ولقد أصبح هذا الأمر شائعاً إلى أقصى درجة. ولقد اكتشفت فيما بعد، السحر الذي كان يلعبه زرق الإبر في عقول العرب. ففي الأيام التي تلت ذلك، ولمئات المرات، كنت أسمع المريض الذي يوصف له مزيج وقائي، يطلب إلى طبيبه وهو غير واثق تماماً قائلاً: «ألا توجد إبرة؟»[1].

استطاعت زرقات الإبر الوقائية أن تقضي على الوباء بسرعة، لكنها جعلتني أُطبِّق مهنتي في صراع مباشر مع المرض بدلاً من مقاومته من بعد، من فوق برج عاجي.

عند عودتي إلى بغداد رحت أحسد كل إنسان يُعيَّن للقيام بواجب ما في مدينة «الحلّة». ولذلك طُرح عليَّ سؤال عما إذا كنت أرغب في أن أمدّد خدمتي لمدة سنة هناك. ولما كان نهج الحكومة لم يتقرر بعد، فقد كانت العقود محددة بالنسبة إلى مدة تصل إلى حد اثني عشر شهراً.

---

(١) كتبها المؤلف باللغة العراقية الدارجة «ماكو إبرة؟».

بقيَ مستقبلي هو الآخر معلقاً في كفة القدر. ولم أكن راغباً في أن ألزم نفسي بأية مدة أطوَل. وفي الوقت ذاته لم تكن لَدَيَّ أية فكرة في البقاء في هذه البلاد لمدة غير محدودة.

كان والد خطيبتي «إلزي» قد استقرّ، في وقت من الأوقات، في مدينة «كراجي». وكان هناك جملة من الأصدقاء المقيمين في تلك المدينة يصرّون عليّ في أن يتم عقد زواجنا هناك، قبل أن نعود إلى بلادنا بريطانيا.

كانت «كراجي» تقع في طريق عودتنا. وكان تجديد عقدي لمدة سنة ملائماً تماماً لخططنا. وهكذا وافقتُ على تمديد خدمتي لمدة سنة واحدة، على شرط أن ينتهي الدور الإداري الذي كنت أنهض به، وأن أُعينَّ في منصب من صُلْب العمل الطبي.

كانت واجباتي الادارية مُسرّة، وقد برهنت تلك التجربة على قيمتها فيما بعد. غير أنّ هدفي الأساسي هو أن أتخصّص في الطب، وأنّ العمل الإداري ـ كما هو واضح جداً ـ ليس من وسائل تحقيق مثل هذا التخصّص.

وصلتُ إلى مدينة «الحلّة» عصراً، وسُلِّمتُ على التوّ ظرفاً مختوماً، كانت في داخله مذكرة من الضابط السياسي للواء الحلّة، المقدّم «تيلر»، موجهة إلى الضابط السياسي في المدينة ذاتها، تتعلق بشأن عقوبة الإعدام التي حُكم بها قبل شهر، على شخص يدعى «أحمد جعفر» لقتله شخصاً يسمى «علي سلمان»، وقد صودق على الحكم، وسوف يتم تنفيذه داخل السجن عند فجر اليوم التالي.

كان الضابط السياسي قد أُنبىء بأن يحضر عملية تنفيذ الإعدام، أو ينيب ممثلاً عنه. كما كُتبتْ في أسفل ما أدرج في التذكرة عبارة تقول: «نسخة منه إلى الطبيب المدني الذي سوف يحضر لكي يصادق على وفاة الرجل المحكوم» ترى، أهناك من يخامره أدنى شك في حدوث ذلك؟.

كان السجن المدني يقع على الضفة اليسرى من النهر، قبالة نادي

الضباط السياسيين مباشرة تقريباً. وكان مساعد الضابط السياسي في «الحلّة» هو النقيب «أوتلو» الذي كان يُلقب باسم «تبي».

استدعاني هذا النقيب قبل أن ينشقّ الفجر بقليل. فعبرنا النهر الذي كان عرضه زهاء مائة وخمسين ياردة، وقد بدأ ميلاد يوم جديد. كنا نسير على الأقدام. وأتذكّر بأننا كنا نسير صامتين، لأننا كنا نفكّر في مهمتنا التعسة هذه، فقد كانت تلك أول تجربة عملية من هذا النوع، لكنها كانت العملية التي تعوّدنا عليها فيما بعد، فغدت مألوفة لنا.

تم تنفيذ حكم الاعدام علانية. كانت المشنقة تؤلف بناءً مرتفعاً يرتقى إليه بسلم يؤدي إلى المنصة. وقد أحيط الفراغ الذي تحتها بالحصر. كان المؤمل أن تغدو العقوبة الرئيسة رادعاً لعامة الناس، وربما كان لها بعض التأثير المحترم على قلة من الناس. ولكن إذا ما حكمنا بجمهور المتفرجين الواسع الذين يحتشدون في مثل هذه المناسبات، والذين يؤلفون خليطاً من الرجال والنساء والأطفال، فإن ذلك الحادث كان يشير إلى نوع من متعة شعبية لا شك في أن الفضول الوبيل كان من العوامل الشديدة فيها. فلم يكن هنالك سوى دليل طفيف على الهيبة التي تطلبها تنفيذ العدالة، وإنني واثق بأن احتجاجي ضد أعمال الشنق العامة، قد ساهمت نوعاً ما في الغائها.

من بين المشاهد المثيرة التي شهدتها في «الحلة»، ومن أشدها فظاعة ـ بما في ذلك تنفيذ حكم الاعدام المذكور ـ هي عملية الجلد بالسوط علانية لأحد الجنود من الهنود. لقد كنت قد تفرجت على هذه العملية رغماً عني. كنت عائداً إلى دائرتي بعد الظهر مباشرة. وعند وصولي إلى الساحة، حوصرت من قبل حشد كثيف هائج من الرجال والنساء والأطفال، الذين احتشدوا هناك وكأنهم في مهرجان وعلى الرغم من تقديري للعنصر العربي إلا أنني لا أستطيع أن أنكر وجود أثر للتلذذ بالألم بين صفاته القوية.

تمت عملية الجلد بالسوط، وسط ساحة مثلثة الشكل محاطة بالقوات الهندية. شدت ذراعا الشخص المجلود وساقاه إلى اطار خشبي ثقيل أشبه

بالحرف الانكليزي (×)، وراحت الضربات تهوي على ظهره العاري بدقة رتيبة وبطء، حتى تجاوزت الاثنتي عشرة ضربة بمقدار. وإلى أن تهرش جلده، وامتزج بعضه ببعض، وتهاوى ساقطاً على الأرض، تم اطلاق سراحه بعد أن حضر الطبيب العسكري، ومن ثم أعيد إلى المعسكر في إحدى سيارات الاسعاف. ليس هناك أدنى شك في اقتراف المتهم جريمة شائنة. ولما كانت العقوبة قد نفذت علانية، فإن من المؤكد توجيه تهمة المخالفة ضد المقيم الانكليزي المحلي. ولذلك وجدت السلطة العسكرية المختصة أن من الضروري أن تبين بأن العقوبة إزاء مثل هذا الجرم كانت شديدة إلى أبعد حد، وإنني لأعجب عما إذا كان يوجد أي تبرير، وفي ظل أي من الظروف، لمثل هذه العقوبة.

أُشيع بعد بضعة أسابيع بأنّ العقوبات التي أصدرتها المحكمة العرفية لم تحظ بمصادقة الحاكم العام عليها، ولذلك شطبت عقوبة الجلد من دفتر خدمة الشخص الذي كان يعاقب بها. لقد كانت مجرّد أسطورة، لكنها وجدت أصولها في أسواق الشرق الأوسط.

يشمل لواء الحلّة مساحة مقدارها ألف وستمائة وخمسون ميلاً مربّعاً. ويقدّر عدد سكان اللواء ـ باستثناء القبائل البدوية ـ بما يزيد على مائتي ألف نسمة. وبذلك تكون مهمة الطبيب المدني متعبة حقاً، لكنني لم أتضجرّ من ذلك، بل كنت أُرحّب بهذا العمل باعتباره نوعاً من التحدّي الصارخ.

وكنت محظوظاً لأنني لم أُرغم على تنظيم مقرّ مستشفى جديد، ذلك لأن الطبيب العسكري، ويدعى «كامبل بيك» (بالكاف المعجمة) ـ وهو من زملائي في «أدنبره» ومن الجراحين البارزين مؤخراً في جوهانسبرغ ـ قد سبق له أن أكمل إنشاء المقر أثناء مكوثه في مدينة الحلّة.

تم وضع اليد على بيت يعود إلى موظف تركي كبير لاتخاذه مستشفى، واشتملت هيئة الموظفين فيه على مساعد جرّاح من الدائرة الطبيّة الهندية يدعى «امنغال سنغ»، بالإضافة إلى صيدلي هندي أيضاً.

كانت غرفة العمليات قد استُحدثت في زاوية من فناء الدار؛ أُحيطت

جوانبها بحصر من القصب. ولقد برهنت هذه الغرفة على أنها كانت وافية بالغرض.

وكـان «بيك» بـالإضافـة إلى ذلـك، قد درب أحـد الأعـراب على العناية بغرفة العمليات هذه، حيث يقـوم بمهمة تـنـظيف آلات التضميد وألبستها. لا توجد ممرضات متدربات وكان على المرء أن يعتمد بدرجة كبيرة على العمال غير الماهرين في اداء الواجبات المنتظمة، بما في ذلك ملاحقة الاهتمام بالتهيؤ لاجراء العمليات، ناهيك عن الادارة الكافية.

ولحسن الحظ كان الاعراب الحفاة يقاومون التعفن والتسمم بصفة غير اعتيادية. فقد كانت مناعتهم النسبيـة تعزى، لحـد ما، إلى عـامل الفطرة. لكنني أعتقد أن هذه المناعة يتم الحصول عليها بنطاق كبير، في حياة مبكرة وذلك خلال عملية تضاعف الجروح التي كانت تصيب اقدامهم العارية.

كان هذا الأمر يمثل قاعدة أعانتني على إجراء العمليات على نطاق واسع بكثير من الدقة أكثر مما يجرأ المرء على إجرائه وهو في بلده. ولم أنفك عن الدهشة التي كانت تنتابني، وأنا أجد من النادر حدوث تعفن في أعقاب العمليات. وحين تكون العدوى شديدة فإن سبب ذلك يعود بصفة اعتيادية إلى أن ملابس المريض قد تم نقلها من قبل زوجته، واستعيض عنها بكمادات من الطحين وزبد الجواميس المنقى.

لقد كان تدخل الاقارب في مداواة المريض من الأمور المربكة دوماً. ولكن لم يكن من اليسير إقناع المرضى بعدم قبول الأقارب إلا إذا سمح للبعض من نسائهم بالمكوث معهم.

على أقلّ من عشرة أميال من مدينة «الحلّة» تقع خرائب «بورسيبا»[٢] شقيقة «بابل»، والتي كانت تُعرف محليّاً باسم «برس نمرود» (برج نمرود)

---

(٢) بورسيبا: من المدن القديمة جنوبي مدينة بابل ببضعة أميال نقب فيها الدكتور بريد وود، وهو أمريكي، سنة ١٩٠٢. وكانت في هذه المدينةزقورة فيها معبد الإله «نبو» وقد عرف ذلك المعبد باسم «ازداء» ـ بتشديد الدال.

وقد شاركت بورسيبا بابل ذات المصير من الخراب والدمار.

كانت هناك أساطير مختلفة عن هذا الموقع. وإحدى هذه الأساطير تقول: «بأن الصياد الجبار»[٣] قد بذل محاولة يائسة لكي يلقي بالنبي إبراهيم في أتون متّقد. وأُخرى تقول: إنّ «برس نمرود» هو برج بابل، وما شاكل ذلك. . .

كانت على واحدة من الربوتَين اللتين تؤلّفان أنقاض بورسيبا، وهي الكبرى التي يزيد ارتفاعها على مائة قدم، كتلة من آجُرّ مُزجّج، هي أطلال الزقورة، (برج المعبد) وهي العلامة الشاخصة التي كانت ترى على بُعد عدة أميال حول الأطلال.

كان من أهم الشخصيات التي زارت «الحلّة» في ذلك الوقت، العلاّمة الدكتور «برستيد»[٤] أستاذ التاريخ الشرقي، والآثار المصرية في جامعة شيكاغو. كان الدكتو برستيد يؤكد على أنّ مدينة الحلّة الحديثة تمثّل بابل القديمة. وأن اسم «بابل» يعني «باب الله».

ولما كان تعييني في موقع يتطلب شيئاً من الالمام باللغة العربية، فقد أصبحت بعد أيام قلائل من وصولي، اتتلمذ على يد معلم يهودي موثوق به.

لم تكن لدي رغبة خاصة في تعلم اللغات. ولكن بفضل المعلم الحاذق قررت أن أجتاز اختباراً في اللغة العربية في مدة شهر واحد، وأن أحصل على مكافأة مقدارها مائة وخمسون «روبية» لاكمال تعلمي، كان هذا

---

(٣) يقصد بالصياد الجبار نمرود، وهو اللقب الشائع بصفة مغلوطة في منطقة الحلة، لأن «نمرود» ـ وهي إحدى حواضر **اشور** تقع جنوبي الموصل.

(٤) السر جيمس هنري برستيد (١٨٦٥ ـ ١٩٢٥) عالم أمريكي متخصص بالآثار المصرية، وكان مديراً للمعهد الشرقي في شيكاغو، والذي أجرى تنقيبات عديدة في العراق ومصر وسوريا. وقد وضع الدكتور برستيد كتاباً قيماً عن الشرق القديم سماه: «العصور القديمة» وقام بترجمته إلى العربية «داود قربان» وطبعه في المطبعة الأمريكية في بيروت سنة ١٩٢٦. وقد ظل هذا الكتاب يدرس في المدارس المتوسطة في العراق سنوات عديدة. حتى أواخر سني الثلاثينات.

المبلغ وافياً بالغرض. كان «تبي اونلو» أقل رغبة مني في تعلم اللغة، وكان يعتمد على المترجمين بصفة مطلقة، وذلك اجراء غير كاف. وقد حدث أن كنت في مكتبه ذات يوم، عندما وعدني بأن يمنح امتيازاً من نوع ما إلى أحد شيوخ العشائر. وبدلاً من أن يودع ذلك الشيخ بعبارة الوداع المألوفة وهي «في أمان الله» كان توديعه له بقوله «إن شاء الله» الأمر الذي جعل ذلك الشيخ يشك في نتيجة لقائه معه.

تهيأت لديّ فرصة لزيارة كل من كربلاء والنجف اللتين يحجّ إليهما الشيعة، وهما في نظرهم لا تقلّان قدسية عن مكة. كانت زوجة الطبيب المدني البريطاني في كربلاء قد مرضت، ولذلك ذهبتُ إلى هناك بسيارة لمعاينتها، ومن ثم استمتعت بجولة في تلك المدينة التي يزورها الألوف من الزوّار في كل سنة.

كان الطبيب البريطاني يرافقني في التجوال، وقد مررت في طريقي بحشد كبير من الزوّار كان يتحرك ببطء إلى أمام ماشياً على الأقدام برفقة أصحاب الجنائز. كانت الأمتعة موسقّة على ظهور البغال والحمير البيض. وكانت هذه الحمولات بالنسبة إلى الزوّار لا تضمّ سوى الأمتعة. أما أصحاب الجنائز، فإنهم كانوا بالإضافة إلى أمتعتهم، يحملون عظام الموتى والرمم في كلٍّ مرحلة من مراحل تعفّنها، والتي يتمّ تصنيفها بصفة رسمية إلى «جافة» و«رطبة» طبقاً لتاريخ انحلالها.

أما زمرة المعولين الباكين التي تتقدم الركب؛ فقد كانت تبحث عن مكان للدفن يكون قريباً من مسجد الحسين ذي القبّة الذهبية، حسبما تمكّنهم مواردهم من ذلك.

أما زيارتي لمدينة النجف فقد كانت استجابة لطلب عاجل من أحد علماء الشيعة البارزين، وذلك لمعاينة إحدى الزوجات التي ازداد نفسها ضيقاً. والواقع أنّ معاينة إحدى نساء الشيعة تتطلب مزيداً من الصبر والأناة والحذر، فبعد نقاش طويل خاضت فيه العائلة، سُمح لي بأن أضع السمّاعة على صدر تلك السيدة لتشخيص المرض. وبعد نقاش آخر طويل أيضاً،

وصفتُ لها العلاج فتحسنت حالتها، ومن يومها أصبحتُ صديقاً لـذلك العالم الديني.

كنت آمل أن أقضي عطلة عيد الميلاد لسنة ١٩١٩ في ميناء «بندر عباس» غير أنّ هذا الأمل لم يتحقق بسبب ظروف الخدمة، ولذلك لم تتوافر لديّ فرصة الالتقاء بخطيبتي مرة أخرى؛ إلّا في شهر أيار (مايو) عندما مُنحتُ ـ على الرغم من سوء الأوضاع السياسية آنذاك ـ إجازة بالسفر إلى «كراجي» لإكمال زواجنا هناك في اليوم الأول من شهر حزيران «يونيو» على وعد مني بأن أعود في أول سفينة تكون متوافرة بعد انقضاء حفل الزواج.

وهكذا وفي خلال أسبوع واحد من زواجنا، كنت أنا وإلـزي في طريق العودة إلى «البصرة» من بين ركاب السفينة «كويانا» التي سافرتُ بها إلى الهند.

أنفقنا أكثر مـدة مكوثنا في «كراجي» في شراء الحـاجيات، وفي لعبتَي التنس والسباحة، والتعـرّض لأشعة الشمس على الشـواطىء أثناء النهار، وحضور ولائم العشاء في الليل.

لم يكن البيت الذي خُصّص لنا في مدينة الحلّة مؤثثاً. ولذلك كان لا بد لنا من شراء الأثاث، وأدوات الطبخ، والصحون والأقداح والستائر وما شاكلها، وبذلك كانت هذه المواد تملأ عدة صناديق وأقفاص، سلّمناها على ظهر السفينة «كويانا» قبل أن نبحر بها. وما إن وصلنا إلى السفينة حتى سلّمني الضابط المسؤول قائمة بما دعاه هو بالحمولة ودعوته أنا بالأمتعة، ولذلك احتدم الجدل فيما بيننا، ثم توقف مؤقتاً عندما استُدعي إلى الجسر. وقبل أن نستأنف جدَلنا أصبحنا في عرض البحـر، وإذ ذاك سقط أحد البحارة الهنود على الأرض، وكسـرتْ ذراعه، وعنـدها طلب إليّ ربـان السفينة بأن أخفّ إلى نجدة ذلك البحار سيء الحظ، ففعلت ذلك.

وبعد يومين أُصيب أحد المسافرين الهنود، وهو كبير السن، بمرض مفاجيء فمات، وأُلقيت جثته في البحر. وهنا طلب الربان مساعدتي مرة

أخرى، وأضاف إلى ذلك رجاءه بأن أكون طبيب السفينة طوال المدة الباقية من الرحلة، فرحبّتُ بذلك، وأشركتُ زوجتي معي في العمل.

وكم كانت دهشتي عندما سلّمني مأمور الخزينة في السفينة، وقبل أن ترسو في البصرة، مظروفاً فيه رزمة من أوراق نقدية من فئة «العشر روبيات» قال عنها: إنني أستحقها لقاء الخدمة الطبيّة التي أديّتها أثناء رحلة السفينة وهكذا لم تكلّفني أمتعتي أي أجر لنقلها ليس إلى ميناء البصرة فحسب، بل وحتى نقلها بالقطار إلى الحلّة.

كانت رحلة العودة ساخنة ورطبة جداً. وقد بدأت أشك في إمكان استمرار خدمتي في العراق. غير أن «إلزي» كانت تضحك بكل شجاعة من «حوض الماء الدافىء»، وهو تعبير ووصف دقيق جداً لما كان يصيب الخليج العربي في مثل ذلك الوقت من السنة، ولذلك قرّرنا أن نتجنب الاهتمام بمستقبلنا، إلى أن نكون قد أطلعنا بصفة أفضل على خبايا الأمور.

غير أنّ شكوكي تضاعفت عند الوصول إلى البصرة، حيث سمعت بأن الجوّ السياسي قد تلبّد بالغيوم حين غادرت العراق، وأنه قد ازداد سوءاً الآن، وأن الثورة العشائرية توشك أن تقع فيه.

كان في مقدّمة الناس الذين استقبلونا في الحلّة اثنان: هما الشيخ عمران الزنبور والشيخ عداي الجريان. كانت مشيخة عمران المجاورة، للحلّة صغيرة نسبياً وأهلها متفرّقين، في حين كانت مشيخة عداي الجريان التي تبعد عن جنوبي الحلّة كثيراً، واسعة الانتشار وأكثر كثافة بالسكان.

كان الشيخ عمـران بشوشـاً، معافى، ومهيبـاً، ولم يكن طيّعاً ولا مخوصراً حتى يُذكر بالزنبور، كما أُطلق عليه هذا اللقب. وكان عداي الجريان عبوساً، سريع التقلب نحيفاً، مجوّف العينين، ومصاباً بزكام شديد. كان الإثنان يريدان أن يصبحا صديقين مخلصين. لكن بدا لي الآن أنّ غرضهما الحقيقي هو أن ينبئاني عن حراجة الوضع، وأن يلحا ـ عن طريقي ـ على المقدّم «بلي» الحاكم السياسي الجديد الذي خلف المقدم تيلر الذي استدعي إلى الهند ـ بأن لا يُخدع من لدن الشيوخ الذين كانوا

يتظاهرون بالولاء للإدارة البريطانية، وذلك كوسيلة منهم للحصول على الأسلحة التي سوف تستعمل دون ريب ضد الإنكليز.

ولقد طلبتُ أسماء أولئك الشيوخ فأُعطيتُ لي بكل ثقة. ذلك أنّ العشائر في لواء مجاور سبق لها أن زُوِّدت ببعض الذخيرة والبنادق، غير أنّ المقدّم «بلي» قد وعى هذا التحذير بكل حكمة.

لا حاجة إلى القول بأن تنبؤات هذين الصديقين الموثوق بهما قد ملأت نفسي بالخوف بالنسبة إلى سلامة «إلزي». فلقد ضغطت عليها كثيراً بأن تغادر الحلّة، وأن تمكث مع أصدقاء لنا في بغداد ممن سبق لهم أن كتبوا لنا يعرضون علينا كرمهم، إلى أن يزول خطر التهديد بالثورة. لكنها لم تصغ إلى طلب الابتعاد إلّا بعد أن أصدر الضابط السياسي قراراً بذلك

كانت زوجة المقدّم «بلي» مع طفليها ما تزال موجوده في الحلّة حين كانت «إلزي» مترددة في الذهاب، في الوقت الذي سُمح فيه لزوجة «بلي» وطفليها بالبقاء هناك.

كانت الأسواق تعجّ بالإشاعات. فالبعض منها قابل للتصديق، والبعض الآخر مبالغ فيه. ولغرض كبح جماح «الحلّيين» فلم يكن يُسمح لأحد بركوب الخيل، أو ممارسة الصيد، أو ألعاب التنس، أو الفعاليات الاجتماعية الأخرى.

كان الشيخان عداي الجريان وعمران الزنبور اللذان يُستدعيان لمواجهتي بعض الوقت كل يوم، إما في المستشفى أو في منزلي، يجلبان معهما أنباء عن تفاقم الاضطراب، وتعاظم السخط المنظّم اللذين يؤججهما الرجعيون الطامعون، والمنبعثون من المدينتين المقدّستين كربلاء والنجف.

ولم يكن هذان الشيخان يرغبان في أن يتمّ استدعاؤهما من قِبَل المقدّم «بلي» مباشرة. ذلك لأن أقلّ زيارة يقومان بها لـ «الحاكم»، أي الضابط السياسي، تعطي تأكيداً صادقاً عن مشاعرهما المؤيدة

للبريطانيين(٥)، وتلحق الضرر بالعلاقات العشائرية. في حين أن استدعاءهما من قِبَلي يُعتبر أقلّ من ناحية الأهمية السياسية. ولذلك كان الحاكم «بلي» يشجّع مثل هذا الاتصال، وأنّ دوري في مثل هذه الحالة لم يكن ليختلف عن دور الوسيط قط!.

كان الشيخان عداي وعمران يصرّان على أنّ استعمال القوة العسكرية ليس أمراً ضرورياً فحسب، بل يجب أن يكون سريعاً جداً.

فلقد كان المعروف بصفة عامة أنّ عملية تجريد القوات العسكرية من السلاح وإخلائها التي بوشر بها منذ بداية السنة، قد أخذت تسير سيراً حثيثاً، وأنّ القوات المتوافرة لدينا قد استُنزفت مرة أُخرى بإرسال عدة وحدات منها لمكافحة الاضطرابات التي نشأت في بلاد إيران بسبب المجاعة فيها.

أصبحت مهمة «ولسون» الحاكم المدني غير محمودة بشكل متزايد. ذلك لأن الأعضاء الكبار في هيئة أركانه بالمقر العام، وفي الأقاليم، كانوا من أفراد تلك الطبقة الحاكمة العليا المتزمتة، وأقصد بها رجال الخدمة المدنية في الهند. ولذلك لم يكن من غير الطبيعي في مثل هذه الظروف

---

(٥) الحقيقة أن الثوار كانوا على معرفة تامة بالخدمة التي قدمها الشيخان عمران الزنبور وعداي الجريان إلى المحتلين، ونشر الشيخ فريق المزهر آل فرعون، رسالة للحاج صلّال الفاضل رئيس عشائر عفك في كتابه «الحقائق الناصعة» ص ٥٦٦ جاء فيها:

«... وبينما نحن في حصار الحلة إذ جاءتنا رسالة من الشيخ عجيل السمرمد رئيس عشائر زبيد في الصويرة موجهة إليّ يقول فيها: (إذا خرجت إلى دار عمران الزنبور إياك وأن تأكل شيئاً، أو تشرب عندهم ماء أو قهوة أو لبناً، حيث قد أرسل عمران سماً مع أحد جماعته إلى وكيله ملا كاظم الذي في محله ليدسه لك). وبعد أن اطلع أبناء العشائر التي معنا على هذه الرسالة هجموا على منزل عمران فأحرقوا مضيفه وداره. أما هو فكان مع الإنكليز في مدينة الحلة».

وجاء في مكان آخر من الرسالة آنفة الذكر: (ولكن بعض رؤساء العشائر خانوا معنا، وهم الحاج صكبان البو جاسم، وعداي الجريان، وعمران الزنبور رئيس بني عجيل، إذ كانوا داخل الحلة، فبعثوا إلى الثوار برسائل شفوية منهم عن لسان الإنكليز بأن يكفوا عن القتال ويذهبوا إلى أهلهم، ووعدوهم بالجاه والعطاء بعد ذلك إذا سمعوا قولهم وتفرقوا).

أن يضع «ولسون» إدارته على أساس ما هو مألوف لـديه ولـدى هؤلاء الأعضاء.

ولهذا السبب فقد تعرّض في العراق، وفي الصحافة البريطانية للاتهام بأنه كان يسعى إلى «تهنيد» العراق[٦].

وليس من شك في أنّ جهوده تلك كانت تنبعث منها مثل هذه الرائحة، ولكن بالنسبة إلى الأحوال التي وُضع فيها، وإلى الشخصيات التي كانت تحت إمرته، كانت يداه مقيّدتين، وليس من العدل أن نجعله ضحية أو كبش فداء لما قد حدث، وهـو أمر غيـر صحيح من وجهـة نظري المتواضعة، ذلك لأن معظم ما أنجزه كان هو الأساس لتطـوّر العراق!!.

ولقد أصبح «ولسون» فيما بعد عضواً في البرلمان البريطاني، وفي أثناء الحرب العالمية الثانية أصرّ هذا الـرجل الجسـور على العودة إلى الخدمة العسكرية في طائرة قاذفة، فعيّن مساعد مقاتل بناء على طلبه، وفقد حياته في إحدى الغارات الجوية على «برلين» فمات في خدمة بلده كما أراد هو ذلك.

كان «ولسون» يدرك على الدوام شدة تأزّم الوضع[٧]، لكن لم يشاركه في مخاوفه هذه الجنرال «ايلمر هالدن»[٨] الذي نقل مقرّه في حـزيران

---

(٦) أي الحاق العراق بالهند مباشرة واعتباره ولاية من ولاياتها. ومما يذكر بهذه المناسبة أن طائفة كبيرة من «وجهاء» البصرة قدموا إلى بريطانيا مذكرة موقعة بأسمائهم يطلبون إليها إلحاق العراق بالهند. وتضم مذكرات المرحوم سليمان فيضي صورة هذه المذكرة، ولكن من دون ذكر أسماء أصحابها طبعاً. كذلك قدم بعض «وجهاء» الحلة طلباً إلى بريطانيا بأن تعين «السر برسي كوكس»، المندوب السامي البريطاني، ملكاً على العراق حين تردد اسم فيصل ابن الحسين لتولي هذا المنصب آنذاك.

(٧) يحاول سندرسن أن يبرىء ساحة ولسون الحاكم السياسي البريطاني في العراق مما حدث، ولكن دون جدوى. فلو كان ولسون عارفاً بتأزم الوضع، كما يقول سندرسن، لاستطاع بالتفاهم مع الحكومة البريطانية معالجة الأمور وتفادي الثورة سلفاً.

(٨) شـهد هالدن غمار الثورة العراقية ووضع عنها مؤلفاً خاصاً بعنوان: «الاعتصاب في العراق سنة ١٩٢٠». The Insurrection in Mesopotamia 1920 ترجمه ونشره: فؤاد جميل مع تعليقات كثيرة بعضها غير موفق.

(يونيو) من تلك السنة إلى كرند[9].

ولقد برزت ثقة الجنرال هالدن بالأوضاع قبلاً، في موافقته على السماح لخمسمائة وخمسين من زوجات الضباط وغيرهم من الموظفين البريطانيين بالمكوث في كرِند، وكانوا قد وصلوا إليها في شهر آذار (مارس).

ولقد صادف انتقال الجنرال هالدن وأركان حربه إلى كِرند، ظهور أبيات شعرية بصفة سريّة مصبوبة في قالب هزلي تقليداً لقصيدة «تنيسون»[10] المعنونَة: «مهمة اللواء الخفيف» والتي لا أتذكّر منها، مع الأسف الشديد، سوى شطرين. ولقد كان هذان الشطران لسوء الحظ، يمثّلان تركيب هيئة أركان الجنرال هالدن، فهما يقولان: «نصف لك[11]، نصف لك! نصف لك! تبعثرت في تلال فارس، التي كان مقر الجيش يجوس خلالها).

وحين آن الوقت كان عرض القوة سريعاً، سيء التوجيه، وشؤماً.

* * *

في العشرين من شهر حزيران (يونيو) سنة ١٩٢٠ استولى رجال عشيرة بني حسن على مدينة «الكفل» التي تقع على فرع شط الهندية من الفرات. وفي الوقت ذاته وُجّهت أعمال العنف ضد الضباط السياسيين البريطانيين في الأنحاء الريفية، وفي أقسام عدة من البلاد.

---

(٩) كرند: وتعرف باسم «كرنت» أيضاً، بليدة صغيرة على الطريق بين قصر شيرين وكرمنشاه في إيران، تقع بين جبلين وتشتهر بجودة هوائها ووفرة الأثمار وحيوانات القنص فيها.

(١٠) تنيسون: يقصد به الشاعر الإنكليزي فردريك تنيسون ١٨٠٧ ـ ١٨٩٨ م Fredrick Tennyson وقد اشتهر بأغانيه وقصائده التي يتحدث بها عن جمال الطبيعة، ومن أشهر هذه القصائد قصيدته «اليوم الحادي والثلاثون من شهر أيار (مايو)».

(١١) (لك) كلمة هندية أصلها لخ Lakh وتساوي «مائة ألف» وما تزال هذه الكلمة مستعملة لدى العامة في العراق حتى اليوم.

كان الجنرال «ووتشوب» آمر حامية الحلّة ـ وقد عُرف أخيراً باسم السر أرثر، وعيّن مندوباً سامياً بريطانياً على فلسطين ـ مريضاً، وقد تخفف لتوه من واجباته لتمتّعه بإجازة مرضيّة. ولقد أكسبه تعاونه المؤيد احتراماً رفيعاً بين زمرة الضباط السياسيين، فكان من زوّارهم الصريحين الذين كانوا يرحّبون بهم كثيراً. ولذلك فلا يوجد سبب يدعو إلى إلقاء اللوم عليه عن الكارثة التي وقعت بعد ذلك.

لقد بدا على سكان مدينة الحلّة وكأنهم قد تجمّعوا ليشهدوا رحيل الرتل[١٢] الذي تم تجميعه على عجل ليقوم بمحاربة القوة العشائرية الثائرة التي لا تبعد عن المدينة أكثر من عشرين ميلاً.

---

(١٢) يشير الكاتب هنا إلى رتل مانشتر الذي تحرك من مدينة الحلة باتجاه مدينة الكفل لاحتلالها والتقدم بعدها إلى مدينة الكوفة لفك حصار الثوار المحكم عن حاميتها الإنكليزية. ويتألف هذا الرتل وفق مختلف المصادر الإنكليزية من: -

١ ـ فصيلتان من كتيبة خيالة السند ٣٥.

٢ ـ البطارية ٣٩ من المدفعية الملكية. R F A.

٣ ـ الفوج الثاني من رتل مانشستر ـ ينقصه فصيل واحد.

٤ ـ سرية من واحدة من رتل مانشستر.

٥ ـ سرية من كتيبة السيخ الرواد.

٦ ـ حضيرة من سرية المستشفى السيار (٢٤).

أما مصادر الثورة العراقية فتقدر عدد أفراد الرتل (ستة الآف ـ إلى ـ ثمانية الآف) عسكري. احتل الرتل نهر الرارنجية (يأخذ من نهر الشاه وهذا يأخذ من الفرات فرع الحلة) وقد اشتهر نهر الرارنجية الواقع في مقاطعة الرستمية (تبعد عن الحلة بثمانية عشر كيلومتراً، وعن الكفل بإثني عشر كيلو متراً) فيما بعد، بالواقعة التي حدثت عليه والتي اشتهرت باسم معركة الرارنجية. حيث اشتبك الثوار مع الرتل المذكور في معركة كبيرة انتهت بهزيمته هزيمة نكراء. يذكر السر أ. ن. ولسون أن تراجع الرتل كلفهم ١٨٠ قتيلاً وستين جريحاً وحوالي ١٦٠ أسيراً. أما مصادر الثورة فترفع حاصل جمع الأعداد السابقة إلى (ثمانمائة ـ ألف) فرد. مع اتفاق المصادر العراقية والإنكليزية على أن عدد الأسرى كان ١٦٠ أسيراً. والأهم من ذلك أن الثوار غنموا جانباً كبيراً من عدد ومعدات، منها ٧٢ رشاش (فيكرز ولويس) ومدفع من عيار ١٨ باوند مع عتاد. وقد استخدمه الثوار في إغراق الباخرة الحربية الإنكليزية (فاير فلاي) التي كانت تشرق وتغرب في نهر الفرات مما يلي الكوفة لتخفيف الحصار الذي ضربة الثوار على الحامية البريطانية. ومن طريف ما يمكن ذكره هنا، أن

لقد حدث ذلك في مساء أحد الأيام، بلغت فيه درجة الحرارة أثناء الظهيرة وفي الظل درجة ١٢٥ فهرنهايت.

كان جوق الحامية الموسيقي يعزف الألحان العسكرية، وقد ظهرت المدينة وكأنها في عيد من الأعياد، إلى درجة أنه حتى كلاب الطرقات كانت تنبح مُعربةً عن تمنياتها الطيّبة للرتل الجريء الذي شرع بالتحرك!.

كان منظراً مثيراً حقاً. وكنت أنا نفسي أتحسّس ذلك بكل فخر لأنني كنت أرتدي البزّة العسكرية أيضاً.

كان الرتل بعرباته الكثيرة التي تجرّها البغال طويل الامتداد بشكل ملحوظ. فقد كانت هذه القوة تتألف من ثلاث سرايا من كتيبة مانجستر الثالثة والعشرين، ومن سرية واحدة من طلائع «السيخ» ١/٣٢[(١٣)]، ومن فوجين من كتيبة خيّالة السند الخامسة والثلاثين، ومن بطارية مدفعية ميدان.

وكان المعتقد أن تكون هذه القوة كافية بشكل أوفى لمقاومة الخبل الذي استبدّ بالثائرين من أفراد العشائر الذيـن لم يزودّوا بالسلاح تزويداً حسناً، والذين قيل عنهم أنّ عددهم قليل نسبياً.

لقد تم وصف مصير هذه القوة التي عُرفت باسم «رتل مانجستر» وصفاً مُسهباً من لدن الآخرين، من بينهم السر «أرنولد ولسون» في كتابه: «تصادم الولاء في العراق ١٩١٧ ـ ١٩٢٠». وكذلك في كتاب السـر «ايلمر

= الثوار لم يمدوا أيديهم إلى الطعام والأرزاق التي غنموها في معركة الرارنجية، وإنما كرسوه لإعاشة أسرى المعركة نفسها. أما خسائر الثوار في المعركة فقد بلغت ٨٤ قتيلاً و١٥٨ جريحاً، وهم من عشائر آل فتلة (أبو صخير) وآل فتلة (الشامية) والعوابد وبني حسن (البو عارضي) وبعض العشائر الأخرى.

والحقيقة أن معركة الرارنجية تعتبر من صفحات ثورة العشرين الناصعة.

(١٣) السيخ: ويعرفون بالسيك أيضاً، هم الهنود المجوسيـون المتشددون كثيـراً في محاربـة الإسلام والمسلمين. ومعروف أن بريطانيا مثل غيرها من الدول الاستعمارية الأخرى كانت تعتمد في حروبها الاستعمارية على ما كانت تجنده من أبناء المستعمرات، ومن الهند في الدرجة الأولى، حتى في الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥ أيضاً.

هالدن» المعنون: «الاعتصاب في العراق سنة ١٩٢٠» فوصف المؤلف الأول، التنظيم والإدارة بأنها كانت في حالة يُرثى لها.

وطبقاً لذلك فإن إشارتي إلى المأساة ستكون موجزة، وهي إعادة، بصفة رئيسة، للحكاية التي رواها «أوتلو» الذي رافق ذلك الرتل بصفة ضابط سياسي له.

ووفقاً لما رواه «أوتلو» فإن الجنرال «لزلي»، الذي كان يراقب العمليات العسكرية الجارية في أواسط الفرات كان بعيداً عن مقرّه في الديوانية التي تبعد خمسين ميلاً أو نحوها جنوباً.

كان الجنرال «لزلي» قد أصدر أوامره إلى الرتل بأن يستريح في العراء على بُعد حوالي ستة أميال من الحلّة. انتظاراً لتسلّم أوامر أخرى. ولقد نُفِّذَتْ هذه الأوامر حالاً. ولكن في ذلك النهار تعرّض الضابط الذي كان يقود ذلك الرتل المجهزّ بالعدة والسلاح تجهيزاً كثيفاً، لضربة شمس شديدة بصفة مباشرة. ونظراً لقلّة تجهيزات الماء، فقد وجد من الواجب عليه أن يعاود تقدّمه إلى أمام. ولقد حدث ذلك دون انتظار لموافقة الجنرال «لزلي». وبعد أن قطع الرتل المتعَب تسعة أميال، ولم يبق بينه وبين بلدة الكفل سوى خمسة أميال، توقف وأُعطيت له الأوامر بأن يمضي ليلة أُخرى في العراء.

لم تكن تُرى أية قوات ثائرة عندما وصل الرتل إلى هناك. ولم تكن الأوضاع توحي بالتفكير في احتمال وقوع هجوم ليلي، على الرغم من احتجاج «أوتلو» المخالف لذلك.

ولقد ظهر أنّ الوسائل الأمنية الاحتياطية التي اتخذت، كانت تمثل تهاوناً مفجعاً. فلقد هوجم الرتل بعد الظهر. وعند الغسق أحاط به المهاجمون من كل صوب. وأعقبت ذلك ليلة دامسة الظلام لم يظهر القمر فيها. وقد أطبق على معسكر الرتل أفراد القبائل الثائرون وهم يحملون البنادق التركية والخناجر والهراوات، وقد ملأوا الجو ضجيجاً بصيحات الحرب.

لم يكن الهجوم متوقعاً. وقد استحكم الشر عندما راح أفراد قواتنا ـ الذين استنزفت مسيرة اليوم قواهم ـ يقاتلون بأيديهم وجهاً لوجه مع الثوار في سبيل إنقاذ أرواحهم من موت مؤكد.

يضاف إلى هذا الاضطراب أنّ الخيول والبغال ما لبثت أن جفلت، فراحت تضاعف الجلبة بصرخاتها المنبعثة من الألم والفزع.

كانت المعركة الأولى قصيرة ودامية ألحقت إصابات كثيفة بكلا الطرفين. غير أنّ قواتنا التي كانت تقوم بعملية تراجع طويل أثناء الليل، والتي استنزفت قواها بقسوة، بقيت تتلقى المضايقة من خيّالة الثوار إلى أن وصلت مشارف مدينة الحلّة تماماً. لقد قُتل في هذه المعركة مائة وثمانون ضابطاً وجندياً إنكليزياً وهندياً، وجُرح ستون رجلاً، ووقع في الأسر مائة وستون آخرون.

* * *

قبل الساعة الثانية بعد الظهر بقليل، سَمعتُ مطرقة بابنا النحاسية تُطرق بعنف. وبعد أن تلصّصت من فوق المتراس، وشاهدت شخصاً يرتدي البزّة العسكرية وإلى جانبه حصان، هبطت من السُلّم مسرعاً، ففتحت الباب لأجد نفسي وجهاً لوجه أمام «أوتلو» الذي غطّاه الغبار هو وحصانه معاً، وقد جفّ ريقه إلى درجة أصبح فيها صوته غير مسموع، وهو يخاطبني بصوت أجشّ قائلاً: «حسنة لله! أخرج بزوجتك من هنا!».

بعد لحظة قصيرة ظهرت «إلزي» تحمل طبقاً فيه أقداح من الجعة المثلّجة. اقترب مني «أوتلو» كثيراً وراح يتحدث إليّ عن كارثة الليلة الماضية، وعن التراجع الذي أعقبها، وأضاف يقول: «لست أعرف صديقي من عدوّي وأنا في طريق عودتي هذه»!

لقد كان في طريقه إلى مقر الجنرال «بلي». وقد تلطّف فتوقّف هنا لكي يحذّرني مما تنطوي عليه الحالة. وقد ألح عليّ بأن أتبعه إلى مقر الجنرال «بلي» في الحلّة، ومن ثم امتطى جواده ومضى.

تقبّلت «إلزي» الوضع بهدوء عجيب. وكان مبعث قلقها الوحيد هو أن الأوضاع قد تستلزم افتراقنا. وإذ قدرّت ذلك الاحتمال أخذت تحزم بعض الألبسة، في الوقت الذي أسرعت أنا فيه بالذهاب إلى بيت الجنرال «بلي» كيما أتعرّف على رد الفعل لديه إزاء الأنباء المفجعة التي نقلها «أوتلو» إليه.

لم يكن المدنيون من موظفينا قد استيقظوا من النوم بعد. وكإجراء احتياطي تقرّر أنه ينبغي تجاهل كل طرقة على باب دارنا أثناء غيابي، وأنّ إشارة عودتي إلى الدار ستكون ثلاث طرقات متتالية وسريعة تتلوها مثلها بعد عشر ثوان، ولحسن الحظ فلم يكن هذا الاحتياط يحتاج إليه.

كان الجنرال «بلي» منهمكاً في نقاش عاجل مع الضباط السياسيين والعسكريين الذين استُدعوا بسرعة للحضور في شكل مؤتمر. وقد دُعيت أنا للاشتراك في النقاش.

لقد كان توقّع فرض حصار علينا يدور في أذهاننا. ولذلك وُجّه الاهتمام مُسبقاً إلى إمكان إجلاء النساء والعوائل، وأكبر عدد ممكن من الموظفين الذين يمكن الاستغناء عنهم، وكذلك إجلاء المصابين القادرين على السفر، إلى بغداد بالقطار قبل أن يقلع الثوار سكة الحديد.

وفي الوقت ذاته كانت زوجة الجنرال «بلي» قد تسلحت ببندقية وذخيرة لتدافع عن ولديها الصغيرين إذا ما تطلّبت الضرورة ذلك. لقد رفضت رفضاً قاطعاً أن تفترق عن زوجها، وفي الوقت الذي كانت فيه دار الضابط السياسي محروسة حراسة جيدة، فقد حدث تردد في الإذن لها بالبقاء.

كان من حُسن الحظ أنّ قطاراً قادماً من البصرة يوشك أن يصل إلى الحلّة، ولذلك سارع الركاب إلى المحطة بكل ما لديهم من وسائل النقل الآليّة.

كان أحد الضباط الذي عُيّن للخدمة في قوات «الليفي» العربية[١٤]. على وشك أن يلتحق بكتيبته في بغداد، ولذلك عهد إليه بحراسة القطار مع اثنين من نواب الضباط المسلّحين.

كانت رحلة القطار حارّة مغبرة، لكنها، لحسن الحظ، لم تجابه بأي حادث مُعكر. وإن كان سير القطار بطيئاً، ومكوثه طويلاً في المحطات، ووقوفه عدة مرات فيما بين تلك المحطات. لقد كانت وسائل الراحة تنتظر هؤلاء اللاجئين لدى وصولهم إلى بغداد.

* * *

تناولتُ طعام الفطور، بعد عودتي من محطة القطار، وأسرعت بالذهاب إلى المستشفى لأتأكد مما يستطيع «منغال سنغ» أن يرتّبه في حالة وقوع حصار لمدينة الحلّة. ونظراً لكونه من المسلمين؛ فقد كان على ثقة بأنه سيكون في أمان حتى وإن استطاع الثوار الدخول إلى المدينة، ولذلك اتفق معي على أن أواصل أنا زياراتي الاعتيادية للمستشفى طالما كان ذلك ممكناً، وأنه في الحالة التي أخفق فيها في المجيء إلى المستشفى، سوف يتخذ إجراءات مؤقتة.

لقد كان قراره هذا بمثابة نجدة لي؛ لأنه سبق لي أن أجريت ثلاث عمليات جراحية قبل يوم مضى، وكان هنالك قلق عما سيقع بعد المعالجة. . . .

اغتنمت الفرصة، في طريق عودتي إلى البيت، لمواجهة الجنرال «بويل» آمر منطقة كتيبة الليفي الثانية في الفرات، والتي كان مقرّها في

---

(١٤) قوات الليفي Levy وتعرف لدى عامة أهل العراق باسم «لبي». قوات من المرتزقة جندها الإنكليز حال احتلالهم العراق لحماية معسكراتهم ومقراتهم العسكرية. وقد ظلت هذه القوات، ومعظمها من الأثوريين، مستعملة من قبل الانكليز في كل من الحبانية والشعيبة القاعدتين الجويتين البريطانيتين في العراق، إلى أن تم تسليم هاتين القاعدتين في سنة ١٩٥٤ إلى الحكومة العراقية، حيث اقطعت لهؤلاء الأثوريين أراض واسعة للسكن في منطقة الدورة جنوبي بغداد.

مدينة الحلّة. لقد كانت قيادته مستقلّة عن رقابة الجيش. وقد تحدّث إليّ بإيجاز عن مواصلة التطعيم، ثم أردف يقول: لم يقرر القوم بعد ما إذا كانوا سيدافعون عن المدينة، أم ينسحبوا منها عبر النهر، ويحصّنوا المحطة وأبنيتها، ويردّوا الهجمات التي قد تقع عليهم إلى أن تصل إحدى النجدات إليهم. وأضاف إلى ذلك قوله: لقد أردت أن أراك لأعلمك بأنني قد رأيت الجنرال «بلي» وأنبأته بأنه إذا ما تقرر التراجع إلى محطة القطار، فإنني سأدافع عن مقر قوات المرتزقة، وأنك ستكون أحد أفراد هذه الحامية، وأنك ستفعل هذا؛ أليسَ كذلك؟

كان «بويل» من أشجع الرجال الذين عرفتهم، ومع أنه كانت لديّ شكوك قوية جداً عن ضعف هذا الاقتراح المحفوف بالمخاطر، إلاّ أنني كنت أكثر إدراكاً من أن يظنني واجف القلب، ولذلك قررت أن أرد عليه بالإيجاب. ذلك لأن أية بادرة من الوهن تبدو في جوابي قد يطغى عليها صممه، وهو يشدّ على يدي بقوة ويصافحني بحرارة.

بعد ثلاثة أو أربعة أيام استُدعيت على عجل إلى مقر قوات المرتزقة (الليفي) لمشاهدة أحد الجنود، والذي قيل عنه أنه سقط مريضاً فجأة أثناء ما كان يرتدي ملابسه. والواقع أن ذلك الجندي قد مات نتيجة اصابته برصاصة من أحد القنّاصة التي اخترقت جمجمته من إحدى عينيه.

اتسم رد الجنرال «بويل» على ذلك الحادث بالسخط الشديد المثير. فقد اعتاد منذ أن بدأ الحصار أن يقوم بنفسه بحركات استطلاع يومية في الصباح الباكر خارج المدينة، وهو يتطلع إلى دلائل عن تجمعات الثوار.

وكان من عادته أن يصطحب معه أحد الضباط الصغار بصفة مساعد له بالإضافة إلى ستة أنفار من الجُند، لكنه في ذلك الصباح الذي نتحدث عنه ضاعف من عدد الجُند، وراح يصر عليّ أنا بإلحاح كبير أن أصحب تلك السَرية. وعلى هذا أسرج لي أحد جياده، وسلّمني كيساً فيه بعض ملابس الميدان، ثم أوضح قائلاً: ذلك هو الأمر.

لم تكن لديّ رغبة شديدة في الانضمام إلى الحملة. ذلك لأن الجُند

الزائد، ولوازم الألبسة، تُعتبر نذير شؤم لي بالنسبة لممارسة كبيرة، وتأكيداً لعزم الجنرال «بويل» في توجيه التحذير إلى الثائرين، ومباهاة بالروح العالية لقواته. فهو لن يسامحني إن أنا رفضت ما عرضه عليّ، ولذلك تظاهرتُ بمظهر العزم بقدر ما يسمح به الوضع، وتقبّلت المسؤولية.

ما إن غادر الموكب المدينة مباشرة، حتى تفرّق كيما يكون بذلك أقلّ عرضة للهجوم. وبعد مضي ساعة لم يُرَ أو يُسمع شيء ما يرتاب فيه. سرنا خبباً فوق أرض صلدة مقفرة مخلّفين وراءنا صفاً طويلاً من الغبار.

وعلى حين غرة انطلقت إطلاقات من أجمة عند النهر، لم يصب أحد منّا، غير أنّ احد [illegible] صاصات أصابت تاج خوذة ملازم ثان.

كان [illegible] صمم. ولم تكن لديه أية فكرة بأنّ الرصاص قد أخذ يئز إلّا بعد رشقة أخرى من إطلاقات لم تُصب أحداً، حيث وجدت أنّ الوقت يتطلب مني أن أُنبئه بما حدث. كان مساعده يخشى أن يخبره بذلك خوفاً من أن يعتبره جباناً. لكنني نفسي كنت أقلّ خوفاً من «بويل» بالنسبة إلى الرصاص، ولذلك بلّغته بالأنباء، وأشرت إلى الخوذة وحين سأل «من أين أطلقت النار؟..» أشرت إلى الأجمة التي كانت تبعد عنّا زهاء مائتي ياردة.

تم اقتحام الموضع الذي كانت النيران تُطلق منه، حيث وجدنا الرجال الأربعة الذين كانوا يحتلّونه قد خرجوا إلى العراء وأيديهم فوق رؤوسهم.

تم جمع أسلحتهم، وكلّها من البنادق التركية، ثم اقتيد الأسرى عائدين عبر الطريق الرئيس المؤدي إلى مدينة الحلّة، لإيصالهم إلى مقر كتيبة المرتزقة انتظاراً لعقد محكمة عسكرية مُصغرة لمحاكمتهم.

ونظراً لإسهامي المهم في العملية، فقد وُهبت لي البنادق الأربع حيث بعثت بها إلى إنكلترا كيما تُحفظ في الطابق العلوي من داري انتظاراً لهبة مناسبة. أما الثوار الأربعة فقد حُكم عليهم بالإعدام، وكانت مهمتي

البغيضة أن أحضر عملية تنفيذ الحكم على يد فئة من قوات المرتـزقة أطلقت النيران على المحكومين بحنق ظاهر.

لعل من المناسب هنا أن أُشير إلى أنّ قوات المرتزقة التي كانت وظيفتها الأساسية مماثلة لوظيفة الجندرمة، قد بدأ تشكيلها كقوة بسيطة تتألف من حوالي أربعين خيّالاً من أفراد العشائر الذين جنّدهم في سنة ١٩١٥ المقدّم «إيدي» التابع للجيش الهندي، والذي أصبح فيما بعد أحد ضباط الخدمة الخاصة، من بين أفراد العشائر في الناصرية. وطبقاً لذلك عُرفت هذه القوة باسم خيّالة المنتفق، في حين كانت توصف أول الأمر باسم «شبانة».

ولقد توسعت هذه القوة بشكل ثابت وأُقيمت لها مقرات محليّة في كل من بغداد والموصل والحلّة. وفي سنة ١٩٢٢ زاد عدد أفرادها على ستة آلاف شخص، غير أنّ الجيش العراقي ابتلع هذه القوة فيما بعد[١٥].

كان من أهم الصفات المميّزة جداً لأفراد قوات المرتزقة، إخلاصهم الشديد للادارة المدنية البريطانية وللضباط البريطانيين. ففي أثناء ثورة العشرين أثيرت ضد هؤلاء المجنّدين دعاية شديدة، فتعرّضوا للأذى، وسمُوّا بالكفرة، وهُددوا هم وعوائلهم بالموت، وهُتكت أعراض نسائهم، وضويقن، ومع ذلك فلم تترك الخدمة سوى قلّة منهم.

* * *

بعد ظهر اليوم الذي جرت فيه عملية الاستطلاع التي مرَّ وصفها، تقرر الدفاع عن المدينة، فكان هذا القرار أكثر إنقاذاً بالنسبة لي. ذلك لأنني واصلت خلال اليومين السالفين زياراتي اليومية الاعتيادية للمستشفى

---

(١٥) كان كثير من هؤلاء المرتزقة وعلى الأخص من أبناء الناصرية، قد التحقوا بالفيلق الذي أنشأه كلوب باشا في الأردن، والذي كان قوام الجيش الأردني آنذاك. وقد مكثوا في الخدمة هناك سنوات عديدة، بل إن الكثيرين منهم قد تجنسوا بالجنسية الاردنية غير أن الإنكليز اعتمدوا بعد قيام الحكم الملكي في العراق، على المجندين من الآثوريين في الدرجة الأولى لحماية قاعدتي الحبانية والشعيبة.

في مقرّ اللواء بالسراي (وهو عبارة عن قلعة). ولكن بعد أن تصدّى له القناصة مرتين ـ ولحسن الحظ لم يكن المهاجمون من المهرة في إطلاق النار ـ فقد نصحني الجنرال «بلي» بأن أغلق داري، وأن أسكن في مكتبي بصورة مؤقتة. ولقد نفذّت هذا، وتبعني خادميّ الهنديان بالأمتعة، بعد أن قمت بزيارة أخرى للمستشفى ورتبت الوضع هناك على أساس أن لا يُسمح لأحد بالدخول أثناء غيابي إلاّ في الحالات الطارئة، وأن تبقى عيادة المرضى الخارجيين تواصل عملها، أما المرضى الداخليون فقد أُخرج معظمهم من المستشفى، والواقع أنهم هربوا خوفاً من تفاقم القتال المسلّح.

أُقيم جزء مؤلّف من خيام لمستشفى متنقل داخل المعسكر الرئيس لحامية الحلّة. كان عدد المصابين والأطباء والجرّاحين الذين آواهم رتل مانجستر كبيراً جداً يصعب توفير الراحة لهم هناك. وقد أُعدت غرفة في الطابق الأول من السراي تحسّباً لحالات أكثر خطورة، كما هُيئت غرفة للعمليات أيضاً.

ولقد أُعلنت الأحكام العرفية، وراحت المنشورات واللافتات تحمل الإنذارات ضد من يملكون السلاح، وكانت هذه الإنذارات تشتمل على عقوبة الإعدام.

ومع ذلك، وإذ كان السراي هو مقر السلطة المدنية، فإنه سرعان ما تحوّل إلى هدف شهير للقناصة، ولذلك سُدّت النوافذ فيه بأكياس الرمل وقاية من أية إطلاقات نارية تصدر من سطوح المنازل عبر النهر.

كان الأمن في السراي خلال مدة أسبوع، يعتمد على الذين يمتلكون، بصفة شخصية، إطلاقات رشاشات ومسدسات، ازدادت بمضاعفة القنابل اليدوية، مثلما كان المرء يأمل ذلك دون أية أهمية لها دلالتها.

وفي اليوم الذي بدأت فيه عمليات الحشد، تم تخصيص سيارة مدرّعة لتقوم مقام محطة ليلية عند المدخل إلى السراي. كانت تلك السيارة

بعهده مجنّد انفرادي شاب من لندن يُدعى «كوكني»، أهلّته بسالته أثناء الحرب للظفر بدرجة امتياز. لقد كان هذا الشاب معتدلاً بشكل حميد بالنظر إلى أعماله، لكنه كان يتباهى بصفة لا تقاوم بأنه أحد الفتيان الذين ينطبق عليهم قول القائل: «أعط القوس باريها».

* * *

اقتلع الثوار عدة أجزاء من سكة الحديد التي تصل إلى بغداد، بعد أن مرّ القطار المثقل بالنساء والأطفال والمصابين بسلام. وعلى هذا فلم يعد مستطاعاً نقل المرضى والجرحى إلى المستشفيات الموجودة في العاصمة. ونظراً لعدم وجود جرّاح اخصائي فقد طُلب إليّ أن أقوم مقامه، وأن أتولى مهمة الإشراف على أجنحة المستشفى، وتلك واجبات ازدادت تعقيداً بسبب عدم وجود ممرضات بين الأفراد العاملين في مستشفى الميدان المتنقل.

كان المساعد العسكري الرئيس لي، مساعد جرّاح هندي. وهو رفيق متمكن من عمله، ومرح وواع، لكنه ـ ويا للأسف ـ قبل أن يُرفع الحصار عنّا تماماً؛ أُصيب بنوبة قلبية أثناء دورة ملاريا مؤذية فمات في الحال.

كانت غرفة العمليات الجراحية تقع فوق مدخل القلعة مباشرة. ونظراً لأن المهاجمين كانوا يتصورون بأنهم يطلقون النار على الدائرة الرئيسة في السراي، فقد أصبح الجدار الخارجي لغرفة العلمليات عُرضة لمعظم الرصاص الذي انهال على البناية.

كان الصوت أول الأمر مرتبكاً. وكان من سليقتي أن أحني رأسي ـ وهذا ليس هو الموقف الذي يوصى به أثناء إجراء العملية ـ ولكن المرء سرعان ما يتأكد بأن الجدار كان سميكاً إلى درجة كافية للصمود أمام الطلقات التي كان يطلقها الرماة الماهرون من أبناء الرافدين، وحينذاك يستطيع الإنسان أن يمارس عمله دون اكتراث للهزّات الجدارية الزائدة.

بعد يومين من الهلع القاتل، عادت الحياة في الحلّة نسبيّاً إلى

أسلوبها المعتاد. لقد عززت النقاط المرئية في ضواحي المدينة بالحرس، أما أثناء النهار فقد كان الدليل الوحيد على حدوث الثورة، هو ما يقوم به القنّاصة، ذلك لأن أي شخص يرتدي بدلة «الخاكي»، يصبح هدفاً طيّباً، وعُرضة لإطلاق النار عليه.

كان يُعقد في كل ليلة هجوم من نوع ما أو آخر، ويكون هذا الهجوم في بعض الأحيان شديداً، وفي أحيان أخرى اعتيادياً، لكنه كان على الدوام محصوراً في قطاع واحد. ولربما كانت المنافسة بين العشائر تحول دون العمل المركز، ولكن مهما كان السبب، فإنّ هذه المنافسة قد جعلت المقاومة أقلّ إشكالاً، وتسببت طلقات الرشاشات الخفيفة في حدوث عدد لا يحصى من الإصابات بين الثوار.

لم تكن الهجمات شديدة الوطأة دوماً. ولذلك كنا نستطيع أن نقدّر جزرها ومدّها، ونتسلل من سقف السراي. كنا نهرب من صرخات الجرّاحين غير الحذرة وهم يندفعون إلى أمام. وكان إطلاق النار واسعاً إلى درجة أننا أرغمنا إلى التطلّع لوضع غطاء على متراس باب السراي حين حدث مدّ من القصف في أعقاب رمي كثيف من نيران الرشاشات. كانت صرخات الألم تختلط آنذاك بصيحات الحرب. وبعد امتداد متغير للوقت لم يطل أكثر من ساعة واحدة إلاّ نادراً، توقف الثوار عن القصف وتناقص عددهم بشكل واسع.

نشرنا فوق سطح السراي لوحة إعلانات يمكن تقليص أعمدتها أو تمديدها، وهي تحمل بعض الإشارات عن أوضاع الحامية، وعن أي من الحاجات الملحّة.

وكانت إحدى طائراتنا تطير فوق هذه اللوحة مرة أو مرتين في اليوم، لالتقاط المعلومات. وفي ذات الوقت، لإسقاط كيس البريد عليها.

لم أكن قادراً على الاتصال بزوجتي. لكنها كانت قد أعدّت العدّة لإرسال رسالة إليّ بهذه الوسيلة كل يوم.

كانت الطائرات الورقية الملوّنة قد تصاعدت من على سطوح بعض المنازل القليلة بعد ظهر اليوم الذي بدأت فيه حملة رتل مانجستر. وكانت هذه الطائرات ظاهرة في اليوم التالي، وحيث كان يظُن بأنها من وسائل الاتصال بالثوار، فقد صدر بيان بحظرها خلال فترة إعلان الأحكام العرفية.

وباحتلال مدينة «الكفل» أصبحت «الكوفة» عاصمة الخلافة، والتي كانت تتركز فيها إحدى الحاميات محاصرة، وقد وصلتنا هذه الأخبار مع جراح مدني وقد علينا من كربلاء. لقد استطاع هذا الطبيب أن يغادر المدينة بشيء من الحكمة، وراح يبحث عن مأوى له في مدينة الحلة. وقد ذكر لنا هذا الجراح بأن الحاكم السياسي في الكوفة قد قتل أثناء العمليات الحربية(١٦).

كانت حامية الكوفة تتألف من خليط من الرجال معظمهم من الهنود والعرب (من أفراد الشرطة ومن المرتزقة).

وجاء الثوار بمدفع من زنة ثمانية عشر رطلاً، وهو تذكار لديهم للمقاومة التي جوبهَ بها رتل مانجستر، واستُعمل للدفاع عن الكوفة، وذلك عن طريق الاستعانة بخدمات ضابط مدفعي تركي(١٧). وإذا ما صدقت

---

(١٦) كان هذا الضابط السياسي برتبة نقيب ويدعى ستانلي.

(١٧) غنم الثوار هذا المدفع من الإنكليز في معركة الرارنجية الشهيرة وجاءوا به فوضعوه في أحد البساتين في الكوفة. وحين حاصر الثوار الحامية البريطانية في الكوفة أرسل الإنكليز الباخرة «فاير فلاي» إلى شط الكوفة، فكانت تمطر الثوار بنيران متواصلة لأنها كانت مزودة بمدفعين وباثني عشر رشاشاً، أراد الثوار استعمال المدفع الذي غنموه في الرارنجية، لكنهم وجدوا أن المتراس قد رفع منه فأصبح استعماله عاطلاً، وإذا ذاك بعث الثوار برجل منهم إلى بغداد للبحث عن متراس ملائم للمدفع، وقد اتصل هذا المبعوث بالأستاذ سامي خوندة أحد مؤسسي جمعية حرس الاستقلال وصاحب جريدة «الرافدان» فيما بعد، فدله على حداد كان يقوم بأعمال إصلاح البنادق والرشاشات المعطوبة، وقد عاد ذلك الرجل بمتراس جديد إلى الكوفة ركب في المدفع وقذفت به الباخرة «فاير فلاي» فأصابها وأغرقها. وكان الشخص الذي استعمل المدفع من أهل بغداد أيضاً يدعى حسين علوان، كان آنذاك برتبة نائب ضابط لدى الأتراك قبل سقوط بغداد. وقد انضم حسين علوان فيما بعد إلى الجيش العراقي الذي تم تشكيله بعد تشكيل الحكم المدني في العراق ووصل إلى رتبة مقدم فيه.

الرواية التي نُقلت لنا؛ فإنّ أول إطلاقة أُطلقت من هذا المدفع قد أصابت السفينة «فاير فلاي» وأغرقتها، حين كانت تمخر المياه أمام المدينة[١٨].

كانت الأوضاع في مدينة الحلّة أقلّ مشقة بالمقارنة مع أوضاع الكوفة. فلقد حوصرنا في الحلّة لمدة تقلّ عن الشهر الواحد، في حين دامت محاصرة الثوار للكوفة ثلاثة أضعاف هذه المدة، وكانت تحت وابل لا ينقطع من النيران، وراح أفراد حاميتها ضحايا ضائعة.

لقد كانت إصاباتنا في الحلّة قليلة، لكن إصاباتنا في الكوفة تجاوزت خمسين إصابة، نصفها كان قاتلاً أو مميتاً.

كانت أول خطوة ظاهرة لإعادة بناء سكة الحديد بين بغداد والحلّة، هي الإقدام على بناء سلسلة من دور المراقبة يكون أحدها منظوراً من الآخر، وتحرسها قوات هندية، ولقد تمّ إنجاز هذه العملية بمساعدة قطار مدرّع. وما إن تَمّ العمل حتى أصبح في مستطاع العربات الصغيرة المكشوفة المتحركة على سكة الحديد أن تنقل كل واحدة منها اثنين من الركاب مع الأمتعة والبريد من العاصمة إلى الحلّة ومنها إلى بغداد، كان الجنرال «بلي» يصرّ عليّ بأن لا أضيع في أحد الأيام فرصة السفر إلى بغداد التي تهيأت لي، غير أنّ الوضع المحلي في الحلّة لم يسمح لي بتقبّل ذلك.

كان الرجل الذي يسوق العربة المتحركة على سكة الحديد هندياً. وكان المسافر الآخر معي من رجال الأركان. غادرنا مدينة الحلّة في الساعة السادسة صباحاً فوصلنا إلى بغداد بعد أربع ساعات. كانت حرارة الشمس شديدة جداً، لكن الرحلة مع ذلك لم تجابه بأي حادث عدا إطلاقات قليلة أُطلقت علينا من بعيد بعد أن غادرنا مدينة الحلّة مباشرة.

---

(١٨) نشرت سلطات الاحتلال بياناً عن مصير الباخرة «فاير فلاي» في جريدة «العراق» التي كان يصدرها رزوق غنام في العدد ١٢٠ بتاريخ ٢١ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٢٠، جاء فيه: «أما المركب (فاير فلاي) فإنه جالس على الطين ومهشم».

حين كنت في طريقي إلى غرفة التمريض في السراي، حيث ما تزال زوجتي مقيمة هناك، استُدعيتُ إلى مديرية الصحة حيث أخبرني العقيد «لين» بأنه ما أن ينتهي الاضطراب السياسي، فإنني سوف أُنقل حالاً إلى بغداد لأداء الواجب فيها. لقد كانت تلك أنباء مفرحة، ولذلك أسرعتُ لكي أشارك «إلزي» في عملها وهي التي لم تكن لديها أية فكرة عن وجودي في دار السلام.

كان مقرّراً أن تغادر العربة التي جئت بها من الحلّة محطة غربي بغداد في الساعة الثانية والنصف ظهراً، ولذلك كان ينبغي علي أن أسرع بعد تناول طعام الغذاء ـ للّحاق بها.

انتهى حصار مدينة الحلّة بعد وصول قوة كبيرة تحت إمرة الجنرال «لزلي»، وهي القوة التي اشتركت في مقاومة الثورة، وقد نُقلت هذه القوة من الديوانية شمالاً. وفي نهاية شهر آب (اغسطس) تمت استعادة منطقة الفرات على نطاق واسع.

نُقلتُ إلى بغداد في أوائل شهر أيلول (سبتمبر) فعُيِّنت جرّاحاً مدنياً، وعُهد إليّ بالإشراف على ردهة التمريض في السراي، وهي إحدى وحدات المستشفى العام. ولقد رحبّت بهذا التعيين، ومع ذلك فلا يوجد سبب يجعلني أعتبر السنة التي أمضيتها في الحلّة من الأوقات الضائعة.

الفصل الرابع

إختياري طَبيبًا خَاصًا لِلملك فَيصَل الأول

جاء السر برسي كوكس، الذي اشتهر في أنحاء الشرق الأوسط باسم «كوكز»، بعد السر أرنولد ولسون في منصب الحاكم المدني البريطاني العام في العراق، وذلك بعد انتقالي إلى بغداد مباشرة. ولما كان السر كوكس قد شغل منصب الوزير المفوّض لبريطانيا في إيران، فقد شرع يخطّط لإعادة الهدوء في تلك البلاد، بالتعاون مع القوات البريطانية التي أُرسلت من العراق إلى إيران.

كان اهتمامه الفوري العاجل ينصبُّ على إيجاد شكلٍ من حكُمٍ يلائم قيام دولة عربية حديثة. لقد كانت تلك مهمة حافلة بالمشاق، لكن تم إنجازها بسرعة حميدة، وبمساعدة طائفة ذكيّة من المتعاونين، من بينهم المس غرترود بل سكرتيرة الشؤون الشرقية، والسر إدغار بونهام كارتر المستشار القضائي، والسر همفري (كان يُدعى السيد «بل» قبلاً) السكرتير القانوني لحكومة السودان، والسيد دراوور (عُرف باسم السر «دون» مؤخراً) المستشار القضائي.

كان السر برسي كوكس والسيدة زوجته فرحين بعودتهما إلى بغداد. ذلك لأن الحياة في إيران لم تكن ملائمة، ولأن الأوضاع الاجتماعية في تلك المنطقة كانت بدوية في الغالب.

وفي الوقت ذاته كان هنالك حوالي خمسة وعشرين ألف نسمة، يجري تزويدهم بالحساء وبالخبز على يد قوّات حملتنا العسكرية هناك.

فلقد كتب العميد «دكسن» مدير الدائرة المحليّة لقوات الحملة البريطانية في العراق، بعد زيارة رسمية قام بها إلى إيران في سنة ١٩١٧ في تقرير أعدّه يقول فيه: «إنها لحالة محزنة جداً، هي تلك الحالة التي ما زالت قائمة في «همدان»، وفي المناطق المحيطة بها مباشرة، ولو أن معدّل الوفيات قد هبط من مائتين إلى أربعين شخصاً كل يوم».

«ولقد أنبأني أحد الأوروبيين أن امرأتين قد رُجمتا بالحجارة حتى ماتتا لأنهما كانتا تقتلان الأطفال وتأكلانهم، في حين يوجد مثال مثير آخر عن الحالة التي تردّى إليها الناس. وذلك أنّ صبياً في الرابعة عشرة من عمره قد نهش لحم ذراع أخيه البالغ من العمر ثماني سنوات، والذي مات لتوّه نتيجة ذلك».

كانت واجباتي كطبيب مدني مرتبطة بإدارة دار التمريض، والعناية بالمرضى الذين يُقبلون فيها. وقد هيّأ لي هذا العمل وظيفة مقبولة حتى الربيع التالي عندما مُنحت ـ بعد خدمة دامت ثلاث سنوات ـ إجازة أمدها ستة شهور.

تمّت رحلتنا ـ خلال الإجازة ـ أنا وإلزيّ إلى إنكلترا عن طريق بومباي. وقد حُجزت لنا مقصورة في إحدى سفن نقل الركاب. ولما كانت السفينة لن تقلع قبل مضيّ يومين، فقد استطعنا أن نستمتع بالتفرّج، وبوجبة تقليدية من «الروبيان» المفلفل في «نادي يخت بومباي» قبل أن نبحر إلى مارسيليا.

كان على ظهر السفينة معنا كثيرون من الموظفين البارزين في الحكومة الهندية، لكن كانت من أكثر المسافرين كياسة هي «روزيتا فوربس»[١] التي غادرت السفينة في ميناء «بور سعيد» وهي في طريقها عائدة من رحلتها الاستكشافية إلى «واحة كفرة»[٢].

---

(١) روزيتا فوربس: من النساء الإنكليزيات الشهيرات، قامت برحلات واسعة في أنحاء مختلفة من آسيا وإفريقيا قبل الحرب العالمية الأولى وما بعدها، ووضعت عن رحلاتها تلك كتباً طريفة، وهي تعد المرأة الإنكليزية الثالثة، بعد «المس بل» و«فريا ستارك»، التي اشتهرت

لقد تم إقناع الآنسة «فوربس» بأن تتحدّث عن اكتشاف هذه المنطقة التي ما تزال مجهولة على نطاق واسع. وكان حديثها الشهي مظهراً بارزاً من مظاهر السفر عبر منطقة البحر الأبيض المتوسط. وكان الشخص الذي رافق «روزيتا فوربس» في رحلتها تلك، والتي لم يسبقها إليها أحد، هو «حسنين باشا»[٣] أحد المصريين اللطيفين جداً، والذي أصبح فيما بعد من الرجال المشهورين في البلاط الملكي المصري، وكان من سروري أن التقيت به أثناء عدّة زيارات قمت بها إلى مصر.

وبعد سنوات قلائل من ذلك الوقت قامت روزيتا فوربس بزيارة العراق، ولذلك سُررنا أنا والزي بالالتقاء بها مرة ثانية. كانت في ذلك الوقت متهيئة للسفر إلى الحبشة، في مهمة تتعلق بتصوير أحد الأشرطة السينمائية، وقد توقفت وهي في طريقها إلى هناك، لتدرس بعض الوقائع عن الحياة في العراق.

ولقد دارت في ذلك الوقت حكايات كثيرة عن الالتقاء بين روزيتا فوربس والمس بل سكرتيرة الشؤون الشرقية للحاكم السامي البريطاني العام، وذلك في حفلة شاي أُقيمت في دار المقيمية البريطانية وقد اعتبر الجميع تلك اللقاءات جافة. وأشهر ما ذُكر عنها أنّ روزيتا فوربس قد حيّت «المس بل» بقولها: «أعتقد أنك قمت ببعض الأسفار». فردّت المس بل على ذلك قائلة: «أعتقد أنك قد وضعت كتاباً». وفي حديث جرى بيننا فيما بعد، سألتُ المس بل عما إذا كانت تلك الحكاية صادقة؟.. فأجابت: «بعض الشيء»! ومن ثم غيّرت الموضوع في الحال.

كانت المس بل واحدةً من أعظم الذين نشطوا في الدعاية لتتويج الملك فيصل، وظلّت السند الغيور للحكومة الجديدة حتى وفاتها المفاجئة

---

(٢) واحة كفرة: من الواحات الشهيرة في الصحراء الغربية داخل الأراضي المصرية التي يقطنها البدو، وكان حسنين باشا في مقدمة الذين استكشفوا هذه الواحة في سني العشرينات.

(٣) تولى منصب كبير مرافقي الملك فؤاد والمستشار الخاص للبلاط، وبقي في منصبه هذا حتى في عهد الملك فاروق.

سنة ١٩٢٦. ولقد جرت لي عدّة لقاءات متواصلة معها، وتأثّرتُ بشجاعتها، ولم يكن تأثّري بفكرها الوقّاد ليقلّ عن ذلك. فالمس بل التي اشتهرت ككاتبة ورحّالة، كانت قطعاً من أعظم النساء الموهوبات في زمانها، كما تؤيّد ذلك كُتب رسائلها التي تم نشرها.

بعد ظهر يوم أحد من أيام الصيف، وفي الوقت الذي كانت فيه إلزي في انكلترا، قمت أنا والمس بل والسر كنهان كورنواليس مستشار وزارة الداخلية العراقية، والسيد لنول سميث مستشار وزارة المعارف العراقية، والسيد ريجارد كوك ـ وهو اسكتلندي ثقّف نفسه بنفسه، ووصل إلى وظيفة مستشار مديرية الأوقاف العامة في العراق ـ قمنا بسفرة نهرية في زورق بخاري إلى ما وراء الكاظمية، فنزلنا إلى بقعة محبّبة، كانت مثالاً لأمكنة السباحة. وبعد أن استحممنا، أقبلنا على تناول سمكة كانت قد أُخرجت حيّة من الماء، ثم شُويتْ على نار من سعف النخيل، بالإضافة إلى تناول الخبز والرّقي. وكان كل واحد منّا قد قام بدور المضيف لقاء ذلك. ولقد توفي سمث قبل سنة خلت وهو في الحادية والتسعين من عمره ومنذ ذلك الوقت بقيت أنا الوحيد على قيد الحياة من تلك الشلة.

كانت إجازتي التي سمحت لي بأن أقضي أربعة شهور في إنكلترا، قد وفّرت لي فرصة الدراسة بعد التخرّج، تلك الفرصة التي لم أجرؤ على تجاهلها. فقبل أن أغادر بغداد تحدثت عن مطامح المستقبل مع العقيد «لين»، وقد وعدني بأن يعيّنني في القسم الطبّي في المستشفى العام الجديد (المستشفى الملكي فيما بعد) عند عودتي من الإجازة، وعلى هذا الأساس جددتُ عقدي لمدة ثلاث سنوات أُخر.

وعند عودتي إلى إنكلترا وجدتُ أنّ دورة التعليم للظفر بشهادة دبلوم جامعة لندن، على وشك أن تبدأ في مدرسة لندن لطبّ الأقطار الاستوائية، ولذلك دخلت فيها مباشرة.

ولقد شجّعني على عملي هذا السر وليم ولكوكس[٤]، الذي توقّع

---

(٤) هو المهندس البريطاني الشهير في مجال الري، وهو الذي بنى سدة الهندية في العراق سنة =

مستقبلاً زاهراً لطبيب شاب في العراق أكثر مما يتوقّعه في إنكلترا. وأنبأته بأنني أعددت نفسي للاشتراك في امتحان طبي للحصول على درجة دكتوراه في الطب، وأن أقدّم أطروحتي فيها بعد، وأبذل محاولة للفوز بعضوية الكليّة الطبيّة الملكية في «أدنبره». ولقد علّق بلطف على أهدافي الواسعة هذه، لكن كان يخيّل إليّ بأنه كان يعتبر هذه المحاولة مجرّد لعبة ادعاء ليس إلاّ.

ومع كل هذا صمّمت على أن أبذل كل جهدي لتحقيق ذلك، لأن تأجيل الأمر يعني أنّ عليّ أن أنتظر إلى أن أستطيع التمتّع بإجازتي المقبلة في الوطن، وبعد ثلاث سنوات من الآن على أقلّ تقدير. ومع أنني كنت أدرك أنّ الراحة والاستمتاع هما الغرضان المباشران للإجازة، إلاّ أنني كنت مقتنعاً بأنّ مسلكي الوظيفي معرّض للخطر.

كانت نظرة زوجتي إلزي إلى ما صمّمت عليه، خالية من الاستبشار؛ لكنها صادقت على الموضوع بشجاعة، وزوّدتني، أنا نفسي، بالجرأة الثابتة. لقد كانت تلك مهمة شاقة لكنها كانت ممتعة، وهكذا تم التخلّي عن مباهج ألعاب التنس والرياضة الأخرى، وقلّص عدد الأيام المخصصة لمشاهدة المسرحيات والأوبرات، وراح الأقارب والأصدقاء يهتمون بتسلية إلزي وإمتاعها. ولقد استطعنا أن نعثر على فندق مزوّد بوسائل الراحة؛ يقع على مقربة من مكان الدراسة، وبذلك أمضينا إجازتنا فيه.

كان الامتحان لنيل شهادة الدكتوراه في الطب، يتطلّب القيام برحلة في القطار إلى «أدنبره»، لكنني كنت أسافر بكل وسيلة ممكنة أثناء الليل، وبذلك كنت أقلّل من تغيّبي عن الدرس في لندن.

ولقد صمّمتُ بأن أُرضي الممتحنين، وأن ألتقي ببعض الأصدقاء القدامى، ومن بينهم رئيسي الدكتور هوب فولر، الذي أصرّ على دخولي الامتحان، وبذلك منحني التأكيد الذي كنت في حاجةٍ ماسّة إليه. ولقد

= ١٩١٢. كما بنى سدة مماثلة لها في مصر. وله كتاب ضخم وقيم جداً عن الري في العراق.

برهن ذلك الامتحان، الذي امتدَّ ثلاثة أيام، على أنه كان منتقى بشكل صارم.

كان هناك تسعة من المرشّحين للامتحان ليس إلاّ، من بينهم سيّدة، كانت هي الأولى من بنات جنسها التي تحضر الامتحان. وفي الختام، وبعد انتهاء الامتحانات الشفهية، اندفعنا بعد ظهر اليوم الثالث إلى إحدى الغرف الداخلية، حيث قيل لنا بأنّ النتائج سوف تُعلن للمرشّحين غير الناجحين، وذلك بأن سُلّم كل واحد منهم مظروفاً كان يحتوي على نسبة سخيّة، أظنها نصف الأجور التي دفعوها للالتحاق بالدورة. كان الامتحان الشفهي، مثيراً للرهبة والخوف. فقد جلس اثنا عشر من أشهر الأساتذة في الكلية، كل اثنين معاً في مقعد واحد، أمام موائد صغيرة في المكتبة الجميلة، حيث أخذنا نظهر بالتتابع أمام كل واحد منهم، لكي نواجه بالأسئلة التي صممت للكشف عن الخلل الذي يظهر في حصانتنا الحرفية.

بقينا حوالي ساعة ننتظر بقلق لنعرف مصيرنا، تتقاذفنا أحاسيس من عدم المبالاة. ومن ثم أقبل حامل الصولجان؛ فدخل الغرفة وهو يحمل خمسة مظاريف بيضاء كبيرة. كان أول اسم قُرِىء منها هو اسم تلك السيّدة المرشحة التي انفجرت باكية. وكان من حُسن حظي أنني كنت أحد المرشّحين الأربعة الباقين. ولقد انتُخبت عضواً في الجمعية الطبيّة الملكية بعد خمس سنوات من ذلك الوقت.

ابتسم لي الحظ فَعدتُ إلى بغداد فخوراً، لأنني ربما كنت الوحيد الذي يحمل تلك الشهادات الطبية في هذا القطر. كان العقيد لين ـ أثناء تمتّعي بالإجازة ـ قد تقاعد، وخلفه في منصبه العقيد «غراهام» (الذي أصبح مؤخراً رئيس الصحة العامة في الهند، وبعد أن غدا يُدعى (اللواء السر جيمس).

وإذ سجلّت تأريخ عودتي، أنبأني غراهام بأنّ مرض الجدري قد انتشر في العاصمة بغداد، وبأنني قد عُيّنت مؤقتاً بوظيفة مدير مستشفى

العزل[٥]. استمرت وافدة الجدري لمدة خمسة أشهر، إلى أن بدأ فصل الشتاء، وفي النهاية عُيّنت مديراً لردهات المستشفى الملكي، وهو التعيين الذي لاءمني كثيراً.

كانت أول إصابة بالجدري قد اكتُشفت في طفل عمره ثلاثة أشهر، كان أبواه كرديان يعيشان في إحدى الصرائف القائمة في المدخل الشرقي لمدينة بغداد. وكان الأبوان قد أخذا طفلهما إلى مستوصف حكومي لمعالجته، على أساس أنّ المرض من نوع الأمراض الجلدية. لكنهما ما أن عرفا طبيعة المرض الحقيقية حتى أخفيا الطفل، لكي يتجنّبا بذلك عزله.

ولقد وقِعت إصابات أُخرى في ذات مخيّم الصرائف، ولكن لم تُكتشف سوى قلّة من المصابين، على الرغم من التحريات الدقيقة المنظّمة التي كان يقوم بها موظفو مكتب الطب العسكري لدائرة الصحة. فقد كان الأطفال المصابون يهربون من المخيّم، من الصباح حتى حلول الغسق، ولم تكن الفتيات يتمتّعن بذات الرعاية من الآباء، فكان خروجهنّ من المستشفى لا يلقى المعارضة، وكان مصيرهنّ النهائي «بيد الله، فإذا لم يرد الله شفاءهنّ فلن يستطيع أحد أن يكتب لهنّ الشفاء، وعلى هذا فلا داعي للبكاء».

وهكذا كانت هذه الفلسفة تطبق بالنسبة إلى الإناث. أما الذكور فكانت الألسن تلهج بالدعاء بأن تُكتب لهم الحياة إن شاء الله. ونظراً لعدم وجود طبيبات؛ فقد كانت الشابات المسلمات يتمتّعن بالإعفاء من الامتحان.

من بين كل المصابين الذين أُدخلوا المستشفى، وعددهم مائة وثمانية وستون، لم يُتَوَفَّ سوى أربعة وثلاثين شخصاً منهم. وكان مائة وتسعة

---

(٥) كان هذا المستشفى يقع في جانب الكرخ، وعلى مقربة من مقبرة الشيخ معروف الكرخي، وقد أبدل اسمه إلى مستشفى الحميات، ومن ثم أصبح يعرف قبل بضع سنوات باسم مستشفى الكرامة.

وثلاثون من مجموع المصابين تقلّ أعمارهم عن عشر سنوات. أما الذين تجاوزت أعمارهم هذا السن، فقد بقوا كلّهم على قيد الحياة، عدا خمسة منهم، وكان من بين الذين أُصيبوا بهذا المرض قلّة من الأوروبيين الذين رفضوا التطعيم باعتبارهم من الممانعين الواعين!.

كان تدبير شؤون الموتى قد عُهد به إلى متعهد بالدفن من قِبَل البلدية. وقد جُهِّز هذا المتعهد بمخزن لقماش الأكفان والتوابيت، وكان هذا المتعهد يحضر إلى المستشفى عندما يتم استدعاؤه، وقبل أن يغادر لا بدّ له أن يتأكد من الدائرة المختصة، من عدد المرضى المدرجة أسماؤهم في قائمة ذوي الحالات المرضيّة الخطرة.

* * *

تُوِّج فيصل، وهو الولد الثالث للحسين بن علي ملك الحجاز، ملكاً على العراق في اليوم الثالث والعشرين من شهر آب (أغسطس) سنة ١٩٢١، وذلك قبل عودتنا ـ أنا وإلزي ـ من إجازتنا في إنكلترا بمدة شهرين. كان من بين موظفيه الذين جيء بهم من خارج العراق، طبيب يُدعى «العقيد معلوف»[٦] الذي بقي سنوات عديدة الصديق الملازم للملك، والموثوق به من لدنه.

وفي أثناء تعييني مؤقتاً في مستشفى العزل المدني، استُدعيَ زملائي في مصلحة الصحة للمشاورة، وقد استُدعيت أنا أيضاً بعد ذلك مباشرةً إلى غرفة الاستقبال الملكية. كان جلالته يشكو من سوء الهضم، ولم يكن علاج ذلك ليتطلب سوى القليل من إعادة تنظيم الغذاء، واستعمال مزيج قلوي.

كانت تلك هي بداية علاقتي مع العائلة المالكة في العراق، والتي استمرت طوال ربع قرن من الزمان.

---

(٦) هو الدكتور أمين المعلوف، وهو سوري، وقد بقي في الخدمة في العراق سنوات طويلة، وتولى عدة مناصب منها: مدير الأمور الطبية في الجيش.

أُستقبلتُ من لدن الملك فيصل بابتسامة ترحيبية حارة، ومصافحة وديّة خالصة. كان الملك فيصل الأول يرتدي أثواباً حريرية بيضاء، فوقها عباءة من الوبر. وكان لباس رأسه كوفيّة بيضاء فضفاضة؛ مطرّزة بخيوط ذهبية، كانت مع العقال تعلن عن نسبه.

كان فيصل يؤلّف شخصية محترمة ومهيبة في وقتٍ واحد. عينان بلون البندق، ومحيّا حسن، وقوام نحيف مشدود فوق مستوى الارتفاع بقليل، وشارب أسود، ولحية مقرمة تقريماً نظيفاً.

كانت معرفتي باللغة العربية محدودة، وقد خاطبت جلالته بهذه اللغة. وعندما ارتبك الملك بسبب لغتي الدارجة، تطلّع إلى الترجمة عن طريق العقيد معلوف، ثم سألني أن أتحدّث باللغة الفرنسية.

كانت تلك مناسبة مفرحة جداً، وخالية من المراسيم. كان الاهتمام المتبادل خلالها قد توطّد، كما أعتقد، وازداد عمقاً بمرور الأيام، ومن دون أدنى تلميح إلى سوء التفاهم، أو وعكة في المزاج.

كان السر برسي كوكس قد حصل على مخطَّط حديث لشجرة نسب العائلة الملكية، وعند وفاته تفضلت زوجته السيدة كوكس فقدّمت ذلك المخطَّط إليّ. وعندما كنا، أنا وإلزي، ضيفين على الملك فيصل الثاني بمناسبة تتويجه في سنة ١٩٥٣، أخذنا معنا ذلك المخطَّط الذي يخصُّ أجداده وقدّمناه إليه هدية. ولم يكن الملك فيصل الثاني يعلم بوجود أية وثيقة من هذه النوعية، ولذلك تقبّلها منّا بفرح ظاهر جداً؛ وأصبحتْ من أثمن مقتنياته، ولكن لا يوجد أي احتمال ببقاء تلك الوثيقة، بعد أن نُهبت القصور الملكية، في أعقاب مقتل الملك فيصل الثاني، وبقية أفراد العائلة.

كان «حسين بن علي» وهو الشخص السابع والثلاثون المتحدر من نسل الرسول «محمد» (ص) من ابنته «فاطمة» زوجة «علي بن أبي طالب» (رضى)، قد ولد في اسطنبول سنة ١٨٥٢. وقد جيء به إلى العاصمة التركية ومن ثم أعيد إلى الحجاز عند وفاة والده. وكان عمه «عبد الله» قد

عين أميراً على مكة وشريفاً أعظم، وسادناً للأماكن المقدسة.

كان الزواج بالأقارب الادنين يعد من الالتزامات المفروضة، وأن أي زواج آخر لا تعتبره العائلة يتناسب مع سلالة شرفها. وعلى هذا الأساس تزوج «حسين» من «عبدية» ابنة عمه الشريف الأعظم فانجبت له ثلاثة أولاد هم «علي» و«عبد الله» و«فيصل».

ولقد توفيت زوجته بعد ولادة فيصل بثلاث سنوات، وإذ ذاك تزوج من امرأة أخرى كانت بنت أحد المواطنين الأتراك ويدعى «صالح بك»، وقد غدت هذه المرأة أماً للأمير زيد: ولابنتين هما «سارة» و«فاطمة».

كان حسين يتوقع أن يخلف عمه في منصبه كشريف أعظم. وعندما عين السلطان عبد الحميد عضواً آخر من العائلة لملء المنصب الشاغر، اشتد سخط حسين وبقي حانقاً إلى أن تم استدعاؤه إلى العاصمة التركية، وطلب إليه العيش فيها. وكان ينظر إلى حسين هناك بأنه سوف يثير المتاعب في المستقبل، ولذلك تطلب فرض المراقبة على تصرفه. وهكذا امضى مع عائلته زهاء ثماني عشرة سنة أو ما يقاربها، وكان يعتبر في نظر السلطان عبد الحميد ضيفاً غير مرغوب فيه.

استطاع الحسين بن علي الذي كان يعيش في منفاه باسطنبول أن يعود إلى موطنه في «مكة»، بعد رحيل السلطان عبد الحميد الثاني. كما استطاع الاتصال بالجمعيات السريّة في كلٍّ من دمشق واسطنبول، وراح يساند الحركات القومية العربية ويستعد للثورة.

ولقد حضر فيصل عدة اجتماعات سريّة مندوباً عن والده، وقام بمهمات خطيرة، وكانت حركاته تلك، ولا سيما في سوريا، من الأسباب التي أدّت إلى زيادة شكوك الأوساط الحكومية العثمانية.

وفي شهر حزيران (يونيو) سنة ١٩١٦، ألغى الحسين تبعيته لتركيا، وأعلن استقلال الحجاز، وفي الوقت ذاته نادى بنفسه ملكاً على الأقطار

العربية، وذلك إجراء لم يُقابل إلاّ بحماسة ضئيلة خارج نطاق الحجاز، ولو أنه تمّ الاعتراف بملوكيته على ولايته.

كانت قصة الثورة العربية الظافرة، بمساندة من قوات الجنرال اللورد اللنبي في حملة فلسطين، والتي ذاع فيها صيت فيصل ولورنس، هـذه القصة قد تمّ تدوينها على نطاق واسع ومفصّل في كثير من الكتب، ولا حاجة إلى الإشارة إليها هنا.

في شهر آذار (مارس) سنة **١٩٢٤**، وبعد إبعاد السلطان عبد المجيد عن تركيا، ارتكب الملك حسين ـ وربما كان مدفوعـاً إلى ذلك بنسبـه الرفيع ـ خطأً فظيعاً يستحق اللوم، بالشكل الذي ورد في أحـد الأمثال الفرنسية، والقائل: «إن لم تكن تلك أسوأ جريمة فإنها أسوأ غلطة!».

فقد أعلن الملك حسين نفسه خليفة للعالم الإسلامي، ذلك الإعلان الذي أدى إلى فقدان عرشه، وإلى وضع نهاية لسلالته الحاكمة. فسرعان ما وجد نفسه في حرب مع «ابن السعود» سلطان نجد، وهكذا أُجبر الملك حسين بعد ستة أشهر على التنازل عن العرش لولده الأكبر «علي».

أما الملك الجديد هذا، فقد مارس عمله بحذر شديد لمدة سنة، ثم تخلّى عن عرشه بعد أن احتلّ ابن السعود مكة، وأعلن نفسه ملكاً على الحجاز.

وفي سنة **١٩٢٧** أضاف ابن السعود إلى نفسه لقباً آخر هو: ملك نجد، ومن ثم وُحّدت الدولتان في دولة واحدة سنة **١٩٣٢**، فأصبح ابن السعود ملك المملكة العربية السعودية.

* * *

أصبحنا خلال شهور، أنا وزوجتي إلزي، نعامل وكأننـا من أفراد العائلة المالكة. فقد كنا ندخل القصر الملكي متى نشاء، وفي أي وقت من الأوقات دون أدنى قـيد، وذلك امتياز سخيّ نادر، ظللنا نتمتع به داخل العراق وخارجه طوال ست وثلاثين سنة، إلى أن تمّ القضاء على الحكم

الملكي في تموز (يوليو) سنة ١٩٥٨.

لقد كنت ذا حظٍّ سعيد لأنني استودعت من الأسرار، ما لم يشارك في الاطلاع عليها سوى عدد ضئيل جداً من الأفراد. وليس من المفيد في الوقت الحاضر أن أدّعي بأن الملك الذي كان يتطلع إلى مشورتي دوماً لم يكن خالياً من أي احترام لتلك المشورة.

لقد كان الملك فيصل يتحدث على الدوام عن أمله في إنجاز الوحدة العربية، وذلك إما عن طريق إنشاء مملكة موسّعة، أو عن طريق إقامة اتحاد للدول العربية. وكان يرفض الرأي القائل: بأن أياً من هاتين السياستين لا يمكن تطبيقها. وقد ظلّ هذا الأمل يراود مخيّلته حتى وفاته.

ومن بين الموضوعات الأخرى التي كنا نتناقش فيها باستمرار، هي الأحوال السياسية، وشؤون العائلة، والصحة العامة، والتطور الاقتصادي، وقضية فلسطين، وقضايا الأثوريين والأكراد، وأمور الزراعة والتعليم.

وكان فيصل نادراً ما يستشف آرائي الشخصية في وزير معيّن من وزرائه الذين كنت أعرفهم معرفة جيدة.

أُصيبت زوجتي خلال الربيع التالي بحُمّى التيفوئيد. وبفضل المعالجة والإسعاف، سارت الحياة سيراً لطيفاً من دون أحداث. وكانت المس «بل» قد تولّت تقديم زوجتي «إلزي» إلى الملكة «حزيمة»، ولذلك وجدت نفسها في الحال، وقد عُهد إليها بسلسلة من الواجبات التي تنهض بها عدة نساء ممن أُوكل إليهنّ أمر العناية بالملابس، وغرف النوم، وغرف الانتظار وما شاكلها.

لقد وجدت الملكة، وبقية أفراد العائلة اللواتي انتقلن من الحياة المقيّدة في مكة، إلى الأوضاع الاعتيادية في بغداد، أنهنّ في حاجة ماسّة إلى الاستشارة. وهكذا لم يمضِ وقت طويل حتى أصبح الملك فيصل نفسه يتطلّع إلى نصيحة «إلزي» بشأن تأثيث ديوانه، وغرف الاستقبال، وإشرافها على الولائم الرسمية التي كانت تقام في القصر.

بعد تتويج الملك فيصل الأول بسنة واحدة ويوم واحد، أُصيب على حين غرّة بمرض خطير، وكان ذلك هو الحادث الذي أدى إلى تعييني طبيباً خاصاً لـه. لـقد استدعاني الطبيب العقيد أمين معلوف إلى القصر في حوالي الظهر، وعندما وصلت إلى هناك كان فيصل يشكو من ألمٍ شامل في جوفه دام بضع ساعات.

كانت بداية الألم مفاجئة. فقد ابيضّ لسان جلالته، وارتفعت حرارة بدنه قليلاً، وأسرعت نبضات قلبه نوعاً ما. قمت بإجراء تشخيص تجريبي للزائدة الدودية، لكن العقيد معلوف كان متردداً في الموافقة على ذلك. وعندما اقترحت تنظيم استشارة طبية مع الدكتور «نويل براهـام» الجرّاح الأكبر في المستشفى الملكي، رفض العقيد معلوف هذا الاقتراح أيضاً، وأخذ يقول: «عد إلى هنا في الساعة الرابعة، فأنا متأكد بأن الملك سيكون أحسن حالاً في ذلك الوقت». وافقت على التخلّي عن تقديم المشورة الطبيّة التي كنت أتـطلّع إليها عنـد عودتي. وعنـد إعادة الفحص على جلالـته، وجد أن حالته العامة لم تتغير إلاّ قليلاً، لكن الألم كان قد استقرّ نوعاً ما في منطقة الزائدة الدودية، وكانت درجة تصلّب العضلات ظاهرة في تلك الجهة.

أصررتُ على أن يُستدعى الدكتور براهام لغرض عقد مشاورةٍ طبيّة. وبطلب من الدكتور أمين معلوف أوضحتُ الحالة للملك، فوافق جلالته على ذلك دون أدنى تردّد. وهكذا عدت إلى القصر مصطحباً معي الدكتور براهام، بعد ساعة من ذلك الوقت. أيّد الدكتور براهام التشخيص الذي أجريته، أنا، لكنه أراد أن يؤجل القرار بشأن إجراء عملية جراحية، إلى إجراء فحص آخر خلال أربع ساعات من الزمن. وفي الوقت ذاته اختيرت إحدى غرف القصر لإجراء العملية فيها، وتمّت تهيئة الموظفين والمعدّات اللازمة للمستشفى؛ في حالة الإقدام على إجراء العملية عند أول إشارة بذلك.

لم يكن هنالك أي تفكير في نقل جلالته إلى المستشفى، وذلك

بسبب ما يتطلّبه مثل هذا الأمر من أمن وسريّة. لم يحدث سوى تغيير طفيف في حالة جلالته عندما شاهدناه في المرة التالية، ولذلك تقرر أن تُجرى العمليَة في الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي، ولقد وافق الملك بكل هدوء على هذا القرار، وبرضا واضح.

كان العقيد أمين معلوف يبكي ويتوسّل إليّ بأن أمضي الليل في القصر، ولذلك أسرعت في العودة إلى داري لكي أجمع الأدوات اللازمة للعملية، ولكي أتصل هاتفياً بالسر برسي كوكس الذي سبق أن أنبأته عن احتمال إجراء العملية.

كان الوقت حوالي منتصف الليل. وكان برسي كوكس نائماً على سطح دار المقيميّة، ولذلك مضى بعض الوقت لإيقاظه، وما أن سمع بالنبأ حتى ردّ بهدوء مميّز قائلاً: «يجب أن أرى الملك قبل إجراء العملية له، وأرجوك أن تخبره بأنني سأكون في القصر في الساعة السابعة والنصف».

عند عودتي إلى القصر أخبرني أمين معلوف أن الملك تمنى لي ليلة سعيدة. وعندما وقفت إلى سرير جلالته أخذ بكلتا يدَي بين يديه، وشكرني على رعايتي إياه، وأعلن عن احترامه إياي، وكانت تلك عاطفة متبادلة ازدادت عمقاً على مرّ السنين.

ذكرت للملك بأنني قد تحدّثت إلى السر برسي كوكس، وأنه سوف يقبل ليراه قبل إجراء العملية. وقد شكرني جلالته لأنني أعلمت «كوكس» بالأمر.

استيقظتُ مبكراً، واندفعت إلى الغرفة التي يرقد الملك فيها، والتي كان يقوم على حراستها رجلان. فتح الملك عينيه وسألني مبتسماً: «أما تزال تنتظرني؟» لقد أصرّ على القول بأنه قد نام نوماً مريحاً، غير أن حالته قد تدهورت، ولذلك قرّرت وجوب إجراء العملية خلال ساعة من الزمن.

أمضى الدكتور معلوف ليلة لم يغمض له جفن فيها. فقد كان ـ وهو في غمرة قلقه ـ ومن دون أدنى إشارة إليّ أنا، قد أمضى معظم الليل يحاول الاتصال بمعظم الأطباء العراقيين البارزين، وكان عدد كبير منهم قد عادوا

إلى بغداد بعد أن أكملوا خدمتهم العسكرية مع القوات التركية، ويدعوهم إلى عقد مشاورة طبية جماعية في الساعة السابعة صباحاً.

لم يوافق بعض الأطباء على التشخيص، وهذا لا يمكن أن يُعزى إلاّ إلى طبيعة بغض الأجانب، في الوقت الذي لم تترك فيه الصورة الطبية أي مجال للشكّ.

لم أكن أعرف شيئاً عن هذه المشاورة الطبية إلى أن كملت، واندفع المشاركون إلى غرفة أمامية لاحتساء القهوة، وانتظار العملية التي دعاهم أمين معلوف إلى حضورها.

في هذا الوقت وصل إلى القصر كلٌّ من الدكتور براهام والدكتور وودمان من العاملين في المستشفى الملكي. وإذ ذاك أمضينا بضع دقائق مع جلالته. كانت سعة نطاق المشاورة الطبية قد أفزعت جلالته، ولذلك أصبح في حاجةٍ ماسّة إلى إعادة التأكيد.

وصلت الممرّضة البريطانية في غرفة العمليات بالمستشفى الملكي مع عدد من المساعدين بصفة مُبكرة، وأسرعت إحدى السيارات في نقل أدوات الجراحة، والأقنعة، وذلك تحوطاً من وجود عدد كبير غير متوقع من المشرفين.

قام الدكتور براهام بإجراء العملية بما عُرف عنه من رزانة ومهارة، وكنت أقوم بدور المساعد له في ذلك. كما أصرّ الدكتور معلوف على أن يحضر بنفسه إجراء العملية. وفي اللحظة الأخيرة انضم إلينا الدكتور حنا خياط مدير الصحة العام؛ كممثل عن الحكومة، وبذلك بلغ عدد الأطباء الذين تجمّعوا في الغرفة اثني عشر طبيباً، وسرعان ما تم بتر الزائدة الدودية الملتهبة، وتم الكشف عن الرأس المتآكل؛ في ذات الوقت الذي سارع فيه المكذّبون للمرض إلى الخروج من القصر، وكان من بينهم أمين معلوف الذي استقال من منصبه، وغادر العراق إلى مصر.

في اليوم الذي أعقب إجراء العملية للملك، أصدر السر برسي

كوكس بياناً نُشر في طبعة خاصة من جريدة «الأوقات البغدادية». في هذا البيان أوضح كوكس الحالة الدقيقة الراهنة، وفي اللحظة المتعلّقة بالمعاهدة العراقية ـ البريطانية، ووجود الانتداب. وقد شدّد كوكس القول في ذلك البيان، بأن على كل عراقيّ مخلص ـ إلى أن تعلن الحكومة البريطانية سياستها ـ أن يحافظ على السلام. وأضاف إلى ذلك قوله: «بأنه مسؤول، مع حكومة العراق، أمام الحكومة البريطانية لصيانة الأمن والاستقرار. ومن ثم واصل بيانه ليعلن بأن الملك فيصل لن يستطيع ـ بسبب العملية التي أجريت له وكانت ناجحة ـ أن يستأنف دوره لبعض الوقت، بالنسبة إلى هذه الأحوال، وأنه ـ أي كوكس ـ بناء على الصلاحيات المخوّلة له؛ فقد تم اعتقال بعض المخالفين (ذكرت أسماؤهم في البيان) وتم نفيهم مؤقتاً إلى جزيرة «هنجام»[٧].

كان من حُسن حظ الملك فيصل أنه لم يتعرض أثناء نقاهته لأية وعكة، غير أنه لم يستطع أن يستأنف واجباته، إلاّ بعد مرور شهر واحد. وكان أول شيء عمله هو أن منحنا، أنا والدكتور براهام والدكتور وودمان، وسام الحجاز الذي شرعه والده الملك حسين، وذلك لأنه لم يكن قد تمّ حتى ذلك الوقت إنشاء وسام عراقي.

---

(٧) كان من بين الأحزاب السياسية التي تشكلت بعد تتويج فيصل على العراق، حزبان معارضان، هما: «الحزب الوطني» الذي تزعمه جعفر أبو التمن، و«حزب النهضة» الذي كان يرأسه محمد أمين الجرجفجي. وقد أثار الحزبان تظاهرات وطنية في بغداد في الأسبوع الأخير من شهر آب (أغسطس) سنة ١٩٢٢ ـ ولما كان الإنكليز يسعون في ذلك الوقت إلى ربط العراق بمعاهدة استعباد مع بريطانيا، فقد استغل كوكس المندوب السامي البريطاني، تغيب فيصل عن البلاط على أثر إجراء عملية الزائدة الدودية له، وحاول ضرب المعارضة القائمة بوجه المعاهدة، فأصدر أمره بغلق حزبي «الوطني» و«النهضة» ونفي عدد من أعضائهما البارزين إلى جزيرة هنجام، وكذلك تعطيل جريدتي «المفيد» و«الرافدان» ونفي صاحبيهما إبراهيم حلمي العمر وسامي خوندة، وإبعاد محمد الصدر ومحمد الخالصي إلى إيران، لأن المندوب السامي اعتبرهما من الإيرانيين، أما جزيرة هنجام فإنها جزيرة صغيرة في الخليج العربي جنوب غربي رأس هرمز، وهي محطة كانت تتزود منها البواخر بالفحم الحجري الذي كان يعتبر مادة الوقود الوحيدة لتسيير البواخر قبل استعمال النفط.

أمضى الملك الأسبوع الأخير من دَور نقاهته، في مقاطعة زراعية أُعدت حديثاً، تقوم فيها مزرعة تقع على مقربة من «خانقين» القريبة من الحدود الإيرانية. ولقد سافرتُ معه إلى هناك؛ بعد أن حصلت على إجازة في التغيّب عن عملي من مدير المستشفى، ومن المفتش العام لمصلحة الصحة. ولقد وافق الاثنان على منحي الإجازة، ولكن ذلك لم يكن يخلو من حصول شكوك لديهما، إلاّ إذا خُصص لي دور مزدوج، وإلاّ فإن ذلك يسبّب تعقيدات في المستقبل بالنسبة إليهما.

بعد عودتي من «خانقين» مباشرة، استُدعيت إلى مديرية الصحة العامة. ولقد سألني المقدّم «هالينان» الذي عُيّن حديثاً، مفتشاً عاماً لمصلحة الصحة، عما إذا كان يوجد شيء من الصدق في الإشاعات الرائجة، والقائلة بأن جلالته قد اختارني لأن أكون طبيبه الخاص، بدلاً من الدكتور أمين معلوف. وقد استطعت أن أردّ على ذلك السؤال بكلمة «لا».

وكان الدكتور حنا خياط قد زار المستشفى قبل ذلك الوقت بيومين أو ثلاثة وطرح عليّ ذات السؤال، ومن ثم أضاف يقول لي: «أعتقد أنّ من واجبي أن أقول لك بثقة: إن هذا الاقتراح يثير قلقاً كبيراً بين زملائك البريطانيين الذين يعتبرون أنفسهم ـ بسبب أسبقيّتهم ـ أفضل أهلية منك أنت لهذا التعيين، وأن هالينان يعتزم أن يقنعك بالعدول عن القبول إذا ما عُرض عليك»، ثم أردف يقول: «إن الأطباء العراقيين يحسدونك، ولكن هذا يقلّ عن حسد أحدهم للآخر».

لم يكن أمراً غريباً عندما راح هالينان ينصحني بأن لا أتقبلَ مثل هذا الطلب. وعندما سألته: «ما هو العذر الذي أستطيع أن أتذرّع به؟» لم يردّ على سؤالي مباشرة، لكنه أخبرني بأن قبولي لهذا المنصب سوف يثير غيرة شديدة لدى الأطباء العراقيين، وعندئذ ستكون مكافأتي تشويهاً متواصلاً وخبيثاً لسمعتي. وإذ ذاك قلت له: «يصعب عليّ أن أعتقد بأن الملك سوف يعتبر الخوف من الشتائم عذراً مقبولاً!» وعاد هالينان يقول: «لقد قدّمت إليك نصيحتي، وإن عقلك في رأسك!» ولقد كبحت جماح غضبي على هذه

الشتيمة، فأجبته قائلاً: «ربما كان ذلك من دون حكمة. هل يدور في خلدك زميل آخر تريد أن تعيّنه في هذا المنصب؟» وقد ردّ على تساؤلي هذا رداً غير مقنع، وقال: «إن أفضل حل هو أن يُعيّن أحد الأطباء العراقيين، وأن يُستدعى الأخصائيون عند الحاجة»، وإذا ذاك وعدته بأنني سأعرض هذا الأمر، إذا ما أثار الملك هذه القضية.

على أن الملك فيصل كان يعتبرني طبيبه الخاص بصفة فعلية، وكان يدعوني إلى معاينة الأفراد الآخرين من أعضاء أُسرته، ولو أنّ إرادة ملكية لم تكن قد صدرت بعد بشأن تعييني، ولذلك صمّمت على ألاّ أُثير هذه القضية بنفسي. ومهما يكن فقد وصلت الأمور إلى ذروتها في الربيع القادم.

* * *

أحدثت الوفيات فراغاً في البصرة. وفي حوالي نهاية شهر نيسان (أبريل) تلقيّت أوامر بالسفر إلى هناك، كضابط طبيب للصحة، وهي ذات الوظيفة التي كان يشغلها هالينان قبلاً.

كان السر برسي كوكس يعتزم مغادرة العراق، بعد أن أُحيل على التقاعد، في أوائل شهر أيار (مايو) وأن يسافر في ناقلة للنفط تمرّ عبر المياه المصرية، وذلك بعد أن تلطّف اللورد كادمان رئيس شركة النفط الانكليزية الإيرانية، فأفرد في تلك الناقلة مكاناً للسر برسي كوكس وزوجته وإلزي معهما. وكان المقرر أن تسافر الجماعة بعد وصولها إلى مصر، عبر بلاد أوروبا. ولما كانت الناقلة تقصد إنكلترا، فقد هيأ هذا الأمر، إمكانية لنقل مجموعة من الحيوانات إلى حديقة الحيوان في لندن، وكان إسهامي المتواضع في هذا الشأن يتألف من ذكور لطائر الدرّاج، وخنازير بريّة صغيرة.

كانت زوجتي تنتظر مولوداً لها في أواخر الخريف، ولذلك استقرّ فكري على أن حرارة صيف بغداد ليست ملائمة لها. ولقد علم هالينان بأمر

سفر زوجتي، ولذلك اقترح عليّ بأن أؤجل سفري إلى البصرة؛ إلى أن غادرت إلزي بغداد.

أقام السر برسي كوكس وزوجته، قبل مغادرتهما العراق بيومين أو ثلاثة، حفلة كبرى في حدائق دار المقيميّة. وكان السر هنري دوبس، الذي خلف كوكس في منصبه، ضيفاً على المقيميّة، قبل أسبوعين أو ثلاثة من مغادرة كوكس للعراق.

حضر الملك فيصل تلك الحفلة بصحبة رئيس الوزراء وبقية أعضاء الوزارة، كما حضرها ممثلو البلدان الأجنبية، والشيوخ، وكبار الموظفين العراقيين، والمقيمون البريطانيون وزوجاتهم.

كان من بين من تقدّموا للسلام على الملك في تلك الحفلة، الدكتور حنا خياط، الذي ما لبث بعد هذه المقابلة، أن جاء يبحث عني وهو شاحب الوجه متجهماً؛ ليقول لي: «إنّ جلالة الملك يدعوك إليه حالاً، ولقد أبنت له بأنك قد نُقلت إلى البصرة، فغضب لذلك غضباً شديداً. هيّا اذهب إليه بأسرع ما تستطيع!».

ما إن وصلتُ إلى جلالته حتى بادرني متسائلاً: «أصحيح أنك عُيّنت في البصرة؟. فرددت عليه بالعربية: «نعم سيدي»، ولم يلبث أن ردّ جلالته حنقاً: «إنني أمنع هذا التعيين. أخبر حنا خياط أن يعود إليّ».

فزع الدكتور حنا خياط لهذا الاستدعاء، لكنني لم أصحبه في ذلك. وسرعان ما عاد يبحث عن هالينان، حتى إذا ما وجده اصطحبه إلى الملك الغاضب. تلقّى كلٌّ من هاليتان وحنا خياط توبيخاً من لدن الملك، لأنهما لم يخبراه بأمر تعييني في إدارة الموانىء. ولذلك صرفهما وهو يقول: «إنّ سندرسن لن يذهب إلى البصرة، وسوف أنظر في الأمر غداً، وذلك بإصدار إرادة بتعيينه طبيباً خاصاً لي».

صدرت الإرادة الملكية بهذا التعيين في وقتها، ولكن قبل أن تنتهي الحفلة، اتهمني هاليتان بأنني أنا الذي توسلتُ إلى الملك، وذلك عندما

كنت أتحدّث مع جلالته، بإلغاء أمر نقلي إلى البصرة، ولم يكن لاتهامه ذاك أي أساس من الصحة، وقد أنكرت ذلك الاتهام بقوّة. وقبل أن يغادر هاليينان العراق في سنة ١٩٣٣ بعد تعيينه للخدمة الطبية في جزيرة «جمايكا» حيث التقيت به ثانية بعد حوالي ربع قرن أثناء سفره في البحر الكاريبي، أبدى لي اعتذاره عما بدر منه تجاهي؛ فغفرت له فعلته.

ولنعد إلى «هاليينان» مرة أخرى. ففي ايار سنة ١٩٢٣ عرض علي ما كان يعتبره عقاباً عادلاً. كانت مصلحة الصحة في ذلك الوقت تؤلف إحدى دوائر وزارة الداخلية. وحين قررت ألاّ استأنف واجباتي في المستشفى الملكي، كان هو يتطلع إلى حصول موافقة من الوزارة على ذلك، وقد استطاع عن طريق تلك الموافقة، إضافة إلى موافقة مدير السكك العام، أن ينقلني إلى مديرية السكك بوظيفة طبيب عسكري في المقر وفي المناطق الشمالية أيضاً.

ولقد سألني الملك عما إذا كنت موافقاً على ذلك، ثم عرض علي يقول: «إن كنت ترغب أن تعود إلى منصبك السابق فإن في مستطاعك أن تفعل ذلك». ومع أنني قد كرهت اقتراح نقلي إلى السكك لكنني انبأت الملك بأنني قد قبلت به.

كان كل من «حنا خياط» و «هاليينان» يشعران بأنني سوف استقيل، لكنني لم أفعل ذلك انتظاراً لوقت آخر. وهكذا استطاع هاليينان أن يزيحني عن مملكته، وأن أقضي أنا أربع سنوات في أحد البيوت العصرية المخصصة لموظفي السكك، والتي كانت تشغل أرضاً واسعة تمتد من الضفة اليمنى لنهر دجلة حتى محطة القطار في غربي بغداد.

* * *

من بين الأمراض التي تم تشخيصها في العراق آنذاك، مرض فقر الدم والانكلستوما. غير أن هناك مثالاً فريداً على وقوع حادث نزيف دموي حاد أثار الاضطراب في الأوساط الحكومية العراقية. كان الشخص الذي

أصيب به شاب روسي في عنفوان الشباب، وصل إلى بغداد مع امرأة متوسطة العمر كانت مربية له منذ طفولته.

لقد ادعت تلك المرأة بأن ذلك الشاب هو ولي عهد القيصر الروسي، وقد هربه المخلصون له إلى خارج مدينة «كاتدينبرغ» في روسيا البيضاء، قبل إعدام القيصر نقولا الثاني وأفراد عائلته وأقاربه في شهر تموز (يوليو) سنة ١٩١٨، وبعد أن أمضت المرأة والشاب هناك أربع سنوات، دخلا إلى بلاد فارس، ثم قطعا رحلة شاقة معظمها سيراً على الأقدام، حتى وصلا إلى بغداد، وذلك أملاً في الحصول على اعتراف رسمي من العراق بولاية العهد لذلك الشاب.

لقد ذكر عن هذا الوارث الروسي بأنه مصاب وراثياً بنزف الدم، وطلب إلي أن أقوم بفحصه، ففعلت ذلك ولم أجد ما يثبت الادعاء. كان في العراق في ذلك الوقت عدد من الروس البيض الذين وجدوا ملجأ لهم فيه. وقد استطاع هؤلاء بما كانوا يحملونه من صور أفراد العائلة القيصرية أن يقتنعوا بصحة دعوى ذلك الشاب. غير أن الحكومة العراقية لم تكن راغبة في اثارة النظام البلشفي الجديد، ونظراً لعدم الاطلاع على طبيعة ذلك الشاب، فقد تم إخراجه هو ومربيته من العراق، حيث توجها إلى باريس.

كان المندوب السامي الجديد، السر هنري دوبس، على الرغم من مظهره اللطيف، عُرضة للتوتر والهياج. وقد رُوِيَتْ قصص كثيرة عن هياجاته العرضية. فقد اشتُهر عنه بأنه كان يضرب موظفيه بقناني الحبر كدليل على عدم رضاه. وإنني ما أزال أتذكّر إحدى المناسبات عندما ألقى بأصص الأزهار وبما تحويه، على الأرض، ساخطاً على الطريقة التي أنبتَها بها رئيس فلاّحي الحديقة. وقد هنأته زوجته ـ وهي من أرق السيدات وأحلاهنّ ـ قائلة له: «حسناً فعلت هذا يا هنري، وإلاّ فما هي الفائدة من كونك المندوب السامي إذا لا تستطيع أن تحطم قلّة من أُصص الأزهار في الوقت الحاضر أو فيما بعد»!.

كانت للسر هنري دوبس تجربة سابقة في أعمال الإدارة في العراق، وذلك في الأيام الأولى للحرب. فقد شارك في معارك «الشعيبة»، و«سلمان باك». وقد غادر العراق في اليوم الثالث من شهر شباط (فبراير) سنة ١٩٢٩، وذلك بعد ست سنوات من الإنجازات الهائلة كمندوبٍ سامٍ لبريطانيا في العراق.

ففي خلال هذه المدة تمّ تشكيل المجلس التأسيسي، وانتخاب برلمانين، وتأليف ست وزارات، وعقد ثلاث معاهدات بين العراق وكلّ من بريطانيا، ونجد، وتركيا، وقد أدّت المعاهدة الأخيرة إلى حل مشاكل الحدود الشمالية للعراق.

أما بالنسبة إلى أحداث الشرق الأوسط في تلك الفترة، فقد أضاع ملكا الحجاز عرشيهما[٨]، وقُضي على اثنين من الخلفاء العثمانيين في تركيا[٩]، وأُبعدت أسرة «القاجار» في إيران[١٠]، واستُبدل ستة مندوبين سامين في سوريا، ومندوبان ساميان في فلسطين.

---

(٨) يقصد بذلك الملك حسين بن علي، وولده علي الذي خلفه في ملوكية الحجاز، لكنه لم يتمتع بها فعلاً، بعد أن عاون الإنكليز عبد العزيز بن سعود على اكتساح الحجاز والقضاء على حكم عائلة الشريف فيه.

(٩) هما السلطان محمد رشاد والسلطان عبد المجيد الذي ألغيت خلافته بعد تحرير تركيا من الاحتلال اليوناني وإقامة الحكم الجمهوري فيها.

(١٠) هي الأسرة التي كانت تحكم إيران في ذلك الوقت، وقد انقلب عليها رضا شاه فأسقطها، ونصب نفسه ملكاً مكانها في إيران بعد الحرب العالمية الأولى بسنوات قلائل. وقد اطيح بالشاه السابق محمد بن رضا بهلوي في الأسبوع الأخير من شهر كانون الثاني سنة ١٩٧٩.

الفصل الخامس

رحلة الملك فيصل الأول للعلاج في بريطانيا

كان الملك فيصل أثناء تتويجه قليل الاهتمام جداً بصحتّه. فلقد تولى الملكية في بلد غير مستقرّ، ليس له دستور، ولا حكومة من أبنائه. وكانت أجزاء من حدود البلاد لم يتم تقريرها بعد، في الوقت الذي كانت فيه البلاد تمور بالمؤامرات، وتهدد تركيا حدودها الشمالية.

ولذلك كان من العسير اعتبار الأحوال أقل إنذاراً بالشر بالنسبة إلى ملك جديد، وعلى الأخص بالنظر إلى ملك جيء به من خارج البلاد، وهو غير معروف فيها إلاّ قليلاً، وإن عُرف عنه بأنه قائد جسور وحاذق، وأنه كان ملكاً غير متوّجٍ لبضعة أشهر في سوريا.

بدا التحسن في وضع فيصل إثر إجراء عملية الزائدة الدودية له؛ بعد سنة من جلوسه على العرش، وقد ظل في صحة جيدة حتى ربيع سنة ١٩٢٥، عندما بدأ يفقد وزنه، وكانت شهيته ضعيفة، وراح يشكو من سوء الهضم، ومن الكلل الجسمي والذهني.

وعند إجراء الفحص عليه ظهر اضطراب باطني عام فيه. ولم تكشف الأشعة عن أي شيء ذي أهمية، كما أن التحليلات المختبرية لم تبيّن أية إصابة عضوية.

ولقد تم عقد مشاورة طبية له، ولكن تجاوبه مع العلاج كان مخيّباً للآمال، لأنه كان عاكفاً على الإفراط في التدخين وتناول القهوة، ويستحيل عليه الإقلاع عنهما.

ولقد استبعدت أنا الفكرة القائلة بأن أعراض المرض لديه ذات أصل عصبي، غير أنني لم أجد لذلك أصلاً عضوياً. ولقد استمر نقص وزن الملك، وباقتراب فصل الصيف شعرت أن من المحتم عليه ـ وقد نقص وزنه الآن عن خمسة وأربعين كيلوغراماً ـ أن يغادر القطر، وأن يبحث له عن فحص آخر في أدنبره أو لندن. غير أن جلالته رفض هذا الاقتراح، وأخّر مغادرته إلى أن تم إقناعه بأن شفاءه يتوقف على ذلك.

تم اختيار لندن لهذا الغرض، وذلك بسبب وجود مفوضية عراقية فيها، ولأن القائم بالأعمال في تلك المفوضية هو جعفر العسكري رئيس الوزراء السابق، وواحد من أعظم القادة الذين كان فيصل يثق بهم أثناء الثورة العربية التي قامت خلال الحرب العالمية الأولى.

كانت الوزارة القائمة آنذاك قد شاركت الملك فيصل تردّده في البحث عن علاج له في أوروبا ذلك لأن «عُصبة الأمم» لم تكن قد قرّرت بعد مصير ولاية الموصل، ولأنه كان يوجد احتمال بوقوع حرب مع تركيا، ولأن انسحاب البريطانيين من البلاد كان يدور في مخيّلة ابناء الشعب.

كان ياسين الهاشمي يتولى منصب رئيس الوزراء في ذلك الوقت، وقد بذل كل جهوده لإقناعي بأن السفر إلى الخارج ليس ضرورياً. غير أنني رفضت ذلك، واستطعتُ في النهاية أن أقنعه بضرورة الأمر، وأن أحصل على مساندة فعّالة في ذلك؛ من جانب المندوب السامي البريطاني السر هنري دوبس. ذلك أن دوبس قدر تقديراً تاماً سوء صحة الملك، بل إنه في الواقع أجرى تشخيصه الخاص عن السرطان وبعث بهذا التشخيص إلى لندن رأساً.

استنفذت اجراءات الرحلة بعض الوقت، ومرّت أسابيع قبل أن يتم تعيين «الأمير زيد»، وهو متخرّج في جامعة أوكسفورد، وصياً على العرش مدة غياب الملك فيصل، كما اتخذت إجراءات لا حصر لها بالنسبة إلى مغادرة الملك للبلاد.

كان عبد المحسن السعدون قد خلف ياسين الهاشمي في رئاسة

الوزارة حينذاك، غير أنّ الملك لم يرَ في تغيير الحكومة عائقاً للسفر. وكان جلالته يشعر بأنه غير قادر على السفر إلى مصر جواً، ولذلك تقرر أن يجتاز الصحراء السورية بالسيارة، وأن يركب الباخرة «كورديلير» إحدى سفن شركة «مساجيري» للخطوط البحرية التي تبحر من بيروت.

كان فيصل قد أُبعد عن عرش سوريا بفعل التهديد الفرنسي المسلّح، وإنّ مروره الآن بسوريا في الوقت الذي تشتعل فيه ثورة الدروز هناك، أمر لا يمكن الترحيب به قط. وطبقاً لذلك تم الاتفاق على ألّا يتوجه جلالته إلى دمشق رأساً، لأنها كانت في حالة هياجٍ آنذاك، وإنما يجب أن يتقرر طريقنا عبر الأراضي السورية تحت حراسة سيارة مدرّعة فرنسية تبعاً للأوضاع السائدة آنذاك.

كانت الوسيلة الوحيدة للتقدّم بأمان في هذا الجزء من سفرتنا هو أن نتعقّب الطريق الذي تسير فيه سيارات «شركة النقل الشرقية» من بغداد إلى بئر «ملوسي»[1]، وأن تصحبنا حتى مدينة «تدمر» سيارات بريطانية مسلحة. وكان مفهوماً، قبل أن نغادر بغداد، أن مقصورة فخمة قد تم حجزها للملك في الباخرة، لكننا اكتشفنا عند وصولنا إلى بيروت أن مساعي بغداد لتهيئة وسيلة من هذا النوع لم تكن ناجحة. فقد كانت الغرف التي خُصّصت لنا على ظهر السفينة تتألف من مقصورة ذات سريرين للملك، ومقصورة أُخرى لنا، أنا وتحسين قدري. وقد تلطّف ربّان السفينة فوضع مقصورة موظفيه تحت تصرّف فيصل، ثم حجز جزءاً من ظهر السفينة لاستعماله الخاص.

كان هناك ستة من الأوروبيين استقلّوا الباخرة من بيروت. أما بقية المسافرين فكان معظمهم من المصريين العائدين إلى أهلهم بعد قضاء عطلة الصيف في جبال لبنان. تحركت بنا الباخرة في عرض البحر، فوصلنا إلى ميناء «يافا» بعد وقت الفطور من صبيحة اليوم التالي. وقد

(١) بئر ملوسي: ويعرف لدى عامة العراقيين والسوريين باسم بئر «المولي» وهو من الآبار الشهيرة في الطريق بين دمشق وبغداد.

توقفت الباخرة في الطريق لتفريغ الحمولة، لكننا كنا خلال أربع ساعات في طريقنا إلى الاسكندرية.

وصل السر رونالد ستورز الحاكم المدني العام في القدس وهو يحمل مظلّته السوداء، إلى ظهر الباخرة بعد وصولنا إلى يافا مباشرة، وذلك للترحيب بالملك. كانت الباخرة قد توقفت على بُعد ميلٍ أو ميلين من الشاطىء الذي كان يعجّ بالزوارق التي نقلت الزوار إلى الباخرة، وكان معظمهم شاحبي الوجوه لأنهم قد أُصيبوا بدوار البحر.

لم يكن فيصل في وضع يمكّنه من استقبال حشد كبير كهذا، لكنه مع ذلك كان يستقبل كل واحد بما عُرف عنه من دماثة الخلق والودّ، وكان من بين الذين استقبلهم الملك هو المؤرخ جورج انطونيوس.[٢]

وصلنا إلى ميناء الاسكندرية بعد ظهر اليوم التالي، وقد اكتظّ الرصيف لدى وصولنا بالمستقبلين الفرحين الذين كانت هتافاتهم تتعالى في الجو حتى قبل أن تلقي الباخرة مراسيها. وما أن رست حتى اندفعت جموع المستقبلين فسدّت الطريق من كل ناحية وغدا من العسير ضبط النظام.

كان الأمير زيد قد وصل إلى الاسكندرية تواً قادماً من ميناء «تريستا»[٣]، وقد أبحر فيما بعد لزيارة والده الملك حسين في قبرص؛ قبل أن يواصل سفره إلى بغداد. ولقد راجت في حينه إشاعة مفادها أن الملك حسين عندما تنازل عن عرشه في الحجاز، كان قد أعلن عن رغبته في أن يكون منفاه في مكان ما من قارة آسيا. غير أن قبرص قد اختيرت من قبَل الحكومة البريطانية، وأنّ هناك خريطة قديمة تبيّن بأن هذه الجزيرة كانت جزءاً من القارة الأوروبية.

---

(٢) صاحب كتاب «يقظة العرب» الذي وضعه بالإنكليزية في أوائل الخمسينات وهو من الكتب المهمة عن تاريخ النهضة العربية القومية الحديثة وقد ترجم الكتاب إلى العربية مرتين.

(٣) تريستا: ميناء على بحر الأدرياتيك، ظل مصدر نزاع دائم ولسنين عديدة بين كل من يوغسلافيا وإيطاليا، وقد حل هذا النزاع في أعقاب الحرب العالمية الثانية بأن أصبح الميناء حراً، لكنه من الناحية الجغرافية تابع إلى يوغسلافيا.

كانت نيّة فيصل الأصلية أن يقيم في باريس عدّة أيام قبل أن يواصل سفره إلى لندن. لكن حالته الصحية ما لبثت أن ساءت عند وصولنا إلى مارسيليا، وتفاقم الألم في جوفه. ومع ذلك فقد ذكرت الصحف بأنّ مستشاره الطبي قد أمره بأن يتجه إلى لندن رأساً!

أثار وصول فيصل إلى لندن اهتماماً مشهوداً. ومنذ اللحظة التي وصلنا فيها إلى فندق «هايد بارك» راح جرس الهاتف يدق باستمرار، وأخذ محررو الصحف يتصلون بلا انقطاع بقصد الحصول على الأنباء.

ولقد طلبت إلى مدير الفندق بأن يؤكد عدم السماح لأي من الزوّار في المجيء والاقتراب من المقرّ الملكي حتى اليوم التالي. غير أن هذا الأمر قد دلّل على أنه كان خارج نطاق سلطات ذلك الرجل. وفي حالة من اليأس قمت برفع السماعات من الهواتف المخصصة لنا، لكنني عندما كنت في حوالي منتصف الليل متجهاً إلى غرفة نومي، وجدتُ في داخلها ثلاثة صحافيين متعطشين إلى الأنباء، وهم ينتظرون وصولي إلى هناك.

ولما كنت الطبيب الخاص للملك فيصل، فقد رفضت التحدّث عن صحته، ولو أنني أكدت لهؤلاء بأن الإشاعات التي راجت عن إجراء عملية للملك لا أساس لها من الحقيقة إطلاقاً، وأن زيارته الحالية لإنكلترا ليست لها أية أهمية سياسية من أي نوع كان، وأنها ناجمة عن شعوره بالتعب المفرط، وبحاجته الماسّة إلى الراحة والاستجمام، بعيداً عن شدة حرارة الصيف في بغداد، ولا سيما بعد أن أخذ على عاتقه تحمّل أعباء العناية بالأمة الجديدة، ومن دون توقّف طوال السنوات الأربع المليئة بالأحداث، والعصيبة جداً.

ظهرت في كثير من صحف لندن، بالإضافة إلى الصحافة الباريسية، شكوك كثيرة مؤداها؛ أن زيارة الملك فيصل هذه لها أهميتها السياسية الخطيرة. ولم يكن فيصل بقادر على أن يتفهم هذا الموقف الذي أظهره فريق من الصحافة البريطانية، ولذلك غضب غضباً مشهوداً من إصرار الصحافة على هذا الأمر.

بعثت السلطات المسؤولة عن «جامع وكنغ»[٤] بعـدّة رسائـل إلى الملك فيصل، وأخـذت تتصل هاتفياً وبصورة مستمرة بالسيد تحسين قدري للحصول على أنباء منه، وفي إحدى المناسبات اتصل أحد موظفي الجامع المذكور هاتفياً، واقترح بأن من الأفضل لجلالته - إذا كانت الفحوص الطبية قد انتهت - أن تجرى له مشاورة طبية يقوم بها أطباء مسلمون، وأن تنظمّها إدارة الجامع ذاتها، وإذا ذاك يودَع الملك في يد واحد من هؤلاء الأطباء المسلمين.

ولقد أعربتُ عن شكري لهذا الاقتراح، لكنني أكدت للمتكلم بأن جلالته قد حقّق تقدّماً وافياً، وإن إجراء مشاورة طبية إضافية غير لازمة في اللحظة الراهنة.

كان في جعبة جعفر العسكري رصيد من الحكايات الطريفة تتعلق إحداها بجامع «ووكنغ». ذلك أن أحد الزوّار في المسجد كان يطيل النظر فيه باهتمام. وعندما مرّ به أحد العاملين في المسجد، سأله ذلك الزائر قائلاً: «هل أن أعضاء المسجد يطبّقون نظرية تعدد الزوجات؟» وقد ارتبك العامل لهذا السؤال، لكنه كان يعرف بأن الصلاة ستقام في المسجد بعد ظهر ذلك اليوم، ولذلك أجاب يقول: «أجل يا سيدي في كل يوم، وفي الساعة الرابعة والنصف»!

كان من أول الذين زاروا الملك فيصل هو الشيخ المسلم «اللورد هدلي». لقد كان يتوقع أن يحظى بمقابلة الملك، لكنه اغتاظ جداً عندما لم يُسمح له بذلك، وقد ترك بطاقته بعد أن كتب عليها كلمة ودّية جداً ترحّب بالملك، وقد تضمنّت تلك الكلمة توصية قوية لجلالته بأن يفيد من الخدمات الطبيّة التي تقدّمها العيادة الطبية التي يرأسها صديقـه «اللورد كلفورد» والذي له اهتمامه الشخصي بذلك.

(٤) هذا هو أول جامع يتم إنشاؤه في لندن، وقد شيد في أواخر الحرب العالمية الأولى على يد جمعية من الهنود والإنكليز المسلمين. وفي السنوات الأخيرة أنشأت الحكومة السعودية مسجداً جديداً في لندن.

إنهال البريد على الملك فيصل، وقد عهد إليّ بالرد عليه. وكانت هذه الرسائل من نوعيّة خاصة. وربما لم يكن أمراً مستغرباً عندما وجدتُ عدداً من الرسائل قد جاءته من الدجّالين الذين كانوا يمارسون قدرات خارقة لشفاء الجراح، والذين يريدون التسلّط عليه.

وكان من بين المصادفات الغريبة أننا وجدنا سيدتين أجنبيتين متنافستين تحملان ألقاباً، وتدّعيان بأنهما قد ورثتا مواهب خفيّة، لكن كانت كل واحدة منهما تؤكد بأنها هي الطفل السابع الذي تحدّر من طفل سابع أيضاً!

بعد استراحة دامت أياماً قليلة، ظهر على صحة جلالته تحسّن عام ضئيل. وبعد إجراء مشاورة طبية شارك فيها جرّاحون بطب الأسنان، تم قلع عدة أسنان من فم جلالته، كما أُجريت له فحوص بالأشعة، وتحليلات مختبرية متنوعة. وطبقاً لنصيحة السر وليم ولكوكس والدكتور هوب غوس وكلاهما قد خدما في العراق أثناء الحرب أُجريت مشاورات طبية منتظمة على فترات خلال بضعة أيام. ومع ذلك فإنني لم ألحظ أي تحسّن مقبول، ولذلك بدأ فيصل يرتاب في تلك المشاورات، ويتضايق من نفقاتها.

اتصلت بالدكتور كلفورد دوبيل أحد الأعضاء البارزين في مجلس البحث الطبي، وأنبأته عن حالة الملك. وبعد أيام اتصل بي هاتفياً، وأنبأني بأنه استطاع إنتاج دواء لعلاج الدزنتري الأميبي، ففرحت بذلك كثيراً.

ولقد كانت مصادفة غريبة حين استدعاني الملك بعد ساعة أو ساعتين من ذلك، وخاطبني قائلاً: «أرجو أن تخبرني كصديق هل سوف أشفى من المرض؟» وبعد أن أجبته بالتأكيد القاطع. ردّ جلالته يقول: «لستُ أخاف الموت، لكن لديّ الشيء الكثير الذي يجب أن أُحقّقه لبلادي قبل أن أموت. فإذا كنت تعتقد أن حالتي لن تتحسّن، فدعني أعرف ذلك الآن، لكي أسارع إلى تنظيم منهاج حياتي».

استطعت في المشاورة الطبية الثانية ان أسجل التقدم الذي حدث،

وإذ ذاك اعترفت بما فعلته، واعتذرت عن أية صورة من قلة الذوق، وتجرأت على أن أدعي بأن الظروف والنتيجة التي حصلت، كانت توفر تبريراً كافياً لتصرفي. لم يكن السر «وليم»، وهو المستشار الأكبر، مسروراً لما كان يعتبره عملاً متهوراً ومستقلاً لا حاجة له. ولذلك راح يسأل عن تحضير مادة القيء التي كنت استعملها، فأجبته قائلاً: «إنني أصنع المحلول الذي يخصني أنا» وعندئذ رد يقول «إن هذا لا ينفع».

في حوالي أواخر شهر أيلول (سبتمبر) استطاع فيصل، الذي انتقل في أوائل ذلك الشهر إلى منزل في منطقة «برنس غيت» أن يحضر عدداً من ولائم الغذاء، غير أن ولائم العشاء كانت متعبة له.

كانت أول دعوة عشاء تقبّلها، هي الدعوة التي وجهّتها إليه المس غرترود بل في نادي السيارات الملكي. كان من بين الضيوف الحاضرين والد المس بل نفسه، والسر خيو، والسر لويد جورج الذي كان قد عُيّن حديثاً بمنصب مندوب سام في مصر.

كان جلالته في وضع اعتيادي دلّلت عليه الاتهامات التي وجهّها بالفرنسية إليّ أنا طبيبه الخاص، الذي وصفه بأنه كان متشدّداً جداً معه. فقد كنت قبل ذلك بأيام قد حدّدت عدد السجائر التي يدخنها، ولذلك راح يشكو - أثناء الحفلة - بأنني كنت أحمل معي سجائره حيثما ذهبت، وأنه كان يضطر - في سبيل الظفر بالتدخين - إلى إنفاق وقت أكثر مما ينفقه مع سجّانه: كان مرحه دلالة على تحسن حالته، وكانت روحيته هي مقياس وضعه الصحي.

كان البريد الذي يصلني يحتوي على رسائل من الوزراء والشخصيات البارزة الأخرى، يطلبون فيها إنباءهم بالتحسّن الذي طرأ على صحة جلالته. وكانت إحدى الرسائل التي بعث بها أحد الباشوات تخاطبني بالقول: «من فضلك توجد طيّاً رسالة إلى جلالة الملك أطلب إليك أن تسلّمها إليه، وأن تقبّل يديه نيابة عني!» ولقد فعلت حقاً ما أراده صاحب تلك الرسالة.

اطّرد التحسّن في صحة فيصل، فكثُر عدد الدعوات وجولات التسوّق، حيث اشترى جلالته عدداً كبيراً من المشتريات، من ضمنها هدايا لأفراد عائلته، والأثاث لمنزله الريفي، بالإضافة إلى شراء سيارة من طراز «ببي أوستن» للأمير غازي.

تسلّمنا رسالة من اللورد ونترتون، نائب ملك بريطانيا في الهند، يدعونا فيها إلى منطقة «شلنكلي بارك». وبذلك كنا نمضي آخر عطلات الأسبوع في إنكلترا، في هذه المنطقة الريفية البهيجة.

وقبل أن نغادر إلى منطقة «سوري» بدقائق، ترجّل عن درّاجته البخارية شابّ رشيق، أزرق العينين، جميل الشعر، يرتدي ملابس أفراد القوة الجوية البريطانية، ودقّ جرس الباب، ثم طلب أن يرى الملك.

تراجع الخادم الذي فتح له الباب إلى الوراء عند سماعه هذا الطلب الغريب، وردّ عليه يقول: «إن الملك على وشك أن يغادر لندن لبضعة أيام، وإنه في الوقت ذاته لا يستقبل الزائرين!».

غير أن جندي القوة الجوية أجاب قائلاً: «حسناً! سوف أجلس على عتبة الباب إلى أن يخرج جلالته!» اضطرب البواب لدى سماعه هذا الجواب، وراح يبحث عن «تحسين قدري» ويفضي إليه بأوضاع هذا الطيّار الغريب الذي يريد أن يقابل الملك. ومن دون أن يشخص تحسين قدري هوية هذا الزائر، أخبر البواب بأن يُدخل هذا الغريب إلى غرفة الانتظار. وبعد نصف دقيقة عرف أن ذلك الزائر هو لورنس العرب!

حيّا الملك فيصل لورنس تحيّةً ودّية. ذلك أنهما لم يتلاقيا منذ آخر زيارة قام بها فيصل إلى أوروبا. ولقد سأل فيصل رئيس أركان حربه الأخير مازحاً، عن السبب الذي جعله يخفض رتبته العسكرية إلى صنف الجنود.

بعد فترة لا بأس بها من التردد، تم إقناع لورنس بأن يصحبنا إلى الحفلة في «شلنكلي بارك»، وفي زيارة اللورد ونترتون، الذي سبق له أن

شـارك كضابط في لواء الجمّالة الأمبراطوري مع الملك فيصل ولورنس في الحرب ضد الأتراك.

كانت العقبة الأساسية التي تتعلّق بسفر لورنس إلى الجنـوب من لندن، هي أن إجازته كانت تنتهي في الساعة التاسعة والنصف من تلك الليلة، وهو الوقت الذي ينبغي له أن يكون حاضراً فيه في مكانه بالثكنات العسكرية في «كرنويل»، ومع ذلك فقد حُلّت المشكلة، عندما وضع الملك فيصل سيارته تحت تصرّف لـورنس للسفر بهـا من لندن إلى الثكنـات العسكرية، وإبقاء درّاجته البخارية في «برنس غيت» كيما يعود ويمتطيها بعد الظهر وهو في طريقه إلى مسكنه في منطقة «لنكولن شاير».

لم أكن، قبل أن ألتقي بلورنس، أتصوّره في نضارة عنفوان الشباب، ولا خجلاً من الطريقة التي وجدته عليها. وقد استنتجت من أجوبته بأنه كان سعيداً دون ريب في عمله في القوة الجوية البريطانية. وفضلاً عن ذلك فقد أنبأنا بأنه لم يكن يتصوّر عملاً أكثر جاذبية من عمله كميكانيكي جوي. وقد بيّن لنا بأنه فقد كل اهتمامه بأمور الشرق الأوسط، وأكدّ ذلك في رسالة بعث بها إلى السر برسي كوكس، وأخرى إلى رئيس الجمعية الجغرافية الملكية الذي اقترح عليه بأن تُسهم الجمعية في نفقات طبع بعض البحوث التي كتبها قبل بضع سنوات.

لقد ابتُدعت عدّة فرضيّات لتفسير السلوك المحيّر الذي سلكته هذه الشخصية الغامضة. فقد تحدّث عدد كبير من هذه الفرضيّات عن نزعة جنسية في تكوينه الجنسي الخاص. ولقد وجّه السر أرنولد ولسون الحاكم البريطاني العام في العراق أشد الانتقادات إلى لورنس. ففي رسالة بعث بها إلى السر برسي كوكس وضمنّها الفصل الأول من كتاب لورنس: «أعمدة الحكمة السبعة»، كتب ولسون يقول: «ليست لديّ أية فائدة فيها، وأنا أكره الرجل وأمقت القضيّة». ثم يواصل قوله: «إن الصفحات الثلاث الأولى مملّة، وإنها تذهب بعيداً لتبرهن على تخنّثه، وحبّه للملبس، ولأن يتم تصويره في ملابس طويلة... إن ممارسة أعمال اللواط هي مصدر ضعف

لورنس، وهي السبب في مكوثه في القوة الجوية الملكية، وفي جحفل الدبابات. . .».

لا يوجد أدنى شك في أن لورنس كان نموذجاً لشخصية قلقة، ذات عبقرية، وذلك هو الشذوذ الذي تميّز به الكثيرون من الخالدين في العالم، من أمثال: جان دارك، وسلني، وميكال أنجلو، وموزارت، وتولستوي ـ ولا نريد أن نذكر سوى القلائل منهم ـ في مختلف مجالات النشاط.

كان من النادر جداً أن يشير الملك فيصل إلى لورنس. وعندما كان يشير إليه كان يستعمل على الدوام كلمة «مسكين».

كانت مقالة نشرتها جريدة «الديلي إكسبريس» تحدّثت عن مقابلة مع الملك فيصل، سبباً في إحداث إزعاج كبير لجلالته. فقد كان فيصل على الدوام يأسف للجهود التي تبذلها هذه الجريدة الواسعة الانتشار، في تحريك الرأي العام البريطاني ضد التزامات بريطانيا إزاء العراق، ولذلك سمح جلالته بعقد مؤتمر صحفي على أمل الإدلاء بحديث له قيمته.

كان فيصل مقتنعاً، بالنسبة للمعركة الصحافية التي يقودها اللورد بيفربروك، بأن الأتراك لن يتخلّوا بسرعة عن مطالبتهم بالموصل. وكان يشعر بأنّ التقاءه شخصياً مع مراسل «الديلي إكسبريش» قد يكون ذا معونة ملموسة في ذلك، ولكن سرعان ما خاب أمل جلالته في هذا الأمر.

كانت العناوين التي تصدّرت الصفحة الأولى من جريدة «الديلي إكسبريس» تقول: «عزلة الملك فيصل في لندن. اختفاؤه عن أنظار الجمهور». وذلك في الصباح الذي أعقب المقابلة، والذي اقترح فيه إحداث تغيير في مسلك الصحيفة.

تبدأ المقابلة التي نشرتها «الإكسبريس» بالحديث عن سر الأماكن التي نزل فيها فيصل، منذ أن انتقل من فندق هايد بارك. ثم تواصل حديثها قائلة: «. . . ولقد كانت حتى وزارة المستعمرات التي تحاط علماً في العادة، بكل الشخصيات التي تزور قلب الأمبراطورية، قد أعلنت ـ عندما سُئِلَتْ

بالهاتف ـ أنها تجهل عنوانه (أي فيصل) جهلاً تاماً، وأنه إلى ما قبل أيام قلائل خلت؛ كان قد استقرّ في مسكنه الخاص في «برنس غيت»، والذي وضعه تحت تصرّفه «أليعازر صالح خضوري»، وهو صديق عربي ثـري يعيش الآن في بغداد».

بادرنـي خادم إنكليزي مستفسراً بقوله: «ألديك موعد مع جلالته؟» وذلك عندما فُتحت بوابة المنزل الكبير المزيّنة بالذهب، جواباً على طرقي إياها. وعندما أكّدتُ بأن الموعد قد تم تحديده، اندفعت إلى غرفة استقبال فخمة حيث كان الملك يجلس في كرسي ذي مساند، وإلى جانبه مرافقه، أمام مائدة صغيرة من خشب البلّوط، غُطيّت بالوثائق والمـراسلات التي كانت تنتظر أن يطالعها جلالته.

لقد جلس هنا لمدة ساعة لم تقطعها سوى فترات عرضيّة، كان أُمناء سره خلالها يتشاورون طلباً للتعليمات، وذلك لكي يستعرض معي الأسئلة العشرة المكتوبة التي قدّمتها إليه قبل يوم سابق.

لقد تحدّث فيصل عن الجيش العراقي، وعن الحالة الاقتصادية، وعن الفوضى المتوقعة إذا ما رحل البريطانيون، لكنه كان ـ ويا للأسف ـ يذكّرني في عدة فترات، بأنه ملك، وأن الملوك لا يتحدثون عن القضايا السياسية في بلادهم بقصد نشرها.

أصَرّ فيصل خلال المقابلة، على القول بأن زيارته إلى إنكلترا كانت لأسباب صحية ليس إلاّ. وعندما سألته عما إذا كان يتفّق مـع «المستر إيمري» حول ما إذا كان الأتراك لا يتهورون في شن الحرب، انحنى فيصل إلى أمام وضرب الطاولة بقبضة يده بشدة، وقال: «إنني إذا ما تركتُ أبواب منزلي مفتوحة على مصاريعها وفي داخله الكنوز، فإن اللصوص لن يترددوا عن دخولها! فإذا ما غادر البريطانيون. . .». غير أن الملك كان لا يتحدّث بهذا كي يُنشر.

وتختتم مقالة «الديلي إكسبريس» بالقول: «كانت تلك هي آخر كلمة تلفّظ بها أمامي هذا الملك الشقي، ذو العرش المصطنع. إنه غريب عن

البلد الذي يحكمه، والذي تم خلقه بخديعة سياسية، وهـو يتطلّع إلى خديعة سياسية أُخرى لإنقاذ نفسه من الفشل».

«كان الملك فيصل يبتسم، لأنه لم يكن قد فقد الشجاعة؛ لكنني سأظل على الدوام أعتبره، وهو في عزلته اللندنيّة الهادئة، شخصية مأسوية وقعت في قبضة أحداث يصعب عليه جداً أن يسيطر عليها».

لم أكن أعجب لأن الملك كان ساخطاً، لكنه كان يبتسم. فهو لم يكن عديم الجرأة، كما أكدّ ذلك الصحافي الذي تحدّث إليه، كما أنه لم يكن خالياً من الإحساس بالمرح. ذلك لأنه لم تكن هنالك حملة صحافية نشطة ضد التزاماتنا، نحن الإنكليز، في العراق فحسب، بل كان يوجد أيضاً عدد من أعضاء البرلمان الذين كانوا يلّحون على بريطانيا بأن تنسحب من العراق.

ولقد تركزّ الاهتمام الخاص، في ذلك الوقت، في مسألـة العراق الشائكة، وذلك بالنسبة إلى الاجتماع الذي عقدته الوزارة التي دُعيْت إلى أن تقرر السياسة المقبلة للحكومة. ففي مؤتمر «جنيف» تعهد المستر إيمري بأن تمتد فترة الانتداب خمساً وعشرين سنة. وفي اجتماع عقـده حزب المحافظين في «برايتون» في اليوم الثامن من شهر تشرين الأول «أُكتوبر»، وفي أعقاب اجتماع الوزارة، كان المستر «بلدوين» يتوقع أن يلقي بياناً يتعلق بقضية الموصل، وأن يحدّد موافقة الحكومة أو عدم موافقتها على التصرفّ الذي تصرّفه وزير الدولة لشؤون المستعمرات.

* * *

سُر الملك فيصل بالاستقبال الذي لقيه في قصر بكنغهام، ولو أن تلك لم تكن هي المناسبة الأولى التي يلتقي فيها مع الملك جورج، لأنه سبق له أن تشرّف بمقابلته، عندما كان أميراً سنة ١٩١٩.

أما هذا الاجتماع الثاني بينهما فقد استمر نصف ساعة كاملة. وقد دُهش فيصل من اهتمام الملك جورج بقضية «الموصل»، وإلمامه بها. وقد

سُرّ كثيراً عندما أكّد له الملك جورج بأن عُصبة الأمم سوف تتخذ قراراً عادلاً من دون شك، ولهذا السبب فلا داعي لتخوّف العراق.

في آخر ليلة من وجودنا في لندن، أقام الملك فيصل وليمة في الدار التي يسكنها في «برنس غيت». وكان من بين الذين حضروا تلك الوليمة المستر إيمري وزوجته، والأونورابل «وليم» وكيل وزارة المستعمرات، والليدي بياتريس أورمبسي غور، والسر هنري المندوب السامي البريطاني في مصر، والليدي مكماهون، وجعفر باشا العسكري.

ولقد كان من حسن حظ فيصل، أنه التقى مرة أخرى هنا مع المستر إيمري، الذي آلمته مقالة صحيفة «الديلي إكسبريس» سالفة الذكر.

ولقد استعاد فيصل في ذلك المساء مرحه المعتاد. ذلك لأن المستر إيمري كان قد أعلن بأن الحكومة البريطانية ليست لديها نيّة الجلاء عن العراق. ثم عاد فأكّد ثانية بأنه لن تكون هناك سوى نتيجة واحدة للمناقشات الجارية في عُصبة الأمم، وهي أن ولاية الموصل تُعتبر من النواحي الجغرافية والعرقية والاقتصادية جزءاً لا يتجزأ من العراق، وأنها ستظل، على وجه التأكيد، داخل شرعية مملكة الملك فيصل. كذلك أكد وزير المستعمرات للملك فيصل بأن الحملة الصحافية التي تؤيد الجلاء عن العراق لا قيمة لها، كما يحاول جلالته أن يعتقد ذلك.

في الليلة التي أعقبت حفلة العشاء التي أقامها فيصل، أعلن المستر بلدوين، سياسة حكومته، وذلك في الاجتماع الذي حضره مندوبو حزب المحافظين في برايتون. فلقد أكّد بلدوين رئيس الوزراء مساندة وزارته مساندة تامة للتصريح الذي أدلى به وزير المستعمرات في مؤتمر جنيف، وأكّد بأن بريطانيا قد تسلّمت وثيقة الانتداب على العراق، وأنه ليسرّها بأن تحقّق الثقة التي تقبّلتها. وهكذا غادر الملك فيصل لندن في صباح اليوم التاسع من شهر تشرين الأول (أكتوبر)، وهو سعيد لاطلاعه على إخلاص الحكومة البريطانية، ومساندتها المتواصلة للعراق.

* * *

في اليوم الذي وصلنا فيه إلى «باريس»، تناولنا طعام الغذاء على مائدة المهراجا «كابور تالا» وذلك في منزله الباريسي الذي يقع في المنطقة البهيجة التي تحيط بغابة «بولوني»، وما عدا المهراجا تالا، كان هناك الراجا «جغاتجي سنغ بهادور» وهو حاكم لمقاطعة تبلغ مساحتها ستمائة وخمسين ميلاً مربعاً، وعدد سكانها ثلاثمائة ألف نسمة، وذلك بالإضافة إلى تملّكه مقاطعة «أوده» من ذات المساحة، وذات السكان. وقد أهّلته شهرته في الهند، بأن أصبح تُطلق لتحيّته الشخصية خمس عشرة إطلاقة مدفع.

كان من خيبة أمل الملك فيصل أنه كان من بين الضيوف الأميران «جورج لطف الله، وحبيب لطف الله» وهما مصريان زعما بأنّ الملك حسين هو الذي أنعم عليهما بهذا اللقب! الأمر الذي كان يزعج فيصل، وإخوته الثلاثة. ولذلك عندما حيّاه الأخوان ردّ عليهما ببرود.

كان المهراجا والراجا يتحدثان اللغة الفرنسية بطلاقة مع الملك فيصل. ذلك أنهما اعتادا أن يمضيا أشهر الصيف في أوروبا، وقد جعلا من باريس مقراً لهما.

جرى في اليوم التالي حديث قصير بين الملك فيصل والمسيو «بورتيلو» وذلك قبل اجتماع فيصل مع المسيو «بريان» وزير الخارجية الفرنسية. وقد سُرّ كثيراً بالتأكيد الذي تلقاه عن رغبة الفرنسيين في إقامة علاقات ودّية مع بلدان الشرق الأوسط. وما أن حلّ المساء حتى فوجئنا باستقالة الوزارة الفرنسية. وقد تم تشكيل وزارة جديدة حالاً، ولكن بقي المسيو «بريان» في منصبه وزيراً للخارجية. وهكذا تم اللقاء الذي أجّل إلى صبيحة اليوم التالي، في الوقت المحدّد له.

كان اجتماع فيصل مع «بريان» ودّياً. وقد أكّد جلالته على إقامة علاقات ودّية مع فرنسا. وكان يسعى إلى أن يقنع وزير الخارجية الفرنسية ـ وإخاله بأنه كان ناجحاً في هذا كل النجاح ـ بأنه لا توجد أية أُسُس للشكوك في الخطط التي ترمي إلى تقويض مركز فرنسا في سوريا. ولقد تعهد فيصل نفسه بأن يعمل كل ما وسعه لمساعدة الفرنسيين في مهمتهم

هناك، وهكذا تم الاتفاق على عقد لقاء ثانٍ في اليوم الذي يسبق مغادرة الملك فيصل فرنسا إلى تريست.

في الفترة ما بين هذين الاجتماعين، وصلت الأنباء الغريبة عن قيام الفرنسيين بقصف مدينة دمشق بأوامر صدرت من المندوب السامي الفرنسي في سوريا، ذلك العمل الذي وُصف بإيجاز في بيان رسمي، وبُرّر بأنه كان إجراءً عسكرياً ضرورياً. ولقد بهت فيصل حين أطّلع على ما نشرته الصحف الفرنسية من أنباء، وظل يفكّر صامتاً بضع دقائق قبل أن يخاطر بإبداء أية ملاحظة، لكنه حتى في ذلك الوقت لم يوجّه أي انتقاد، وكان تعليقه الوحيد قوله: «إن بيان الجنرال «ساريل» لم يُنشر بعد، ولكن يبدو أنه ارتكب غلطة فظيعة!».

أعقب نشر أنباء قصف دمشق صدور بيان سريع بدعوة الجنرال «ساريل» إلى باريس لغرض «بحث الأحداث الأخيرة في سوريا». ولقد استنكرت الصحافة الفرنسية استنكاراً شديداً عملية القصف، وطالبت بمعاقبة الجنرال ساريل في الحال.

لا يوجد سوى شك ضئيل في أن تلك القضية كانت غلطة شنيعة، ولذلك استبدل الجنرال ساريل بالمسيو «جوفنال» محرّر جريدة «الطان» الشهيرة[٥]، مما دلّل على أن وزارة الخارجية الفرنسية كانت لها ذات النظرة.

تعقّدت الحالة جداً في سوريا، عندما قام الملك فيصل بزيارته الثانية للمسيو بريان وزير خارجية فرنسا، حيث أثارت السياسة المقبلة للحكومة الفرنسية في سوريا، المزيد من اللغط في الأوساط السياسية والصحافية. ولقد قال المسيو جورج كليمنصو عن «بريان»: «بأنه لا يعرف شيئاً ما، لكنه يفهم كل شيء». غير إن فيصل كان في كل زيارة من زياراته لوزير

(٥) «الطان» وتعني «الوقت»Le Temps من أقدم وأشهر الجرائد الفرنسية المحافظة، وكانت على الدوام تعكس وجهة نظر الحكومة الفرنسية.

الخارجية، متأثراً أشد التأثر بمعرفته وتفهّمه.

لقد قيل إن على فرنسا أن تنهي انتدابها على سوريا، على الرغم من فقدانها الاعتبار الذي أصابته. كما راجت إشاعات صريحة تقول بأن فرنسا تبحث عن تعيين ملك ملائم لسوريا، كَحَلٍّ لمشاكلها هناك.

كانت رغبة فيصل في توطيد السلام في بلدان الشرق الأوسط، قد أُثيرت خلال اجتماعه الثاني مع المسيو بريان. غير أنه ـ من الناحية الدبلوماسية ـ تجنّب تقديم أية مقترحات بشأن معالجة الحالة السيئة في سوريا، لأنه كان يعتقد بأن المشكلة يجب أن تُحَلّ من قبلَ فرنسا، وفرنسا وحدها ليس إلاّ.

لقد جعلت القضية السورية الفرنسيين يتطلّعون كثيراً إلى تحسين علاقاتهم مع الملك فيصل، وأن يكرروا التأكيد على أن الصداقة التي كان يتحدث عنها، كانت تبعث على أشد الارتياح بالنسبة إلى المسيو بريان، في ذلك الوقت الذي كانت تمرّ به الأزمة.

* * *

كذلك حدث أثناء وجودنا في باريس، أن نُشرت أنباء عن تنازل شاه إيران عن عرشه[٦]. ولم يكن الملك فيصل مندهشاً لهذا القرار الذي اتخذه الشاه. فقد قال جلالته: «لقد كان ذلك أمراً محتوماً»، ثم أضاف: «وإنني أتنبأ بأن «رضا خان» سيتولى العرش قبل أن تنتهي السنة!» وقد برهنت الحوادث على مدى صحة توقعاته تلك.

كانت الوقائع في الحجاز منذ سنة ١٩٢٤ موجزة إيجازاً شديداً. وكان اهتمام فيصل بها قد ازداد زيادة ملحوظة عندما كنا في باريس. فقد غدت الأوضاع في الحجاز مستحيلة جداً على «الملك علي» الذي كان حاكماً

---

(٦) تنازل الشاه القاجاري أحمد ميرزا عن عرشه إلى رضا بهلوي الذي سيطر على الحكم في سنة ١٩٢٦.

بالاسم، لكنه كان في الواقع سجيناً ولمدة سنة في ميناء «جدة» المحاصَر.

ولقد تحدّث فيصل قليلاً عن الحالة، لكنه كان متأكداً بأن الملك علي ـ وبسبب نقص الأموال لديه ـ سوف يضطر هو الآخر إلى التنازل عن العرش، أو الاستسلام إلى قوات السلطان عبد العزيز بن سعود.

كان الاستسلام غير متصوّر. وعندما أُعلن نبأ تنازل الملك علي، خلال الشهر الذي أعقب عودتنا إلى بغداد، لم يبدِ الملك فيصل أية دهشة لما حدث. كان الملك علي قد غادر الحجاز إلى «عدَن» على ظهر الدارعة البريطانية «كورنفلوس»، حيث انضم هو وأفراد عائلته في أوائل سنة ١٩٢٦ إلى أخيه فيصل في بغداد، وبقي فيها حتى وفاته في سنة ١٩٣٥.

دُعي فيصل لحضور جلسات خاصة يعقدها مجلس النواب الفرنسي. وأُعدّت لنا مقصورة شاركنا فيها المهراجا «كابور تالا»، ونفر من مرافقيه. ولقد حدث قدر كبير من الهياج في المجلس، ومقاطعة شديدة للمسيو «بينليفيه»، عندما كان يلقي خطابه الذي أوجز فيه سياسة الحكومة.

كان رئيس الجمهورية المسيو «دوميرج» يجلس أمام طاولة على منصّة عالية. وفي أسفل منه توجد منصّة ثانية كان منها رئيس الوزراء يلقي خطابه ذاك. وما أن أشار المسيو «بينليفيه» إلى سوريا حتى انفجر الضجيج، واستمرّ بضع دقائق، كان خلالها النواب يهتفون أحدهم ضد الآخر عبر القاعة، وقد تجاهلوا تجاهلاً تاماً صوت المطرقة التي كان الرئيس «دوميرج» يدق بها الطاولة أمامه، في محاولة لإحلال الهدوء.

وإذ لم يجد له تجاوباً من لدن ذوي القبّعات الخفيفة، وقف الرئيس «دوميرج» على منصّته، وضرب الطاولة ضربات عنيفه متتابعة.

ولعدة دقائق لم تؤدّ محاولات الرئيس الفرنسي إلّا إلى زيادة الهياج. لكن الهدوء ما لبث أن استُعيد مؤخراً واستمر المسيو «بينليفيه» يلقي خطابه في المجلس.

تعجّب فيصل كثيراً من الاضطراب الذي طغى على مجلس النواب

الفرنسي، وقال وهو يبتسم: «كم هو هادئ مجلس النواب العراقي إذا ما قورن بهذا المجلس؟»

ازداد تحريك الهياج بشأن سوريا، منذ أن استُدعي الجنرال «ساريل»، وظهر احتمال شديد في أن الحكومة الفرنسية سوف تُهزم عند التصويت على الثقة بها، والذي جرى في أعقاب خطاب رئيس الوزراء. وكان الهياج في المجلس شديداً جداً. ومع ذلك كانت الحكومة لا تتمتع إلّا بأكثرية ضئيلة، وقد ينجم عن هزيمة الحكومة رفض استمرار فرنسا في تحمّل أعباء الانتداب على سوريا. وقد كنت أعتقد أنه من حسن حظ السلام في الشرق الأوسط آنذاك، أن تحصل الحكومة الفرنسية على الأكثرية.

* * *

امتزجت زيارة الملك فيصل لباريس بالراحة والاستجمام في ضاحية «سيميز» حيث أقام في منزل واسع جميل يُدعى «قصر شيرين» اتخذه صديقاه العزيزان «الأمير إبراهيم حلمي» والأميرة زوجته داراً لهما هناك[٧].

أراد فيصل قبل مغادرته باريس إلى «الريفيرا» الفرنسية، أن يقابل آخر سلاطين تركيا «عبد المجيد» الذي كان يعيش في منطقة «سيميز». قدّمنا أنا وتحسين قدري بطاقاتنا، نيابة عن الملك فيصل، وذلك في الفيلّا المتوسطة التي يسكن فيها عبد المجيد. وقد جاء رده بزيارة شخصية قام بها.

كان عبد المجيد ـ ما عدا الطربوش الأحمر ـ يرتدي ملابس الصباح. وقد ظهر ـ بسبب نحافته ـ وكأنه رجل عاجز كبير السن جداً، وذلك بوجهه الذي ينطق بالحزن، وبلحيته البيضاء كالثلج. لقد كان يعيش في أوضاع ضيّقة. وكان من المحتم أن يصيبه الإملاق لولا المساعدات المالية التي كانت تصله من «نظام حيدر آباد»، وآخرين من المتدينين في الهند.

وحين أخذ يتحدث عن حالته الراهنة، وعن سنوات النفوذ والسلطة

(٧) من أفراد عائلة الخديوي عباس حلمي الذي كان يحكم مصر أثناء الحرب العالمية الأولى وما بعدها، إلى أن خلفه في الحكم الملك فؤاد والد فاروق آخر ملك في مصر.

التي عرفها في اسطنبول، انفجر باكياً، وظل ينتحب إلى أن غادرنا. كان يصحبه ولده ووريثه «فاروق» الذي كان يعرب عن ثقته في السقوط المبكر لحكم مصطفى كمال، وفي عودة والده إلى الحكم!.

اشتملت زيارة السلطان السابق «وحيد الدين» على سفرة بالسيارة إلى «سان ريمو» حيث كان هذا الحاكم السابق يتمتع بظروف أكثر سعادة من ظروف السلطان عبد المجيد. فقد استأجر له بيتاً فخماً في الضاحية الشرقية من المدينة. ففي مدخل البيت الذي ينفتح على طريق طويل تقطعه السيارة، وُضعت نقطة حراسة، وغرفة صغيرة للحرس يأوي إليها جنود إيطاليون.

وفي داخل المدخل صالة يشاهَد فيها عدد كبير من الموظفين من بقايا البلاط الملكي السابق.

قدّم لنا الشاي (الأمير سامي) ابن أخت «وحيد الدين»، والذي كان يتحدث باللغة الإنكليزية. وقد صرّح لي بأنه إنكليزي المشرب، ومتحمس جداً لذلك. وكان «سامي» هذا ـ مثل ابن عبد المجيد ـ يحلم هو الآخر بأنّ أيام مصطفى كمال كرئيس لجمهورية تركيا، غدت أياماً معدودة، وأن عودة مُبكرة لنظام الحكم السابق، أصبحت أمراً مؤكداً.

ومع أن وحيد الدين من نفس بنية عبد المجيد، ولا يختلف عنه في مظهره الخارجي، إلاّ أن شخصيته كانت مختلفة تمام الاختلاف. ذلك أنه لم يظهر أي أثر للشكوى، وكان مرحاً خفيف الروح. وإذا ما أخذنا نظرته الفلسفية عن أوضاعه المتغيرة بنظر الاعتبار، وجدناه ينغمر في الضحك، حتى عندما يتذكر الأحداث التي ألَمّتْ به قبل أن يُطرد من العرش.

* * *

حجز الملك فيصل سفره في «قطار الشرق»[٨] في ليلة الرابع من

---

(٨) أنشىء هذا القطار الذي يربط أوروبا بتركيا في القرن التاسع عشر. فهو يتحرك من باريس إلى اسطنبول. وكان في الأصل مخصصاً لنقل الملوك ورؤساء الدول. وقد أوقف العمل نهائياً به في أواسط سنة ١٩٧٨.

شهر تشرين الثاني (نوفمبر). وكنت أتوقع أن تبعث الحكومة الفرنسية بممثل لها أثناء مغادرة جلالته، وذلك بالنظر إلى المحادثات الودّية التي أجراها مع المسيو «بريان» قبل أيام قلائل خلت ليس إلاّ. ولكنني دهشت كثيراً عندما تحرّك القطار دون حضور ممثل وزارة الخارجية الفرنسية. ومع أن فيصل لم يعلّق على ذلك بشيء، إلاّ أن من المؤكد بأنه قد لاحظ هو الآخر مثل هذا الإهمال.

وصلنا إلى الاسكندرية بعد ظهر اليوم التاسع من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) فاستُقبلنا استقبالاً حاراً فيها من لدن حشد هائل تجمّع على الرصيف لتحية الملك. وما إن وصلنا إلى موقف النزول من السفينة، حتى تقدّم «ذو الفقار باشا» لتحية فيصل ممثلاً لملك مصر، وكان معه النقيب «السر هنري فلويد» مرافق المندوب السامي البريطاني، وصبري باشا محافظ الاسكندرية، بالإضافة إلى عدد آخر من المستقبلين.

استغرقت الرحلة بالقطار من الاسكندرية إلى القاهرة ثلاث ساعات. وقد التقى فيصل بالسر لويد جورج لدى وصوله. وبعد أن تصافح السفير مع الملك، قدّم إليه عدداً من الموظفين البريطانيين والمصريين الذين تجمّعوا على المنصّة معه، وهناك علمنا بأن وسام الشرف قد أُنعم به على مضيفنا.

في اليوم الذي سبق مغادرتنا القاهرة نشرت صحيفة «إجبسيان ميل»[٩] على صفحتها الأولى، نبأ عنوانه: «أمملكة رابعة للأسرة الحجازية؟» كانت أنباء هذا الاحتمال قد بعث بها مراسل جريدة «الديلي ميل» الإنكليزية في «لوزان». وكان النبأ يقول: «ذُكر أن فرنسا قد عرضت بأن يُنصَّب أخ لـ«فيصل» ملكاً على سوريا، وهو الأمر الذي ذُكر بأن الملك فيصل قد بحثه مع المسيو بينليفيه في الأسبوع الماضي».

---

(٩) الإجبسيان ميل Egyptian Mail وتعني «البريد المصري» من أشهر الصحف الإنكليزية التي صدرت في مصر منذ الاحتلال الإنكليزي لها، وبقيت تصدر هناك وتعبر عن آراء الحكومة البريطانية حتى بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية.

تعجّب فيصل من نشر هذا الاقتراح. وبعد أن قرأت المقال لجلالته تبسّم وعلّق قائلاً: «إن الصحافة ماضية في نشرها أنباء لا أصل لها عن عائلتي وعني أنا. غير أن هذا مثال آخر».

لم تتضمن المقالة أية إشارة عن الأخ المرشح لعرش سوريا. غير أنه لما كان الأمير زيد هو الوحيد بين إخوة فيصل الثلاثة الذي يعوزه الحكم، فقد كان واضحاً بأنه هو الأخ الذي يتبادر الذهن إليه.

كانت آخر ليلة أمضيناها في القاهرة لا يمكن أن تُنسى، وذلك بسبب حفلة العشاء المتألقة التي أقامها السفير البريطاني اللورد لويد جورج والسيدة قرينته، في دار المقيميّة البريطانية في القاهرة على شرف الملك فيصل.

كانت قائمة الضيوف المدعوين إلى الحفلة قد تم عرضها على الملك فيصل مُسبقاً. وقد أعرب فيصل عن امتنانه لأن الأميرين «لطف الله» لم يُدعيا إليها. لقد كانت تلك الحفلة مناسبة فخمة حضرها كبار الشخصيات البريطانية والمصرية، وقد تعاظم تألّقها بوفرة الأوسمة والجوائز والجواهر. وكان فيصل يحمل وساماً مفرداً هو السلسلة الذهبية التي تؤلّف وسام الاستقلال الحجازي.

* * *

بدأ طيراننا إلى بغداد من مطار «هليوبوليس» في الساعة التاسعة والنصف من صباح اليوم الحادي عشر من شهر تشرين الثاني (نوفمبر)، وذلك في طائرتين من صنع «شركة فكرز» هما؛ «فيفود» و«فينوس».

كان أحد ملاّحينا هو «بازل إيمري» الذي أصبح فيما بعد برتبة عميد جوي وآمراً للقوات الجوية الحليفة التابعة لحلف الأطلسي. وما أن حلّقنا حتى انفتح أمامنا منظر القاهرة، ونهر النيل المدهش، ومسجد محمد علي المشيّد من الرخام والمرمر الأبيض، وهو يقف شامخاً بين ثلاثة آلاف مسجد آخر، كما استطعنا أن نميّز إلى شمالي المسجد مقبرة سلاطين

المماليك، وأهرام الجيزة إلى ناحية الجنوب.

صحبتنا عند تحليقنا ثلاث طائرات. ولم تلبث الريح المواجهة لنا مباشرة، والتي لم تكن على سطح الأرض سوى نسمة سريعة قليلاً، أن ازدادت عنفاً عندما انطلقنا محلّقين، وسرعان ما أصبح طيراننا بطيئاً وبشكل مخيّب للآمال.

وإذ اقتربنا من «أبو صير»، على بُعد ما يزيد عن ستين ميلاً بقليل عن القاهرة، حتى بدأت مشعة الطائرة «فينوس» تنضح، وإذا ذاك هبطت الطائرتان معاً في مطار إحدى مدارس تدريب القوة الجوية البريطانية على مقربة من «الإسماعيلية» وذلك لغرض التأكد من الأمر.

لقد ظهر أن الثقب الذي أصاب المشعة كان واسعاً. وحيث أن المتوقع أن يسوء الجو، فقد قررنا تأجيل السفر إلى اليوم التالي، على أقل تقدير.

تناولنا فطورنا في الساعة السادسة من صباح اليوم التالي، وبعد أقل من نصف ساعة أصبحنا في الجو مرة أخرى، وسرعان ما صرنا فوق قناة السويس عند «القنطرة». وهنا تلقّينا رسالة لاسلكية من مطار هليوبوليس عن الجو. تقول بأن عاصفة سوف تهبُّ من ناحية الشمال الشرقي تتراوح سرعتها بين ثلاثة آلاف وستة آلاف قدم، وأن هناك احتمالاً بهبوب رياح سطحية أقوى فيما بعد، من ناحية الشمال الشرقي أيضاً.

لم تكن هذه الرسالة مفرحة، عندما تأكد لدينا بأن الارتفاع إلى أعلى من خمسة آلاف قدم يجب بلوغه خلال الساعات القلائل القادمة، وعندما نكون فوق البحر الميّت.

كان تحليقنا بطيئاً، لأننا كنا نطير نحو الشرق بامتداد خط الساحل، واجتياز صحراء سيناء القاحلة. وكنا نطير في وجه رياح متزايدة، ولذلك لم يكن معدّل طيراننا، في هذه المرحلة من السفرة، يزيد عن خمسة وأربعين ميلاً في الساعة الواحدة.

كان طريقنا من القنطرة إلى حدود فلسطين، يقع على امتداد سكة الحديد، والبحر الأبيض المتوسط، حيث يمتدّ بساط أزرق داكن إلى شمالنا، وإلى يميننا صحراء منبسطة خالية من أية إشارات عن الأودية. وصلنا إلى نطاق رؤية «العريش» التي ما تزال تشتهر باعتبارها مركزاً لأعمال التعذيب بالنار، كما ذكرت ذلك أسطورة قديمة، حيث كانت هذه الأعمال تجري أمام هيئة قضائية، إذ يظهر المتخاصمون أمام قاض يحمل سيفاً سخّنه حتى احمرّ لونه في موقد للفحم الحجري. وبعد أن يتم أداء القسم، يجري إمرار السيف الملتهب على ألسنة المتقاضين. وقد قيل لنا، أن لسان الرجل الصادق لا تمسّه النار[١٠].

غيّرنا مسارنا عند وصولنا إلى حدود فلسطين، فاتجهنا في طيراننا إلى الداخل نحو «بئر السبع» ومررنا فوق «رفح» وهي الموقع الفصلي الذي يعشّش فيه طائر السلوى. وهذه الطيور سيئة الحظ لأنها إذ تسافر من أوروبا تستنفد كل قواها عندما تصل إلى الساحل، ولذلك يسهل اصطيادها وهي في أعشاشها التي تمتد على امتداد الساحل.

استغرق قطع المسافة ما بين بئر السبع والبحر الميّت، والبالغة اثنين وأربعين ميلاً، مدة ساعة واثنتين وعشرين دقيقة، وكنا كلّما مررنا فوق إحدى المدن نبعث ببرقية لاسلكية إلى مطار هيلوبوليس. وما أن يعرف العاملون في المطار تلكّؤنا في سيرنا، حتى يفجر بعض الفكهين منهم قائلين: «واظب على الطيران وستصل إلى هناك عند حلول عيد الميلاد، أي بعد ستة أسابيع»!

وما أن اقتربنا من البحر الميت الذي ينخفض بمقدار ألف وثلاثمائة قدم إلى ما تحت مستوى البحر، حتى أخذت السُحب المثقلة بالمطر

(١٠) هذه العادة كانت سائدة في كل أنحاء العالم العربي، وربما لا زالت مستعملة حتى الآن في بعض أنحاء من العراق وغيره من البلدان العربية وهي تعرف باسم «البشعة» حيث يحمى محماس القهوة بالنار حتى يحمر ثم يمس به لسان المتهم بالسرقة، فإن احترق اللسان، تأكد أن صاحبه هو السارق.

تتجمع بسرعة. كانت الطائرتان قد حلّقتا إلى ارتفاع أعلى لغرض تجاوز المرتفعات الجبلية وهكذا كنا نطير فوق منطقة جميلة بين المطر وأشعة الشمس على ارتفاع يزيد عن ستة آلاف قدم.

ولقد تكشّفت اللحظة التي أشرقت فيها الشمس عن صورة لا نظير لها قط. فمياه البحر الميّت الجميلة الزرقاء، وشبه جزيرة «اللسان» الصفراء التي تمتد إلى داخل بحيرة عند الشاطىء الشرقي للبحر، والضفاف الجيرية الغربية، والكهوف الرملية العالية التي تؤلف الحدود الشرقية، وقوس قزح الخلّاب الذي يمتد أشبه بسفينة هائلة فوق سطح الماء الذي يبلغ عرضه عشرة أميال، كل ذلك قد أسهم في تكوين منظر يؤسر الأبصار.

كنت أجلس في مقصورة القيادة مع بازل إيمري. وكنت ألتقط هذه المناظر بعين يقظة. وما أن أجتزنا البحر الميّت، وشددنا أحزمة مقاعدنا، حتى تسلّمنا تقريراً عن توقعات الجو، يرشدنا عن الأحوال المضطربة. غير أن مسلك طائرتنا التي كانت في عدة مرات تنطّ، أشبه بسفينة صغيرة في بحر متلاطم الموج، قد تجاوز عقيدة من فيها من الركاب على أقل تقدير.

لقد كنا نأمل أن نصل إلى مدينة «عمّان» عند الظهر، لكننا لم نصل إلى مكان الهبوط في «زيزا» التي تبعد ثمانية عشر ميلاً عن عمّان، إلاّ في الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر.

قام الملاّح بإنزال الطائرة على الأرض بكل هدوء، لكننا هبطنا منها ونحن نتنفس الصعداء بشدة. استقبل الأمير عبد الله أخاه فيصلاً، وبعد أن تعانقا، اتجهنا في الحال بإحدى السيارات نحو عمّان تحرسنا كوكبة كبيرة من الفرسان الشراكسة الذين يؤلفون الحرس الخاص للأمير عبد الله.

ولم يمض وقت طويل حتى أنبأني فيصل بأنه قرر أن يؤخر سفره لمدة يومين. وعندما كنا نتناول طعام العشاء سألني عما إذا كنت أعتقد أن من غير الحكمة بالنسبة إليه، أن يهبط في قصبة الرمادي، ومن ثم يكمل رحلته بالسيارة إلى بغداد، عبر الكاظمية، وبذلك يتهيأ له أن يقيم الصلاة في مسجدها، ويقدّم آيات الشكر لله قبل أن يصل إلى داره.

لقد أعربت عن فظاعة هذا الاقتراح، وأكّدت له بأن مثل هذا الأمر يعني القيام بسفرة متعبة في سيارة، تمتد ساعتين أو ثلاث ساعات في أعقاب رحلة جوية، بالإضافة إلى الاستقبال الرسمي المُمل انتظاراً لوصوله إلى عاصمته. لقد قررت أن أتحمّل اللوم لإبطال مقترح فيصل ذاك، وعندئذ وافق على هذا الحل ضاحكاً.

أظهر الأخوان فيصل وعبد الله منتهى غبطتهما باللقاء لكن الأمير عبد الله أدهشني لأنه كان على الدوام يخاطب أخاه ـ وهو أصغر منه سناً ـ بكلمة «سيّدي» على أن الحاكمين كانا في الظاهر وبصفة دائمة يكشفان عن تناقض ملحوظ بينهما. فقد كان فيصل يشبه أخاه الملك عليّاً شبهاً كبيراً في البنية والهيئة، في حين كان عبد الله أكثر امتلاء في الجسم، وهيئته أكثر انبساطاً.

كذلك كانت المفارقة بينهما تتمثل في ملبسهما أيضاً. فقد كان فيصل يرتدي بذلة طويلة تتناسب مع قوامه النحيف الطويل، في حين كان عبد الله على الدوام يرتدي الملابس العربية والكوفية التي كانت تلائم تكوير جسمه تمام الملاءمة.

كان ينضم إلينا، أثناء تناول وجبات الطعام، صبيان يرتديان الملابس العربية، أحدهما هو الأمير طلال وليُّ عهد الأردن، وهو في السابعة عشرة من عمره، وكان مظهره يشبه مظهر أبيه شبهاً كبيراً. أما الثاني فهو الأمير عبد الإله وكان عمره أربع سنوات، وهو الابن الوحيد للملك السابق علي، وكان قد قدم من الحجاز لزيارة عمّه عبد الله.

هبّت ريح عنيفة عندما أقلعنا من «زيزا» في آخر مرحلة من سفرتنا الجوية إلى العراق، وقبل إقلاعنا بأربع وعشرين ساعة، غادرت قافلة سيارات من بينها سيارات تحمل الوقود لتزويد طائرتينا به. وصلنا في غضون ساعة واحدة إلى «الأزرق» وهو منخفض مستنقع واسع، ومكان ملائم لاصطياد عدد لا يحصى من البط ومن أنواع لم تُذكر قبلاً، ويقع هذا المنخفض على بعد ستين ميلاً عن «زيزا».

لم يمض وقت طويل حتى شاهدنا سيارة البريد التي تقطع الصحراء في مفازة رملية، وهي في طريقها إلى بغداد، وكانت أمطار غزيرة قد سقطت خلال اليومين الماضيين. وكانت القافلة التي تنقل الوقود لنا تراقب هذه «الورطة» قبل أن تقطع في طريقها أميالاً.

كان الأمل الوحيد لوصول الملك فيصل إلى بغداد في ذات اليوم وقبل أن يحل الظلام، يتمثل في هبوط الطائرتين، وأن تتزودّ الطائرة «فيفود» بالوقود من الطائرة «فينوس»، وبذلك تواصل طائرتنا «فيفود» طيرانها قُدُماً، على أن تتزوّد «فينوس» بالوقود من الصهاريج عندما يصبح ذلك أمراً ممكناً.

ولقد كنا محظوظين تماماً حين وجدنا بقعة أرض مناسبة للهبوط على بُعد ميلين ليس إلاّ، حيث أنزل الملاّحان طائرتيهما بكل مهارة، وخففا من الاضطراب الذي يرافق عملية الهبوط عادة. وإذ تقدّم النهار غدا واضحاً بأننا لا نقدر أن نصل بغداد قبل حلول الظلام.

تم تبادل التعليمات باللاسلكي، فحذّرنا المقر الجوي من الهبوط بعد حلول الظلام، وعندئذ اتخذت الترتيبات المقتضية لأن نبيت الليلة في «الرمادي» ضيوفاً على المتصرّف، ومن ثم نقلع منها في الساعة التاسعة صباحاً.

طلع الصباح عن جوٍ مشرق لا سُحب فيه. وبدا وكأنه يبتسم بنور غير معتاد. لقد كانت تلك بشارة نموذجية بعودة ملك العراق المحبوب. وكان فيصل نفسه في ذلك الصباح ظريفاً، منفتح القلب، مفرطاً في البشاشة، لأنه عاد إلى شعبه، وانضم لعائلته.

كانت وجهتنا إلى مطار القوة الجوية البريطانية الخاص بالسرب الخامس والأربعين في «الهنيدي»، الذي يقع على بُعد بضعة أميال جنوبي المدينة. حلّقنا فوق بغداد على ارتفاع لا يزيد عن ألف ومائتي قدم. وكنا نشاهد من الجو مناظر الاحتفال، وأقواس الزهور، والأعلام والرايات، وقد حوّلت المدينة إلى أعياد بكل وضوح.

ما إن هبط فيصل من الطائرة حتى حيّاه ولده الأمير غازي، ثم الأمير زيد، وجاء بعدهما السر هنري دوبس، فمارشال الجو السر جون هجنز، ففخامة السيد عبد المحسن السعدون، وأعضاء الوزارة.

وبعد تفتيش حرس الشرف المؤلّف من كتيبتي «بدفورد شاير» و«هرتفورد شاير»، اتجه جلالته إلى سرادق واسع كان فيه عدد كبير من الحاضرين. ولقد كانت زوجتي إلزي من بين الضيوف، وقد تلقّت تحيّات حارّة من فيصل قبل أن نعود أنا وإياها إلى دارنا.

بقي فيصل لمدة ساعتين يستقبل الحشد الهائل من الناس الذين تجمّعوا هناك عند طلوع النهار لتقديم التهاني إلى جلالته بالعودة. وعند المدخل الجنوبي للمدينة اتخذ الموكب المؤلّف من أكثر من مائتي سيارة، بالإضافة إلى فوج من الخيّالة، طريقه وسط الجماهير الفرحة المبتهجة إلى البلاط. وكان يسير معه على مهل بعد الظهر بحر زاخر من البشر.

كنت من الذين حضروا ذلك المشهد، وعندما شاهدت ذلك رحت أفكّر في العبء الثقيل الذي حمله فيصل خلال السنوات الخمس التي انتهت، وفي الالتزامات الملقاة على عاتقه في السنوات القادمة. وإذ ذاك تحققت ـ وربما كان هذا لأول مرة ـ من الأهمية التامة للعبارات المألوفة عن الشاعر «شلي» والتي يقول فيها:

«الملوك أشبه بالنجوم. إنها تشرق ثم تغرب. إنهم يمتلكون العالم عادة، ولكن من دون اطمئنان!»

الفصل السادس

تأسيس كليّة الطبّ العراقيّة

على الرغم من المنصب المريح، ذي السلطة المطلقة الذي كنت أحتلّه في ادارة سكك الحديد بشكل حيوي، فقد كان يخالجني على الدوام إحساس بالحزن، وكنت أبعد من أن أقنع بنصيبي ذاك.

لقد كنت أشعر بأنني أسمح لنفسي بالانجراف في التيار، أو أنني أدع الكثير من أموري إلى محض الصدفة، وأنظر أليها نظرة غيرة مؤكدة. ولذلك عندما حَلَّ ربيع سنة ١٩٢٦، وهو الوقت الذي أستحقُّ فيه التمتع بإجازة مقدارها ستة أشهر، صممنا، أنا وإلزي، على أن نحزم أمتعتنا وسلعنا، ونقوم برحلة حول العالم، ومن ثم نقرر ما إذا كنا سنعود إلى العراق أم لا.

كنا قد اشترينا معظم أثاثنا من السوق المحلية. ولذلك عزمنا - إذا ما أردنا العودة إلى العراق - على أن نشحن أثاثنا من بريطانيا، لأننا سنختار ما نحتاج إليه بدلاً من أن نعود وليس لنا سوى خيار محدود في بغداد.

كانت استعادة الملك فيصل لصحتّه، قد سهلت عليّ أن أطلب إليه السماح بمغادرة العراق. ولقد أخبرت كلاً من جلالته، والسر هنري دوبس، والعقيد «تينش»، عن احتمال قرارنا بالبقاء في إنكلترا، وذلك في نهاية جولتنا الطويلة.

قمت بزيارة مديرية الصحة العامة، وهناك أعربت عن عدم التأكد من عودتي إلى العراق. وكم كان من دهشتي أن راح «هالينان» يلح عليّ في

العودة، وقد استدعى الدكتور حنا خياط إلى غرفته، وسأله بأن يؤكد لي بأن كلية الطب قد انتهى التفكير من إنشائها، وبأنني قد عُيّنت عميداً لها... غير أن هذا المشروع كان يبدو في ذلك الوقت مُبهماً، وأن احتمال تحقيقه ما يزال أمراً بعيداً.

ومهما يكن الأمر، فبعد وصول رسائل مقنعة مغرية كانت تنتظر عودتنا من جولة بهيجة في وقت اتسم بالفراغ لأطول من شهر واحد، وأكثر تنوّعاً من السفرة الشهيرة التي قام بها «فينياس فوغ» بطل قصة «جول فيرن»[١] المعنونة: «رحلة حول العالم» قررنا ـ أنا وإلزي ـ أن نعود في ختام إجازتي؛ وذلك قرار لم نأسف لاتخاذه كما قيل.

كان الحزن الوحيد الذي أصابنا أثناء جولتنا تلك هو سماعنا بنبأ وفاة «المس غرترود بل». فقد سمعتُ بهذا النبأ وأنا في صالون حلّاق في مدينة «لوس انجلوس». كنت أنتظر دوري لأحلق شعر رأسي، عندما التقطت صحيفة محلية حين وقع نظري على عنوان فيها يقول: «ملكة الصحراء الميتة»، وتحت العنوان ثناء مستفيض على إنجازاتها الكثيرة.

عندما غادرنا بغداد جاءت «المس بل» إلى المحطة لتوديعنا. لقد أسَرتنا بلطفها، ولكننا لم نكن نتصور في تلك اللحظة أن ذلك كان آخر وداع.

---

(١) جول فيرن (١٨٢٨ ـ ١٩٠٥): عالم وكاتب فرنسي شهير، واسع الأفق، محلق الخيال، انصرف إلى تأليف الروايات في مبكر حياته، فلما لم ينجح، تركها وعاد يكتب عن المخترعات التي يتصورها، وقد وضع أول مؤلف من مؤلفاته هذه، عن المناطيد، بعنوان: «خمسة أسابيع في منطاد» وأتبعه بمؤلف آخر: «رحلة إلى مركز الأرض» وغيره. وكانت كتب «فيرن» هي المصدر لاختراع اللاسلكي والغواصة والصواريخ والتلسكوب وغيرها. كما أنه كان من الذين تنبأوا باكتشاف الطاقة الذرية.

كان أول ما ترجم من مؤلفات جول فيرن إلى العربية كتابه: «رحلة إلى القمر» الذي ترجمه عزيز سامي أبو صميم عن اللغة التركية في أوائل الثلاثينات وطبعه عدة طبعات. كما ترجم كتابه: «حول العالم في ثمانين يوماً» ونشر في القاهرة. ورحلة القمر هي مصدر فكرة إطلاق المركبات الفضائية إلى القمر، والتي تحققت بعد وفاة جول فيرن بحوالي نصف قرن من الزمن.

كانت أربع من الرسائل التي وصلت إلينا ذات أهمية خاصة بالنسبة إليّ أنا. . كانت إحداها رسالة شخصية من الملك فيصل يلحّ فيها عليّ بالعودة إلى العراق، واثنتان من مديرية الصحة العامة، والرابعة من كلية الطب الملكية في «أدنبره» تخبرني فيها باختياري زميلاً في الكلية المذكورة.

كانت الرسالتان اللتان وصلتا إليّ من مديرية الصحة العامة قد بعث بهما كلٌ من هالينان والدكتور حنا خياط. وكانتا كلتاهما ودّية وذات معنى متشابه. وهما تؤكدان العرض القاضي بتعييني عميداً لكلية الطب العراقية التي صادقت الوزارة قبلاً على تأسيسها. فإذا ما قبلتُ هذا المنصب فإنني سوف أُعيّن، بالإضافة إلى واجباتي الأخرى، عميداً منتخباً قبل افتتاح الكلية بمدة سنة كاملة. كذلك أكدت الدعوة تعييني طبيباً في المستشفى العام الجديد، حيث تم تحويل المستشفى التركي القديم إلى مستشفى حديث، أكثر جاذبية، وأوسع نطاقاً.

عندما عُدنا إلى إنكلترا كنا قد قرّرنا بأن نمكث فيها، أما الآن فإن عودتنا إلى العراق تنطوي على مطمح جذّاب لا قبَل لي لمقاومته. فقد كان القرار بالغ الأهمية بالنسبة إلينا نحن الأثنين، أنا وزوجتي. غير أن إلزي أصرّت على أن تترك الأمر كلية إليّ أنا، وكان جوابها هو: «ما دمنا نستطيع أن نعيش معاً فإن مسرح الحوادث لن تكون له سوى نتائج طفيفة!».

وهكذا حدث وتقرر مصيرنا بالبقاء في الشرق الأوسط لمدة عشرين سنة أُخرى. كان ما يزال لديّ شهران من الإجازة تحت تصرّفي. وقد أعانتني هذه المدة على زيارة عـدد من المدارس الطبية، وإعـداد نفسي للمناهج والتقدّم الذي حدث مؤخراً في التعليم والتجهيز، وتهيئة تقويم لذلك. كما أنني تلقيّت التشجيع والمشـورة المفيدة من المـدرسة التي تخرّجت فيهـا وهي «ألما ماتير» وقد اختيرت دورة الدراسة أخيراً لكـل المقاصد والأغراض السارية في ادنبره. وقد كان هذا الأمر مرغوباً فيه بصفة خاصة، ذلك لأن معظم الاخصائيين الذين كانوا يُنتخبون ويعملون بصفة

أساتذة ومستشارين في مصلحة الصحة، كانوا من خريّجي جامعة أدنبره.

من الأمور العاجلة التي أردت الالمام بها هي كيفية المحافظة على الجثث البشرية التي تستعمل لأغراض التشريح. ولقد تهيأ لي ذلك على يد الدكتور «جماليسن» رئيس قسم التشريح في كلية الطب بجامعة «ادنبره»، والذي زودني بتفصيلات قيمة جداً، وبذلك أمكن حل معضلة لها أهميتها الخاصة في بلد مناخه حار مثل العراق.

قرّرت - قبل أن تنتهي إجازتي - أن أبعث إلى بغداد بمجموعة كبيرة ومنوّعة من العيّنات النباتية والحيوانية، والتي تألّفت منها نواة المتحف الطبيعي فيما بعد. وعند عودتي إلى العراق قدمت الإيصالات الخاصة بأجور الشحن والتي دفعتها من جيبي، وقد بعث بها مدير الصحة العام إلى وزارة المالية لتسوية حسابها، وكان الجواب الذي تلقيّته من وزارة المالية، هو أنني لم أكن مخوّلاً لجمع هذه العيّنات على حساب الحكومة، وفضلاً عن ذلك فلا يوجد في الميزانية حكم يتعلق بمثل هذا العمل، وهكذا استحال التعويض الذي حصلت عليه إلى رسالة اعتذار مع تقديم الشكر من لدن مدير الصحة العام. ومهما يكن الأمر فإن مجموع تخمينات الميزانية في ذلك الوقت لم تكن لتزيد عن ثلاثة ملايين ونصف مليون باون إلاّ بقليل، وأن حصة مديرية الصحة العامة منها كانت تقل عن مائتي ألف باون، وأن من الشح عليّ أن أتطلّع إلى التعويض.

عند عودتي إلى بغداد تركّز اهتمامي الأول حول بناء كلية الطب، ولقد لقيت في هذا المضمار تعاوناً منقطع النظير من المعمار الحكومي. وكانت قطعة الأرض التي اختيرت لذلك مجاورة للمستشفى الملكي، وهي توفّر مجالاً كبيراً للتوسع في المستقبل.

كانت المهمة التي واجهت المعمار واسعة. ذلك لأن المخطّط كان طموحاً وشاملاً، ولو أن الأشياء الأولية المطلوبة كانت تحتاج إلى وقت ودراسة. كانت بناية الكلية، خلال السنتين الأوليتين من الدراسة، ذات طابق واحد. وكانت أقل المتطلبات تتألف من عدد واسع من الغرف والمداخل،

وقاعات الاجتماع، والغرف العامة، والدوائر، وقاعات المحاضرات والمختبرات، والمكتبة، والمخازن وما شاكل ذلك. ومع ذلك فقد أُنجزت هذه المهمة الهائلة في مدة تقل بمقدار أسبوعين عن التاريخ المحدد لافتتاح الكلية.

توافرت قطعة أرض جميلة خلاّبة المنظر، تابعة لمديرية الأوقاف، لغرض البناء عليها لقاء دفع بدل إيجار سنوي عشرة في المائة من كلفة البناء الذي توضع تصاميمه حسب توصيات معمار بريطاني. وهكذا ففي الوقت الذي كمل فيه بناء كلية الطب، انتقلنا أنا وإلزي إلى دارنا الجديدة التي شيّدناها، وكنا نسكن قبلاً في الدار العائدة إلى السكك الحديدية، وقد أطلقنا على بيتنا الجديد هذا اسم «النخل» وذلك بالنظر لوجود ثلاثة أنواع جميلة من النخيل في حديقة البيت الجذّابة.

لم يكن إنشاء متحف طبيعي يؤلّف مشكلة. فقد تم نشر إعلان في الصحف المحلية يعد بمكافآت سخية لمن يقدّمون عيّنات نباتية وحيوانية. ولقد تولت مديرية الزراعة تزويد المتحف بما هو ضروري من المواد النباتية، في حين قام بعض الأصدقاء بتزويد المتحف بما لديهم من حيوانات. ولقد أعطاني أحد المرضى عنوان قسّ كلداني له هواية تحنيط الحيوانات، ولذلك تمت الموافقة على الإفادة من خدمات ذلك القَسّ.

من الأمور التي أثارت لديّ الدهشة الكبيرة، أنني مُنحت حرية العمل في كل أمر يخص كلية الطب، باستثناء أمر واحد، هو عدم جلب الأساتذة من الخارج لمدة اثني عشر شهراً من تاريخ الافتتاح، ومن ثم فإن مثل هذا الأمر يجب أن يتم بموافقة مُسبقة من مجلس الوزراء.

ولقد علمت فيما بعد، بأن الشكوك كانت تراود أذهان بعض الوزراء حول عدم تحبيذهم افتتاح كلية للطب في بغداد، والتعويض عن ذلك بإرسال الطلاب للتدرّب في الخارج. وطبقاً لهذا تقرر أن تكون كلية الطب الجديدة هذه خاضعة لفترة تحضيرية مدتها سنة واحدة، ومن ثم يتم اتخاذ قرار عما إذا كانت ستواصل عملها، أم يتم إغلاقها.

ومهما يكن الأمر، فإنني ما إن قبلت بتعييني عميداً للكلية حتى قررت أن أقبل بهذا التعيين، على الرغم من الشكوك التي أبداها كثير من البريطانيين والعراقيين بشأن قبولي بهذه المغامرة التي لا أمل فيها حتى أن البعض من زملائي قد لمّحوا إلى أنني بقبول هـذا المنصب أكون قـد وضعت حبل المشنقة في عنقي! ولم أكن لأشاطرهم مثل هذا الرأي المغاير للصواب، لكنني تأكدت بأنني ربما كنت الهدف من وراء التبدّلات التي جرت لقلّة من المنافسين لي، وأن من العبث إقناع الحكومة بأن إنشاء كلية الطب في بغداد كان إجراءً عملياً وجديراً، وأنه قد يؤذن بإنهاء عقدي.

لم يظهر أي شخص اهتماماً كبيراً بمشروع كلية الطب مثلما أظهره الملك فيصل نفسه. فقد كان يسألني باستمرار عن التقدم الذي يحدث في المشروع. حتى إذا ما أخذت البنايات شكلها، كان جلالته يقوم بعدة زيارات إلى موقع العمل، وكان يتساءل عن الغرض من كل فراغ فيه.

وعندما أوشك البناء على الانتهاء وبدأت التجهيزات تصل، أصبحت أعمال التفتيش التي يقوم بها فيصل مفعمة بالأسئلة الكثيرة. فكان يسأل عن كل قطعة من المعدات عندما يمرّ بها.

ولقد كنت محظوظاً جداً لأنني استطعت أن أشكلّ مجلساً للدراسات في غاية الكفاءة، وذلك تمهيداً للتدريسات الطبية التمهيدية، اخترت أعضاءه من بين الموظفين ذوي الخدمة الدائمة في مصلحة الصحة. وقد استمر الجدل بشأن تأسيس كلية الطب وعدم تأسيسها طوال الفترة التحضيرية من تاريخ الكلية. غير أن الإشاعات عن إغلاقها غدت نادرة، وقد ثبت بأن تلك الإشاعات لم يكن لها من أساس، وهكذا تم افتتاح الكلية طبقاً للتاريخ المحدد، وهو شهر تشرين الأول (أكتوبر) للسنة ١٩٢٧، على الرغم من حدوث توقف فيها دام حوالي شهر في ربيع تلك السنة، وذلك عندما استُدعيْتُ إلى بريطانيا بسبب المرض المفاجىء الذي ألَمّ بزوجتي، والذي انتهى نهاية مؤسفة بفقداننا طفلنا الثاني.

ولقد كان من حُسن حظ كلية الطب، أن يكون السيد عبد المحسن

السعدون رئيس الوزراء موجوداً في بغداد في الوقت الذي تم فيه افتتاح الكلية، لأنه وهبها رعايته الأبوية الحنونة.

لقد كان عبد المحسن السعدون متحدّراً من واحدة من العشائر العظمى في العراق، وكان رجلاً ذا قابلية نادرة، ونفوذ، واحترام، وخفّة في الروح. ففي أثناء السنوات الست المفعمة بالمتاعب والاضطراب، منذ سنة **١٩٢٣** وما بعدها، ترأس عبد المحسن السعدون أربع وزارات، وقد اعترف بخدماته الشهيرة، وكوفيء عليها بمنحه وسام الفروسية.

كان عبد المحسن السعدون يتولى رئاسة الوزارة في سنة **١٩٢٥** عندما رفضت «عُصبة الأمم» ادعاءات تركيا بشأن ولاية «الموصل» وأعادت الولاية إلى العراق. لقد كان عبد المحسن السعدون وطنياً متحمساً إلى درجة شديدة جداً. ومع ذلك كان «الحزب الوطني» (الذي كان يتزعمه وزير التجارة السابق جعفر أبو التمن، ومن بين أعضائه بعض العناصر المتطرفة) يتهم على الدوام عبد المحسن السعدون بأنه كان خادماً لبريطانيا.

ولقد أفضى السعدون إليّ بهذا الأمر في مناسبات عديدة، وتحدّث عن الكرب الذي كانت تسبّبه له هذه الاتهامات الكاذبة، ووصل به الحال إلى درجة أنه عندما كان على وشك أن يأوي إلى فراشه في اليوم الثالث عشر من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) سنة **١٩٢٩**، أن استُدعيت إلى داره لأجده قد فارق الحياة منتحراً بإطلاق النار على نفسه.

كان «السر جلبرت كلايتون» المندوب السامي الإنكليزي في العراق قد توفي إثر نوبة قلبية، قبل ذلك الوقت بشهرين، وذلك في أعقاب لعبة البولو. وكان كلايتون وعبد المحسن السعدون منهمكين آنذاك في إجراء مفاوضات بشأن عقد المعاهدة البريطانية العراقية، تمهيداً لقبول العراق عضواً في عُصبة الأمم.

كان الملك فيصل ورئيس الوزراء عبد المحسن السعدون يعطفان على الكثير من أماني الوطنيين. لكنهما كانا يدركان في الوقت ذاته مدى اعتماد العراق كليّة على بريطانيا في تكوينه. ولذلك كانا يحاولان تهدئة

المتطرّفين الذين كانت تتضمن مطاليبهم إلغاء الانتداب، ومنح الاستقلال فوراً للعراق.

وقد كشفت الرسالة التي وجّهها عبد المحسن السعدون إلى ولده بنحو ساعة أو ساعتين قبل أن تقع نهايته المؤسية التي كانت خسارة لا تعوّض لأمة العراق، كشفت تلك الرسالة بكل جلاء عن الأسباب التي دعته إلى الانتحار[٢].

لم يكن تعيين الأساتذة والمحاضرات في كلية الطب يمثّل أية صعوبة. وبعد تردد أوّلي من لدن وزارة المالية، استطعت أن أقدّم عرضاً عن نسبة الأجور وفترات التعليم التطبيقي، فحظيَ عرضي هذا بالترحيب.

كان الشخص الذي يُعنى بأمر الجثث في المستشفى الملكي رجلاً عربيّاً ذا لحية كثّة، عُرف لدى الجميع باسم «المُلاّ»، لكنه لم يكن في الواقع كما تشير إليه تسميته، فهو رجل مسلم حصل على شيء من علوم الدين والفقه. غير أن تسميته بالمُلاّ قد أكسبته قدراً كبيراً من الاحترام،

---

(٢) نشر سندرسن ترجمة كاملة في كتابه هذا لوصية المرحوم عبد المحسن السعدون، كان السعدون قد كتب وصيته تلك باللغة التركية ووجهها إلى ولده «علي».

وصية السعدون

ولدي وعيني ومستندي علي.

اعف عني لما ارتكبته من جناية. لاني سئمت هذه الحياة التي لم أجد فيها لذة وذوقاً وشرفاً. الأمة تنتظر الخدمة، والانكليز لا يوافقون. ليس لي ظهير. العراقيون طلاب الاستقلال ضعفاء، عاجزون وبعيدون كثيراً عن الاستقلال. وهم عاجزون عن تقدير نصائح أرباب الناموس امثالي. يظنون اني خائن للوطن، وعبد للانكليز، ما أعظم هذه المصيبة. أنا الفدائي، الأشد اخلاصاً لوطني، قد كابدت أنواع الاحتقارات وتحملت المذلات تحضا في سبيل هذه البقعة المباركة التي عاش فيها آبائي وأجدادي مرفهين.

ولدي

نصيحتي الاخيرة لك هي:

١ ـ ان ترحم اخوتك الصغار الذين سيبقون يتامى (وتحترم والدتك) وتخلص لوطنك.

٢ ـ ان تخلص للملك فيصل وذريته اخلاصاً مطلقاً اعف عني يا ولدي علي.

عبد المحسن السعدون

ولذلك كان هذا الرجل هو الشخص الذي يُحتاج إليه فيما وراء الكواليس في دائرة التشريح، وهكذا غدا مألوفاً أن ترى المُلاّ موجوداً أثناء العمل في غرفة الجثث، وهو يحمل مديّته بيده، ويقوم بأعمال التشريح، وإن بقيت معلوماته أوليّة في هذا الحقل حتى بعد سنوات عديدة من العمل.

حدث في أول الأمر تخوّف من احتمال ثورة الصحافة والجمهور ضد عمليات تشريح الجثث، وبالتأكيد جثث الموتى من المسلمين. ولذلك كان يدور همس عن احتمال استيراد الجثث المطلوبة للتشريح من الأقطار الأوروبية. ومع كل هذا فقد كنت أعتقد أن مثل هذا الحذر لا داعي له إطلاقاً، وأنه لم يبدر صوت واحد بالاحتجاج على ذلك، وأن «المُلاّ» لم يجد أية صعوبة في تدبير ما تحتاج إليه غرفة التشريح من تلك الجثث.

تم إجراء اختبار الدخول، وتعيين مجلس من الممتحنين، وقد استمرت هذه الترتيبات لمدة أربع سنوات، كان في خلالها المستر ليونيل سميث وزمرة من رجال المعارف، ممن أيّدوا قناعتي بأن كليّة الطب، وليس وزارة المعارف، هي التي يجب أن يوكل إليها أمر قبول الطلبة في الكليّة.

ولقد طلبت وزارة المعارف، أثناء غياب المستر سميث، بأن يكون لها الإشراف المطلق على الكليّة، لكن طلبها هذا جُوبه بمقاومة شديدة إلى درجة أنني هدّدت بالاستقالة من منصبي. وأخيراً، ونتيجة للامتيازات المشتركة أصبح الامتحان التمهيدي من اختصاص وزارة المعارف، لكن اختيار الطلبة ظل تحت الإشراف المطلق للكليّة.

كان إصراري على أن تكون لمجلس الاختيار الكلمة النهائية يقوم على أساس أن أعضاء المهنة الطبية هم خيرة المحكمين في ملاءمة المرشحين للقبول في الكلية، ولذلك صممت على أن لا تلعب المنسوبية والمحسوبية أي دور في اختيار الطلبة وإلا فانني متأكد بأن القضية ستكون عكس ذلك.

كان النقاش الذي قال به ممن كانوا يفضلون انشاء كلية محلية، يقوم على أساس أن من الأفضل للطلبة أن يتدربوا في بلدهم، وأن يكونوا أكثر

إلماماً بالأمراض السارية في القطر، وبالمشاكل الطبية التي تخصها. ولقد دافعت بأن الطلبة الذين كانوا يظهرون نباهة خاصة أثناء الدراسة، ينبغي ارسالهم إلى خارج البلاد فيما بعد، لغرض سعة الاطلاع، والتخصص في المواضيع الخاصة.

أما بالنسبة إلى نقص عدد الأطباء في القطر، فإن المفهوم الأصلي ينطوي على احداث زيادة ثابتة في العدد الذي يتم قبوله في الكلية كل سنة، إلى حد خمسين طالباً. وكان التدريب مجانياً، تعقبه خدمة حكومية إجبارية لا تقل عن خمس سنوات. ولقد أوضحت بأن النفقة السنوية لارسال مثل هذا العدد الكبير إلى الخارج، والذي سيبلغ مجموعه بعد خمس سنوات مقدار مائتين وخمسين طالباً في كل سنة، سوف تصبح أمراً محظوراً، لأنها ستصل في ذلك الوقت إلى مقدار مائة ألف باون على أقل تقدير، في حين أن نسبة من هؤلاء الطلبة المتغربين - قدرتها بحوالي عشرين في المائة - سوف تخفق في اتمام دروسها.

هناك نقاش آخر يقول بأن الشواغر قليلة، وأن من المستحيل قبول مثل هذا العدد الكبير من الطلبة في الكليات والمدارس الطبية البريطانية. ذلك لأن بريطانيا هي البلد الوحيد الذي يتجه التفكير إليه، ولأن اللغة الانكليزية هي اللغة الأجنبية الوحيدة التي تدرس في المدارس الثانوية العراقية. فإذا ما تمت تهيئة مثل هذا العدد الكبير فإن الفوضى ستصبح حتمية، ولن تتوفر هناك أية فرصة للاشراف الرسمي، وإن توفرت هذه الفرصة فستكون ضئيلة.

ولذلك عدت أصر على أن إنشاء كلية الطب سوف يجند الاخصائيين البريطانيين في مجال ما يزال مهملاً على نطاق واسع، وستكون له مع ذلك أهمية كبيرة بالنظر إلى تطبيق المعرفة التي تم الحصول عليها قبلاً، وإلى التحري عن نوع آخر من التثقيف.

تم انتخاب اثني عشر مرشحاً للقبول في الكلية الطبية خلال السنة الأولى، كان ثمانية منهم من العرب، وثلاثة من اليهود، ومسيحي واحد.

ولقد كان الطلاب اليهود أذكياء بصفة خاصة، ومن بين الخرّيجين الموهوبين من مجموع خمسمائة طالب تخرجوا في الكلية، وذلك قبل أن أتقاعد من عملي في الكليّة. وكان من نتائج قبول هؤلاء الطلاب اليهود، أن راحت الصحف المحلية تتهمني بأنني صهيوني.

* * *

قامت زوجتي إلزي برسم شعار لطلاب كلية الطب العراقية، ويتألف هذا الشعار من صورة نهرين يجريان على شكل الحرف الإنكليزي (Y) يضم ذراعاه صورة أفعى وكتاباً مفتوحاً، وفي أسفل ذلك وعلى كلٍّ من الجانبين صورة ثور أشوري، ولقد تمت الموافقة بسرعة على تخصيص هذا الشعار.

كانت منطقة كردستان من بين مناطق العراق الأخرى التي تحتاج حاجة شديدة جداً إلى العناية الصحية. وكانت فرحتي ظاهرة عندما تم قبول أول طالب كردي في كليّة الطب. كان هذا الطالب من الأقرباء الوثيقين للشيخ «محمود» الزعيم الثائر، والذي كان يمثّل شوكة في جنب الإدارة في العراق عند انتهاء الحرب العالمية الأولى. وبعد سنوات أصبح الشيخ محمود يقيم في بغداد، وكان من بين المرضى الذين كنت أعالجهم.

وعندما فحصته لأول مرة وجدت ندبة صغيرة في ظهره، وحين سألته عن منشئها قال: «إنها رصاصة بريطانية»! ثم أضاف يقول: «وهي مثلكم أيضاً أيها البريطانيون فإنكم ما أن تدخلوا في مكانٍ ما، لن يخرجكم منه غير الشيطان»!

وقد أظهر الكشف بالأشعة أن تلك الرصاصة قد استقرّت في العمود الفقري، ونظراً لعدم توفر الوسائل اللازمة فلم تجرِ أيةُ محاولة لإخراجها.

كان الغش في الامتحان لا يُعتبر خطيئة أخلاقية في نظر الكثيرين من الطلاب، ولو أنه يُعَدّ من الأمور التي يُعاقب عليها إذا ما تم اكتشافه. ولذلك تقرر فرض رقابة شديدة على الامتحانات، وغدا واضحاً في مدة قصيرة، أن تسرّب أسئلة الامتحانات يحدث عادة عندما يتم طبعها مُسبقاً،

سواء بالمطبعة أو بالآلة الكاتبة، وأن إملاءها، أو كتابتها على السبورة في وقت الامتحان مباشرة هي الطريقة الوحيدة التي تحول دون تسرّب الأسئلة. وعلى هذا الأساس كانت المقاعد في قاعة الامتحان يجري جمعها في صفوف ثابتة، ولا تُترك لمجرد اختيار الطالب، وإن كان يحدث أنه ما أن يتم فتح باب القاعة حتى يندفع الطلاب إلى دخولها من النوافذ لاحتلال كراسيها.

قررت أن أضع حداً نهائياً لأعمال الغش في الامتحان جهد المستطاع. ومع ذلك فقد حدث ذات مرة أن انتصب أحد الطلاب أثناء الامتحان ليعلن بأن الطالب الذي يجلس إلى يمينه، والذي نادراً ما كان يفشل في الامتحانات السابقة، إن هذا الطالب يخفي ملاحظات تحت ورقة الامتحان. ولقد تم التأكد من صحة التهمة، وطُلب إلى ذلك الطالب الغشّاش أن يغادر قاعة الامتحان، وأن يعيد الدراسة مرة أخرى ثم يتقدم إلى الامتحان مجدداً. في أعقاب هذه الأعمال. أيدني مجلس الدراسات في اصدار انذار يؤكد أن أي خرق آخر للنظام سوف يعالج بالطرد.

وحين كنت أقوم بمراقبة الامتحان في الدور الثاني من السنة الأولى، شاهدت أحد الطلاب يخرج من جيبه ورقة ويضعها تحت دفتر الامتحان وعندئذ توجهت نحوه والتقطت الدفتر من أمامه، ووجدت فيه ورقة مملوءة بمعلومات كُتبت بحروف دقيقة. أمرت ذلك الطالب بأن يغادر قاعة الامتحان حالاً وأخبرته بأنني سوف أوصي بطرده من الكليّة.

كان ذلك الطالب هو الأخ الأصغر لأحد الوزراء. وما أن عدت إلى دائرتي حتى وجدت ذلك الوزير ينتظرني في غرفة الاستقبال، وقد راح يطلب إليّ مسامحة أخيه، لكنني أصررت على موقفي. وأخذ وزير الشؤون الاجتماعية والصحة يحاول إقناعي بالعدول عن قراري، لكنني رفضت ذلك بعناد، وهددت بالاستقالة إذا لم يُطرد ذلك الطالب. ولقد تمت تسوية القضية، فلم أستقل من منصبي، وعُيّن ذلك الطالب مُعلّماً في إحدى المدارس الابتدائية.

من المشاكل الأخرى التي واجهتني كعميد لكليّة الطب، هي الحفاظ على السريّة في القضايا السريّة من أمثال المراسلات، وقرارات مجلس الطلاب، وتقارير الامتحانات وما شاكل ذلك. فعلى الرغم من الحيطة الشديدة كانت بعض القضايا تتسرب إلى الخارج. وقد حدث في إحدى المرات أن سألت أمين السر: «ما معنى سرّي؟» فابتسم وأجاب: «إن معناها في العراق يا سيدي هو أنها تستحق الاطلاع عليها!»

أُصيب عميد كلية الحقوق، وهو مصري، بجروح نتيجة رصاصة أطلقها عليه من مسدس، أحد الطلاب الذين فشلوا في الامتحان[٣].

ولقد تولّاني خوف مؤقت من مصير مماثل ينتظرني في صباح أحد الأيام عندما دخل عليّ، في أعقاب طرقات على باب دائرتي، أحد الطلاب وسحب مسدساً من جيبه. كنت على وشك أن أنقضّ عليه حين قال لي: «لا تخف سيدي إنني هنا للمحافظة عليك!» كان ذلك الطالب سليل عائلة شهيرة في البصرة، وقد أُصيب بالجنون على حين غرّة، فانتهى مسلكه كطالب.

* * *

في الوقت الذي عُيِّنت فيه عميداً لكليّة الطب، عُيِّنت أيضاً طبيباً أولاً للقسم الطبي في المستشفى الملكي، مع طبيبين عراقيين كبيرين من خريّجي اسطنبول، هما الدكتور هاشم الوتري، والدكتور توفيق رشدي، وكان كلاهما من الأطباء المتمكنين.

كان المستشفى الملكي في ذلك الوقت قد تعاظم اتساعه بشكل

(٣) يشير سندرسن بذلك إلى حادث وقع في كلية الحقوق ببغداد في يوم الثلاثين من شهر حزيران (يونيو) ١٩٣٨، حين شهر أحد الطلاب الفاشلين في الامتحان، داوود مصطفى البياني، مسدسه فأطلق منه النار على أستاذه المصري الدكتور حسن سيف فأرداه قتيلاً في الحال. وحين حاول الدكتور محمود عزمي عميد كلية الحقوق، وهو مصري أيضاً، إلقاء القبض على الجاني، أطلق عليه هذا إطلاقة أصابته بجروح، ولم يلبث القاتل أن عاجل نفسه بإطلاقة فمات منتحراً، وقد أعقب هذا الحادث مشكلة بين العراق ومصر في حينه.

ملموس تحت ادارة الدكتور «دنلوب» الذي بقي في عمله إلى أن تمّ تطبيق قاعدة استبدال الموظفين البريطانيين بالموظفين العراقيين.

ونظراً للضيق المالي فقد كانت معظم أعمال التمريض في عهدة الممرضات الفرنسيات اللواتي كنّ يعملن تحت إشراف رئيسة بريطانية مع أربع ممرضات بريطانيات. كانت وظيفة التمريض في ذلك الوقت تُعتبر وظيفة حقيرة نوعاً ما. ولذلك فلم تتم العناية بالمرضى إلاّ بعد تأسيس كليّة التمريض. ولما كان المسلمون يأنفون من الجلوس مع النساء من دون حجاب، فقد كانت الطالبات المسيحيات واليهوديات، أول النسوة اللواتي التحقن بالتدرب على أعمال التمريض.

لم يكن يوجد في مصلحة الصحة سوى عشرين طبيباً بريطانياً، كان خمسة منهم يقومون بأعمال الإدارة. أما مجموع عدد أولئك الذين سمُوّا بالأطباء المحليّين، بمن فيهم المتدربون، فلم يزد عن المائة إلاّ قليلاً. وكان عدد العراقيين بين هؤلاء يبلغ اثنين وأربعين، أما البقية فكانوا من الأتراك والسوريين والأرمن والفُرس. كان هدف الحكومة إيجاد مصلحة عراقية دائمة للصحة وكانت تأمل أن يتحقق ذلك عن طريق كلية الطب.

كان الدكتور حنا خياط المدير العام للصحة، وهو مسيحي، من أشهر الأطباء العراقيين في ذلك الوقت. فلقد أمضى في الخدمة لدى الحكومة التركية عشرين سنة قبل ذلك الوقت، وكانت معلوماته عن المشاكل الصحية التي تواجه الحكومة فريدة في بابها. وحين أُحيل على التقاعد بعد عدة سنوات، عُيّن عضواً في مجلس الأعيان.

في خلال السنتين أو الثلاث السابقة، كانت هنالك وفرة ملموسة من الأفراد المتدربين على الأمور الطبية في العاصمة، معظمهم من السوريين. وكان عددهم هذا يسبب الارتباك، لأن الكثيرين منهم كانوا يجدون مشقة في الحصول على العيش. ولأسباب سياسية كانت الحكومة العراقية تتردد في منع الهجرة إليها من الدول المجاورة.

وقد حدث الاضطراب الرئيسي من وفرة المدارس الطبية في سوريا.

فقد كانت هناك مدرسة او مدرستان تطلقان على نفسيهما اسم الكلية الطبية الجامعية، وكانت أحداهما على الأقل فرنسية. ولذلك كانت المنافسة بينهما لاجتذاب الطلبة إليهما حادة ومغرية. ونتيجة لذلك فقد انخفض مستوى الدراسة فيهما، ومنح الكثيرون من المنتسبين إليهما اجازات بممارسة المهنة، بحجة أن بلادهم في حاجة إليهم[٤].

ولقد قمت بزيارة عجاملة لتينك الكليّتين وأنا في طريقي إلى سوريا بعد سنوات، وتأكد لديّ وجود نقص كبير في مناهج التدريس فيهما. وعند عودتي إلى بغداد ألححت كثيراً على تحديد قبول المتخرّجين فيهما. ولما كانت تركيا قد أغلقت أبوابها في وجه دمشق، فقد أصبح العراق يغصّ بهذا النوع من الأطباء!.

كنت على الدوام من المؤيدين لفكرة اشتراك ممتحنين من الخارج في الامتحانات المهنية. ولذلك سُررت كثيراً عندما تلقيت دعوة من الجامعة الأمريكية في بيروت للاشتراك في الامتحانات النهائية الجارية فيها.

سافرت إلى لبنان بسيارات شركة «نيرن» وقد صحبتني زوجتي في هذه السفرة أيضاً، لأنها كانت تعتزم تمضية بضعة أيام في جزيرة «قبرص» ولقد رفضت عدداً من الطلاب الممتحنين، فقيل لي أن هذا يتناقض مع العادة الجارية. لقد كنت أتوقع أن تؤدي سفرتي إلى حصول اتفاق وثيق، واعتراف متبادل بين العراق ولبنان. لكنني ويا للأسف كنت مخدوعاً، كما برهنت الوقائع على ذلك.

* * *

(٤) دخل عدد من العراقيين ممن لم يكملوا حتى الدراسة الإعدادية في هاتين الكليتين في دمشق، وحصلوا منهما على شهادات، فعادوا إلى العراق وتعينوا أطباء فيه في مختلف الدوائر الصحيةوغيرها، وقد قفز البعض منهم إلى كرسي الوزارة فاستوزرها عدة مرات. كما أن عدداً من العراقيين التحقوا بإحدى المدارس السورية، وهم لا يحملون شهادة الدراسة الابتدائية، فحصلوا على شهادة الإعدادية في مدى سنتين، ودخلوا في الكليات العراقية، ومنها الكلية العسكرية وكلية الطب أيضاً.

كان عدد المراجعين للمستشفى الملكي في تلك الأيام قليلاً جداً، وذلك نتيجة اعتقاد الناس بعدم توافر الخدمات فيه نظراً لما ألفوه في العهد التركي قبل الحرب العالمية الأولى، ولعدم إيمانهم بجدوى الطب. حتى إذا ما بدأ الكثيرون من المرضى الذين كانوا يراجعون المستشفى يشفون من أمراضهم، أخذ الناس آنذاك يقبلون على العلاج في المستشفى، فاشتدتَ الحاجة إلى توفير المزيد من الأسرّة وأسباب العلاج.

كان المرضان الرئيسيان المنتشران بين القادمين الجُدد إلى بغداد، وليس بين كل أبناء العراق، هما: حُمّى المفاصل والملاريا. فهذان المرضان المنتشران بصفة مشتركة، لهما نقاط تشابه كثيرة مما يشير إلى أن لهما أصلاً مشتركاً، لكن ذلك ليس موجوداً دائماً.

وهناك الدُّملة المعروفة باسم «دُمَّلة بغداد» منتشرة في العراق، وتُعتبر من الصفات القوية المميزة لسكانه. ولعلّ أخطر نوع من هذه القروح، هو النوع المعروف باسم «قلة أزار» أو حُمّى المرض الأسود، والذي ينتشر على نطاق جغرافي واسع، لكن يندر أن توجد كلتا الحالتين في منطقة واحدة، لأن الإصابة بإحداهما تعطي مناعة ضد الأخرى.

لقد ارتكبتُ جريمة عندما نصحتُ بإجراء فحص بالأشعة لا حاجة إليه، في إحدى الحالات الخاصة. ففي إحدى الليالي وَفَدَ على داري شيخ يصحبه أخوه وستة من تابعيه المسلّحين، وطلب مواجهتي. ولقد أدخله خادمي الهندي إلى غرفة دراستي. وحين دخلتُ الغرفة طلب إليّ أن أجلس، وأن أخبر الذين كانوا يرافقونه بأن ينتظروا في الخارج؛ بينما جلس هو وأخوه إلى جانبي.

كان واضحاً أن ذلك الشيخ كان يعاني من هياج جنوني، ولذلك صرخ قائلاً: «يقول أخي بأنني عليل، وأريد أن أعرف الحقيقة»، ومن ثم سحب مسدساً من تحت عباءته، وصوّبه نحو أخيه، فما كان مني ـ وقد توقعت الشر ـ إلاّ أن اقترحت عليه إجراء فحص بالأشعة. ولحسن الحظ راقت الفكرة لديه، وقد جاء إلى المستشفى في الوقت المحدد من صباح

اليوم التالي، وطُلب إليه أن يخلع ملابسه، وفي بضع دقائق كان في مستشفى الأمراض العقلية. وكم كانت دهشتي بالغة عندما جاء إليّ عند انصرافه ليشكرني على عنايتي به.

من بين الحالات المرضية التي تستحق الذكر ما حدث لطفلة يهودية. لقد أكد التشخيص المختبري بأن الطفلة كانت أُنثى بالولادة وبشكل اعتيادي، وعلى هذا الأساس أدخلها أهلها إلى مدرسة البنات. حتى إذا ما بلغت الثانية عشرة من عمرها، ظهر شك في حدوث تغيير لها. فقد بدأت عند تلك السن تختار زملاءها في اللعب من الذكور، وتتصرّف مثلهم، وتلبس نفس ملابسهم ما دامت أمها تسمح لها بذلك. وحين كانت تلعب في أحد الأيام، سقطت من فوق جدار، وراحت تتشكى من ألم في الجزء الأسفل من بطنها، وحين كشف عليها طبيبها ظهر عليها تحوّل جنسي ملحوظ، وحدوث فتق فيها، تأكد فيما بعد بأنه كان غدّة رجالية.

كانت المشكلة التي جابهت أهل الفتاة هي: كيف يمكن استبدال اسمها من «راشيل» إلى اسم «يوسف»، دون أدنى تعقيد؟ ولقد حُلّت هذه المشكلة عن طريق *إرسال تلك الفتاة إلى فلسطين، وهنالك استُبدل* اسمها، ثم عادت إلى بغداد شاباً يرتدي ملابس الذكور.

* * *

كانت قضايا السن من الحالات التي لها أهميتها الخاصة، بالنسبة إلى المتهمين بارتكاب جرائم القتل. ذلك لأن الذين تقلّ أعمارهم عن سن ثماني عشرة سنة كانوا يتخلّصون من حبل المشنقة. فبلوغ سن الرشد هو الدليل القاطع في أية حالة تكون عُرضة للشك، كما حدث ذلك بالنسبة إلى اغتيال بكر صدقي. ذلك لأن قاتل بكر صدقي كان قد استفاد من موضوع الشك في بلوغه سن الرشد[٥].

---

(٥) هذا خطأ فاضح بالنسبة إلى عمر نائب العريف الذي قتل بكر صدقي فقد كان نائب العريف هذا واسمه «نصر الله التلعفري» في حدود الخامسة والعشرين من عمره، لأن الجيش لم يكن في ذلك الوقت يقبل تجنيد شخص تقل سنه عن ثماني عشرة سنة.

لقد كنت أتعجب كيف أنني بقيتُ، مع اشتداد الروح الوطنية، أقوم بعملي كعميد لكليّة الطب. فقد كان من المحقق أن يكون عملي هذا قد انتهى قبل انتهائه بمدة طويلة.

ففي سنة ١٩٣٥ استُدعيت لعقد اجتماع خاص مع رئيس الوزراء آنذاك، وهو «علي جودت الأيوبي»[٦] في داره. وقد سألني عما إذا كنت سوف أغضب إذا ما حل عراقي في المنصب الذي أشغله أنا. لقد كانت تلك التفاتة ودّية جداً، وقد أكدت له بأنني أقدّر حتمية هذا الإجراء، وأنني سوف أُقدّم كل مساعدة ممكنة لمن يخلفني في المنصب.

وبعد تبادل التمنيات أخبرني بأن إعفائي من منصبي ليس وشيك الوقوع، ولكن إذا ما حدث؛ فإن عليّ أن لا أتخلّى عن واجباتي الأخرى، بل ستضاف إليها وظيفة أُخرى، هي وظيفة المستشار لوزارة الشؤون الاجتماعية (التي تشمل مديرية الصحة العامة) كما أنني سوف أُعيّن مفتشاً عاماً للصحة، وطبيباً أساسياً للحكومة العراقية.

لم تلبث وزارة علي جودت الأيوبي أن استقالت، بعد تلك المقابلة بفترة قصيرة، وكانت هي الوزارة العشرون في مدى خمس عشرة سنة. وهكذا لم أُعْفَ من عمادة كليّة الطب إلاّ بعد ثلاث سنوات من ذلك الوقت.

كان خلَفي في عمادة كليّة الطب لسوء الحظ هو الدكتور صائب شوكت، الجرّاح الماهر وذو القابلية الممتازة. وقد تحوّل إلى الفكرة النازية وأصبح زميلاً سياسياً للسفير الألماني، وعندما أوشك حكم رشيد عالي سنة ١٩٤١ على الزوال، اعتقد الدكتور صائب شوكت أن من الأفضل له أن يهرب من البلاد. وقد تطوّعت ـ أثناء غيابه ـ في احتلال منصبه، ولكن من دون أن أتخلّى عن التزاماتي الأخرى، إلى أن استطعت باهتمام ملموس أن أُسلّم هذا المنصب في سنة ١٩٤٥ إلى الدكتور الأستاذ هاشم الوتري.

---

(٦) تلك هي الوزارة الأيوبية الأولى التي تألفت في ٢٧ آب (أغسطس) ١٩٣٤ في أعقاب استقالة الوزارة المدفعية الثانية، وقد دامت وزارة علي جودت في الحكم حتى يوم استقالتها في يوم ٢٣ شباط (فبراير) سنة ١٩٣٥.

الفصل السابع

إجتماعات ملكيان

عندما أعلن حسين بن علي استقلال ولاية الحجاز ونادى بنفسه ملكاً عليها في شهر حزيران (يونيو) سنة ١٩١٦، كان يُعتبر آنذاك أكبر أشراف مكة والسادن الوريث للأماكن المقدّسة.

غير أن حكمه انتهى في شهر تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٢٤ عندما غزت القوات النجدية بلاده، وأرغم على التنازل عن العرش، لصالح أكبر أنجاله وهو الأمير عليّ.

ولقد حدث هذا التنازل بعد مرور سبعة أشهر على ادعائه بلقب «خليفة العالم الإسلامي»، وهو ادعاء سانده ابنه الثاني، عبد الله، حاكم محافظة شرقي الأردن الجديدة، والتي كانت تدعى قبلاً باسم محافظة «الكرك» ولم يكن ليحكمها عاهل مسلم آخر.

كان «سنت جون فيلبي[1] في ذلك الوقت يقوم بمهمة الممثل

(١) سنت جون فيلبي: من أكابر المغامرين الإنكليز الذين عملوا في الجزيرة العربية قبل الحرب العالمية الأولى، واشترك في الحملة الإنكليزية على العراق، وتولى بعض المهام بعد احتلال الإنكليز للعراق، ثم أجبر على مغادرة العراق لأنه كان يعارض ترشيح أي من أبناء الحسين لعرش العراق، وأعاد توثيق صلاته بعبد العزيز بن السعود، وبعد أن استتب الحكم لآل سعود، عمل فيلبي وسيطاً لشركات النفط الأمريكية التي أفلحت في العثور على النفط في السعودية، وقد توفي فيلبي في اليوم الأول من تشرين الأول سنة ١٩٦٠ وهو في الخامسة والسبعين من عمره في بيروت حيث كان يعيش هناك بعد نزوحه عن السعودية ودفن في مقبرة الباشورة وسنحاول قريباً نشر مذكراته عن العراق والاردن والسعوديه.

البريطاني في الأردن ـ ولم يكن تعيينه في هذا المنصب من التعيينات المباركة جداً التي أقدمت عليها الحكومة البريطانية، وذلك لسبب قلّة العطف الذي كان «فيلبي» يوليه للأماني الهاشمية، ومساندة مرشحه ابن السعود (عبد العزيز بن السعود الذي يحمل وسام .G.C.I.E الممنوح له من بريطانيا)، سلطان نجد الوهابي، لعرش العراق ضد الأمير فيصل. وكان هذا الأمر هو السبب في مغادرة «فيلبي» للعراق.

فلقد جرت له أحاديث عن الخلافة مع الأمير عبد الله، فكان عبد الله يصرُّ بغضب على أن والده الشريف المتحدّر مباشرة من ذرية الرسول محمد صلى الله عليه وسلم هو الخلف الملائم لذلك ليس إلاّ.

ولم يكن فيلبي وعبد الله صديقين حميمين أبداً، وبقيا متخاصمين إلى أن غادر فيلبي الأردن في سنة ١٩٢٤. ومع ذلك فقد وضع تنازل الملك حسين عن العرش نهاية لادعاءاته، وغدت «الخلافة» معلّقة منذ ذلك الوقت. وكانت تروج، من حين لآخر، إشاعات مؤداها أن عبد الله يسعى إلى إعلان الخلافة، وأن فاروق ملك مصر[٢] كان يرغب في ترشيح نفسه لهذه التسمية، حين أُذيع كذباً في القاهرة بأنه قد ثبت تحدّر فاروق من سلالة النبي.

كانت مطامح ابن السعود إقليمية في الدرجة الأولى. ففي القرن الثامن عشر كانت السلطنة تتمتع باستقلال سياسي، لكنها ما لبثت مؤخراً أن سقطت تحت تأثير الحكم العثماني.

---

(٢) مع أن فاروق متحدر من أصل ألباني وأمه فرنسية، إلا أن العصابة الملتفة حوله في ذلك الوقت وعلى رأسها شيخ الأزهر، قد أغرته بأن يلقب نفسه بخليفة المسلمين، ويدعي بأنه متحدر من ذرية الرسول محمد (ص) حيث أطلق فاروق لحيته وراح يؤم المساجد ليل نهار، ويحضر حلقات الذكر والأوراد. كل ذلك جرى على رؤوس الأشهاد في العالمين العربي والإسلامي، وذلك في سنة ١٩٤٦ وما بعدها، حيث استمرت هذه المهزلة بضع سنوات. وقد سبق لأبيه فؤاد أن حاول ذات المحاولة، فادعى بأنه متحدر من سلالة الرسولﷺ، وأنه أحق بالخلافة من غيره، وذلك بعد أن ألغيت الخلافة في تركيا رسمياً، وقد تصدى الأستاذ علي عبد الرازق لهذا الادعاء فأصدر كتابه «الإسلام وأصول الحكم» الذي حوكم بسببه وحكم عليه بالحبس

وفي سنة ١٩١٣ حطّم ابن السعود أغلاله، وانتزع ولاية الاحساء من الأتراك. وفي سنة ١٩٢١ قام بتوسيع مملكته أكثرَ فأكثر، حين تغلّب على عائلة آل الرشيد، وهي أوسع فرع من قبائل شمر.

ومن ثم قام بغزو الحجاز. وتلا ذلك تنازل الملك حسين عن العرش، وأجبر الملك عليّ على التخليّ عن مكة حالاً، وبذلك احتلّت القوات النجدية المتعصّبة مملكته.

وأعقب ذلك إعلان ابن السعود الملوكية، وأطلق على نفسه لقب: «صاحب الجلالة عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل السعود». ويكشف هذا اللقب الطويل المنتصر عن سلسلة نسب ابن السعود.

كانت الخصومة بين البيتين الهاشمي (الاشراف) والنجدي، قائمة منذ وقت طويل، وقد اشتدّت هذه الخصومة، وساءت العلاقة بين الملك فيصل وابن السعود في السنوات الأخيرة. ويعود سبب ذلك، في الدرجة الأولى، إلى النزاع القائم حول الحدود المشتركة بينهما، وإلى هرب قبائل شمر، الذين ادعى ابن السعود بأنهم رعاياه، إلى العراق، والذين كان الملك فيصل يعتبرهم لاجئين لهم حق الضيافة حسب العوائد سارية المفعول في الصحراء.

لقد تحالف كلٌّ من فيصل وابن السعود مع بريطانيا العظمى. ولذلك وجدت الحكومة البريطانية أن من الضروري أن تكون جد حذرة في مساعيها للمساعدة في حلٍّ هذه المشاكل.

كان فيصل، وبإسناد من السر فرنسيس همفريز[٣]، يؤثر الاقتراح الداعي إلى عقد مؤتمر ملكي. أما ابن السعود فكان يكافح، غير بعيد،

(٣) السر فرنسيس همفريز: عين معتمداً سامياً لبريطانيا في العراق في اليوم السابع من شهر تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٢٠، خلفاً للسر جلبرت كلايتون الداهية الإنكليزي الشهير، وقد بقي همفريز في هذا المنصب إلى ما بعد قبول العراق في عصبة الأمم في أواخر سنة ١٩٣٢.

ضد البقايا المبعثرة من الإخوان النجديين[٤] الأقوياء والمتطرفين الذين كان زعيمهم فيصل الدويش[٥] ينشد اللجوء إلى العراق، والذي كان مصيره يؤلف مثار النزاع بين الحكومتين.

قَبِل ابن السعود دعوة الملك فيصل، لكنه لم يكن يرغب أن يلتقي به على أرضٍ عراقية. وعندما اقترح أن يتم اللقاء في منطقلة محايدة - كانت قائمة فعلاً - أعرب الملك فيصل عن استعداده إلى أن يطير إلى هناك، ووافق على اللقاء في تلك المنطقة.

ولقد اعتذر ابن السعود متحججاً ببُعد المسافة، واستحالة السفر بحاشية تضم أربعمائة رجل من أفراد قواته. بل إن محض التفكير في نطاق مثل هذه الجسامة كان أمراً مخيفاً.

على أن الاعتبار لم يكن يسمح للملك فيصل أن يحضر مع حرس مسلّح تكون نسبته أقل، وأن هذا من شأنه أن يحبط الغرض المتوخى من المؤتمر، إن لم يؤد إلى النزاع.

ومهما يكن الأمر، فقد تم أخيراً، وبعد اعتبارات مفصّلة لكل احتمال متوقع - من أمثال: متى يتم الاجتماع وأين، ودقة البروتوكول؟ - حل هذه الأمور، ووافق العاهلان على اقتراح الحكومة البريطانية القاضي بأن يُعقد المؤتمر على ظهر إحدى البوارج البريطانية.

لم يكن أي من العاهلين يرضي بأي منهاج للمؤتمر، مما يمكن اعتباره دلالة على الإذعان. فقد كان كل تفصيل يخضع لفحص مجهري من لدن ممثلي الحاكمين ومستشاريهما، قبل التوصلّ نهائياً إلى اتفاق بشأنه.

(٤) «الإخوان» لقب أطلق على معتنقي المذهب الوهابي الذين بلغ بهم التطرف حداً أن اعتبروا كل خارج عن هذا المذهب كافراً يجب قتله.

(٥) أخطأ المؤلف في لقب ابن الدويش فكتبه، (فيصل الدرويش)، وكان ابن الدويش هذا قد التجأ هو وجماعته إلى العراق، لكن السلطات الإنكليزية ألقت القبض عليهم، واعتقلتهم في معسكر الشعيبة، ثم سلمتهم فيما بعد إلى ابن السعود بعد أن رجته إصدار العفو عنهم.

أما في المناسبة الأخرى والوحيدة التي بحثت فيها المشاكل النجدية العراقية في جدة سنة ١٩٢٨، فقد انقطعت المفاوضات وانتهت إلى الفشل.

بدأ المؤتمر الملكي العائم فعلاً في اليوم الحادي والعشرين من شهر شباط (فبراير) سنة ١٩٣٠، وقد اعتبر حدثاً له أهميته التاريخية والسياسية في أنحاء العالَم العربي كله.

كان الوفد العراقي الذي يترأسه الملك فيصل يضمّ كلا من: رئيس الوزراء ناجي السويدي، والسر كنهان كورنواليس مستشار وزارة الداخلية، ورستم حيدر رئيس الديوان الملكي، وتحسين قدري، ومرافق أصغر هو النقيب «غلوب»[٦] الذي كان يشغل منصب المفتش الإداري لمنطقة الحدود الجنوبية، ومني أنا.

وفضلاً عن ذلك كان هناك بعض موظفي إدارة السكك، وعدد كبير من ضباط الأمن، وأمناء السر، وثلاثة من مندوبي الصحف، ومصوّر رسمي، وحاشية فعالّة من رجال الشرطة.

رست الباخرة «لوبين» في شط العرب، في الوقت الذي كانت فيه سفينة الملاحة «نيرخوس» والعائدة إلى إدارة ميناء البصرة، تتحرك بامتداد الرصيف.

كانت السفينة نيرخوس ـ والتي يشار إليها دوماً بأنها «جيمي وارد» تكريماً لمدير الميناء[٧] ـ هي المسؤولة عن صيانة الفنارات، وإشارات البحر، وعلاماته الأخرى في الشواطىء الجنوبية للخليج العربي.

---

(٦) يقصد به جون باجت غلوب باشا، المشهور في العراق باسم «أبو حنيك» وهو من كبار مغامري الإنكليز قبل الحرب العالمية الأولى وما بعدها، وقد نقل خدماته إلى الأردن، وتولى في أول الأمر قيادة قوة البادية، ثم أصبح القائد العام للجيش الأردني، وقد أخرج من الأردن في أوائل الخمسينات، وقد توفي في ١٩٧٩.

(٧) هو العقيد «وارد» الذي كان يتولى إدارة ميناء البصرة، وقد بقي في هذا المنصب حتى أواخر الأربعينات حيث عين أول عراقي لإدارة الميناء، وهو «سعيد قزاز» آنذاك.

وحين هبط الملك فيصل من القطار، وفتش حرس الشرف العراقي، أطلقت الباخرة «لوبين» تحية ملكية، ومن ثم صعد الملك فيصل إلى السفينة نيرخوس، يتعقبه عدد من أفراد حاشيته، في حين نُقل مارشال الجو «لودلو هوت» (سُمي مؤخراً باسم مارشال الجو «السر إدغار»)، والمندوب السامي، وأفراد موظفيه، في عوّامة إلى الباخرة «لوبين».

في خلال ساعة واحدة من وصولنا إلى المعقل[8] سحبت الباخرة لوبين مراسيها وأبحرت نحو الجنوب، وفي أعقابها السفينة نيرخوس.

كان البحر هادئاً. لكن كلاً من مدير الميناء وملاّح الباخرة كانا يتوقعان أن يسوء الجو. تم الوصول إلى المكان المحدّد عند موقع الطوافة «روكا» في الساعة السادسة صباحاً. وكان مقدّراً أن يصل الملك ابن السعود إلى هناك بعد ساعتين، على سفينة البرق «باتريك ستيوارت» التي استعيرت، لهذه المناسبة، من مالكيها: «شركة التلغراف الهندية الأوروبية». أما النقيب «غلوب» فقد انضمّ في المعقل إلى السفينة نيرخوس التي كان يصحبها العقيد «وارد».

لقد حدث نقاش نوعاً ما، حول أي من الوفدين يجب أن يصل إلى الباخرة «لوبين» أولاً، وهل يُعَدّ أكثر تبجيلاً له أن يكون حاضراً على ظهر الباخرة ويقوم باستقبال الوفد المقابل، أو يقوم هذا الوفد هو باستقباله؟

كانت هذه هي منتهى الشكلية والتدقيق في مراسيم الحفلات، وقد تم التغلّب عليها في هذه المناسبة، باقتراح كان يقول بأنه يجب أن يصل كلا الفريقين في ذات اللحظة المحددة لوصولهما جهد المستطاع.

ومع ذلك فلم يلتزم ابن السعود بهذا الاقتراح، ووصل قبل أن يبدأ إطلاق المدافع بدقيقة واحدة أو نحوها. أما الملك فيصل فقد ركز أنظاره على «غلوب» وأصرّ على أن يصحبنا.

---

(٨) منطقة المعقل في شمالي البصرة مقر إدارة الميناء والأرصفة في البصرة، وهي منسوبة إلى نهر المعقل. وقد حرف هذا الاسم من قبل الأجانب فأصبح يعرف باسم «ماركيل» ـ بالكاف المعجمة ـ وما يزال الاسم شائعاً لدى العامة في البصرة حتى اليوم.

وهكذا، وخلافاً للأوامر التي أصدرناها بالإبحار، وصلنا إلى الباخرة لوبين وكنا سبعة رجال، ومع هذا فلم يظهر أن أحداً قد لاحظ هذا الخرق للأوامر.

تقدّم بالتحية إلى العاهلين كلٌّ من السر فرنسيس همفريز، والسر جون «الليني» (ملّاح الباخرة البريطانية «فندكتف» في الحرب العالمية الأولى) والذي جرح في سنة ١٩١٨، وأغرقت باخرته تلك لتسد ميناء «أوستند» الألماني.

عانق العاهلان أحدهما الآخر وهما بملابسهما العربية، وتصافحا بالأيدي لمدة دقيقة، ثم تبادلا التحيات القلبية الحارة، وذلك بالتأكيد المتبادل على النتيجة السارّة التي ستعقب هذه المداولات. وأعقب ذلك تقديم الوفود المعتمدة، وإذ ذاك انتقل العاهلان مباشرة يداً بيد، إلى غرفة أعدّت لعقد المؤتمر، حيث شُرع بتقديم الهدايا. فقد قدّم الملك فيصل إلى ابن السعود بندقية صيد جميلة، وتلقى منه مقابل ذلك سيفاً تذكارياً جميلاً حلّى غمده صاغة الفضة في مكة بشكل وفير.

انضمّ بعد ذلك المندوب السامي مع سكرتيره للشؤون الشرقية «فيفان هولت» إلى العاهلين لإجراء مباحثات تمهيدية حول جدول الأعمال المقترح. وبعد أن تم وضع اللمسات على النقاط الرئيسية للموضوع، أعرب العاهلان عن تصميمها على الاحتفاظ بمعاهدة صداقة، وتسوية كلٍ الخلافات القائمة بين البلدين. وعندئذ قدّم السر فرنسيس همفريز إلى كلٍّ من العاهلين، نيابة عن الحكومة البريطانية، جهاز لاسلكي، ثم أعقب ذلك افتتاح المؤتمر بخطاب للملك فيصل، ردّ عليه ابن السعود بخطاب أطوّل. وقد أثنى ابن السعود على دور بريطانيا كصانعة للسلام في العالم العربي، وأيّد كل ما أورده الملك فيصل عن شكره لبريطانيا على تهيئة هذا المؤتمر، وأعرب عن سروره لأنه استطاع أن يلتقي وجهاً لوجه، مع متحدّر حقيقي من نسل الرسول، ورجل دولة عربي عظيم.

جلس الملكان جنباً إلى جنب وكانا كلاهما في روحية جيدة. كان

ابن السعود، الذي استساغ الاجتماع بصفة جليّة، يحاول أن يظهر بمظهر المتبجح والمناصر لجاره الذي كان يوجّه إليه عبارات عرضية.

فحيثما كان يشير إلى فكرة ما، يعتبرها عميقة بما فيه الكفاية، كان يضغط بإصبعيه الأماميين على عثنونه الذي تمتد منه لحيته على الجانبين في تجعدات تمثيلية رشيقة، فوق حافة فكّه الأيسر.

افتُتح المؤتمر بعد ذلك مباشرة، واقترح الملك فيصل تسوية كل المشاكل المعلقة بين البلدين. وقد احتج ابن السعود على ذلك بقوله: إنه علم بأن الاجتماع قد تم إعداده للتعارف بينه وبين فيصل، وأن مؤتمراً آخر يضم وفوداً معتمدة، سوف يعهد إليه بتسوية جملة الأمور المطروحة. ولكن فيصل أكد بعزم بأنه قد طرح المنازعات العائلية جانباً لكي يؤكد على علاقات الجوار بين البلدين، وتحقيق رخاء أوسع لهما. ونظراً للدهشة الحلّة التي أصابت مستشاريه وسببت عدم رضاهم، وافق ابن السعود دون تردد، وشرع في الحال بمناقشة المواد التي تضمنتها مُسوّدة الاتفاق على أساس إدراجها في رسائل محددة تُقدّم إلى الملكين للتوقيع والتبادل كخطوة أولى في سبيل التفاوض لإبرام معاهدة حسن جوار يتم التوقيع عليها دون أدنى تأخير.

وما أن انسحب العاهلان حتى حدثت ورطة. فقد طلب الوفد النجدي بأن تعنون الرسالة التي يراد تقديمها إلى ابن السعود بأنه «ملك نجد والحجاز وتوابعها».

غادر السر فرنسيس همفريز الغرفة حالاً، وراح يتطلّع إلى مصادقة الملكين على الرسائل التي سيتم تبادلها بينهما، والتي صيغت بلغة إعلامية تبدأ بعبارة «الأخ العزيز» وتنتهي بكلمة «أخوكم». ولقد نالت الرسائل القبول مباشرة، وكانت موافقة ابن السعود الصادقة لكل اقتراح، قد جعلته يخالف موقف مستشاريه في غيابه بصفة مباشرة تماماً. فلقد كان أولئك يجادلون بعناد، ولا يرغبون في الاتفاق حول أية نقطة من دون نقاش مطوّل.

ولقد كانت لباقة المندوب السامي، وإدراكه العميق، هما وحدهما

اللذان ساعدا على تقدّم المفاوضات من دون أدنى عقبات. وفي نهاية النهار تم التوصلّ إلى اتفاق عام حول عدد أوسع من المواضيع، وأُعِدَّ هيكل مُسَوَّدَة الاتفاق، لإعادة النظر فيه في اليوم التالي. وكان هذا الأمر في الواقع إنجازاً كبيراً في مثل هذه الفترة القصيرة من الزمن.

تضمّنت فقرات مُسَوَّدَة الاتفاق، والتي بلغ مجموعها تسع عشرة فقرة، الاعتراف المتبادل باستقلال البلدين وتبادل الممثلين الدبلوماسيين بينهما، وتحريم الغارات القبلية، وتسليم اللاجئين أو الفارين من وجه العدالة، وإنشاء لجنة حدود دائمة، والمبادرة بتسوية الخلافات التي قد تنجم عن تفسير المعاهدة بطريقة التحكيم ليس إلّا، وتعويض العراق عن الأضرار التي سببتها غارات النجديين[٩].

وفي حالة عدم تسوية الادعاءات بصفة كافية قبل انتهاء موسم الحج، تُعقد محكمة تحكيم في الكويت تتألف من خمسة أعضاء، يكون أحدهم بريطانياً، وذلك لغرض التسوية، وقبول نجد بوجهة نظر العراق فيما يخص مواقع الحدود. وفي حالة عدم التوصّل إلى اتفاق خلال خمسة أشهر، يحال الخلاف إلى محكمة مؤلفة من خمسة أشخاص، وتكون قراراتها مُلزمة.

ولقد منحت الفقرة النهائية العفو إلى «ابن مشهور»[١٠]، وغيره من اللاجئين الآخرين الذين كان على العراق أن يطلق سراحهم.

عاد الملك فيصل إلى الوطن منتصراً[١١]، واستُقبل في البصرة وفي

---

(٩) يقصد بذلك الغارات التي قامت بها جماعة «الأخوان» على بعض العشائر العراقية على الحدود الجنوبية وقتل عدد من أفرادها ونهب مواشيها، وذلك خلال الأيام الأخيرة من سنة ١٩٢٤، وقد وقعت إحدى هذه الغارات على مقربة من مدينة السماوة، وقد حاولت الطائرات البريطانية تعقب المغيرين، فلما وجدتهم قد أصبحوا داخل الأراضي النجدية اكتفت بإلقاء بعض القنابل عليهم.

(١٠) ابن مشهور: أحد رؤساء العشائر النجدية الذي دخل العراق هو وجماعته فاعتقلتهم السلطات العراقية، ولم يطلق سراحهم إلا بعد توقيع المعاهدة مع السعودية.

(١١) وصل الملك فيصل إلى البصرة عائداً من الاجتماع في يوم الإثنين الرابع والعشرين من شهر =

بغداد استقبالاً فخماً. فما أن وصل إلى البصرة حتى ازدانت منطقة الميناء بالأضواء الملوّنة والأعلام.

ولقد نهد العقيد «وارد» إلى الشاطىء لكي يُقدّم إلى الملك، بمناسبة رسو السفينة التي تقلّه، نشيد النصر، الذي نظمه بجهد بالغ، وهو على ظهر السفينة.

وأُقيمت حفلات استقبال فاخرة في كلّ مكان كان يتم التوقف فيه، وكانت هذه الحفلات مصحوبة عادة بإلقاء قصائد حماسية نُظمت على عجل من لدن الشعراء المحليين، ويصحبها هتاف من أسنان صناعية لم يُحسن ترتيبها!

أصبحت مُسَوّدَة الاتفاق موضوع مفاوضة أُخرى بين الحكومتين[١٢]، ولم يتم عقد معاهدة حُسن الجوار بينهما إلاّ في شهر نيسان (أبريل) من السنة التالية، ثم أعقبتها، بعد يوم واحد، معاهدة تسليم المجرمين.

تعكس السرعة التي تم بها الاتفاق على مواد مُسَوّدَة المعاهدة وتأخر تطبيقها، عن المساومة العنيدة التي حدثت قبل التوصّل إلى اتفاق، وإكمال المواد النهائية.

لقد عُقدت معاهدة الأخوة والتحالف فعلاً لكن تطبيقها لم يتم قبل اليوم الثاني من شهر نيسان (أبريل) سنة **١٩٣٦** الموافق لليوم العاشر من محرّم سنة **١٣٥٥** هجرية، وبعد ست سنوات من مفاوضات عنيفة، ومملة.

= شباط (فبراير) وأبرق إلى ابن السعود برقية لاسلكية حياه فيها ورد عليه ابن السعود ببرقية مماثلة.

وقد وصل الملك وحاشيته إلى بغداد في اليوم الخامس والعشرين من شهر شباط (فبراير) ذاته.

(١٢) في السادس من شهر آذار (مارس) سنة ١٩٣٠، وصل وفد نجدي إلى بغداد لمفاوضة الحكومة العراقية في أسس المعاهدة التي تم الاتفاق عليها بين العاهلين، وقد تم التوقيع على المعاهدة بالأحرف الأولى، وغادر الوفد بغداد عائداً إلى نجد في يوم الأحد التاسع من شهر آذار (مارس) ذاته.

في هذا الوقت كان قد مضى على وفاة الملك فيصل الأول، ثلاث سنوات، وأصبحت نجد تُعرف باسم «المملكة العربية السعودية».

في أواخر سنة ١٩٣٠ أصبحت صحة الملك السابق، الحسين بن علي، تدعو إلى القلق. وإذ أدرك أن أيامه أصبحت معدودة، أخذ يتطلّع بشوق إلى أن يغادر منفاه في جزيرة قبرص، وأن يمضي بقية أيامه بين أقاربه ومعارفه.

ولقد أنبأني الملك فيصل بهذا الأمر، وطلب إليّ أن أتطلّع إلى مساعدة السر فرنسيس همفريز في هذا الشأن.

وإذ وصلتْ أنباء عن تفاقم التردّي في صحة الملك السابق، قرّر الملك فيصل والأمير عبد الله أن يقوما بزيارة والدهما. وقد طلب إليّ فيصل أن أصحبهما في هذه الزيارة. وتم اختيار مدينة عمّان من بين العاصمتين لأنها أقرب، وأكثر ملاءمة.

ولقد سبق لي أن قابلتُ ملك الحجاز السابق في سفرة سابقة إلى جزيرة قبرص، عندما قدّمنا إليه، أنا وزوجتي إلزي، هدية من لدن الملك فيصل، حيث استقبلنا بِوُدٍّ بالغ، وقد حيّاني بقبلة على وجنتي الاثنتين... غير أن مضيّفنا، أي الملك، لم يكن متأكداً من الطريقة التي يستطيع أن يحيّي بها زوجتي، حيث توقف لحظات قبل أن يسحب رأسها إلى أمام ويطبع قُبلةً على تاج قبّعتها.

كان هناك احتمال ما في أن لا توافق الحكومة البريطانية على مغادرة الملك حسين منفاه. وقد تردّد الملك فيصل في إخبار السر فرنسيس همفريز عن رغبة والده في أن يقضي بقية حياته في شرقي الأردن. لأنه إن فعل ذلك فقد يظنّ السر رونالد ستورس حاكم قبرص، وهو المضيف الشخصي للملك الحسين، بأنّ مثل هذا الإجراء قد اتُخذ من دون علمه.

وبفضل ما بذله السر همفريز فلم تحدث أية مشكلة، عدا قضية النقل إلى نيقوسيا. ولقد تمّت الرحلة إلى نيقوسيا بالطائرة عبر عمّان،

والاسكندرية. وفي حوالي الساعة السادسة بعد الظهر وصلنا إلى المأوى المتواضع الذي يقيم فيه الحسين، الملك السابق، والذي كان يتألف من حوشين وبضعة أبنية صغيرة.

كان أحد الحوشين يُستخدم كدائرة، وغرفة للاستقبال «ديوان خانه». ولم يكن هناك من أثر لأية حديقة داخل فداني الأرض التي كانت الآن تؤلف مملكة الحسين!

أما الحوش أو البيت الثاني، وهو أوسع قليلاً، فكان يُستعمل لسكنى العائلة، ويقع داخل فناء مُسَوَّرٍ خلف البيت الأول، ويقيم فيه كلٌ من الأمير زيد أصغر أبناء الحسين الأربعة، وهو أخ لأخوته الثلاثة من الأب فحسب، والأمير طلال أكبر أولاد عبد الله، والذي انضم مؤقتاً إلى هيئة موظفي حاكم الجزيرة للتدرب على الأعمال الإدارية، وابنتي الملك حسين اللتين التقيتُ بهما مرات عديدة في اليومين أو الثلاثة أيام الأخيرة.

لقد كنت أشعر بالرثاء لهما، لأنهما كانتا سجينتين في منزل أبيهما هذا، وقد حرم عليهما غالباً أي اتصال خارج جدران المنزل.

كانت الشقيقة الكبرى الأميرة «صالحة» ما تزال تعيش في بغداد، عندما غادرت أنا العراق لآخر مرة في سنة ١٩٤٦. أما الثانية وهي الأميرة «سارة» فقد اقترنت فيما بعد بالسيد «عطا أمين»(١٣) عندما تزوجت به زواجاً هروبياً، فأثارت بذلك كدراً عظيماً للأعضاء الآخرين من هذه العائلة الشهيرة المتباهية.

ومع ذلك فقد برهن الزواج على أنه كان سعيداً. وقد حدث أن التقيتُ بالسيد عطا أمين وزوجته الظريفة في أنقرة سنة ١٩٤٥. وكان ضيفاً على الأمير زيد أثناء وصولنا إلى نيقوسيا.

---

(١٣) عطا أمين: من أوائل المثقفين في العراق بعد الحرب العالمية الأولى، وقد تولى فيما بعد مناصب عديدة في السلك الخارجي وحظي بمنصب وزير مفوض، ثم تولى سفارة العراق في أنقرة سنة ١٩٤٥، وسفيراً للعراق في لندن في أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات. وكان قد تزوج الأميرة «سارة» ابنة الملك حسين من زوجته التركية.

اندفعنا إلى غرفة مظلمة. كان العاهل السابق مستلقياً على مطرح فوق أرضية مفروشة بالسجاد، ولقد انتابه شيء قليل من الارتباك، ومع أن كلاً من فيصل وعبد الله قد عانقاه، إلاّ أنه اكتشف وجود شخص يرتدي ملابس غربية، فطلب مهتاجاً أن يعرف هوية ذلك الشخص. أوضح له فيصل هويتي، وأننا سبق أن التقينا من قبل. وردّ الشيخ المسنّ يقول للملك فيصل: «إنك تخدعني. إنه هو (فيلبي)». وراح فيصل يعاتبه، فرد عليه بصوت أكثر هدوءً وهو يسأله: حسناً! «وأين (فيلبي) الآن؟». وأجاب فيصل بعد لحظة قائلاً: «لقد مات!». فكان الرد المباشر والجريء من الملك حسين قوله: «الحمد لله!». وعندئذ مدّ إليّ يده، وسحبني إليه، وطبع قُبلةً على وجنتي الاثنتين، وراح يعتذر عن غلطته.

بعد ذلك مباشرة سألني الدكتور جميل، الطبيب الخاص للملك حسين، أن أفحص مريضه بالمشاورة مع طبيب آخر، هو رئيس بلدية نيقوسيا اليوناني القبرصي الذي وصل تواً لهذا الغرض، بالاشتراك مع جميل نفسه.

لم يبد جلالته أي اعتراض على الفحص الطبي، لكن تقدير ضغط دمه قد دفعه إلى طرح الكثير من الأسئلة عن أوضاع صحته، وتوقعات حياته.

لقد كان شديد لاضطراب لأنه تعرّض لنوبة جديدة نجم عنها شلل مؤقت في الجزء الأيسر من بدنه. ولقد كان جد متلهف لأن يجدد شبابه قبل أن يؤذن له بدخول الجنة، حيث كان يعتقد بأن الحور العين ينتظرنه هناك!

تطلّب الوضع الاستعانة بأكاذيب بريئة، وذلك بقصد تجنّب أي فحص طبي غير ملائم.

ما أن وصلت إلى فندق «جورج» المشيّد حديثاً، حتى كتبت رسالة إلى السر رونالد ستورز أخبره فيها بأن مشاورة طبية قد أجريت، وأن صاحب الجلالة يعاني من نزيف دائم في المخ، ومن آثار نوبة جديدة،

وأنه لا بد من إجراء دورة علاج له تكون متقدمة بصفة ثابتة.

ولقد أكدت في رسالتي أن من المرغوب فيه جداً، وفي الظروف الراهنة، أن تُلبي طلبات العاهل نفسه، وطلبات أفراد أسرته، وأن يتم نقله إلى قصر الأمير عبد الله في عمّان، وأن يمضي هناك بقية حياته.

ومن بين العوامل الأخرى التي أشرت إليها لصالح هذا الإجراء، إمكان مرافقة الملك فيصل والأمير عبد الله للعاهل السابق في سفرته هذه، ووجود حاشية كافية لهذا الغرض.

وبفضل حكومة صاحب الجلالة البريطانية، ووصول باخرة نقل ملائمة إلى ميناء «فماغوستا»، فقد اقترحت أيضاً بأن تتم الرحلة بالقطار إلى الميناء المذكور، وأن تستمر من هناك بحراً إلى حيفا، ثم يجري السفر بالقطار إلى عمّان، وأن هذه أقصر الطرق، وأقلّها مشقة، والتي يمكن أن يُنقل الملك السابق به.

أمضيتُ عصرَ يوم كامل أُعِدُّ للرحلة. لم تكن لدينا سيارة إسعاف، وكان البديل الملائم لذلك وجود عربة لنقل البريد في محطة القطار، ولذلك تم حجز هذه العربة حالاً.

كان القطار هو الآخر يمثّل مشكلة أُخرى. ذلك لأن العاهل المريض يجب أن يُنقل على مطرحة. ولقد تم التغلّب على ذلك بأن حُوّلَتْ إحدى عربات البضائع في القطار إلى ما يُشبه جناح مستشفى مؤقت، حيث تقرر أن يُنقل العاهل السابق من القطار إلى الباخرة «بريوني» التي تقوم برحلتها من «فماغوستا» إلى حيفا.

لقد كانت فكرة مغادرة قبرص شديدة الوقع على الشيخ المريض. ولقد وجدته في إحدى المرات شديد الوهن فأشرت إلى أن أزرقه بالإبر.

لقد كان الملك حسين في إغفاءة، وكانت الوخزة غير متوقعة بالنسبة له، إلى درجة أنه تمتم قائلاً: «لو فعلت بي مثل هذا في مكة لقطعت يدك!» وما لبث أن رقّ، وأدار ذراعيه حول عنقي وقبّلني.

ولقد أنبأني في مناسبة أُخرى أنه لو كان يستطيع أن يعرض صدره لشمس الصحراء، ويشرب لبن النوق، لما احتاج إلى أي دواء آخر!

علمت أثناء وجودي في قبرص، بأن الباخرة التي سافر عليها العاهل السابق إلى قبرص لأول مرة بعد تنازله عن العرش سنة ١٩٢٤، قد جنحت إلى اليابسة. فما كان من الحاكم السابق للحجاز إلّا أن بعث ببرقية إلى الملك الجديد (ولده علي) يشكو قائلاً: «إن باخرتك قد جنحت!» ولست أستطيع أن أؤكد صحة الحكاية، ولكن أُعيد تطويف الباخرة، حسب الإشاعة، بعد ساعتين أو ثلاث ساعات. وإذ ذاك بعث الحسين ببرقية أُخرى يقول فيها: «لقد طوّفت باخرتنا!»

بعد وصولنا إلى قبرص بثمان وأربعين ساعة كلّمني السكرتير الخاص للحاكم العام، وأنا في الفندق، منبئاً بأن الموافقة على نقل العاهل السابق حسين إلى عمّان، فد تم استلامها من وزارة المستعمرات.

ولقد تم إعلام أفراد العائلة الملكية بهذا الأمر، ولذلك وجدتهم في حيوية وبشاشة عندما استدعيت لأناقش الترتيبات الأخيرة للرحلة.

تم الوصول إلى عمّان عند الغسق بعد يومين، وتجمعت جماهير غفيرة في محطة القطار، وفي السُّبُل المؤدية إليها، ولقد سادت الفوضى عدة دقائق قبل أن يتم نقل المريض إلى سيارة إسعاف.

ولقد تراجع حرّاس القصر أمام الأعداد الهائلة التي اندفعت إلى داخل القصر، وكانت نتيجة ذلك أن احتلّت الغوغاء المكان في الوقت الذي وصلت فيه سيارة الإسعاف إلى هناك. ولقد أمكن صد الحشد، وتم نقل المريض على أكتاف رجال أُعدوا لهذه المهمة، إلى زاوية في الطابق الثاني من القصر.

ومع كل ذلك وصل الملك المريض إلى نهاية سفرته من دون حادث، وسرعان ما راح يغط في نومه في السرير الذي أُعدّ له، وكان يبدو عليه أن صحته لم تتدهور، بل كانت أحسن خلال الرحلة المزعجة نوعاً ما.

لقد ظفر بالهدوء، وبالمأوى الأمين الذي طالما كان يداعب أحلامه غالباً.

أمضينا اليوم التالي أنا وفيصل وتحسين في عمّان، ثم طرنا في مُبكر اليوم الثاني عائدين إلى بغداد. استدعيت في مساء اليوم السابق لمغادرتنا إلى غرفة العاهل المريض، فوجدت فيصلاً وعبد الله يقفان إلى جانبه. ولقد راح يزجي الشكر إليّ بكلمات فخمة على الخدمات التي أديتها للعائلة خلال مدة عشر سنوات، وواصل الملك السابق حديثه يقول: «إنني لم أعد ملكاً، ولست أستطيع أن أمنحك أي لقب. ولما كان الملك فيصل لم يتشاور بعد في مسألة الإنعام بلقب ما، فقد ترك الأمر إلى الأمير عبد الله ليحقق ذلك. وبطلب مني كرئيس للعائلة، أعرب عبد الله عن رغبته في أن يُنعم عليك بلقب «باشا»، وأن يمنحك وسام الاستقلال، وكان من حقي أن أمنح ذلك في وقت من الأوقات»!

الفصل الثامن

زيارة الملك فيصل الأول إلى إيران

في سنة ١٩٢١ استطاع رضا خان، وهو عقيد وكان من الجنود القوزاقيين قبلاً، أن يستولي على السلطة في إيران، وأن يحتل منصب رئيس الوزراء فيها. وبعد أربع سنوات من ذلك التاريخ، تم خلع الشاه «أحمد ميرزا» الذي كان يقضي معظم حياته في الخارج، وخلفه رضا خان الذي عيّنته الجمعية الوطنية الإيرانية باسم «صاحب الجلالة الأمبراطورية شاهنشاه»، وهكذا تم القضاء على آخر ممثل للأسرة القاجارية على يد أول أسرة بهلوية جديدة.

لم يعترف رضا بهلوي بحكومة العراق الجديدة إلاّ بعد مرور ثماني سنوات من اعتلاء فيصل عرش العراق، وأربع سنوات من اعتلاء رضا شاه نفسه لعرشه.

ذلك أن فيصل لم يكن في نظر رضا شاه، الذي غدا حاكماً لأمبراطورية أسّسها «كورش»[1] قبل ميلاد السيد المسيح بخمسة قرون، سوى شخص حديث عهد بالنعمة. وإذ كان فيصل نبيل المولد، ومتحدّر مباشرة من ذرّية النبي «محمد» ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإن رضا

---

(١) كورش: مؤسس السلالة الأخمينية التي حكمت إيران واستولت على بلاد بابل ودمرتها، وذلك في الفترة (٥٥٩ ـ ٣٣١) قبل الميلاد. وكان كورش قد ثار على حاكم ماذي المدعو «استياكس» وخلعه عن العرش واستولى على بلاده، ثم استولى على مملكة ليديا في آسيا الصغرى، وأخيراً احتل بابل سنة ٥٣٩ ق م.

كان من أفراد الطبقة البورجوازية الصغيرة. وكان فيصل سُنّي المذهب، ورضا شيعيّاً.

وعندما سألت الملك فيصل عما إذا كان يعتقد بأن الطائفية قد تكون عاملاً في الاختلاف الواضح بينهما، نفى هذه الفكرة نفياً قاطعاً. لقد كان من المؤذي حقاً لهذين القطرين المتجاورين أن يستمر الخلاف بينهما، مهما كانت أهميّته. ولذلك لعبت الجهود التي بذلها كلٌّ من السر فرنسيس همفريز سفير بريطانيا في بغداد، والمستر ريجنالد هنور سفير بريطانيا في طهران، دوراً بارزاً من وراء الكواليس، فبلغت تلك الجهود مرحلتها الناجحة في ربيع سنة ١٩٣٢، ولكن بعد غُدُوٍّ ورَواح مستمرّين قام بهما ممثلو البلدين.

ومع ذلك فقد كان ينبغي البتّ في قضايا الاعتبار، والأساليب المتّبعة. مثال ذلك: من هو الذي سيكون مضيفاً في حالة تبادل زيارة رسمية؟ وهكذا، وبعد أن أطلعت إيران على أحوال العراق بثلاث سنوات، قَبِل فيصل الدعوة لزيارة رضا شاه في طهران.

تحدّث القادمون من إيران عن الاستعدادات الواسعة التي اتخذت في طهران لاستقبال ملك العراق. ذلك أن الدوائر الحكومية، والمنازل الخاصة، والحوانيت، قد صُبغت مجدداً، وتم إصلاح الطرق بإصدار مرسوم ملكي عن ذلك. كذلك تحقق بأنه قد حُظر - أثناء مدة الزيارة - استحمام الأشخاص وغسل الملابس في النهر الرئيسي الذي يمر عبر العاصمة طهران، والذي يُستعمل عادة لهذا الغرض، ولتصريف المياه القذرة أيضاً، كما فُرضت غرامة مقدارها خمسة تومانات على كلٍّ من يخرق هذه الأنظمة.

* * *

كان من بين الذين احتوتهم حاشية الملك فيصل، كلًّا من نوري باشا السعيد رئيس الوزراء، وناجي باشا السويدي وأخيه توفيق السويدي، وكان كلاهما من رؤساء الوزراء السابقين، ووزراء الخارجية السابقين. أما

الأخير، أي توفيق فإنه يشغل منصب سفير العراق في طهران، ومعهم «تقي خان نبوي» السفير الإيراني في بغداد، وتحسين قدري الذي عُيّن حديثاً مديراً للتشريفات، والسيد «باقر»[٢]. وهو الممثل الشيعي في بلاط الملك فيصل، واثنين من المرافقين بالإضافة إليّ أنا.

توقفنا في سيرنا لأول مرة عند مزرعة الملك فيصل على أميال قلائل من غربي الحدود، وهي تقع بشكل خلّاب على تل يطل على نهر «الوند» (أحد فروع نهر ديالي الذي يصب في نهر دجلة) غربي مدينة خانقين بأميال قليلة.

نهض فيصل مُبكراً صبيحة اليوم التالي. فلقد شاهدته في الساعة السابعة يتمشى في الحديقة فانضممت إليه. كان قد تناول فطوره قبل ذلك، وكانت معنوياته عالية، وقد حيّاني متباطئاً.

غادرنا خانقين بعد تناول الفطور مباشرة. وقبل أن ندخل المدينة التي تقع على نهر ديالي، توغّلنا في بساتين واسعة، أشجارها أشبه بأشجار الغابات تحيط بها خمائل خضراء غطّتها أزهار الرمان الحمراء البهيجة. ولما كانت خانقين تقع على الحدود، فقد كانت تُطبّق فيها أنظمة الكمارك وجوازات السفر. وما عدا الأعمال المعتادة التي تمارسها، كانت خانقين تؤلف محطة كبيرة للحجر الصحي، ولها وظيفتها الشاذة وهي الإشراف على نقل الجنائز من إيران إلى العراق، ذلك لأن الغالبية العظمى من الإيرانيين يتمون إلى الطائفة الشيعية، وهناك حركة نقل واسعة للزوّار عبر الحدود، إلى الأماكن المقدّسة في العراق، ويتباهى العراق بأن فيه خمس مدن مقدسة هي النجف وكربلاء والكاظمية وسامراء، والزبير.

ويختلف عدد الزوّار والجثث التي ترد من إيران سنة بعد أُخرى. فعندما تكون النقود وفيرة يرتفع العدد، ثم يقل حين تكون النقود نادرة.

---

(٢) هو: «باقر سر كشك» من سكنة الكاظمية، وقد أصبح فيما بعد مديراً للتشريفات في البلاط الملكي، ثم اختير فيما بعد عضواً في مجلس النواب. **عن الكاظمية .**

وكان موقف الحكومة الإيرانية يتغيّر هو الآخر عادة بالنسبة إلى الزوّار وإلى الجثث؛ فهي في بعض الأحيان لا تشجع هذه الزيارات، وتمنعها أحياناً أخرى. ففي سنة ١٩٢٤ لم تشجع الحكومة الإيرانية زيارة العراق، ولذلك قلّ عدد الزوّار إلى أقلّ من ثلاثة آلاف زائر. وحين رُفع الحظر في سنة ١٩٢٥ ارتفع عدد الزوّار إلى أكثر من ثمانية عشر ألف زائر.

لم نتوقف في محطة «خسروي»[٣] الصغيرة المبنية من أكواخ طينية، والتي يتم فيها التفتيش الكمركي وتدقيق جوازات السفر. وطالما شكا المسافرون من بغداد إلى إيران، من التأخير الطويل الذي كانوا يصادفونه هنا، وكان يسرّهم أن يندفعوا إلى داخل إيران، كما فعلنا نحن، بسرعة النسر.

مررنا بسرعة ببلدة «قصر شيرين» وبمحطة الحجر الصحي فيها، عندما اندفعنا إليها قادمين من خسروي. وحين اقتربنا من عاصمة الملكة شيرين، أصبحت الأرض الجرداء الحصباء المتموجة خضراء، ولو أنها كانت خالية من الأشجار. وتراءت لنا قطعان الماشية المتناثرة، وأضفت أزهار الخشخاش الحمراء، وأزهار الخردل البرّي لوناً بهيجاً على المشهد المترامي أمامنا.

يا للمسكينة الملكة شيرين! ربما أصبحت الأحوال جد متباينة خلال السبعة عشر قرناً الماضية. غير أنني لم أجد على الإطلاق شيئاً جذاباً حين مررنا عبر مملكتها. ذلك أن أنقاض القلعة ما تزال ظاهرة، ولكن على الرغم من سكانها الذين يعدّون ثمانية آلاف نسمة، فإن المدينة ذاتها كانت تبدو مقفرة.

كانت «قصر شيرين» تبدو تعسة. وقد توثّق هذا الانطباع دون شك

---

(٣) تقع «خسروي» عند الحدود مباشرة، ويجري فيها تفتيش الجوازات والأمتعة. أما التفتيش بالنسبة إلى القادمين إلى العراق فإنه يجري في ناحية «المنذرية» التي تقع داخل الحدود العراقية.

بـالسُّحب والضباب، وبنـواحٍ حزين ينبعث من بعيـد؛ من مزمـار زامر كردي. . . ولم أرَ داخل المدينة سوى شجرة واحدة هي عبارة عن شجيرة ضعيفة مستدقة. وعلى امتداد أميال عديدة فيما وراء ذلك، لم يقع بصري إلّا على بقعة خشب متنام محصورة وسط لجة صغيرة في قرية بدائية على ضفاف جدول يتدفق ماؤه من جبل متهدم.

كنت أعرف بالطبع مدى اهتمام الملك فيصل الواسع بالآثـار في العراق. لكن لم تكن لديّ أية فكرة عن معرفته العميقة بالآثار الإيرانية. وإنني متأكد إذ أقول، بأننا قد دُهشنا كلّنا فيما بعد، حين وقف أمام بعض التلال الخربة ونحن في طريقنا إلى «همدان»، وارتجل حديثاً بارعاً باللغة الفارسيّة عن الأسرة الساسانية، وكيفية ظهورها وسقوطها. فلم يكن هنالك على وجه التأكيد عصرٌ أكثر فتنة، وأعظم مجداً، في تاريخ فـارس من القرون الأربعة (٢٢٦ ـ ٦٣٦م) التي أعقبت الأمبـراطوريـة الفرتيـة. وقد أخذت الأسرة أسمها من «ساسان» وهو جَد مؤسّسها «أردشير».

كان فيصل يتحدث بإعجاب عن فتوحات وإنجازات كل من أردشير الأول، وأردشير الثاني، وشابور الأول، وكسرى الأول، وكسرى الثاني، وقد أشار في حديثه بإيجاز إلى مائة سنة من الصراع المتواصل مع «روما»، كما تحدّث بلباقة كمتحدر من ذريّة الرسول محمـد صلى الله عليه وسلم، وعن الفتوحات الإسلامية التي أعقبت وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد فعل هذا بعد أن أعاد إلى أذهاننا بأن مدينة «طيسفون» كانت لعدة قرون خلال حكم الأسرتين الفرتية والساسانية، عاصمة فارسية، وأن على الضفة المقابلة لها على نهر دجلة، قامت مدينة أكثر قِدَماً؛ هي مـدينة «سلوقية»، وكانت هي المدينة الرئيسية في قسم من أمبراطورية الإسكندر الكبير التي شملت الولايات الآسيوية، وكان هذا القسم من حصة «سلوقس» الملقّب بـ«نيقاتور»، الذي ربما كان من أشهر قادة الإسكندر الذي توفي في بابل سنة ٣٢٣ ق. م.

وقد استمرت السلالة السلوقية تحكم زهاء مائتين وخمسين سنة، ولم

تلبث ـ بنتيجة الثورات والانقسامات ـ أن تحـوّلَ ما بقي منهـا إلى ولاية رومانية.

ولقد استولى أردشير المنتصر على قصر طيسفون وأطلق على نفسه لقب: «ملك ملوك الإيرانيين». أما خلفه فقد اختار له لقباً أفضل هو: «ملك ملوك الإيرانيين وغير الإيرانيين»، وبهذه الطريقة جدّد ادعاءه بالسيطرة على العالم.

لقد أشرتُ إلى هذه التسميات لأن اللقب الرسمي لحاكم إيران بقي على حاله وهو: «صاحب الجلالة الأمبراطورية شاهنشاه» أي ملك الملوك!

* * *

كـان الـطريق إلى «همـدان» والـذي تمّ تعبيـده على يـد الحملة الاستطلاعية البريطانية أثناء الحرب العالمية الأولى، قد أُجريت عليه بعض التصليحات الجيدة، ولذلك تقدّمنا فيه مسرعين بمنتهى الراحة. وكـانت المرتفعات المكلّلة بالثلوج تبدو على يسارنا، في حين قام على يميننا وادٍ مخضوضر. وإذ بدأ المطر يتساقط مدراراً، توقفنا عند قرية كبيرة تُدعى «بستون»[٤] لكي نشاهد ثلاث منحوتات قديمة صخرية مهدّمة، إحـداها أخمينية تحمل رسم «دارا الأول» (٥٢١ ـ ٤٨٥ ق. م.). أما الأخريـان فإنهما من العصر الأثيني، بعد قرنين أو ثلاثة من ذلك العهد.

في هذه القرية التي تقع بشكل جذّاب في أرض مشجرة، يمر جدول ماء سريع الجريان على مقربة منها. كانت إحدى قوافل السيارات المحمّلة قد أوقفها رجال الشرطة هناك إلى أن يمرّ الموكب الملكي. وكان ذات التحوّط من تأخير مرور الموكب ظاهراً في كل قرية تقع على طريقنا.

---

(٤) بستون: ـ وتعني بالفارسية «بلا عمد». واجهة صخرية نحتت عليها صورة «دارا الأول» وهو يستعرض الأسرى من الحكام الذين ثاروا عليه، وعلى هذه النحوت كتابات باللغات البابلية والفهلوية القديمة. وعن طريق المقارنة بين هذه الكتابات استطاع الدبلوماسي والأثاري الإنكليزي «رولنصون» أن يتوفق إلى حل الرموز أو الحروف المسمارية وقد سبق لنا أن ترجمنا هذا البحث ونشرناه في مجلتي «المعرفة» و «بغداد» ١٩٦٣ ـ ١٩٦٤.

وكانت نتيجة ذلك أنه لم تُشاهد أية واسطة للنقل في الطريق طوال ذلك اليوم، سوى سياراتنا.

كان الكثير مما يُطلق عليه اسم «قرية» ليس سوى أكواخ لا يوجد غير دليل ضعيف على دوامها. ولكن قد يشاهد داخل الممرات المسوّرة في أكبر واحدة من هذه القرى ضريح جميل حسن البناء، تتوجّه قبّة مهندمة من الفسيفساء والقاشي، وفي داخل ذلك الضريح قبر يبلغ عمره زهاء قرن يضم رفات شخصية إسلامية.

وفي الأيام التي كانت فيها أعمال اللصوصية منتشرة، كانت مثل هذه القرية آنذاك في حاجة إلى معبد يستطيع الناس أن يعتصموا فيه عندما يقترب السلاّبون، وقد صمموا العزم على مزاولة أعمال السلب والقتل. لقد كان الكثير من الناس يُقتلون. وكان يبدو بأن الأمل الوحيد للنجاة هو في امتلاك باحة كبيرة تكفي لإقامة معبد فيها يضم جميع السكان، وأن يكون الشخص الذي يشغل ذلك المعبد ذا شهرة كافية لكي تستحق احترام المغيرين.

وطبقاً للرواية العربية؛ فقد حُلّت هذه المشكلة على يد إمام متجول قد لجأ إلى تلك القرية حين ساءت الأحوال الجوية فيها، وعندما أوشك الإمام أن يغادر القرية راح رئيسها يتضرّع إليه بأن يطيل مكوثه بينهم. وحين سأل الإمام: «وإلى متى»؟ ردّ عليه الرئيس: «إلى الأبد» ثم عاجله بطعنة أردته قتيلاً.

* * *

وصلنا إلى مدينة همدان عبر طريق مشجر طويل تحفُّ به أشجار الجوز والصفصاف، ومن خلفها أسوار طينية عالية. وعلى أحد الجوانب التي تجاور الطريق، كان يتدفق جدول ماء عميق الغور يتحدّر من الجبال، وينساب في وسط المدينة، وهو يوفّر باستمرار قناة للتزوّد منها بالماء، ولتصريف الأوساخ، وربما كان هذا هو العامل الأساس في انتشار حُمّى التيفوئيد بين سكان المدينة.

كانت همدان تقوم في موقع مدينة «اكبتانا» عاصمة الماديين، والتي يعود تاريخها إلى سبعمائة سنة قبل الميلاد، وقد استولى عليها كورش الكبير سنة (٥٥٠ ق. م) لكي تصبح المدينة التي تحتفظ بكنوز الأسرة الأخمينية التي أنشأها، ولقد استولى الإسكندر الكبير على هذه المدينة فيما بعد، وأصبحت مسرحاً لمذابحه الوحشية.

تقع المدينة على المنحدرات الشمالية لسلسلة جبال «الوند». ولقد وجدتها متاهة، ذات شوارع ضيّقة، ومكاناً عديم الأهمية، مجرّداً تماماً من كل أثر من آثار مجدها في الأيام الخوالي.

لقد شاهدت كتابة على الصخر تتحدث عن الأُسرة الأخمينية، وبعض القباب القديمة، وبقايا من القاشي الملّون الذي يضفي لوناً ضئيلاً على تلك البيئة القذرة. وهناك ضريحان سطحاهما أشبه بالقباب، يزعم القوم أنهما قبرا «إستير» و«مُردخاي»[٥]. ومن بين الآثار القديمة تمثال أسد من الحجر، وقطعة تمثال نحتت من دون هندمة في ضواحي المدينة، قيل عنها بأنها كانت تنتصب عند مدخل المدينة القديمة. ويزعم القوم بأن ذلك الأسد كان يحتفظ بصفات من السحر، وكانت النساء اللواتي لا تنجبن الذكور من الأطفال، يلجأن إليه، كما أنه كان يُعتبر حرزاً من المرض، ومن الأذى من أي نوع كان.

وما تزال توجد في المدينة آثار الأبواب الكبيرة التي كانت تُعرف باسم «كوشان بندي» طبقاً للنظام القديم، والتي تساعد على إغلاق الشوارع أثناء الليل، أو عندما يحدث اضطراب في حبل الأمن، وفي أوقات الطوارىء الأخرى التي تتطلب السيطرة على الحشود المتجمهرة.

---

(٥) إستير: معناه «النجم» وهو الاسم الفارسي للعذراء اليهودية التي تقوم بالدور الاساسي في «سفر إستير» من العهد القديم، رباها موردخاي، وتزوجها ملك الفرس أحشويرش (أروشير) (Xerxes)، وقد كانت السبب في منع الوزير الإيراني «هامان» من قتل اليهود، وفي عزله عن الوزارة، ثم في استيزار موردخاي مكانه.

ومن بين القبور الحديثة هناك، يوجد قبر الفيلسوف والطبيب العربي الشهير «ابن سينا» (٩٨٠ ـ ١٠٣٧م).

* * *

كانت تتقدّم ركْبنا إلى طهران كوكبة من الدراجات العسكرية التي كانت مهمتها الرئيسة هي تنظيم سرعة السير، بحيث يكون وصولنا في الموعد الذي حُدّد له، وهو الساعة التاسعة صباحاً على وجه التأكيد، وقد نجحوا في ذلك بمنتهى الدقة.

وما أن عبرنا الجسر القائم على نهر «كرج» حتى بدت أمامنا أرض خضراء، ومن ثم دخلنا مباشرة في وادٍ مخضوضر، وقد أعاقت الجداول الكثيرة التي كانت تنساب مياهها هنا تقدّمنا، والتي أضافت مشكلة جديدة زادت في صعوبة وصولنا في الوقت المحدد.

كان الطريق ذاته مترباً على الرغم من آثار المياه التي سُلّطت عليه أثناء النهار. ما زلت احتفظ بالذكريات الحيّة التي تثيرها رؤية جبل «دماوند» المخروطي الشكل، والمكلّل بالثلوج، والذي يبلغ ارتفاعه زهاء ألفي قدم. وكذلك القمة الشامخة لجبال «ألبرُز» الصخرية، وسلسلة الجبال التي كانت تمتد إلى مدى يزيد عن خمسمائة ميل من أذربيجان إلى خُراسان في الناحية الشرقية.

التقى العاهلان فيصل ورضا عند مدخل الميتم البلدي، وهو مكان واسع في بقعة أشبه بالمنتزه. لم يجرِ إطلاق المدافع، غير أن الجوق الموسيقي العسكري كان يعزف النشيد الوطني العراقي بفرح عظيم، حين كانت سيارة الزائر الملكي تقترب من الجهة التي تقصدها. وبعد المصافحة المعتادة، وتبادل التحيات الاعتيادية التي جرت باللغة التركية، قام الملك فيصل بتفتيش حرس الشرف، في حين قدّم إليه الشاه عدداً من علية القوم. أما بقية الجماعة الذين دخلوا فيما بعد، وأفراد حاشية فيصل، فقد تم تقديمهم إلى الشاه، وعندئذ انسحب العاهلان إلى سرادق كبير أحمر اللون للاستراحة فيه.

كان الشاه هو الآخر في بزّة عسكرية أيضاً، ويرتدي ـ مثل فيصل ـ بذلة خيّال، لكنه كان ـ بخلاف ضيفه ـ أنيقاً بمهمازه وحذائه. وكانت بذلته التي يعوزها الهندام، من نسيج الخاكي المصنوع محليّاً، وتلك إيماءة لها أهميتها السياسية دون شك. وفوق ذلك كان الشاه يرتدي جلباباً لونه ذو زرقة خفيفة ومن دون أردان.

كـان الشاه أطـول وأضخم في بنيته، وأحسن منـظراً، من الملك فيصل. وكانت شفته العليا محلاة بشاربين شديدي السواد، لا ريب أنهما كانا مصبوغين. وكان عابس الوجه مخيفاً، يحتفظ بشخصية ترتبط بالجرأة وبالإرادة الحديدية، تلك الشخصية التي انتشلته من وضعه الحقير كجندي في جيش الشاهنشاه.

* * *

كانت وجهتنا في العاصمة طهران، نحو المقر الرسمي للشاه، وهو «قصر غُلستان». وقد تحرّك العاهلان إلى هناك في سيارة فخمة مكشوفة، ومن النوع الذي يمكن طي غلافها.

وعلى أساس تقرير من يكون هو الأول في دخول السيارة، احتل فيصل مقعده على الجهة اليسرى، وأعقبه الشاه مسرعاً، وأصرّ عليه يجامله بأن يغيّر مقعده معه. كان أمام السيارة رتل من الدراجات البخارية، وفي أعقابه حاشية واسعة من الحرس الوطني الخاص بالشاه. أما ركب السيارات الممتدّ بعيداً، فقد بدا وكأن لا نهاية له، غير أن نظام التشريفات كانت تجري مراقبته بشدة

كان تحسين قدري، وهو المسؤول عن الأمور الدبلوماسية في بلاده، يراقب بيقظة أوامر الأسبقية في ذلك اليوم، وهي مهمة ظل يطبّقها بدقة متناهية طوال مكوثنا في إيران. كان كل فرد من أفراد حاشية فيصل يرافقه أحد الوزراء وموظف كبير في البلاط، وكان رفيقي في ذلك هو طبيب البلاط، وقد برهن على إلمامه التام والمهم جداً بأمور السياحة في بلده. فقد كان يصف لي كل ما له أهمية أثناء الطريق بلغة فرنسية معبّرة وطليقة.

كان ذات الفتور وعدم المبالاة واضحاً بين الحشود التي اصطفّت عند شوارع العاصمة الإيرانية، مثلما كان ملموساً في كل مدينة أو قرية مررنا بها أثناء الطريق. . . فلم يُسمع سوى صوت خافت من التصفيق بصفة عرضية. وكان مصدر ذلك التصفيق، دون ريب، هو أكفّ الأطفال الصغار.

ولقد تردّدت في أن أسأل بصفة مباشرة، زميلي في الحرفة، عما إذا كانت عادة استعمال الأفيون تُعَدُّ عاملاً محتملاً في عدم المبالاة الواضحة الموجودة لدى سكان إيران، لكنني استطعت ـ أثناء الحديث عن المشاكل الصحية القائمة في القطرين، العراق وإيران، أن أسأل عن مدى الإدمان على المخدّرات في إيران. وكموظف مخلص قدّم زميلي لجوابه عن سؤالي ذاك، إشارة إلى القوانين الجديدة التي شُرعت لمكافحة استعمال المخدّرات. وإذ كان يتحدث بالفرنسية، كما هو شأنه، فقد اعترف بأن استعمال هذه المخدّرات هائل جداً.

واستمرّ في حديثه ليكشف لي عن منهاج طبي كامل يفكّر مجلس الوزراء الإيراني في تحقيقه. ولكن ظهر لي أن مثل هذا المنهاج يُعتبر بالنسبة إلى المدنيين أمراً ثانوياً في الأهمية، بالمقارنة إلى ما هو موجود في الجيش، ولم أكن قد لمّحت بأي شيء إلى هذا الأمر، ولم يكن حتى صاحبي يرغب في الاعتراف به. وكلّما سألته عن أمر يخصّ التسهيلات الطبية العسكرية، كان جوابه: إما أنها موجودة فعلاً، أو أنها على وشك أن يتم تجهيزها!

أما بالنسبة إلى ذات التسهيلات للمدنيين، فقد كان جوابه المعتاد: أنها إما قد أُخذت بعين الاعتبار، أو أنها سوف تأتي فيما بعد.

ولقد تأكد لديّ أن المتطلبات الصحية المدنية كانت على نطاق واسع في يد جمعية الأسد الحمراء (الأسد والشمس) وهي تقابل جمعية الصليب الأحمر عندنا، وجمعية الهلال الأحمر في العراق.

كذلك علمت بأن المدير العام للخدمات الصحية المدنية كان من الفرنسيين. وقد اكتشفت في سؤال آخر بأن هذا المدير ضابط عسكري

وبرتبة عقيد. وفوق كل شيء فقد ذكّرتُ نفسي بأن الشاه ما يزال ـ في قلبه ـ من رجال الجيش.

ولقد أخبرت صاحبي كيف كان من العسير إقناع مجلس الوزراء العراقي بأن الصحة ليست أمراً ترفيهياً! وإنما هي أمر ضروري لرخاء البلاد وسعادتها. وقد اعترف هو أيضاً بوجود ذات المشكلة في بلده، وكانت تلك هي بداية الحديث عن الإصابات النسبية للأمراض الوافدة في كلا القطرين، وهو الأمر الذي أثاره عندما استُدعي إلى قصر «غُلستان» في صباح اليوم التالي.

لقد أمضينا زهاء ساعتين ونحن نخوض في ميدان واسع لم يشمل الأمراض المتوطنة فحسب، بل وتشخيص الأمراض الأخرى ذات الأهمية الكبرى، وكيفية مكافحتها.

* * *

كان وصولنا إلى قصر «غُلستان» يجري على مهل. ولقد دخلنا المدينة عبر واحدٍ من أبوابها الاثني عشر، المزيّنة حديثاً، وعلى امتداد طُرقات عريضة مستقيمة، بُنيَ البعض منها مؤخراً بشكل واضح

كانت الأبنية التي تقع في الضاحية لا تختلف إلاّ قليلاً عن تلك التي تقوم في ضواحي «همدان» و«كرمنشاه»، غير أننا ما أن اقتربنا من البوابة حتى كان كل ذلك المنظر قد نُقل بما يشبه السحر. فلقد شاهدنا صورة رُسمت حديثاً، وإزاء هذه الخلفية ظهرت بنايات عصرية ذات تصاميم غربية، كان عدد منها مؤلفاً من عمارات عالية مثيرة.

ليس هناك أدنى شك في أن الطريق الذي تم اختياره كان عملاً دقيقاً من أعمال المباهاة، وكان بحد ذاته مثيراً جداً كتظاهرة لنهضة إيران القومية تحت الحكم الحيوي الذي يمارسه الشاه.

لقد سبق لوزير الخارجية أن أفضى إلينا بذكر بعض المنجزات التي حققها رضا شاه منذ وصوله إلى العرش. ولقد كانت هذه المنجزات تتضمن

إلغاء الامتيازات التي كانت في ظلّها معظم الدول الأجنبية تمارس السيطرة والسيادة على رعاياها في إيران، وتحتفظ بتشريعات تتعدّى حدود أقاليمها. وكانت هذه الشروط مقبولة لدى بلد ليس له من يدافع عنه بصفة واقعية أثناء حُكم السلالة القاجارية، ذلك العهد السيّء الذي انتهى باغتيال «ناصر الدين شاه» سنة ١٨٩٦[٦]. فلقد بقيت تلك الامتيازات حوالي أربعين سنة وهي تمثّل وصمة عار للوطنيين الإيرانيين، ولذلك ظفر رضا شاه بشهرة واسعة جداً حين أقدم على إلغائها.

غير أنني عدت إلى العراق وأنا أحمل إحساساً بأن خُطى التمدّن في إيران كانت إجراءً طفيفاً وسريعاً، وأن هناك نقصاً في الطرق المعبّدة، وفي الضباط والرجال الحاذقين لإقامة الصرح الذي تحاول باخرة الدولة الإيرانية أن تحمله بشجاعة.

كانت القصص التي وصلت إلى بغداد عن الاستعدادات الواسعة التي أعدّتها «طهران» لاستقبال الملك فيصل، قد برهنت على صدقها. فلقد أصدرت السلطات الإيرانية المختصة أوامر تقضي بأن تُصبغ جميع واجهات المنازل والحوانيت التي تقع على الشارع الذي سوف يمرّ الموكب الملكي فيه، باللون الأخضر الحشيشي، وذلك قبل وصول الملك فيصل، وطبقاً للتقاليد السائدة في بلدان الشرق الأوسط، وأن لا يُترك مثل هذا الأمر حتى في آخر لحظة ممكنة. والواقع أن دهان كثير من واجهات الحوانيت لما يزل بعد طرياً حين مرّ الموكب من أمامها.

وإذ مررنا عبر ساحة طهران الواسعة «ميدان سباه» ووصلنا إلى القلعة، وهي قلب المدينة التي تتجمع فيها قصورها الملكية، وبيوتها الجميلة المبنيّة على الطراز الغربي، وتقوم فيها دور الوزارات أيضاً، فإننا لم نتوقف أثناء ذلك إلاّ عند وصولنا إلى قصر غُلستان.

---

(٦) ناصر الدين شاه: ولد سنة ١٨٣١، شاه فارس (١٨٤٨ - ١٨٩٦). قام برحلات عدة إلى أوروبا. حاول انتزاع «هراة» من أفغانستان، ولكن بريطانيا وقفت في وجهه. منح البريطانيين امتيازات كثيرة، وقد شهد حكمه انتشار «البهائية».

والذي أعرفه أن هذا القصر كان مخصصاً لعرش «طاووس» الشهير، ولذلك كنت قد أُنبئت مُسبقاً بعظمة هذا القصر، لكن فخامته الحقيقية كانت تتجاوز أي شيء آخر كنت أتصوره.

والواقع أن المقر الرسمي للشاه يتألف من ثلاثة قصور. فالقصر الأصلي الذي يقع ضمن حوش قائم الزوايا، قد تم بناؤه على يد «محمد شاه» قبل حوالي مائة سنة، وهو الآن يؤلف الإطار الخارجي للبناء الرئيسي.

وعن طريق هذا القصر يدخل المرء إلى مداخل قصر أكثر فخامة، هو «قصر الماس» الذي شيّده ناصر الدين شاه بن محمد شاه الذي خلف أباه في الحكم. وقد أُطلق اسم «الماس» على هذا القصر بسبب الزينة الظاهرة في داخله، والتي تتألف في الغالب من فسيفساء مصنوعة من زجاج المرايا المثبتة سوية في شكل واجهات متعددة تتلألأ سطوحها المنعكسة بما يشبه تموّجات حجر الماس الطبيعي الغالي الثمن.

يحتل الشاه أحد الجانبين الصغيرين من الحوش ذي الشكل المستطيل والزوايا القائمة. وهذا القسم لا يتصل بالقصر الثالث، لكن يرتبط به عبر جدار جميل مزيّن بالقاشي، وهو جدار محايد تقوم في وسطه البوّابة الرئيسة للقصور الثلاثة.

ولقد طرأت على القصر الثالث توسيعات حديثة، ولذلك سُمي بالقصر الأبيض لأن واجهته مشيّدة من الحجر الأبيض، وقد أضاف مظفّر الدين شاه الذي خلف ناصر الدين شاه هذا القصر إلى القصرين الآخرين في السنوات الأولى من القرن الحالي.

كان ناصر الدين شاه قد قُتل على يد شاب نقابي ثوري من مدينة «كرمان» عندما كان يؤدي الصلاة في مسجد شاه عبد العظيم. وكانت إيران آنذاك تعيش في دوامة صعوبات مالية خطيرة، وفي تذمّر متزايد شمل كل أنحاء البلاد، في الوقت الذي قرر فيه الشاه إضافة هذا القصر إلى سكنه.

لقد تجاهل مظفّر الدين التحذير بأن اغتيال والده من شأنه أن يوجّه إلى كل رجل عاقل. ومهما يكن الأمر فقد كمل بناء القصر الجديد قبل وفاة مظفّر الدين في سنة ١٩٠٧ وفاة طبيعيّة وليس نتيجة الاغتيال، ومن المحتمل أنه تفادى هذا المصير بنتيجة الموافقة ـ بعد ضغط متعاظم ـ على إيجاد شكل دستوري للحكومة، وتأليف مجلس وطني.

وفي ساحة الأساطين المغطّاة بستائر مخططة باللونين الأحمر والأبيض في القصر الرئيس، ينتصب «عرش المرمر» التاريخي الشهير. ففي يوم مُعيّن من السنة، هو يوم مولد الشاه، وطبقاً لعادة وقوف طويل، يتم رفع الستائر، ويجلس الشاه على العرش لاستقبال الضيوف المتجمعين أمامه. وعلى عرش المرمر هذا، وفي اليوم الحادي والثلاثين من شهر تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٢٥، رفع رضا شاه بهلوي بيده، التاج الملكي لإيران، ووضعه على رأسه، وبذلك حقق مطمحه الشهير الذي كان يتطلّع إليه منذ أمد طويل. لقد ارتقى رضا من جندي إلى شاه. وذلك في الواقع إنجاز أكثر شهرة من إنجاز إبراهام لنكولن عندما انتقل من غرفة خشبية كان يعيش فيها إلى البيت الأبيض.

وُضع قصر الماس، وهو المقرّ الخاص للشاه في طهران، تحت تصرّف الملك فيصل. أما بقية أفراد حاشيته فقد أُسكنوا في القصر الأبيض. ولقد عانى فيصل ـ قبل مغادرتنا بغداد إلى إيران ببضعة أسابيع ـ كثيراً مما يتعلّق بقضية قبول الشاه بوسام الرافدين. فقد كان هذا الوسام هو الوسام العراقي الوحيد الموجود قبل ذلك بوقت قصير. غير أن نوري السعيد كان قد رفع مرتبة هذا الوسام إلى درجة أعلى مما كان عليه، وذلك كيما يتم منحه إلى الشخص الأول في السلطة. ولكن هل يعتبر الشاه ذات التمييز كافياً؟ كانت تلك هي المسألة التي أقضّت مضاجع الملك فيصل. ولقد سألني جلالته ذات يوم قائلاً: «ما الذي ينبغي عليّ أنْ أفعله؟ إنني لا أستطيع أن أطلب إلى نوري بأن يحمل أوسمته أثناء وجوده في إيران، ولكن ما هو البديل عن ذلك؟»

ولقد أكدت له بأن المشكلة يمكن أن تُحلّ عن طريق إيجاد صنفين من الوسام: أحدهما عسكري والآخر مدني، وأن نوري مهما يكن سوف يُعتبر من الصنف المدني، في حين سيكون الشاه أول من يتلقى أعلى درجة من الوسام العسكري. وهكذا تم تنظيم الأمر، وأُعلن عن إصدار وسام هاشمي جديد لتكريم رؤساء الدولة.

* * *

ليس هناك أدنى شك في أن رضا شاه كان سيردّ الزيارة للملك فيصل، ولسوف يمنح له الوسام الهاشمي الجديد، لو لم تحدث وفاة فيصل المفاجئة. ولعل من الأحداث السعيدة أن يكون الملك جورج الخامس أول من يتلقى الوسام الهاشمي، وذلك أثناء الزيارة التي قام بها الملك فيصل للمملكة المتحدة سنة ١٩٣٣، قبل وفاته بوقت قصير.

وكان نوري السعيد، قبل وفاة فيصل بثلاثة أشهر، قد مُنح هذا الوسام في أعقاب جولة سياسية ناجحة قام بها إلى كل من لندن، وأنقرة، وروما، وجنيف. وكان أثناء وجوده في لندن قد حاول إقناع شركة النفط العراقية بأن تدفع عوائد النفط إلى العراق على أساس قاعدة الذهب. أما في أنقرة فقد عقد نوري السعيد معاهدة ذات نطاق واسع. وفي جنيف، وبصحبة السر فرنسيس همفريز، حضر جلسة قبول العراق عضواً في عُصبة الأمم. ولقد أعانته زيارته إلى إيطاليا في الالتقاء بعدد من الإيطاليين الذين كانوا يعارضون توثيق العلاقات الاقتصادية بين العراق وإيطاليا. وكان فيصل مبتهجاً، بصفة خاصة، بالنجاح الذي حققه نوري السعيد في لندن. ذلك لأن شركة النفط العراقية قد وافقت على أن تدفع عوائد النفط إلى العراق بالباون الاسترليني، وكان هذا الإجراء سبباً في قيام دعاية واسعة مناهضة لبريطانيا، وفي إثارة مشاعر العداء ضد الإنكليز في العراق.

* * *

يضم القصر الأبيض من الأثاث ما يضمّه قصر الماس. ومع ذلك فإن مداخله الطويلة المبلّطة بالقاشي قد غُطّيَتْ بالسجاد وبالطنافس الثمينة،

وزُيِّنت على أبعاد منتظمة بمزهريات كبيرة من الفخار، وعُلِّقت على الجدران صُور مناظر جميلة مؤطَّرة بأُطر ذهبية. وكان الأثاث في غرفة الاستقبال جميلاً جداً، وهو هدية من السلطان التركي عبد الحميد إلى الشاه مظفّر الدين، تذكاراً للزيارة التي قام بها مظفّر الدين إلى اسطنبول في بداية هذا القرن.

يبلغ طول غرفة الاستقبال حوالي خمسة وأربعين قدماً، ويزيد عرضها عن خمسة وثلاثين قدماً قليلاً. ويطل أحد جوانب الغرفة على حدائق القصر التي تبدو ظاهرة من النوافذ الفرنسية الطويلة، ومن الشرفة. أما الجوانب الثلاثة الأخرى للغرفة فقد غُطِّيَتْ بُصوَر زيتية لأفراد العائلة المالكة في عصر أسبق.

وكانت صوَر الشاهات السابقين، ومنها عدد بطول كامل وحجم طبيعي، قد أُطرّت بأُطر مُثقلة بالحلّي، ولها أهميتها التاريخية، ذلك لأنها تعود في تاريخها إلى «آغا محمد خان» (١٧٨٧ ـ ١٧٩٧م) مؤسس الأسرة القاجارية. كذلك عُلّقت صُوَر الشاهات القاجاريين الثلاثة الآخرين، وهم: «فتح علي» و «محمد خان»، و «ناصر الدين».

كنت أتفرّس في صورة ناصر الدين، عندما دخل توفيق السويدي إلى الغرفة، وذكرّني بقصة اغتيال ناصر الدين، وكيف عُرضت جثته في مركبة ملكية، ركب إلى جانبها رئيس الوزراء، حيث راحت المركبة تطوف شوارع المدينة بقصدمقاومة الإشاعات التي انتشرت عن وفاته قبل اتخاذ إجراءات الأمن اللازمة.

هناك صورة جميلة للشاه مظفّر الدين، لكنني لم أعثر على صوَر خلفَيه، محمد علي، وأحمد ميرزا. كما أنه لم تُعلّق حتى الآن أية صورة من صوَر رضا شاه في تلك الغرفة. كذلك عُلّقت في الغرفة ذاتها صوَر كل الملوك الأوروبيين، ومن بينهم: الملكة فكتوريا، والقيصر نيقولا الثاني، والقيصرة، والسلطان عبد الحميد، والملك عمانوئيل، والملك همبرت، والقيصر ولهلم الثاني، والارشيدوق فرنسيس جوزيف، وليوبولد الثاني،

وملوك ايطاليا، وامبراطور النمسا، وكانت كلها بالحجم الطبيعي.

كانت صورة امبراطور المانيا تقارب في العظمة نصف ما تتمتع به هذه الصور، وما تزال صورة ملك بلجيكا أصغر، في حين كانت صورة الملكة فكتوريا مصغرة نسبياً. وكانت أحجام الصور تتناسب مع مدى تقارب البلدان الممثلة مع إيران.

وقد يكون مثل هذا الأمر عرضياً بصفة خالصة. غير أن للتقارب وللأهمية السياسية علاقة وثيقة بذلك. ولهذا لم أدهش حين رأيتها تمثل أبعاد صور الرؤوس المتوجة التي كانت تعم تلك القاعة. أي تاريخ عجيب مفعم بالأحداث كان يجسده ذلك التصوير! لم يكن لدى فيصل أو أي عضو آخر من أفراد حاشيته أدنى تصور بأن ما حدث لقيصر روسيا وقيصرتها وبقية أفراد العائلة والحاشية الذين قتلوا رميا بالرصاص في منطقة «اكتنبرغ» في شهر تموز (يوليو) سنة ١٩١٩، سوف يحدث للبيت المالك في العراق في صبيحة الرابع عشر من تموز ١٩٥٨.

* * *

كان فيصل يغتنم كل فرصة للتمشي في أرجاء القصر. وكان يتوقف في تمشيه لينصت باهتمام إلى خرير المياه المتدفقة من نافورات تصب في بحيرة اصطناعية صغيرة.

ولقد استطعت خلال إقامتنا أن أزور كل أبواب مدينة طهران، وأن أغتنم الفرصة للتجوّل في المدينة مشياً على الأقدام.

تفخر طهران بأبوابها الاثني عشر غير أن هذه الأبواب لم تكن ناصعة البياض شفافة، وليس في الأبواب اثنا عشر ملاكا، مثلما هو موجود في مدينة القدس.

ولكن أبواب طهران لا تعوزها الأهمية نظرا لتاريخها الطويل الذي يمتد إلى عصر يسبق عصر الحواريين.

ولقد استطعت عن طريق هذا التمشي أن أشاهد المظاهر المعمارية لميدان

«سباه» حسب بل وان ألقي نظرة على الجهة المقابلة من المدينة ايضاً، بما في ذلك التلصص الى داخل احد المخادع المعدة لتناول الافيون، والذي كان يقع في زاوية من احدى الباحات الواسعة خلف احد المقاهي التي يزود رواده بهذه المادة.

ويبدو أن المعتادين على الافيون كانوا يمضون أكثر حياتهم هناك. ولقد ذكر لي توفيق السويدي فيما بعد، انه حتى الحمام الذي يعيش بكثرة في ذلك المكان، ويلتقط فتات الطعام الذي يطرح هناك، قد غدا متعودا على تناول الافيون أيضاً.

كان توفيق السويدي من المحدّثين اللبقين، وهو يحتفظ بمخزون واسع من الحكايات. ولقد نسيت معظم حكاياته، لكنني ما زلت أذكر واحدة منها تخص فيلسوفاً فارسياً كان قد نام بعد الظهر وبيده كتاب منشور عند جذع شجرة، فأيقظته جوزة سقطت من تلك الشجرة؛ فأصابت جبهته بشدة، ولقد أمعن ذلك الحكيم فكره ملياً؛ ثم ما لبث أن راح يحدّث نفسه قائلاً: «الآن عرفتُ لماذا قدّر الله أن ينمو الجوز على الشجر، وينمو الرّقي على الأرض؟».

تـوج الشاه رضا كرمه السخي بإقامة حفلة رسمية ضمّت أكثر من خمسين من الضيوف. ومن قاعة الولائم سار المدعوون متمهلين إلى المتحف، مروراً بقاعة الاجتماعات التي كانت تضم خمسمائة شخص من الضيوف الذين كانوا ينتظرون وصول الملك فيصل ورضا شاه.

ولقد كان المتحف في الواقع مطابقاً لاسمه، فهو يذكّرنا تماماً بقصص ألف ليلة وليلة وقصة علاء الدين . فقد كان فريدا في كنوزه وفي المجوهرات التي كان يضمها.

كان الشيء الذي اجتذب الضيوف دون شك، هو «عرش طاووس» الذي حمله «نادر شاه» من «دلهي» سنة ١٧٣٩. أما عظمة العرش الأصلي فلا يمكن تقديرها إلا تخميناً. وحين زار «اللورد كرزن» طهران قبل سبعين سنة مضت، توفرت لديه فرصة فحص العرش عن كثب، وقد تأكد لديه أن

ما بقي منه هو جزء من الهيكل الأصلي باستثناء أجزاء استخدمت في صنع عرش جديد.

وما عدا عرش طاووس، كان من بين المعروضات التي أثارت اهتمام فيصل لوح سن الفضة يزيد عمره عن ألف سنة، وكان في وقت من الأوقات ملكاً للخليفة العباسي «هارون الرشيد». ولقد كنت أظن بأن الشاه قد يشعر بضرورة إعادة هذا اللوح إلى بغداد، لكنه كان يقاوم أية مبادرة من هذا القبيل.

ظلّت طبائع العاهلَين المتناقضة واضحة طالما امتدت الزيارة. فبينما بقي رضا شاه عبوساً متجهم الوجه، كان فيصل طلق المحيّا، وهو يحيّي كل فرد. لقد كانت الرحمة التي يتمي بها فيصل أعلى من تأثيره. لكن هذه الرحمة كانت في نظر رضا شاه دليلاً على الضعف.

في الوقت الذي أمضى فيه فيصل آخر فترة بعد الظهر من مكوثنا في طهران، في المدرسة العسكرية، كنت أنا ضيفاً على مدير الخدمات الطبيّة، وطبيب البلاط. وقد أبديتُ لهما رغبتي في زيارة المعاهد الطبيّة، وعلى الأخص مدرسة الطبّ، ولقد أعربا عن سرورهما العميق بذلك، وأكدا لي بأنهما يتمنيان كثيراً قيامي بجولة بعد الظهر، فشكرتهما على ذلك بحرارة.

كانت الأيام تمضي الواحد بعد الآخر دون أن يحصل من ذلك شيء سوى أعذار متلاحقة. وقد تأكد لديّ بأن الشخصين كانا مترددين في تحقيق طلبي، ولذلك ثرتُ ورحتُ أنشد معونة وزير البلاط «عبد الحسين تيمور طاش»، وكانت كلمة واحدة منه كافية بالمرام. وهكذا تهيأت لي فرصة زيارة المستشفى العام (المستشفى الوطني)، ومدرسة الطب، والصيدلية العسكرية.

وقبل أن أقوم بزيارة مدرسة الطب، توقّفنا في بناية صغيرة طُلب إليّ أن أدخل إليها، وإذا ذاك سألت المرافقين معي: «أهذه هي مدرسة الطب»؟ فكان الجواب: «لا». إنّ هذا هو معهد باستور!»

عندما تصافح العاهلان وتوادعا في نهاية تلك الزيارة التاريخية انحنى الملك فيصل إلى أمام وحيا مضيفه بقبلتين على خديه، ومن ثم تبودلت عبارات الأمل في إقامة علاقات عراقية إيرانية طيبة في المستقبل.

غادرنا أراضي إيران في «المحمِّرة»، ومن هناك أبحرنا إلى البصرة على ظهر الباخرة «نيرخوس». كان استقبال فيصل في الميناء حافلاً جداً. وبعد يومين من حفلات الاستقبال غادر فيصل البصرة وسط الألوف من المودّعين الذين رافقوه إلى محطة القطار. وقد استغرقت الرحلة من طهران إلى الخليج العربي مدة عشرة أيام، تخلّلتها فترات وقوف في المواقع التاريخية المهمة، ومن بين تلك الفترات حفل أعدّته شركة النفط البريطانية في عبادان.

تم الوصول إلى بغداد في مدى أربع عشرة ساعة، أي أقل بمقدار ست ساعات من الوقت المحدد لتلك السفرة التي تستغرق ثلاثمائة ميل. كان الترحيب الغامر الواسع ينتظر الملك في محطة غربي بغداد. وما أن استقل السيارة التي تجتاز الشوارع المزدحمة بالناس والمكللة بالاعلام وأقواس النصر، حتى أحيط بكثافة من المستقبلين لم تشهدها العاصمة قبلاً.

الفصل التاسع

زيارة الملك فيصل الأول الأخيرة إلى لندن

تم قبول العراق عضواً في عُصبة الأمم في اليوم الثالث والعشرين من شهر تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٣٢. وفي الوقت ذاته انتهى الانتداب البريطاني على العراق، واعتُبرت المملكة دولة ذات سيادة، وقبل ذلك التاريخ بوقت طويل، راجت إشاعات في بغداد مفادها، أنه ما أن يتم قبول العراق في عُصبة الأمم، حتى يتسلّم الملك فيصل من صاحب الجلالة البريطانية، دعوة للقيام بزيارة احتفالية لهذا الغرض.

كان المندوب السامي البريطاني السر فرنسيس همفريز قد غادر العراق إلى لندن في شهر أيار (مايو) من تلك السنة. حتى إذا ما عاد في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) كان يحمل معه دعوة من الملك جورج الخامس إلى «ابن عمه» وكانت تلك هي العبارة الاعتيادية التي يستعملها الملك حين يخاطب ملكاً آخر ـ حيث أعلن أن زيارة رسمية سيؤديها «فيصل» في شهر حزيران (يونيو) المقبل، ومع ذلك فإن هذا الإعلان لم يثر سوى دهشة بسيطة.

وفي الرسالة اللطيفة لتقبّل الدعوة، أكّد الملك فيصل تصميمه على أن يفعل كل ما في طاقته، لتعميق أُسُس الصداقة القائمة فعلاً بين بلاده وحليفتها العظمى.

بعد انتخاب العراق في عُصبة الأمم بأيام قليلة، تألفت وزارة جديدة برئاسة «ناجي شوكت» أخ الدكتورين سامي وصائب[1]. ومع ذلك فقد

(١) ألف ناجي شوكت وزارته هذه في اليوم الثالث من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٣٢. =

حدث تبدّل في الحكومة في شهر آذار (مارس) سنة ١٩٣٣، حيث اختير رشيد عالي الكيلاني رئيساً للوزارة[٢]، ونوري السعيد للخارجية، وياسين الهاشمي للمالية، ورستم حيدر للاقتصاد والمواصلات. ومع أن رئيس الوزراء رشيد عالي الكيلاني قد قرّر أن يتخلّف عن الموكب، فإن الزملاء الثلاثة في وزارته الذين ذُكرت أسماؤهم قبلاً. قد عُيّنوا لمرافقة جلالته في سفرته تلك، وكان تحسين قدري قد عُيّن في ذلك الوقت رئيساً للتشريفات؛ فتقرر ضمّه إلى الوفد، بينما عُيّن شاكر الوادي مرافقاً، وعُيّنت أنا طبيباً للملك، وبذلك كملت الحاشية فضلاً عن الخدم الشخصيين.

ركبنا طائرة خاصة إلى عمّان في طريقنا إلى لندن. وقد قامت ثلاث من طائرات القوة الجوية البريطانية من طراز «دراغون» بمرافقتنا إلى الرمادي. وكانت أحوال الجو أثناء الطيران إلى «الرطبة» التي هبطنا فيها لتناول الفطور، غير جيّدة؛ إذ كان الصباح بارداً وشرقاً ولا أثر لأية نسمة فيه.

حين صعدنا إلى الطائرة كان وجود أحواض للماء تحت مقاعدنا ينذر بالسوء بصفة واضحة، ولذلك كانت الحيطة بشأنها أمراً لازماً. أصبحت الطائرة خلال ساعة واحدة من تحليقها لعبة بيد الريح، وبشكل متزايد ولقد دفع إليّ الملاّح تذكرة لم أفش محتواها. ويقول في تلك التذكرة أنه تلقى من عمّان رسالة تخبره برداءة الجو هناك، وأن سرعة الريح تقرب من ستين ميلاً في الساعة وعلى ارتفاع خمسة آلاف قدم، وأنها أسرع من ذلك على الأرض.

= وتولى فيها وزارة الداخلية إلى جانب منصب الرئاسة، وقد وقفت وزارة ناجي شوكت هذه إلى جانب شركة بغداد الإنكليزية عندما قرر العمال مقاطعتها زهاء شهرين. وحلت الوزارة مجلس النواب وأجرت انتخابات جديدة. وقد استقالت حكومة ناجي شوكت في ١٨ - ٣ - ١٩٣٣.

(٢) هذه هي أول وزارة يؤلفها رشيد عالي الكيلاني، وقد اشترك فيها: حكمت سليمان وزيراً للداخلية، ومحمد زكي البصري وزيراً للعدل، ولم يشترك سوى نوري السعيد وتحسين قدري وشاكر الوادي في معية الملك أثناء رحلته إلى لندن.

كان كل من في الطائرة مصاباً بالدوار تقريباً، وكانت الرحلة التي قدّر لها ثلاث ساعات ونصف الساعة قد زادت حتى على نصف المدة المقررة. لقد كانت رحلة مزعجة بشكل شديد، ولا سيما فوق المنطقة الصخرية القاتمة من الصحراء، حيث كانت أعمال التفجير، ومد أنابيب البترول، قائمة على قدم وساق هناك[٣].

وما خلا العطب الذي أصاب رأس جناح الطائرة، كان الهبوط في عمّان عسيراً. كان الحشد المعتاد يرأسه الأمير عبد الله، وولداه طلال ونايف، والمبعوث البريطاني العقيد «كوكس» وأعضاء الوزارة الأردنية.

وعلى سلالم القصر وقف الملك عليّ - وكان يمضي إجازته في الأردن - ينتظر وصول أخيه. وقد ضم موكب الاستقبال سرية من الحرس الخاص للأمير عبد الله، وهم عشرات من الشراكسة يمتطون جياداً سوداً، ويرتدون بدلات داكنة كالفحم، من قماش «الفراك» ذات بنائق حمراء قرمزية وأردان. وينتعلون «جزمات» سوداء، ويحملون محفظات خراطيش من جلد صقيل، ورماحاً ذات أشرطة.

هناك مستوطنتان للشراكسة ذات نطاق ملموس في عمّان. بالإضافة إلى وجود عدد أصغر من أفراد هذه الطائفة في مناطق أخرى من الأردن. وقد قيل أن توطين الشركس هناك كان نتيجة للسياسة التي سار عليها السلطان عبد الحميد في إقامة مستوطنات للأتراك في البلدان العربية التابعة له.

ولقد لقيت هجرة الشركس ترحاباً من لدن العزّاب من العرب، لأن النساء الشركسيات قد اشتهرن بجمالهن، وأن الكثيرين من الأردنيين البارزين لهم محظيات شركسيات!.

تقوم خلف القصر الذي يقع بين الأشجار، مجموعة من الدور ذات

(٣) كان العمل يجري آنذاك في مد أول خط أنابيب ينقل النفط العراقي من كركوك إلى ميناءي طرابلس وحيفا على البحر الأبيض المتوسط، وكان قطر هذا الأنبوب اثني عشر بوصة.

طابق واحد تضم دار الضيافة، ودوائر الموظفين وسكناهم. كان يقيم هناك «هكتور بوليشو» ـ وهو لا يعرف كلمة عربية واحدة ـ ضيفاً على حكومة عبد الله منذ عدة أسابيع. وقد طلب إليّ أن أعينه في حل مشكلته.

كان «بوليشو» هذا قد دُعي إلى عمّان ليكتب سيرة شخصية للملك حسين، فقبل الدعوة على أساس أنه سيكافأ لقاء خدماته تلك للملك. ولقد أسرَّيت أنا بهذا الأمر إلى الأمير طلال، فرفعه إلى أبيه الذي كان يتصوّر بكل جلاء أن المؤلفين يكافأون بسخاء من لدن الناشرين، وأنه لا يمكن له أن يتوقع أكثر من الضيافة!

وقد تحدّثتُ في هذا الأمر، فيما بعد، إلى الأمير عبد الله لكنني أخفقتُ في إقناعه بأن التكريم يُعتبر على الأقل؛ من الأمور الاعتيادية في مثل هذه الحالات. وهكذا ودّع «بوليشو» مضيفه بكل أدب، وغادر عمّان دون أن ينجز مهمته!

وعمّان هي مدينة «رباث عمون» التي ورد ذكرها في التوراة وقد حدث أثناء حصار المدينة أن وضع أيوب، بأمر من «داوود»، «اوريا» في مقدمة اعنف معركة، وذلك لكي يساعد سيده على أن يستأثر بـ (باثشيا) الزوجة المحبوبة لذلك الضحية التعس «اوريا». وقد أُعيد بناؤها على يد «بطليموس فلادلفيوس» فسمّاها باسم فلادلفيا، وكانت واحدة من المدن الرئيسة التي تؤلّف «المدن العشر» أي «دكابوليس». غير أن عمّان الحديثة، وإن كانت مقراً للحكومة، وتدعى مدينة، إلاّ أنها في الواقع ليست سوى بلدة صغيرة!

أمضينا أربعة أيام في عمّان، وإذ رافقني الأمير طلال فقد استطعتُ أن أقوم بجولة في أطلال المدينة الواسعة، وأن أعيد زيارة «جرش». ولقد عجبت لسعة اطّلاع «طلال»، ولذلك لم يعد الدليل الذي كنت أحمله معي ضرورياً. كان طلال في ذات الوقت على عِلْم شامل بأطلال مدينة «بعلبك» (مدينة هليوبوليس القديمة) والعاصمة الأولى للملكة «زنوبيا». كانت عظمة الملعب والمعبد الكبير في مدينة «جرش» حية في ذهني، وما

أزال أتصوّرها في أيامها الشامخة في عهد كل من الأمبراطورين «كراكلا» و «فيليب»[٤].

لم يبد الأمير عبد الله سوى اهتمام بسيط بالأحوال الاقتصادية والسياسية في بلده. فقد كان الإيمان بالقضاء والقدر، بالنسبة إليه كرجل مسلم متمسك بشرائع الدين، مبدأ من مبادىء الشريعة.

كان يجد متعة غير محدودة في اللقاءات. وعادةً ما كان يلقي أثناء تناول الطعام خطبة حول موضوع ما أو آخر. ولقد حدثت مناقشة ممتعة في أعقاب عدد من المباحثات التي كان يجريها الأمير عبد الله، وكان ينتهي فيها هو وأخوه الملك فيصل إلى خلاف جوهري حول الموضوع الذي تم طرحه.

ويتعلّق أحد هذه الخلافات، كما أتذكّر، حول الشعر الفارسي، الذي كان الأخوان يستذوقانه. ذلك أن الأثنين كانا متفقين على أنَ «الفردوسي»[٥] أعظم شاعر ملحمي فارسي. لكنهما اختلفا بالنسبة إلى المزايا التي كان يتحلّى بها شاعران فارسيان آخران، هما: «سعدي» وظهيره «حافظ»[٦]. كان الأمير عبد الله يفضل «سعدياً» بسبب التوجيه الخُلقي الذي كانت تضمّه

(٤) من أباطرة الرومان المشهورين الذين ازدهرت بلاد الشام (سوريا ولبنان وفلسطين) في عهدهما، بما أقاما من مدن حديثة ومشاهد عمرانية ما تزال آثارها شاخصة حتى اليوم.

(٥) الفردوسي: منَ أعاظم شعراء الفرس في العصور الإسلامية ولد في طوس حوالي ٩٣٤ ميلادية، وتوفي فيها حوالي ١٠٢٥ ميلادية. اشتهر بملحمته الكبرى (الشاهنامة) التي ألفها للسلطان محمود الغزنوي، وهي تتحدث في ستين ألف بيت عن تاريخ الفرس من القدم حتى الدعوة الإسلامية، وقد أنفق في نظمها خمساً وثلاثين سنة، وقد ترجمت (الشاهنامة) إلى معظم اللغات، ولها ترجمة ملخصة بالعربية، ترجمها نثراً الفتح بن علي البنداري في القرن السابع الهجري، وقارنها بالأصل الفارسي، وأكمل ترجمتها في مواضع، وصححها وعلق عليها، وقدم لها ونشرها الكاتب والشاعر البارع، المرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام عام ١٩٣١ وفي الشاهنامه يحتقر الفردوسي العرب والاسلام لدئم حطم مملكة فارس

(٦) سعدي الشيرازي: من مشاهير شعراء الفرس. ولد في شيراز سنة ١١٨٩ ميلادية، وتوفي فيها سنة ١٢٩٢، وعاش أكثر من مائة سنة. وقد اشتهر من كتبه ديوانه (كلستان) ومعناها: «بستان الورد» أما حافظ الشيرازي فقد عاش بين ١٣٢٥ ـ ١٣٩٠ ميلادية، واشتهر بشعره الغنائي والصوفي.

قصائده، في حين كان الملك فيصل يصرّ على أن شِعر «سعدي»، أخلاقي مُفرط، وتعوزه العاطفة، بينما تُعبّر قصائد «حافظ» عن بهجة الحياة، ولذلك كانت قصائده غنائية بطبيعتها.

وهناك موضوع آخر كان مثار نقاش، يدور حول تحرير المرأة في الأقطار الإسلامية. فقد كان فيصل يؤيد ذلك، بينما يعتبره عبد الله مناقضاً لمبدأ الإسلام. وقد أثار عبد الله دهشة فيصل حينما استمرّ يقول: بأن تحرير المرأة سوف يؤدي إلى كشف فاضح لأجسام النساء، وإلى التقليل من جاذبيتهنّ في نظر الرجال، وبذلك ينخفض مستوى الولادة.

زوّدت الحكومة الأردنية الأمير عبد الله بمقاطعة زراعية في «عين الحُمر» على بُعد عشرة كيلومترات من عاصمته. وهي لا تبعد كثيراً عن قرية «صُويلح» البهيجة، وتقع فوق مرتفع يطلّ على أراضٍ متموّجة.

وفي هذه المزرعة كان الأمير عبد الله يقيم ولائمه المتنقلة. وتشتمل الضيافة بعد العشاء على أغانٍ ينشدها موسيقار مكي بمصاحبة الرباب. ولقد فقد هذا المغنّي بصره فاختاره الأمير بمثابة نديم وهي صفة ذات عظمة مُفرطة في مملكته الشخصية. وكان هذا المغنّي قد هجر مسقط رأسه قبل اثنتي عشرة سنة بعد أن حبسه الملك حسين لأنه تجرّأ على مزاولة الغناء في المدينة المقدّسة.

في إحدى هذه المناسبات، وبعد تناول الغداء مباشرة، شكا الملك السابق «عليّ»، من أنه يشعر بالتعب فعاد إلى عمّان. وعند عودتنا أُنبئت بأنه قد أُصيب بنوبة قلبية، ولذلك استُدعيت لمعاينته. وجدته مستلقياً على سريره وقد وقف أخواه عند جانبي السرير، وأمسك كل واحد منهما بإحدى يديه.

كان شاحب الوجه، وراح يشكو من ألم شديد في جزء من بطنه، ومع ذلك فقد كان نبض قلبه اعتيادياً، ولا داعي للقلق. كان الملك «عليّ» يعاني من سوء هضم شديد، ولذلك تم إسعاف هذه الأعراض بسرعة.

وحين طلب إليّ معاينته في صباح اليوم التالي، وجدتُ قنينة من شراب قوي يكثر الإعلان عنه دوماً، موضوعة على مائدة إلى جنب كرسيّه. وإذ رآني أنظر إلى تلك القنينة قال: «لقد أعطانيه عبد الله الآن. إنه يتناوله كمقوّ قبل وجبات الطعام، وقد نصحنا أنا وفيصل بأن نفعل ذات الشيء». وأضاف يقول: « لقد وصفه له أحد الشيوخ، لكنني قبل أن أتناول أي شيء منه أوَدّ أن تؤكد لي بأنه غير مُسكر». أما أنا فلم أعطه مثل هذا التأكيد، ولذلك أعاد القنينة إلى الأمير.

طلب الملك فيصل مني ذات التأكيد، وإذ لم أستطع أن أنكر صفة الشراب المسكرة، فقد أعاد هو الآخر ذات الهدية. أما الأمير عبد الله المسكين الذي كان يتباهى بامتناعه من تناول المسكرات، فقد تعاظم اضطرابه عندما تحقق لديه أنه كان، منذ عدة شهور، عاكفاً على تناول شراب مُسكر، ولغرض أن يظهر استفظاعه للكحول كشراب بأية صفة وفي أي شكل كان. فقد أمر بجمع كل ما كان لديه من قناني ذلك الشراب، ودعا ضيوفه إلى أن يشهدوا الاحتفال بإراقاتها فوق الأرض!

تهيأت لديّ، أثناء مكوثنا في عمّان، فرصة لا تضيع، إنها سفرة فريدة إلى بيت المقدس، وهي سفرتي الأولى إلى تلك المدينة المقدّسة، ولو أنني ألفت رؤيتها من الجو.

فبعد تناول الفطور وصل الأمير عبد الله مع الملك فيصل وأعضاء حاشيته إلى القدس بإحدى السيارات. وكانت من خيبة أمله أن نصح الملك علي بالبقاء في عمّان.

كانت مهمتنا ذات شقين ـ أن نزور قبر الملك السابق الحسين بن علي، وأن نتناول طعام الغداء مع المندوب السامي البريطاني في فلسطين.

كان الطريق الوحيد إلى العاصمة متعرجاً، لكنه كان أقل أهمية من التلال التي تقوم على الجانبين اللذين يمرّ الطريق بينهما. وإلى أن بلغنا الحدود كان الطريق ضيّقاً وعادياً، حتى إذا ما عبرنا نهر الأردن، اتسع الطريق وبان مرصوفاً ومعبَّداً بشكل جيّد.

كان طريقنا نحو النهـر يمرّ بمـدينة «السلط» الكبيـرة، التي كانت تُدعى، قبل ألف وخمسمائة سنة، باسم «سالتوس هراتيكوس»، وقد تجمّع هنا رجال الجيش المحليّون أثناء توقفنا.

تعقّبنا، بعد السلط بأميال، «وادي شُعيب» وهو وادي نهر جميل فيه أعداد لا تحصى من أشجار الدفلى المزهرة، التي تؤلّف خليطاً بهيجاً من حمرة المرجان وخضرة النيل، وعلى مد البصر شاهدتُ بقايا المدفع التركي بعيد المدى الذي أمطر بيت المقدس بقذائفه، خلال الحـرب العالميـة الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨، وقد أطلقت عليه القوات البريطانية لقب «عملة أريحا».

كان انحدارنا في وادي الأردن تحت مستوى البحر. ولذلك أصبح الهواء رطباً بشكل متزايد، وغدت التربة صلصالية متعرّجة، وفي أوضاع مثيرة، نتيجة تدفّق جداول المطر الموسمي. وقد قيل لنا إن هذا كان موقع وادي (سيديم) الذي وقعت فيه معركة خاضها أربعة ملوك ضد خمسة ملوك آخرين وصفهم سفر التكوين بأنهم ملوك «سدوم» و«غمورة» الذين ارغموا على الفرار فنهبت كل أموالهم وأقواتهم.

كانت مدينة «أريحا» التي ذُكرت مراراً في التوراة، وفي الإنجيل، وكانت في وقت من الأوقات مدينة كنعانية ذات أهمية ملحوظة، قد جُرّدت الآن حتى من الرمز السابق لشهرتها. ذلك أن «أريحا» الحديثة ليست أكثر من قرية يبلغ عدد سكانها ألف نفر، سود الأجسام، من البدو المتأخرين الذين يعيشون في منخفَض يزيد عن ثمانمائة قدم تحت مستوى البحر، في أكواخ كثيرة الأوساخ منحطة، ذات سقوف مسطّحة، ويقاسون من الرطوبة التي لا يمكن تحمّلها. ومع ذلك يكون المناخ في فصل الشتاء لطيفاً، يجتذب سكان بيت المقـدس إلى المنطقـة المحاطـة بأشجـار البرتقـال والليمون، والبسـاتين ذات الأشجار الزاهية وعلى رأسها أشجار السرو.

أُقيم طاق من الزهـور. وما لبثت الأيـدي أن اشتبكت بالتصفيق، وتعالت الأصوات: «يعيش الملك فيصل». وكان الملك فيصل والأمير عبد

الله قد نزلا من السيارة، وأخذا يصافحان المستقبلين.

وعندما كان هذا يجري قُدُماً، قرّرت أن أقتطف ثمرة استطعت فيما بعد أن أشخصها بأنها هي تفاحة وادي سدوم أو تفاحة البحر الميّت، ذلك الثمر الوردي المخضوضر السام الذي وصفه الأقدمونِ بقولهم: «من المستحسن أن تنظر إليه، لكنك تتحول إلى رماد إن أنت مَسَسْته!».

بعد ثلاثة أرباع الساعة أصبحنا في نطاق «جبل الزيتون» بعلامتيه الظاهرتين للعيان، وهما: البرج الروسي والمستشفى الألماني، اللذان برز ظلّهما الأسود قبالة شمس الصباح الرائقة الخالية من الغيوم.

ما إن وصل موكب السيارات إلى ضواحي المدينة، حتى أُوقف من قَبل حشد كثيف من العرب، لم يكن يضم الفلسطينيين وحدهم فحسب؛ بل عدداً كبيراً من السوريين أيضاً، لقد قوبل صاحب الجلالة الملك فيصل باستقبال رائع. ومن حناجر الألوف في هذا الجمع الحاشد راحت تنطلق عبارة: «فيصل ملك العرب».

كان حضور السوريين يمثّل انعكاساً لمقت الانتداب الفرنسي. وكان تجمّع الفلسطينيين دليلاً على القلق الذي كان يشعر به العرب بشأن المستقبل.

رُفعت الرايات، وحُرّكت الأعلام. وأخذ الهياج يتصاعد، وبعد نصف ساعة عاد الهدوء، واستطاع رتل السيارات أن يتحرك قُدُماً. كان الإشعار بالزيارة الملكية للقدس قصيراً جداً، ومع ذلك فقد تناهى الخبر إلى الألوف من الفلسطينيين والسوريين. ذلك أن الأنباء تنتقل بسرعة مدهشة في بلدان الشرق الأوسط، وأن جهاز البرق يأتي في الدرجة الثانية.

أصبحت مشكلة فلسطين مُحيّرة لسياسة الشرق الأوسط. لقد كان الملك فيصل يحلم في إقامة نوع من الاتحاد بين العراق وفلسطين وسوريا والأردن، مع إعطاء ضمانات بالأمن وبالاستقلال الذاتي لليهود. وكان يعتقد أن اليهود يمكن - بمرور الزمن - إقناعهم بتقبّل مثل هذا النظام من الحكم

الذاتي. ولو امتدّ العمر بفيصل لكان هذا الاقتراح هو الحل الذي يرتئيه لحلّ هذه المشكلة الشائكة. ذلك أنه كان يتجنب، بكل قوة، اللجوء إلى حلٍّ يقوم على إراقة الدماء أو الاستعباد.

استمر الموكب في سَيره حتى وصل إلى حديقة «الجثمانية»[٧]، ومن ثم اضطرّ إلى التوقف بسبب وجود حشد هائل من العرب المنفعلين الذين كانوا يسدّون الطريق. وحين نجحت الشرطة في فتح طريق للسيارات، وتحرّكنا ببطء إلى غايتنا، وهو «الحرم الشريف»، أصبح كل ذلك الحشد الواسع، حاشية لنا.

لقد أدركت جيداً أن الملك فيصل كان يحظى بمنزلة رفيعة جداً في كل بلدان الشرق الأوسط. غير أن تظاهرة بمثل هذه العظمة، قد أثارت دهشتي وفرحي في وقت واحد.

فقد تأثر الملك بسعة الحشد وحرارة الاستقبال، وهو يسمع صيحات التحيّة، إلى درجة أن دموعه قد امتزجت مع بسماته.

وإذ اقتربنا من الحرم الشريف ازدادت الحشود كثافة، حتى إذا وصلنا إلى البوابة الرئيسة التي تجمّع حرس القصر عندها، ترجّلنا هناك.

كان الحرم الشريف محاطاً من كل جوانبه بسور شاهق الارتفاع على شكل متوازي الأضلاع، يزيد طوله عن خمسمائة ياردة، ويزيد عرضه عن ثلاثة أخماس هذه المسافة.

وفي تطلّعها إلـى مشاهدة الزائرين الملكيين راحت الحشود الطامية تدفع بالموكب وبالشرطة وبالحاشية، ومن انضم إليها من عامة الناس إلى أمام، أشبه بالقفف التي يتقاذفها نهر دجلة في أوقات الفيضان.

ربما كنت أنا المسيحي الوحيد في ذلك الحشد الهائل. ولقد مرّت بي لحظات، كنت أسائل فيها نفسي متعجباً: «ألم يكن من الحكمة أن أظلّ خارج الحرم الشريف، محتمياً بالسيارة!».

---

(٧) الجثمانية: الحديقة التي اعتقل فيها السيد المسيح خارج القدس.

ومع ذلك جرى كل شيء على ما يرام. لقد كان ذلك الحشد أشبه شيء بمهرجان عيد، ولم أكن قد تعرّضت لأية معاملة جافة من أي نوع كان، بل في الواقع عندما اكتُشفَ مؤخراً بأنني كنت طبيب الملك، عوملتُ بمنتهى التقدير والاحترام.

اتخذ الموكب سبيله ببطء إلى «قبّة الصخرة»، وهي مبنى فخم حقاً، منحني الشكل، وغالباً ما يُسمى خطأ باسم «مسجد عمر»[٨].

وفي الحرم الشريف تم دفن الملك السابق الحسين بن علي، وإذ ذاك مرّ الأخوان الملكيان عبر المدخل الشمالي الجميل من تحت طاق لطيف معقود (هو واحد من أربعة أبواب مماثلة)، وهنا توقّف الحشد، وصمت في سكون، في الوقت الذي كان فيه الملك والأمير يؤديان الصلاة أمام الصخرة المقدّسة ذات الزخارف والنقوش التي لا تُحصَى، قبل أن يتخذا طريقهما إلى ضريح والدهما.

إن ما شاهدته من القبة وهي طرفة المعماريين والفنانين البيزنطيين قبل تسعة قرون خلت، جعلني كالمسحور حقاً. ذلك أن نظرتي كانت محددة بالمظهر الخارجي. أما جمال تصميمها، وجدرانها الفسيفسائية، وفخامة قبّتها المضاءة بنور الشمس تحت سماء لا سُحب فيها، فقد كانت هي التي أذهلتني.

كان قبر الملك حسين واحداً من سلسلة من نُصِبْ الأضرحة على امتداد الشرفة القائمة على أعمدة. وقد كُتبتْ واجهته بحروف ذهبية، وحُليّت بالعلم الحجازي، وتُوّج بإكليل ذهبي.

سارت مع الأخوين حاشية من القبر إلى حفل استقبال أُقيم في مقرّ المجلس الإسلامي الأعلى لفلسطين. وهناك انضميّنا إلى الأخوين الملكيين

---

(٨) يقع مسجد عمر لصقاً لقبة الصخرة. فالمعروف أن الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) كان قد شخص بنفسه إلى مدينة القدس عند تحريرها على أيدي المسلمين، وأدى الصلاة في هذا المسجد الذي يسمي حقاً باسمه.

أنا ونوري السعيد ورستم حيدر. ولقد تأثرتُ مرة أُخرى باللطف الذي لقيته أنا ذلك الشخص غير المسلم.

استؤنفت رحلتنا باتجاه الغرب صبيحة اليوم التالي بعيداً عن مدينة القدس، فسلكت طائرتنا ذات السبيل الذي سلكته سياراتنا قبل أربع وعشرين ساعة مضت. تؤلف مدينة «السلط» صورة بهيجة بمنازلها البيضاء؛ التي اغتسلت بنور شمس الصباح التي أشرقت على الأرض المخضوضرة. ومن الجو كان الطريق الضيّق يبدو بكل جلاء، وهو يمرّ عبر أميال من تلال خمرية اللون، ويدع المرء يتحقق مدى التعب الذي رافق إنشاء طريق ملتوٍ في عصر كانت فيه أدوات المسح بدائية.

بعد قيلولة وجيزة، وحضور عدد من المستقبلين عقب وصولنا إلى القاهرة، قام الملك فيصل بزيارة مجاملة للملك فؤاد في قصر «عابدين»، وكان من دهشتي ودواعي امتناني أن اصطحبني فيصل معه.

أبدى الملك فؤاد ـ وهو شخص ممتلىء الجسم يرتدي صدارياً وسراويل غبراء اللون من قماش «الفراك» ـ أعظم الترحيب والودّ لزائره الملكي. وبعد أن تم تقديم أفراد الحاشية، انسحب الملكان إلى زاوية قصيّة من الغرفة، وانهمكا في أحاديث شخصية تخللتها بصفة ظاهرة جلجلة ضحكة مدوية صارمة من جانب المضيف.

عند عودتنا أخبرني جلالته عن أصل ذلك الصوت. لقد كان صوت إطلاقة من أحد أقارب الملك فؤاد المخبولين، وقد استقرت الإطلاقة على مقربة من الأوتار الصوتية للملك فؤاد، وما تزال مستقرة هناك، لأن الملك لم يرغب في إجراء العملية اللازمة لرفع تلك الرصاصة. أما المهاجم فقد ثبت بأنه معتوه، ولذلك أُلقي به في مستشفى المجانين إلى أن مات فيه قبل بضع سنوات!

بعد نصف ساعة قدِم الملك فؤاد إلى القنصلية العراقية رداً لزيارة الملك فيصل، وقد مكث نصف ساعة على وجه التحديد، وهي ذات المدة التي أمضاها الملك فيصل في قصر عابدين.

طرأ على مدينة القاهرة تطور كبير منذ أن رأيتها آخر مرة أثناء الحرب العالمية الأولى. فلقد أصبحت بوسائل عديدة مدينة عصرية. وطبقاً للتحول المادي الذي أصابها، تناقص عدد النساء المحجّبات بشكل ملموس جداً، وأصبح الحجاب في الواقع مقتصراً بصفة كليّة، على الطبقة الكادحة. ولقد أبدى الملك فيصل تعليقات مؤيدة على هذا التطور.

غادرنا بعد ذلك إلى الاسكندرية؛ فبدأنا من هناك سفرة بحرية إلى ميناء نابولي. استيقظ الملك فيصل مُبكراً في الصباح الذي وصلنا فيه نابولي. وقبل أن ندخل الخليج الملتوي الجميل تحت سماء زرقاء غسلته الشمس بأنوارها، أمسك الملك فيصل ناظوره بيديه، وراح يتطلّع إلى المناطق المحيطة بفردوس إيطاليا، وهو يبدي تعليقاته على مباهج المرتفعات التي قامت على أحد جوانب خور شبه دائري، غطّته مقذوفات بركان «فيزوف» الهائلة، تقابلها أرض غنيّة بالجمال المفرط في الجهة الأخرى.

كان فيصل ملماً بالمثل القائل: «شاهد نابولي ولتمت بعد ذلك!».

ولذلك راح يضحك من ذلك المثل، وهو يحلم في أن يصبح قادراً على تحقيق ذلك المثل بنفسه، في غضون شهور مقبلة.

كانت مدينة «پومپي»(٩) على بعد اثني عشر ميلاً ليس إلاّ. ونظراً لسعة الوقت المتوافر لدينا قبل أن يغادر قطارنا، فقد صمم الملك على أن يمضي عصر ذلك اليوم هناك، وقد برهنت تلك الجولة على أنها كانت مُسرّة.

ولا حاجة إلى القول بأن الموافقة على إدخال بلجيكا في منهاج زيارة الملك فيصل، قد تم التطلّع إليه مُسبقاً. فلقد بعث «ألبرت» ملك بلجيكا

---

(٩) پومپي: مدينة قديمة بجنوبي إيطاليا، كانت تقوم عند سفح جبل فيزوف، بالقرب من نابولي. كانت ثغراً مزدهراً إلى أن أنزل بها زلزال سنة ٦٣ ميلادية خسائر كبيرة. ثم ثار بركان فيزوف سنة ٧٩ ميلادية، وطمرها بحممه حتى غطى المدينة بأجمعها، ومات جميع سكانها مختنقين. وقد اكتشفت آثارها في القرن السابع عشر.

بدعوة وديّة جداً إلى الملك فيصل لتناول طعام الغداء معه، ومع الملكة «إليزابث» في سرادقها الجبلي في «اوستند»، وذلك في الليلة التي وصل فيها فيصل، حيث شارك أعضاء حاشيته في تلك الوليمة. وكان مع الملك «البرت» والملكة «اليزابث» والداهما «دوق برابنت والأمير شارل»، وابنتهما الأميرة «ماري جوزيه»، حيث استقبل الجميع الملك فيصل، واشترك معهم في حديث حيّ بضع دقائق، قبل أن يتم تقديم أفراد الحاشية.

ولقد سألتني الملكة إليزابث ـ بعد تناول الطعام ـ أسئلة كثيرة عن الأمراض الوافدة في العراق. وعندما أعربت لها عن دهشتي لدقة معلوماتها عن الأمراض في المناطق الاستوائية، أنبأتني بأنها كانت طبيبة ممارسة.

وقد حدث أن أشرتُ في حديثي إلى أنني كنت أثناء الحرب العالمية الأولى، أقوم بمهمة طبيّة في إحدى السفن البلجيكية، هي السفينة «ستاد أنتورب» التي حوّلتها وزارة الحرب البريطانية إلى سفينة مستشفى. وقد ردّت الملكة على ذلك قائلة: «كم هو من اللائق جداً أن تكون الآن أهلاً لوسام بلجيكي!».

أعددتُ خطاباً لكي يلقيه الملك فيصل بالانكليزية رداً على الخطاب الترحيبي للملك جورج الخامس في الوليمة التي أُقيمت في قصر بكنغهام في العشرين من شهر حزيران (يونيو)، كما أعددتُ له خطاباً آخر جواباً منه على نخب أمين العاصمة البريطانية في حفل الاستقبال الذي أُقيم في «جيلدْ هول» في اليوم التالي.

لقد أُعيدت تلاوة هذين الخطابين بمثابرة حتى قبل أن غادرنا مدينة عمّان. وفي هذا الوقت استطاع الملك فيصل أن يحفظهما جيّداً تقريباً.

كان فيفيان هولت الذي وصل حديثاً مع جعفر العسكري وزير العراق المفوض في لندن، قد جلب هو الآخر معه خطابين معدّين لمصادقة الملك عليهما. ولست أشك في أن هذين الخطابين كانا أكثر بلاغة من الخطابين اللذين أعددتهما أنا، ولكن الوقت كان قصيراً، وكانت الأحاسيس في ذينك

الخطابين لا تختلف إلاّ قليلاً، ولذلك صمم جلالته على عدم إجراء أي تغيير في الخطابين المذكورين.

لم يستمتع فيفيان هولت بالإقامة القصيرة في «أوستند» ذلك لأن تقشّفه جعله يثور ضد فخامة الفندق وفداحة الأجور، فضلاً عن تضايقه من حرارة الغرف، وسوء نظام التهوية فيها، وتكاثف دخان التبغ في المطعم، الأمر الذي وجد نفسه لا قبلَ له باحتماله، ولذلك أصرّ على أن يكون مقعده في زاوية سُمح له بفتح الشبّاك القائم فيها. وما أن أتم تناول طعامه حتى أسرع بالتقاط قبّعته، وراح ينشد الهواء النقي في متنزه عند ساحل البحر.

كان المشهد في محطة فكتوريا من المشاهد الرائعة حقاً، وكان رائعاً بقدر ما تستطيع مظاهر الزينة القرمزية والذهبية أن تضفيه، طبقاً لما ذكره أحد مراسلي الصحف.

كانت المنافذ إلى منصّة الوصول من «دوفر» شُعلة من ألوان الأعلام التي غُطيّت بأزهار اليابان والدلفين الزرقاء، واختلطت مع البذلات الرسمية؛ فراحت تؤلّف قاعدة جميلة لفخامة التزويق والأبهة والتكريم، الذي ما زالت تتفوق به لندن على العَالم كلّه.

كان الملك جورج يرتدي بذلة «فيلد مارشال». وكان أمير ويلز في بذلة عقيد في الحرس الويلزي. أما «دوق يورك» الذي استقبل الملك فيصل وسافر معه من «دوفر»، فقد كان في بزّة ضابط بحري، في حين كان «دوق غلوستر» في بزّة ضابط خيّال.

كانت تلك هي المرة الأولى، خلال شهور عديدة، التي استطاع فيها الملك جورج أن يرتدي بذلة كاملة، وذلك بسبب الروماتزم الذي أصاب كتفه اليسرى.

ولم يكن الملك فيصل أقلّ أُبهة ببذلته الاحتفالية التي كانت تتألّف من جلباب ذي سجف قرمزية مطرزة بسعفات نخيل ذهبية، وياقة ذهبية ورمانات

ذهبية، وسراويل زرقاء مُعتمة ذات شراشب ذهبية، وحذاء أسود ذي مهماز ذهبي، وكانت قبّعته البيضاء مُثقلة بالريش الأبيض.

تصافح الملكان وهما يتبادلان التحيات مبتسمين، وكانا في ذات المستوى من الطول، لكن الزائر كان أكثر نحافة بشكل ظاهر.

ويبدو أن الكاتب المسؤول عن الجو في السماء قد أخذ يتصرف بعدم لياقة عند انتهاء موكب العربات! كانت الشوارع التي رُفعت فيها الأعلام تغصّ بالألوف من المشاهدين الذين كانوا يتشوّقون إلى رؤية «الحاكم الرومانسي»، ويصفّقون له ويهتفون، كما وصفه هكذا محررو الصحف بصفة عامة، حينما فتحت السماء أبوابها بالمطر على حين غرّة. ولذلك أُصيب بالبلل أولئك الذين لم يندفعوا إلى البحث عن ملجأ تحت أشجار المتنزه المجاور، وإن لم يكن عددهم كبيراً. ومع ذلك فقد كان الترحيب، دون ريب، من أفخم ما استقبل به ملك في السنوات الأخيرة.

ولقد أشادت الصحافة من جرائد قومية وإقليمية ومجلات، إشادة حارّة بزيارة الملك فيصل. وقد تأثر جلالته تأثراً عميقاً بعبارات الود التي أبدتها نحوه. وتضمنت أعمدة «القيل والقال» في الصحافة، المزيد من القصص، كانت معظمها خيالية، تتعلّق بانتصارات فيصل ولورنس الجزيرة العربية، أثناء الثورة العربية، وتعاونهما الوثيق في محادثات الصلح في لندن وباريس. وفي جملة من هذه المحادثات كانت اصطدامات لورنس بالسلطة، والتمسّك بالتقاليد، شديدة جداً.

من بين تلك القصص، قصة يُشَكّ في صحّتها، لأن جلالة الملك فيصل لا يتذكر مثل تلك الواقعة، وقد حدثت هذه القصة أثناء زيارة الملك فيصل للندن. ومفادها أنّ لورنس الذي اختير عضواً في حاشية الملك، وكان يرتدي الملابس العربية، حدث أن سأله شخص له أهميته، مستنكراً، عن السبب الذي دعاه، وهو الإنكليزي والضابط معاً، إلى ارتداء تلك الملابس العربية. وقد ردّ عليه لورنس بتأكيد، ولكن باحترام، يقول: «عندما يخدم المرء سيّدين فإن من الأفضل أن يثير انزعاج أكثرهما قوة. أنا

هنا كمترجم رسمي للأمير فيصل الذي يرتدي هذا اللباس». وأنا متأكد أن اختيار هذا الكساء هو من اختيار لورنس وحده. ذلك لأن جلالته يقاوم بشدة أي شخص غير عربي يختار مثل هذا التنكُر.

تضمنت الليلة الأخيرة من الزيارة الرسمية التي امتدت ثلاثة أيام، من اليوم العشرين إلى اليوم الثاني والعشرين من شهر حزيران (يونيو)، تناول الغداء في وزارة الخارجية، وهي الوليمة التي أعدّها «اللورد سيمون» وزير الخارجية، وتلت ذلك حفلة مسائية في «لندندري هاوس» ضيوفاً على المركيز والمركيزة «لندندري».

كانت الضيافة خلال الشهر الذي أعقب هذه الزيارة الرسمية مفرطة ومتنوعة بشكل ملموس. فقد تضمنت حضور استعراض عسكري، وتناول طعام الغداء في «الدرشوت» في ضيافة الجنرال السر تشارلز هرنغتون رئيس الأركان العامة. وكذلك حضور العرض السنوي للقوة الجوية البريطانية في «هندن»، ومهرجان ليلي في «غرينوريج»، وزيارة لأدنبره، (وكانت هذه الزيارة جد مُبهجة لي أنا)، ضيوفاً على «اللورد بروفوست»، كل ذلك مضافاً إلى زيارة خاصة استمرت عشرة أيام في اسكتلندا.

وهناك سفرة إلى «توركواي» لمشاهدة المناورات البحرية على ظهر السفينة «رينون» ضيوفاً على الأميرال المرحوم السر وليم جيمس (وقد دهش الملك فيصل كثيراً عندما علم أن هذا الأميرال كان هو الطفل النموذج لصورة «فقاعات الصابون» التي غدت فيما بعد إعلاناً اعتيادياً لصابون «بيرز»)، وحضور السباقات النهائية للعبة التنس في «ويمبلدون» بصحبة الملك والملكة والأميرة السويدية «أنغريد»، وتناول الغداء في قصر «ستن» ضيوفاً على دوق ودوقة «سذرلاند».

ونظراً لهذا السخاء المفرط الذي أظهرته الحكومة، فقد أصبح جلالته متعباً، وراح يصرّ علي بأن أُلغي عدداً من اللقاءات الاجتماعية غير الرسمية.

لقد سررت كثيراً حين تم التخطيط لتمضية تلك الأيام العشرة في

اسكتلندا. ذلك لأنه بعد الزيارة الرسمية لـ «هولي رود هاوس»، وتناول الغداء ضيوفاً على اللورد «بروفوست»، وهيئة «أدنبره». سوف تكون بقية فترة مكوث الملك فيصل في «بلاد ذات مروج غبراء، وأشجار كثيفة، وجبال وفيضانات» زيارة خاصة، وسوف توفر الراحة التي يحتاج إليها بعد تلك الجولة المضنية من الضيافة الرسمية.

ونظراً للحاجة الماسّة إلى ذلك، رحت ألحّ كثيراً على ضيوفه، لأنني لم أكن في الواقع مسروراً بالنسبة إلى وضعه الجسماني. ذلك أن شهيته غدت الآن ضعيفة، وكان نومه مضطرباً، ويدخن بإفراط. ولقد توسلت إليه بأن يقلّل من استهلاك السجائر، فكان يعزو عذره الأخير إلى استمرار وصول الأنباء السيّئة من العراق، وقد وعدني بأن يقلّل من السجائر التي يدخنها إلى النصف، حالما ينتهي التوتر بين الأثوريين والمسلمين في شمالي الوطن.

كانت آخر مرة يظهر فيها الملك في صفة اعتيادية في لندن، هي في حفلة أُقيمت بعد الظهر في قصر بكنغهام. كنت أنا وزوجتي إلزي من بين الذين حضروا تلك الحفلة. وعندما غادرنا، ودّعناه الوداع الأخير في فندق «هايد بارك».

لقد كنت أتوسل إليه طوال عدة أسابيع بأن يمضي شهراً واحداً على الأقل في «برن» بسويسرا، وهو المكان الأوروبي المفضّل لديه كثيراً، ولكونه مكاناً ملائماً لسلسلة طويلة من الأصدقاء. وقد وعدني بأن يفعل ذلك إذا ما سمحت له الظروف. وقد كرّس هذا الاتفاق عندما تبادلنا معه تحيات الوداع. ولما كنت في ذلك الوقت أتمتع بإجازتي الرسمية، فلم أصحبه في عودته، الأمر الذي أثار أسفي الشديد.

كانت إقامة الملك فيصل في «برن» قصيرة جداً، إذ لم تستمر سوى يوم واحد أو يومين، فعاد إلى بغداد، إثر تسلّمه برقية منها تلحّ عليه بالعودة حالاً، وذلك بسبب تفاقم الاضطراب في القسم الشمالي من مملكته.

كان الفريق بكر صدقي، وهو رجل عسوف شديد الطموح، ذو سحنة

فظة وكريهة، قد وجد له في ذلك الاضطراب فرصة لتمجيد نفسه. وبدعوى السلامة الوطنية، وجّه مذبحة عسكرية ضد ثلاثمائة أثوري في (سميل) . ولقد عانت قرى آثورية أُخرى تحت زعامة القس مار شمعون، نفس المذابح، حيث جُمع الهاربون من تلك القرى في معسكر أُقيم لهم على مقربة من بعقوبة، وراحوا من هناك يتطلعون إلى العمل، وبمرور الزمن فقدوا هويتهم وأصبحوا مواطنين عراقيين.

كان المار شمعون وعائلته قد مُنحوا فيما بعد ملجأ لهم في جزيرة قبرص. وكان التعيين لمنصب القس يخص العزّاب وحدهم، وينتقل الخلَف بصفة ذاتية من الخال إلى ابن الخال.

وفي الوقت الذي نتحدث عنه، كان المار شمعون شاباً أمرد قليل الخبرة، وهو واقع تحت تأثير سلطة عمة قوية له عُرفت باسم: «السيدة سُرمة». ومنذ ذلك الوقت أصبح المار شمعون ورفاقه الأثوريون مدينين جداً للرعاية التي أولاهم إياها اللواء «رنتن» الذي خدم مع قوات المرتزقة «الليفي» في العراق من سنة ١٩٢٢ إلى سنة ١٩٢٧، ومن ثم أصبح في الفترة ١٩٤٤ ـ ١٩٤٨ رئيساً للبعثة العسكرية البريطانية للجيش العراقي.

ما إن وصل الملك فيصل إلى بغداد، حتى وجد نفسه في دور ثانوي. ذلك أن الدعاية الصحفية قد شخصت الأثوريين بأنهم عملاء للبريطانيين، وراحت تلمح إلى أن الملك فيصل كان قد أُرغم ـ نتيجة زيارته إلى لندن ـ راغباً أو ممتنعاً، بأن يمثّل دور مخلب القط! وقد خُصص هذا الدور بشدة إلى الملك الذي يعود إليه الفضل في تمتّع رعاياه بالرفاه والطمأنينة.

كان الاستقبال الفاتر الذي استُقبل به في بغداد، تجربة مثيرة جداً. فقد حُكم عليه بأن يتحمّل أعباء العناية بالأمّة في ظروف كهذه، تُعَدّ تجربة قاسية جداً. ولذلك أدى اضطرابه إلى فقدانه النوم، وخانته شهيّته، فراح يتطلّع إلى الراحة عن طريق الإفراط في التدخين، وتناول القهوة القوية، وسرعان ما تدهورت صحّته. وبعد شهر، أي في اليوم الثاني من أيلول

(سبتمبر)، وبعد استشارات طبيّة كثيرة، عاد فيصل مرة أُخرى ألى سويسرا، حيث راح، بعد ستة أيام أخرى، ضحية نوبة قلبية.

أذاع الفيلد مارشال الفيكونت «اللنبي» كلمة تقدير مناسبة في اليوم الذي أعقب وفاة الملك فيصل المفاجئة في «برن» جاء فيها: «كان الموت جم النشاط بين الرجال العظام على وجه الأرض. وبوفاة فيصل ملك العراق، اختفت شخصية من أبرز الشخصيات التي لعبت دوراً رئيساً في الحرب العالمية».

لقد التقيت أول مرة بالأمير فيصل في اليوم الذي أعقب سقوط «دمشق» وهو اليوم الأول أو الثاني من تشرين الأول (أُكتوبر) سنة ١٩١٩، عندما دخل تلك المدينة بجيشه الحجازي. وإذ صحبَته وشدّت من أزره زمرة من الضباط البريطانيين المتحمسين، فقد قاد ذلك الجيش نحو الشمال عبر الصحراء السورية، فاستطاع أن يحمي الجناح الأيسن لجيشي الأساس المعروف باسم «القوة الاستطلاعية المصرية».

وفي دمشق رفع فيصل علَم الحجاز، وهناك ـ وبموافقة من الحلفاء ـ أمسك بزمام الحكم ملكاً على سوريا، ومهما يكن الأمر، فقد حدث في سنة ١٩٢٠ احتكاك مع الدولة المنتدبة [فرنسا] فانتهى حكمه هناك، وفي آب (أغسطس) سنة ١٩٢١، أصبح فيصل ملكاً على العراق تحت الانتداب البريطاني. وعندما انتهى الانتداب هذه السنة أي في حزيران (يونيو) الماضي، قام فيصل بزيارة رسمية كملك مستقلّ للملك جورج ملك إنكلترا. وكان لي الشرف أن أكون، أثناء تلك الزيارة، في معيّة الملك فيصل.

كان الأمير فيصل واسع النشاط، قبل الحرب، في السياسة التركية. ولكن عندما ثار والده «الملك حسين» ملك الحجاز، ضد تركيا، أصبح فيصل حليفاً في الحرب.

لقد كان يجمع صفات القائد، ورجل الدولة. كان سريع التصوّر، سريع العمل، قليل الكلام، بعيد النظر. فعلى العراق أن يبكي ذلك

الحاكم الحكيم والشجاع. لقد غدت بلادنا أشد فقراً بفقدان صديق مخلص لها».

لقد قرأنا آخر الكلمات التي تفوه فيصل بها حين قال: «أنا مسرور لقد قمت بواجبي، فلتعش الأمة من بعدي بسعادة وقوة، واتحاد».

تم عقد اجتماع للوزارة العراقية في أعقاب وصول الأنباء بوفاة فيصل مباشرة. وبعد ساعتين أدى ولي العهد الأمير غازي القسم الملكي طبقاً للدستور حيث أعلن عن توليه العرش تحت اسم الملك غازي الأول بن الملك فيصل.

قبل أسابيع قليلة من وفاة الملك فيصل حصلنا على منزل في مقاطعة «سوسكس» وقد جعلتنا وفاة فيصل غير المتوقعة نمعن النظر بشأن الحكمة في عودتنا إلى العراق أم لا. ومهما يكن الأمر فإنني سبق لي أن وعدت فيصل، بأن غازي - في حالة وفاة أبيه بصفة مفاجئة - سوف يتحقق من صداقتي ومشاورتي الأبوية، وأن استحالة تنفيذ مثل هذا الالتزام، عن بعد، هي التي حملتنا على العودة إلى العراق عند انتهاء مدة إجازتي.

الفصل العاشر

انقلاب بكر صدقي
ومقتل الملك غازي

لم يكن التعبير العام للمشاعر في بغداد، والذي يظهر عادة في شكل إقامة المواكب، من الأمور نادرة الحدوث. وفي المناسبات التي يخشى فيها من اتساع أعمال العنف، يصبح التحذير أمراً اعتيادياً. . . ولذلك يقوم مستشار وزارة الداخلية، بتنبيه مستشاري ورؤساء الشركات البريطانية، كما يلحّ على الرعايا البريطانيين بأن يظلّوا داخل بيوتهم طالما بقيت التظاهرات مستمرة.

ولقد كانت مثل هذه التظاهرات عادة سياسية أو قومية. ولقد شهدتُ مثل هذه المسيرات الغوغائية في أعالي شارع بغداد الرئيس وأدانيه قبل وقت الظهر، وهي تهتف بالاستنكار العنيف ضد رئيس الوزراء الذي قدّم استقالته وإعلانه في وقت متأخر من ذلك اليوم بإعادة تعيينه.

ومع ذلك فإن هذه التظاهرات تكون عابرة ولا تلحق أي أذى، وإن حدث فإنه طفيف. وفي الطريقة الاعتيادية يكون المشاركون في التظاهرات عديمي الأهمية، ومن حثالة جمهرة بغداد الذين يثيرهم محرّضون محترفون تحت ستار وعدهم بالبخشيش!

ولكن حتى نهاية شهر تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٣٦، كان الجيش العراقي قد ضبط نفسه بعيداً عن الشؤون السياسية. وفي اليوم التاسع والعشرين من ذلك الشهر استولى الفريق بكر صدقي باشا وكيل رئيس أركان الجيش العراقي على السلطة.

* * *

استُدعيت إلى قصر «الزهور» مسكن الملك غـازي، في السـاعـة العاشرة من صباح ذلك اليوم. لم أجده في مكتبه، بل كان يتمشى في شرفة القصر وهو في حالة انفعال ملموس. كان يتمنطق بحزام ربط به مسدس بشكل ظاهر جلي.

ولم أرَ الملك مسلّحاً في القصر إلّا مرة واحدة من قبل؛ عندما استُدعيت لرؤية عبد زنجي قيل عنه أنه قد قتل نفسه. وقد أُلفي مسدس بجانبه على السرير، لكنني اقتنعتُ بأن النار قد أُطلقت عليه. ولقد شاركني جلالته ذات الرأي. وأعقبت ذلك تحريات قامت بها الشرطة، وإذ ذاك تقرّر أن تظل القضية سرّية، وتم إغلاق التحقيق بعد اقتراح مبدئي يرى، بسبب مسرح المأساة، وأن من الأفضل أن يذاع بأن الحادث كان قضية انتحار، وذلك منعاً لحدوث أي من التقوّلات والتخـرّصات. ومع ذلك فقد بُذل جهد ضئيل لمعرفة القاتل، الذي لا بـدّ وأن كان أحـد المرافقين من أعضاء الحرس الخاص أو أي مستخدم آخر في القصر.

ولكن لنعد إلى موضوع الانقلاب...

سألتُ الملك: «ولمَ هذا التشخيص يا سيدي؟» وذلك بعد فحص بالسماعة لم يكشف عن شيء سوى سرعة في النبض، على الرغم من المخاوف التي أعرب عنها جلالته عن عدم انتظام عمل قلبه. لم يحر جواباً؛ بل أشار إلى طيران طيارات فوق بغداد، ومصاحبة انفجار لها، ثم تمتم يقول: «إنها أشبه بالثورة!» ولم أكن لأشك بأنه كان على علم مُسبق بالحادث، وأن الخطر الذي يتعرض له نفسه وعرشه يكمن في احتمال قيام عمل معاكس[1].

---

(١) من بين ما تم العثور عليه من أوراق البلاط، رسالة قصيرة موجهة من الملك غازي وبخطه إلى الفريق بكر صدقي في صبيحة ذلك اليوم، يسأله فيها عن دوافع تلك الحركة، وينوه بما ستجره على البلاد من ويلات. ترى هل يفهم من هذا أن انقلاب بكر صدقي قد وقع بدون علم من الملك غازي؟ لقد سبقت الانقلاب عدة مقابلات قام بها أعضاء المعارضة، وعلى الأخص حكمت سليمان وجعفر أبو التمن للملك غازي في البلاط. وليس من شك في أن هذه المقابلات كانت مركزة على تخويف غازي من سلطة ياسين الهاشمي. ولكن =

كانت زوجتي قد صحبتني إلى هناك، وكانت ترتشف القهوة مع الملكة عالية وأعضاء آخرين من العائلة الملكية، حينما انضممتُ إلى باقة من السيدات فيما بعد. لقد شعرتُ بكل تأكيد أن الملكة عالية، مستودع ثقة غازي والتي يعهد إليها بكل الأسرار حتى بغرامياته التي كانت تغفرها له بسخاء، إنّ عالية كانت على علم بالمؤامرة، فهي لم تكشف عن المزيد من القلق، لكن اتضح لي، وأنا الذي أعرف الكثير عن وضعها، بأنها كانت مدركة كل ذلك، وأنها انضمت إلى غازي مرتين خلال بضع لحظات قلائل، في الشرفة التي كان يرقب منها الوضع بناظور الميدان القوي.

وعلى أية حالة فقد أُلقيت أربع قنابل استهدفت بشكل واضح مجلس الوزراء في السراي. وكنا على مقربة - ونحن في طريق عودتنا إلى البيت - عندما سقطت آخر قنبلة. لم يكن إلقاء القنابل مصيباً لأن إحدى القنابل سقطت عبثاً في النهر، لكن هدف الغارة تم إنجازه بسرعة. فقد استقالت وزارة ياسين الهاشمي، وأعقبَتها بعد ساعات قلائل حكومة جديدة تحت زعامة السيد حكمت سليمان. وكانت الإصابات قليلة نسبياً، فقد جُرح أحد الجالسين في المقهى جرحاً خطيراً، ونُقل إلى المستشفى أقل من عشرين نفراً أُصيبوا بجروح بسيطة.

استدعيتُ بعد تناول الغداء مباشرة إلى قصر «الزهور» مرة أُخرى، وقد وجدت الملك أكثر انفعالاً مما كان عليه في الصباح. لقد علم أن جعفر العسكري الذي كان وزيراً للدفاع في حكومة ياسين الهاشمي وأحد الأصدقاء المقرّبين من أبيه، قد أعرب عن تصميمه لمجابهة الجيش المتمرد الذي كان يتقدم نحو بغداد، وللمناقشة مع ضابطه الآمر. وكان غازي قد بعث أحد مرافقيه على جناح السرعة في محاولة لإثناء جعفر عما نواه، لكنه كان متصلباً في موقفه، فمضى شجاعاً، ولكن بسوء نصيحة إلى حتفه كما

= الشيء الذي أورده سندرسن هنا، يستفاد منه، أن الملك غازي كان على علم مسبق بالانقلاب، وأنه ربما أراد برسالته تلك إلى بكر صدقي في صبيحة يوم الانقلاب، أن يبرىء نفسه من تهمة اشتراكه هو في ذلك الانقلاب، الذي كان موجهاً في الدرجة الأولى إلى شخص المرحوم ياسين الهاشمي.

حدث ذلك فعلاً. لقد قُتل بوحشية. وبموته فقد العراق واحداً من أكثر الأشخاص إخلاصاً وبروزاً.

كنت أنا وزوجتي إلزي ضيوفاً في تلك الليلة في حفلة عشاء في السفارة البريطانية. وفي منتصف الوقت أثناء وجبة الطعام سُلّمتْ مذكرة إلى السر أرشيبالد كلارك كير، سفير بريطانيا في العراق، فلما قرأها اعتذر من ضيوفه وانسحب لأنه قد استُدعي. وحين مرّ بالكرسي الذي أجلس عليه، انحنى عليّ وهمس يقول: «لقد قُتل جعفر العسكري. أرجوك أن تتصرف كمضيف في غيابي».

أما إدموندز المستشار الحاذق والمزمن لوزارة الداخلية، فقد استُدعي إلى السفارة، ومن هناك اتخذ طريقه على عجل لمواجهة حكمت سليمان في منزله بمنطقة الصليخ، كيما يتحقق من سياسة الحكومة الجديدة. لقد كان حكمت وزيراً للداخلية أثناء مذابح الأثوريين التي شارك ـ بهذه الطريقة ـ بعضاً من المسؤولية فيها. ولقد أعرب حكمت عن أسفه للتدخّل العسكري الذي كان يعتقد بأنه أصبح ضرورياً لإسقاط حكومة لم تَعُدْ تتمتع بثقة الجمهور، وعن أمله بأن تدخّل الجيش لن تدعو الحاجة إليه مرة أخرى. كما أكد للمستر إدموندز بأنه، أي حكمت ورفاقه، سوف يساندون الدستور القائم في البلاد، وأن سياستهم الخارجية ستكون قائمة على أساس الصداقة الوثيقة مع بريطانيا العظمى.

لقد كان الانقلاب في الغالب خالياً من الدماء. وكانت لحكمت مشاعر سياسية محددة، وتقبّل رئاسة الحكومة بتردد ملموس(٢). فقد كان من كبار مُلّاك الأراضي، وثرياً جداً، وذا اهتمام بمزرعة لصنع الألبان. ولقد عرفته معرفة جيدة منذ سنين كثيرة. وكان شخصية جذابّة، وقد أصبح هو والسفير أرشيبالد كلارك كير من الأصدقاء الطيّبين ، وتلك علاقة لم

يعود هذا التردد في نظرنا أن حكمت سليمان كان يخشى أن يفشل الانقلاب فتقع رقبته في حبل المشنقة، وإن كانت مشاركته في تدبير الانقلاب قد قصد بها إزاحة ياسين الهاشمي بالقوة.

تسلم من انتقادات فريق صغير من المجتمع البريطاني الذي كانوا يعتبرون أنه مما يحطُّ من قدر سفير؛ أن يُرى في ملهى محليّ بغضّ النظر عن الشخص الذي يصحبه فيه!

إنني أعتقد أن السبب الرئيس للانقلاب هو الارتياب بأن ياسين باشا كان يعتزم أن يمارس السلطة الدكتاتورية، غير أن هناك أسباباً أخرى فرعية[٢].

فقد كان هناك استياء عام من الحكومة، وفي أثناء الثمانية عشر شهراً التي قضتها وزارة الهاشمي في الحكم، قامت خمس ثورات عشائرية لم تُخمد إلّا بعمل عسكري؛ الأمر الذي أدى إلى احتدام الصراع وتشدده.

لم أكن أعرف السبب الذي جعل جعفر العسكري يقبل بمنصب له في وزارة ياسين الهاشمي. لقد كان وزيراً للعراق في لندن في الوقت الذي كان فيه هو وصهره نوري السعيد لا يظهران فيه أي انعطاف نحو ياسين منافسهما السياسي.

ففي إحدى الأمسيات وبعد أن عاد جعفر إلى بغداد مباشرة، حدّثني في التلفون وطلب إليّ أن أزوره، ولقد وجدته مضطرباً. كان يجلس خلف طاولة كبيرة للكتابة. وبعد أن حيّاني أغلق الدرج المفتوح في جانبي الطاولة وتمتم قائلاً: «كنت أستطيع أن أتجوّل في أوروبا بسلام دون أي شيء

---

(٢) (إ) ما زلت اعكف على اعداد دراسة شاملة عن انقلاب بكر صدقي تحت عنوان: «انقلاب بكر صدقي، دوافعه وأغراضه». والذي نعتقده بأن الدافع الأول للانقلاب يكمن في مقاومة السياسة العربية الخاصة التي انتهجها العراق بزعامة ياسين الهاشمي، والمساعدات الكبرى التي قدمتها حكومة ياسين الهاشمي للثورة الفلسطينية في سنة ١٩٣٦ ومواقفها من الضغوط التي كانت تمارس ضدها للتساهل في قضية مياه شط العرب مع إيران، حيث اتسمت مواقف الإنكليز في هذه القضية بمساندة الادعاءات الإيرانية غير المشروعة، الأمر الذي يلقي المزيد من الأضواء على البواعث الحقيقية للانقلاب، ولاسيما حين تؤخذ بنظر الاعتبار الأمور الخطيرة التي أقدمت عليها حكومة حكمت سليمان، سواء في ذلك توقيع معاهدة شط العرب التي جاءت لصالح المطامع الإيرانية، وميثاق سعد أباد الذي يعد الأساس الأول لحلف بغداد المعروف، مما سنأتي عليه تفصيلاً في دراستنا القادمة عن الانقلاب المذكور.

سوى عصا للمشي. فلما عدت إلى بلدي كنت في حاجة إلى هذه». لقد كان في كل درج من درجيَ الطاولة مسدس محشو. وواصل حديثه فقال: «لقد تلفتُّ إليك لأنني كنت أحسّ بالعزلة، وأردت أن أُفضي بأشياء يكنّها صدري إلى صديق أستطيع أن أثق به».

لقد أمضيت مع جعفر زهاء الساعتين. وقد بدا عليه المرح حين غادرته لقد كان لديه سابق شعور بالقلق السياسي، ولم يغب عن أفكاره احتمال تعرّضه لموت عنيف.

سرعان ما أمسكت الحكومة الجديدة بزمام الأمور، وبدا عليها بأنها ستبقى طالما بقي الانسجام قائماً بين حكمت وبكر صدقي. أما المسرح الداخلي فلم يكن في حالة استقرار طويل. لقد بدأ الجو يُبشّر بالانشراح. فقد أخذ النفط يتدفق طليقاً عبر الصحراء في خط أنابيب شركة النفط العراقية[٣] وكان حاصل التمور في منطقة البصرة جيّداً، وغدت الأعمال التجارية تفيض في الأسواق.

تركزّ قلقي الوحيد حول مركز الملك. لقد كانت للملك فيصل علاقات طيّبة مع قادة الجيش، وكان له على الدوام في الوزارات المتعاقبة أصدقاء قدماء يضمنون سيادته.

ولقد تولى غازي العرش في سنة ١٩٣٣، كشاب غير مجرّب، وقد أصبح الآن بلا صديق نسبياً، ولذلك كان مصيره في يد رجال الجيش والسياسه وليس في يده هو.

كان أسلوب حياة الملك غازي مثار قدر كبير من التقوّلات، ولسوء

---

(٣) بدأت شركة النفط العراقية، وهي شركة مؤلفة من مساهمين إنكليز وأمريكان وفرنسيين، مد أول خط للأنابيب بنقل نفط العراق إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط سنة ١٩٣٢، ويبدأ الخط من كركوك فيعبر دجلة في «الفتحة» شمالي «بيجي» ثم يعبر الفرات عند «حديثة» وحين يبلغ الحدود العراقية الغربية ينقسم إلى خطين، أحدهما يسير عبر الأراضي السورية إلى ميناء طرابلس في لبنان، والثاني يجتاز الأراضي الأردنية إلى ميناء حيفا في فلسطين. وكان قطر هذا الأنبوب ٣٢ بوصة.

الحظ لم تكن كل تلك التقوّلات فارغة، فلقد أحاط نفسه بزمرة من الضباط الشباب المتملقين في الجيش العراقي وفي القوة الجوية العراقية، وقد أصبح الإفراط في السكر والدعارة هي التسلية الغالبة، مما كانت نتائجه تصيبني أحياناً باعتباري طبيبه الخاص.

لقد اعتادت النسوة المسلمات أن يعتبرن الأزواج غير مخلصين لزوجاتهم، ومن المحتمل أن تكون ممارسة تعدد الزوجات قد أسهمت في تكوين هذا الاعتقاد، وكانت النتيجة أن غدت الزلات لا تقع إلاّ قليلاً من العجب أو لا تثير شيئاً ما منه.

كان غازي قد وُلد في مكة سنة ١٩١٢، وصار في التاسعة من عمره عندما ارتقى والده العرش، فأصبح العراق موطنه. وكان من بين أربعة أطفال هو الولد الوحيد، فكانت أمّه الملكة «حُزيمة» شغوفة به وتتغاضى عنه في طفولة نسكة، وكان هذا التصرّف مثار لوم نوعاً ما على الأقل بالنظر إلى جموحه وتشرّده أخيراً كفتى في المدرسة أو كملك. ومع ذلك فلست أعتبر هذا هو العامل الوحيد. فقد أمضى غازي، مثل بقية أبناء العائلة الشريفية، سنواته الأولى بين قبائل الصحراء، وبعد فترة ملّ التشرّد فراح يتضرع بأن يُسمح له بالعودة إلى البيت. وكانت حُججه تتكرر مرة وأخرى من لدن أمّه، وأخيراً سمح له أبوه فيصل ـ على خلاف رغبته ـ بما أراده، وبذلك استؤنف العطب الذي يحدثه عطف الأم. ولقد أنبأني الملك فيصل عن هذا؛ فأشرت عليه بإرساله إلى إنكلترا للدراسة فيها، وقد نُفذّت نصيحتي تلك، ولكن لم تعط نتائج مسرّة إلاّ لوقت قصير.

كان غازي كوَريث مفترَض للعرش، يتوقع أن تكون العناية العشائرية محترمة، لكنه سرعان ما اكتشف بألم أن احترام الأشخاص كان غريباً عن طبيعة رفاقه، وأنه لم يمض وقت طويل عندما وجد أيضاً ـ لخيبة أمله الكبرى ـ أن رفاقه أولئك كانوا أكثر حيوية، واستنباطاً وذكاء.

لقد اشتهر البدو الأعراب بأنهم أكثر مكراً، وأنّ الإحصائيات تؤكد أن مدى حياة رجال القبائل أقلّ من حياة سكان المدن.

وما أن تحقق أقران غازي من عظم مرحهم حتى بدأوا يستهزئون به، بتلك صفة كانت تثير حنقه بعمق وتؤدي في الوقت ذاته إلى الوقاحة والتهديدات، تلك الميول الفجّة التي كانت تبرز لدى رفاقه في المدرسة.

كانت تجربة غازي الشاقة كحارس قبلي ذات تأثير عميق فيه، ظهرت مؤخراً في إحساسه بانحطاط الشخصية التي راح يحاول التغلّب عليها بالحصول على شكلٍ من الفخامة.

فلم يكن لديه سوى اهتمام ضئيل بالتتبعات العقلية، لكنه كان يحلم أن يحقق الشهرة بأن يصبح من هواة التسابق بالسيارات. ولقد أثار هذا الاحتمال حماسته، فأصبح له في قصر الزهور سرب صغير من السيارات عالية السرعة. لقد كانت السيارات تمثّل بهجته. وحين كان في «هارو»[٤] وهو في السادسة عشرة من عمره، طلب من جعفر باشا العسكري، وكان مفوض العراق الدبلوماسي آنذاك، أن يشتري له سيارة سباق عالية السعر. حتى إذا ما رفض جعفر طلبه هذا، اشتدّ غضبه عليه كثيراً، وراح يعرب عن كراهيته لجعفر بعد ذلك الحادث.

كان غازي يصوّر الحيرة، بل كان في بعض الأوقات يمثّل شخصية متناقضة. فقد كان على سبيل المثال لا يعبأ بالنتائج عندما يقود إحدى السيارات بسرعة خارقة، ومع ذلك كان يخشى إمكانية الموت المفاجيء إلى درجة أنه عندما كان يجري التطعيم؛ كان يطلب إلى الملكة عالية أن تكون إلى جانبه، ولغرض أن يخفي خجله لم يكن يشاهَد من دون نظارات شمسية على عينيه في المجتمعات العامة أو عندما يستقبل الزوّار الرسميين.

لقد كان يوصف بأنه فتى لعوب لم ينضج أبداً (لقد كان كثير الهزل في الواقع. وقد حدث في إحدى المناسبات أن اضطررتُ إلى الاعتراض عليه. ووقع أحد الاحتجاجات في أعقاب مزاح أجراه بعد منتصف الليل

---

(٤) كلية «هارو» العسكرية في لندن، وقد أرسل إليها لإكمال دراسته العسكرية فيها قبل أن يتخرج برتبة ملازم ثان في الكلية العسكرية العراقية سنة ١٩٣٢. وكان إرساله إلى «هارو» قد تم في سنة ١٩٢٧، وأمضى فيها زها سنتين.

حين صبغ وجه أحد العبيد السود بصباغ أبيض اللون). والواقع أننا يجب أن لا ننسى حقيقة أن غازي في ذلك الوقت كان في الحادية والعشرين من عمره، جاهلاً بأمور الدولة ولم يزوّد بالتدريب للنهوض بواجبات الملوكية، عندما دُعيَ في مفاجأة مثيرة لأن يخلف أباه في منصبه. ومع ذلك فإنني أعتبره حاكماً فتياً شجاعاً كان يناضل ضد البلوى.

وكما أشرتُ قبلاً، كنت قد وعدت الملك فيصل أنه في حالة موته قبل أوانه، سوف أهتم اهتماماً أبوياً بوريثه. لقد أديّت ذلك، لكنه لم يكن يرحبّ بالنقد، وبعد بعض اجتماعاتي معه، عدت إلى داري وأنا مقتنع بأن خدمتي في العراق هي على وشك الانتهاء.

كنت كمستشار وطبيب أتعرّض لوقت عصيب، وكذلك كان غازي الذي كان يخشى أن يتوقف قلبه عن النبض فجأة، ولا سيما خلال ساعات الظلام. لقد كنت في بعض الأحيان أُستدعى من فراشي ثلاث مرات على الأقل ما بين غروب الشمس وشروقها. لقد كان هذا الخوف هو الذي جعله يضيق ذرعاً بتعزيري له. وقد أثارت هذه الزيارات المتكررة الريبة لدى الحرّاس في مدخل القصر. وعندما دُعيت في إحدى المناسبات مرة ثانية خلال ساعة واحدة من الزمن، أخبرني الحراس أن أنتظر إلى أن استطاع الضابط الذي يقوم بالخفارة أن يتحقق من أسباب عودتي السريعة التي تثير الشكوك. ولقد حُجزتُ في الانتظار لبضع دقائق وأخبرت سائق سيارتي أن يعود بي، وحين اختفينا على مسافة ما، أُطلقت طلقة نارية على السيارة، لكنها مرّت وهي تصفر من فوق رؤوسنا.

وسواء أكان التبكيت الذاتي، أو التخمة من الانهماك في شهوات الشباب، فقد تكون ولادة وَلد لغازي، وفقدانه المواعيد المفضّلة لديه داخل المدينة، أو المشاركة في الأوضاع، إن كل هذه الأمور لم تكن لها سوى نتيجة ضئيلة على أكثر احتمال. ومع ذلك فقد حدث تغيير في سلوكه، وأصبح هذا التغيير أكثر جدّة وأفضل أثراً، وبصفة طارئة تماماً. ولكن كان من سوء الحظ أن تمثّلَ ذلك التغيّر بالمبالغة في الاتجاهات الأخرى.

لقد أشغل غازي نفسه بالألعاب. كانت له طائرة، وسرب من سيارات السباق السريعة، ومحطة للإذاعة اللاسلكية، وساحات للعبة السكواتش، وسينما خاصة لتسلية أفراد العائلة المالكة والضيوف.

لقد منعته الوزارة من التحليق بطائرته كإجراء احتياطي. لكنه على الرغم من ذلك الخطر كان يطير غالباً مع صباح بن نوري السعيد. كان صباح ملاّحاً جريئاً وفاتناً. سجّل تاريخه بالطيران من تحت جسر الملك فيصل الأول، وهي مغامرة محفوفة بالمخاطر. ولقد اقترح غازي، الذي كان يريد أن يمتحن تحمّل أحد عبيده السود مشقة التحليق في الجو، على صباح،، أن يقوم بطيران ثانٍ من تحت الجسر. وقد اصطدمت الطائرة وأُصيب صباح بجروح خطيرة، كما نُقل ذلك العبد الذي كُسر عموده الفقري إلى المستشفى حيث مات بعد أيام قلائل.

وكان الأمير عبد الله كبير أعضاء العائلة الشريفة يقوم بزيارات متواصلة لبغداد يصطحب معه فيها ولده «طلال» وليُّ عهد الأردن، غير أن الملك غازي لم يكن يرحّب بنصائحه التي تمسّ شؤونه الشخصية أو العامة. فقد كان يعيش فيما وراء وسائله ،بل الواضح تحت انطباع مؤداه أن الخزانة الخاصة لا تنضب، وأنه اندهش حينما قدّمنا له، أنا و«رستم حيدر» ميزانية أعددناها بأنفسنا، وأكدنا الحاجة إلى التقتير، في سبيل أن يستطيع العيش ضمن وسائله، وأن يسدّد ديونه الكثيرة التي كانت تتضاعف بسرعة.

كان رستم حيدر وهو غير متزوج، من أقدر أبناء العراق المختارين، وهو رجل له سحره الطاغي، ولقد كنت أكنّ له الودّ العميق، وكنت معه ـ حينما لفظ أنفاسه الأخيرة ـ بعد سنتين أو ثلاث حين أُصيب بجروح عديدة سببها متقاعد حاقد اقتحم مكتبه (حيث كان وزيراً للمالية آنذاك) وأطلق عليه عدة عيارات متلاحقة من مسدس. وعلى الرغم من سرعة العملية التي أُجريت له؛ فقد كانت جراحه قاتلة. ولقد كان رستم حيدر وهو على فراش الموت يبتسم بشجاعة ويناديني بلقب «ابن سندر»، وهو لقب كان يُطلق على «ابن سينا».

كان غازي كثير التردد في السفر سواء داخل مملكته أو خارجها. ولقد حاولتُ إقناعه بأن يقوم بزيارة كل لواء على انفراد، لكنه أصرّ بأن الملكة عالية وطفله الصغير «فيصل»[5] لهما مطالب مُسبقة منه، وأنه ما عدا زيارة شكلية قام بها لكل من البصرة وكربلاء والنجف والموصل، يندر أن قام بسفرة أخرى أبعد من المكان الذي تنقله إليه سيارته بعد الظهر. فقد اعتاد هو وأصدقاؤه أن يلتقوا في بيت خاله الشريف حسين الذي ظل ضيفاً على القصر عدة سنوات.

وبعد عناد قررنا أن نوصي بتعيين الشريف حسين هذا بمنصب ملحق في السفارة العراقية بتركيا، وقد سُرّ لهذا التعيين، وبعد مناقشة أولية بشأنه مع غازي وافق عليه.

ولقد عاد الشريف حسين إلى بغداد لبعض الوقت بعد وفاة غازي المؤسية. وسرعان ما استدعاه الأمير عبد الله إلى عمّان ليعود بعد أن أنعم عليه الأمير بعروس. ولقد أنبأني الشريف حسين أنه عند وصوله إلى عمّان لم تكن لديه أية فكرة عن استدعائه، لكنه دُعي في اليوم التالي إلى غرفة مجلس الأمير عبد الله في القصر، حيث وجد أعضاء الوزارة وغيرهم من الشخصيات البارزة قد اجتمعوا لكي يخبرهم الأمير عبد الله، بأنه قرّر أن يكرِّم الشريف حسين بأن عقد قرانه على ابنته. لم تكن لدى الشريف حسين مثل هذه الرغبة، لكن أية إشارة تدلّ على التردد سوف تكون خطيئة لا تُغتفر، وهكذا دخل العلماء إلى المجلس وانتهت عزوبة الشريف حسين في الحال. وبقصد التدليل على تفكيره وأبوّته أطلق عبد الله على الشريف حسين لقب أمير. وقد جلب هذا عروسه معه إلى بغداد، وسكن وإياها في بيت مجاور لدارنا في شارع كان يُطلق عليه اسم «زقاق حديثي النعمة»،

(٥) كتب سندرسن في هامش من هذا الفصل ما يلي: «أحدثت ولادة وريث فرحاً شديداً للملك غازي. فقد وعدني في وقت ما قبل الحادث السعيد بأنه سيهبني سيارة إذا ما كان مولوده الأول ولداً. لكنه أضاف بابتسامة لعوبة: «إن كانت بنتاً فلسوف أتخلص منك!».
وقد بر بوعده وأهداني سيارة من طراز همبوبيل في اليوم التالي لولادة «فيصل». وقد ولد فيصل الثاني يوم الخميس ٢ أيار (مايو) ١٩٣٥.

وذلك بسبب وجود عدد كبير من ممثلي الطبقة العراقية العليا فيه. وبعد أن أمضى الزوجان هناك سنة أو سنتين لم تستطع الأميرة مغالبة حنينها المتزايد إلى الوطن، فأرغم الأمير حسين على أن يعود بها إلى الأردن، ولم يعودا بعد ذلك قط إلى العراق.

لم يكن الشريف حسين هذا سياسياً ولا يمتلك أية إمكانات ثقافية ملموسة، لكنه بعد عدة سنوات عُيّن رئيساً للوزراء في حكومة معتمدة خلال فترة من الاضطراب، حين احتاج الملك حسين حاجة شديدة إلى وزارة لا يشك في إخلاصها له، وأن يكون على رأسها أحد الأقارب المرغوب فيهم.

لم تكن قد توافرت للعراق من قبل الأموال التي يمكن تهيئتها للعمران والتطوير، وكانت المشاريع الجديدة الطموحة تحت الدرس والاهتمام السريعين. وقد بدا وكأن وزارة حكمت سليمان تسيطر سيطرة تامة، وأنّ الأمة كلّها من ورائها، حين تم في اليوم الثاني عشر من شهر آب (أغسطس) سنة ١٩٣٧[٦]، وبعد عشرة أشهر عقب الانقلاب، اغتيال بكر صدقي ورفيقه محمد علي جواد في مطار الموصل على يد جندي في الجيش العراقي.

كان بكر صدقي في الموصل في طريقه لحضور مناورات الجيش بدعوة من الحكومة التركية، وقد طار صديقه محمد علي جواد من بغداد إلى هناك لوداعه. كانا يجلسان سوية في المطار قبالة شلّة من الضباط؛ حينما سحب جندي مار بغتة مسدسه وأطلق منه عدة إطلاقات على الفريق بكر صدقي الذي مات في الحال. وقد وثب صديقه محمد علي جواد على القاتل لكنه نفسه أُردي قتيلاً أيضاً.

اكتسبت المذابح التي أوقعها بكر صدقي بالأثوريين صفة الإبادة الجسمانية الشاملة، ولم يكن أحد ليشك في أن الشاب الحاذق الذي اغتاله

---

(٦) أخطأ المؤلف هنا في ذكر السنة، إذ كتبها سنة ١٩٣٦ بدلاً من سنة ١٩٣٧ وهي، أصح.

قد خُدع لارتكاب تلك الجريمة، غير أن الافتراض الواسع القائل بأن نوري السعيد كان هو المتآمر انتقاماً لمقتل جعفر العسكري لم يكن مصيباً، ولذلك كان البديل الوحيد لهذا الافتراض هو إصابة القاتل بمس من الجنون.

لم تعش حكومة حكمت سليمان بعد مقتل بكر صدقي سوى أيام قلائل. وكان السبب الرئيس لذلك يعود إلى تهديدها بانقلاب عسكري في الموصل. لقد طُلب إلى الضابط الذي كان يتولى إمرة تلك المنطقة(٧) أن يقوم باعتقال عدد من ضباط الجيش والقوة الجوية الذين يُشكُّ في اشتراكهم في مقتل بكر صدقي، لكنه رفض أن يُنفِّذ هذا الأمر بحجة أن قواته لن تتحمل تصرّفاً كهذا، ولذلك قام باحتلال بعض المراكز الحكومية كإجراء احتياطي.

اختير جميل المدفعي خَلَفاً لحكمت سليمان في رئاسة الوزارة. وعند استقالته بعد بضعة أشهر، طُلب إلى نوري السعيد الذي كان يمضي عطلته في الإسكندرية منذ الإطاحة بحكومة ياسين الهاشمي، والذي لم يشترك في وزارة المدفعي، أن يؤلّف وزارة جديدة، كان من أول الأعمال التي أقدم عليها نوري السعيد، هو توقيف حكمت سليمان بتهمة ترتبط بمسؤوليته عن مقتل جعفر العسكري. ولقد سُجن حكمت كمجرم عادي، وبعد أن أمضى شتاءً تميّز بشدة البرد، استُدعيتُ لمعاينته، وللتشاور مع الضابط الطبيب في السجن. لقد اعترتني هزّة قوية لدى رؤيتي مظهر حكمت سليمان، وحالته الذهنية. ذلك أنه فَقَدَ أكثر من اثني عشر كيلو غراماً من وزنه، وكان في وضع قلق حاد.

أوصيت بنقله إلى المستشفى حيث حصل له شيء من التحسّن في صحّته هناك، غير أن سجنه كان شديد الوطأة عليه، ولم يحدث سوى تقدّم

---

(٧) وهو الفريق أمين العمري الذي أعلن قيام حكومة عسكرية في الموصل مستقلة عن حكومة بغداد، وطالب باستقالة حكومة حكمت سليمان فوراً. وقد أشيع في حينه أن أمين العمري سك النقود باسم حكومة الموصل تلك! وقد استقالت وزارة حكمت سليمان بعد أن تمرد معسكر الوشاش بقيادة العقيد سعيد التكريتي على الحكومة إضافة إلى تمرد الموصل المذكور

بطيء جداً. وإذ تقدّم فصل الصيف أخذتْ صحة حكمت تستدعي الاهتمام، ولذلك اقترحت نقله تحتُ الحراسة إلى مقرّ في أحد مرتفعات الشمال، أو حتى إلى مصحّ لبناني.

لم يقابَل أي من هذين المقترَحين بالترحاب من قبَل نوري السعيد، غير أنه وافق في النهاية على أن يمضي حكمت بقية فصل الصيف في كردستان. ولقد كان من سوء الحظ أن قرر نوري السعيد اختيار مدينة «بنجوين» وهي وإن كانت موقعاً لإحدى المزارع الملكية، إلاّ أنها كانت بدائية في عدة حالات، كما أنني وجدتها أيضاً ملأى بمرض الملاريا، وذلك عندما صحبتُ كلاً من: فيصل، وغازي، ونوري، وآخرين غيرهم في جولة في جزء من كردستان كان يُعتبر ملائماً لزراعة التبغ فيه.

لقد علمت باختيار نوري السعيد لمدينة «بنجوين» محل إقامة مؤقت لحكمت سليمان، قبل أن يتم نقله تحت الحراسة إلى هناك بساعات قلائل. لقد أقلقني هذا الاختيار إلى درجة أنني خاطرت بإغضاب نوري السعيد، وذلك بأن بعثت إليه برسالة ذكّرته فيها بالحديث الأخير الذي أعربت فيه عن عدم ملاءمة الموقع بسبب ضعف الحماية الأمنية، وسعة انتشار مرض الملاريا هناك. كما أنني أصررت على القول بأنه إذا ما حصل أي أذى لحكمت سليمان نتيجة إقامته هناك، فإنّ نوري سيُعتبر على أكثر احتمال، هو المسؤول عن ذلك، وأن اعتباره الكبير سوف ينحط فعلاً.

لم يردّ نوري السعيد على رسالتي هذه، لكن تلك العملية ما لبثت أن أُلغيت في آخر لحظة. بقي حكمت سليمان في المستشفى، لكن أُلغي اعتقاله وسُمح له، خلال أسبوع، بالعودة إلى داره، وبذلك انتهى مسلكه السياسي، حيث كَرّسَ نفسه لمعمل الألبان الذي أقامه في مزرعته، وحين توفي بعد سنوات كان من أصحاب الملايين، لكنه فقد بصره.

كذلك كان نوري السعيد هو الآخر من المتطببين لديّ. ومع أنني كنت أراه باستمرار، إلاّ أنه لم يشر إلى رسالتي تلك إلاّ بعد سنوات. فقد صحبت عبد الإله في زيارة إلى عمّان، وحين كنا أنا وإيّاه ونوري السعيد

نتجاذب أطراف الحديث في إحدى الأمسيات، اغتنم عبد الإله هذه الفرصة ليسأل عما وقع لحكمت سليمان. ولقد دهشتُ حقاً إذ وجدت نوري يتحدث إلى عبد الإله عن رسالتي تلك، ويضيف إلى ذلك بحرارة قائلاً: «لو أنّ أي موظف بريطاني آخر تجرّأ على أن يكتب إليّ مثلما فعل «سنباد» ذلك، لطُرد من البلاد في غضون أربع وعشرين ساعة!».

بعد زواج غازي مباشرة طلب إليّ رئيس الوزراء آنذاك[٨] أن أحاول إقناعه بأن يقود سيارته عبر المدينة ومعه الملكة عالية غير محجبة. وقد أصرّ على ذلك بأن مثل هذا الأمر سوف يرفع من شهرة الملك وشعبيته، ويكون حجر الأساس نحو تحرير المرأة. غير أنني لم أحاول أن أفاتحه بذلك لاقتناعي بأنه إذا ما قَبل غازي به فسأكون ضحية لنقد جارف. ومن المؤكد أن الأمير عبد الله سوف يفزع حين يجد واحداً من «باشاواته»[٩] يبادر بعمل جد مخجل في نظره.

انتهى الحمـل الأول للملكة عالية بالإسقاط. وقد وفر هذا الحادث فرصة مهتبلة للتآمر ضدي من لدن قلّة من الأطباء العراقيين الذين كانوا يحسدونني. فقد كان كل دواء أصفه في الشهور الأخيرة يجري فحصه فحصاً دقيقاً على أمل أن يُعزى اللوم إليّ، وإنهاء تعاقدي مع الحكومة. ولقد سمعت من أحد أطبائي في المستشفى، بأنه قد دهش إذ علم بأن اثنين أو ثلاثة من أعضاء الوزارة كانوا يحملون الوصفات الطبيّة معهم ويستشيرون الأصدقاء الطبّيين على أمل العثور على دليل يمكن أن يُعزى إليه، سقوط الجنين، ولقد أخفقوا في ذلك. وقد أخبرني ياسين الهاشمي رئيس الوزراء آنذاك، وكان من مرضاي أيضاً، بالمؤامرة عندما دُعيت إلى منزله.

---

(٨) تزوج الملك غازي من ابنة عمه «عالية» في اليوم الخامس والعشرين من شهر كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩٣٣. وكان رئيس الوزراء في ذلك الوقت هو المرحوم رشيد عالي الكيلاني في وزارته الثانية.

(٩) يظهر من هذا أن لقب «باشا» قد حصل عليه سندرسن من الأمير عبد الله أمير شرقي الأردن الذي كان يمنح هذا اللقب جزافاً لكل من هب ودب!.

ففي أثناء الحديث أبدى الهاشمي ملاحظة فقال: «لا أظنني في حاجة إلى أن أُنبئك بأن هذه البلاد كانت نتيجة مؤامرة مع فيصل، الميت غير السعيد الآن، الذي كان أعظم منفذّ لها!» ومن ثم تحدّث عن المؤامرات التي وجِّهت ضدي، وإذ ذاك حزرتُ غرضه من اختيار التآمر كموضوع رئيس لهذا الحديث. لقد كانت هنالك منافسة سياسية طويلة ثابتة بين ياسين من ناحية، وبين نوري وجعفر من الناحية الأخرى. فقد كان ياسين يعتبرهما لعبتين للقصر، وأتخيّل الآن أنّ قصده هو أن يقنعني بأن الملك فيصل قد شارك في التآمر ضده لصالح خصومه، غير أن السبب الذي جعله يختارني كشخص يوثق به، بقي مجرّد حدس.

ولقد أخبرني السر هنري دوبس[١٠] قبل ذلك ببضع سنوات، وفي الوقت الذي كان فيه ياسين يمثّل حيرة له، أن نوري وجعفر تطوّعا بتقديم مساعدتهما في التخلّص منه. ولا حاجة إلى القول بأن ذلك العرض قد تم رفضه.

لقد كان تكريماً عظيماً حقاً لي حين أخذ غازي يسألني النصح حول مختلف القضايا. وكان يمهّد لاستفساراته تلك بقوله: «أنت صديق وثيق لوالدي». أو «أنت كواحد من أفراد عائلتي!».

ولقد تقبّل الاقتراح الداعي إلى قيامه بزيارات متواصلة للدوائر الحكومية، وللمستشفى، والمؤسسات الخيرية. وقد أصبح يتأنّق في مظهره عندما كان يؤم المسجد لأداء الصلاة كل يوم جمعة.

ومع ذلك كان غازي شديد الخجل جداً أمام الغرباء، ويضع نظارات على عينيه كما سبق أن قلت ذلك. وكان شديد الحياء إلى درجة كبيرة، وقد بدا عليه الخجل عندما صحب وليّ عهد السويد الأمير «غوستاف»

---

(١٠) هنري دوبس: تولى منصب المندوب السامي لبريطانيا في العراق في شهر كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٢٣ خلفاً للسر «برسي كوكس» الذي تقرر اعتزاله الخدمة، وقد عمل دوبس أولاً كمستشار للسير برسي كوكس أول مندوب سام بريطاني في العراق. وفي عهد دوبس فرضت المعاهدة الأولى على العراق، وتم تشكيل المجلس التأسيسي العراقي.

وزوجته الأميرة «لويزة»، وكان معهما كلٌ من أمير الدانمارك «برتل» والأميرة «أنغريد» (التي أصبحت ملكة الدانمرك فيما بعد) وكان هؤلاء ضيوفاً على الملك غازي لمدة أسبوعين، وذلك خلال جولة حافلة كانوا يقومون بها في الشرق الأوسط آنذاك[11].

كان من بين الضيوف الذين حضروا المأدبة التي أُقيمت تكريماً لهؤلاء الزوار الملكيين، الطيّار السيء الحظ «جم» و«إيمي موليسُن» اللذين اضطرهما العطب الذي أصاب الطائرة على التخلّي عن المشاركة في السباق الجوي الذي نظّمته مؤسسة «ماك روبرتسن» من إنكلترا إلى أُستراليا، وبذلك فقدا أملهما في الظفر بالجائزة التي تراهنا على نيلها وهي تُقدّر بعشرة آلاف باون.

على أنه لم يظهر من غازي أبسط دليل على الخجل أثناء زيارتهما القصيرة له، وذلك لأن اهتمامه بالطيران والطائرات كان قد تجاوز كل تحفّظاته.

لم يكن يوجد في بغداد آنذاك أي دبلوماسي آخر أكثر مثابرة في أداء واجباته من الدكتور «فريتز غروبا» وزير ألمانيا المفوّض في العراق. كان من جيراننا الأقربين في الشارع الذي كنا نسكنه، والذي يُعرف الآن باسم «شارع العسكري» إحياءً لذكرى جعفر العسكري. وكان معظم الذين يزورون «غروبا» يمرّون بدارنا. أما مفوضيّته فكانت مفتوحة لكبار موظفي الحكومة.. فكان الوزراء السابقون والحاضرون، وأعضاء مجلس الأعيان، وشيوخ العشائر يقابَلون فيها بكل حرارة حين يزورونها.

كانت توجد في بغداد، في تلك الأيام، زهاء اثنتي عشرة صحيفة يومية، وهي ضعيفة الرواج، ولا تحصل إلاّ على إعلانات قليلة إن وُجدت، ولم تكن توجد سوى قلّة من تلك الصحف لها عدد ضئيل من المشتركين، وقد استمرّت بعض هذه الصحف على الصدور بدعم من «غروبا».[12]

(11) وقعت زيارة هؤلاء لبغداد في خريف سنة ١٩٣٤

(12) لا يعرف على وجه التأكيد نوع الدعم الذي كان الالمان يقدمونه لبعض الصحف العراقية لكن عرف على وجه المثال ان صحيفة العقاب التي كان يصدرها يونس بحري وصحيفة (اليوم) التي صدرها جميل روحي كانتا من الصحف التي غمرت في حينه بانهماكات تتلقيان التأييد والتشجيع من الالمان.

لقد سعى هذا الوزير الألماني سعياً قوياً لإفساد علاقاتي مع العائلة الملكية، وبذلَ كل جهد مستطاع لإنهاء تلك العلاقات، مثال ذلك: أخذ «غروبا» ـ عندما توفي غازي إثر تحطّم جمجمته ـ يبث الإشاعات بأنني أنا الذي حِلْتُ دون إنقاذ حياة غازي. وكانت هذه الإشاعة دون ريب هي السبب المثير للفتك، بعد يوم واحد، بالقنصل البريطاني في الموصل، المستر مونك ماسون[١٢].

لم يكن البلاط الملكي يبعد سوى مسافة قصيرة عن كليّة الطب. وكنت على الدوام أُشاهد غازي هناك ومن دون أن أُستدعي لذلك، لأنني كنت أتمتع بامتياز الدخول في أي وقت أُدعى فيه. لقد صادف أن وصلت إلى البلاط في تلك المناسبة في الوقت الذي كان فيه «غروبا» والدكتور «رويحة»[١٣] صنيعة «غروبا» والذي وصل حديثاً، يهمّان فيه بمغادرة المكان، وفي أعقابهما أحد رجال القصر وهو يحمل صندوقاً خشبياً كبيراً مصبوغاً. وإذ اندفعتُ إلى غرفة غازي الخاصة سألته عن السبب الذي دعاه لأن يستدعي الدكتور رويحة لكي يراه، فأجاب غازي قائلاً: «إنني لم أطلب منه ذلك. لكن غروبا هو الذي اقترح هذا، ولم أشأ أن أظهر عدم الموافقة!».

---

(١٢) في اللحظة التي انتشر فيها خبر مقتل الملك غازي في بغداد، وحتى قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة بساعات، انفجرت التظاهرات في شوارع بغداد، وكان الانطباع العام لدى كل الناس أن غازي مات قتيلاً بتدبير من الإنكليز ومن صنيعتهم نوري السعيد. وفي اليوم التالي لوفاته نشبت التظاهرات في الموصل، واتجهت إلى القنصلية البريطانية فيها. وقتل المتظاهرون القنصل «ماسون» وقد ألقي القبض على عدد من المتظاهرين وحوكموا، وحكم عليهم بأحكام شتى، كان منهم المحامي هشام الدباغ الذي حكم عليه أول الأمر بالاعدام ومن ثم أبدل الحكم بالسجن مدة خمس عشرة سنة، وقد أطلق سراحه بعد الوثبة في سنة ١٩٤٩.

(١٣) يقصد به الدكتور أمين رويحة. وهو من الشبان السوريين المتحمسين للقضايا العربية، وقد عمل طويلاً في العراق وبعد فشل الثورة العراقية في شهر أيار (مايو) سنة ١٩٤١، اعتقل الانكليز الدكتور رويحة ونفوه مع غيره من العراقيين إلى مدينة سالسبوري بروديسيا في أفريقيا الجنوبية، وهي مستعمرة إنكليزية، ولم يفرج عنهم إلا بعد أن انتهت الحرب العالمية الثانية بعدة شهور.

لقد تحقق لديّ أنني بطرح هذا السؤال كنت أخاطر بمستقبلي في العراق. لكنني لم أحتمل، وأنا الطبيب الخاص لغازي، أن أرى طبيباً آخر يدخل عليه إلاّ باستشارة مني. ولقد أوضحت موقفي هذا، وكان من دهشتي وخلاصي أن ردّ غازي قائلاً: «لقد فهمتُ ذلك تماماً، وإنّ هذا لن يتكرر مرة أخرى». وقد تمسَّك غازي بوعده هذا تماماً، الأمر الذي أثار قلق الدكتور غروبا.

كان الوزير الألماني يعارض بعناد تفتيش كليّة الطب من قِبل بعض الأطباء البريطانيين الشهيرين، بقصد الاعتراف بها من لدن كليّتي الطب في أدنبره ولندن. وكان هذا الأمر واحداً من مطامحي التي كنت أتطلّع إليها حينما ارتدى أوائل المتخرّجين في كليّة الطب كسواتهم الرسمية، حيث قوبلتُ إجازتي بعد حفلة التخرّج تلك، بالترحيب الحار في كلٍّ من أدنبره ولندن معاً.

ففي لندن تناولت طعام الغداء مع السر «هيولت» رئيس كليّة الجرّاحين الملكية، والتقيت مع زملاء من كلتا الكليّتين، ودُعيت عن طريقهم لحضور الامتحانات الدورية التي كان يعقدها مجلس الممتحنين المشترك لمنح الشهادات الطبيّة. وكان يُشرف على الامتحان الدكتور «تشارلس ولسون» (اللورد موران فيما بعد) وعميد مدرسة الطب في مستشفى «سانت ماري». وقد أفضى إليّ بنصيحة مشجّعة عن طُرق التعليم الحديثة. أما في «أدنبره» فقد كان كلٌ من البروفسور والزميل «السر جون فريزر» ورؤساء الكليّتين الملكيتين متعاونين معي تمام التعاون.

كانت هناك ادعاءات حول توقّع الاعتراف الكامل بكليّة الطب ـ كما فعلت ذلك مديرية الصحة العراقية ـ من دون تفتيش مُسبق تقوم به لجنة منتدبة لهذا الغرض. وكان مثل هذا الاقتراح يعتبره الدكتور حنا خياط غير قابل التنفيذ. ولما حظي خياط بمساندة الوزير له قاوم ذلك الاقتراح باعتباره انفاقاً لا مبرّر له. غير أنني نصحت بإجراء التفتيش لغرض تسهيل تدريب المتخرجين، والظفر بالشهادات البريطانية في موضوعات خاصة. لكن هذه النصيحة لم تُنَفَّذْ في ذلك الوقت.

اشتدت المعارضة للتفتيش عندما أعلن الدكتور غروبا ـ إثر سماعه ذلك ـ بأنه سيكون مسروراً لتهيئة التسهيلات اللازمة للخرّيجين في المانيا بقصد حصولهم هناك على مؤهلات أعلى.

واضح أن المانيا لم يكن لديها أدنى اعتراض على منح الشهادات للأجانب ما دام لا يمكن أن يُسمح لهم بممارسة العمل هناك.. ومهما يكن الأمر فقد قوبلت إغراءات الدكتور غروبا هذه بالزيغان عنها، ذلك لأن الخرّيجين لم يرغبوا أن يجابَهوا بلغة أجنبية أُخرى، قبل أن يواصلوا دراساتهم.

ومع أن مستشفى «هداسا» الجميل في القدس كان المكان المفضّل لدى خيرة الأطباء اليهود الذين كانوا يهربون من النازية، إلاّ أن قلّة من هؤلاء اليهود قد وجدت طريقها إلى بغداد. لم يكن هؤلاء الأطباء من الزوار الذين يرحَّب بمجيئهم بصفة رسمية، وقد حظرت عليهم الممارسة العملية إلاّ في المناطق النائية التي لم يكن أحد يرغب في الذهاب إليها.

ولقد استطعت أن أحصل على تعيين رسمي لاثنين من هؤلاء الأطباء اليهود. كان أحدهم طبيباً شهيراً للأطفال، أما الثاني فهو طبيب ممتاز في الأعصاب. كان الأول رجلاً ذا ثقافة واسعة ومن العازفين اللامعين على «البيانو» وقد برهن على مقدرة فائقة في مستشفى الأطفال، غير أن زوجته وبقية أفراد عائلته كانت تعيش في إنكلترا. وبعد سنة من استخدامه في العراق حاول ـ وهو في عزلته ـ أن ينتحر بأن زرق نفسه بكمية كبيرة من «المورفين» وقد استطعنا أن ننقذ حياته في تلك الأثناء، حيث استسلم بعد ذلك لتناول جرعة كبيرة من الدواء.

كان الدكتور «هانس هوف» وهو اخصائي بأمراض الأعصاب، من الأناس الذين رحّبتُ بإضافتهم إلى قائمة الأطباء العاملين تحت إمرتي. فقد كانت نباهته تتجاوز الحدود. ولذلك كنت في حاجة ماسّة إلى طبيب أخصائي في مستشفى الأمراض العقلية الذي يُعتبر مساعداً لكليّة الطب.

عاد «هوف» إلى «فيّينا» ليمارس عمله فيها بعد الحرب العالمية الثانية، وبقيتُ أتراسل معه حتى إلى وقت قصير من وفاته التي حدثت قبل سنوات قلائل.

* * *

وقعت وفاة الملك غازي بصفة مفاجئة، ومؤسية ومفجعة، وفي غير وقتها، بعد منتصف ليلة اليوم الرابع من شهر نيسان (أبريل) ١٩٣٩، ولم يكن فيصل الثاني قد أكمل الرابعة من عمره بعد آنذاك.

كنت أستمتع بعد العشاء بالحديث في حديقة جاري «وليَم هوستن بوزويل» الذي كان جملة من الأصدقاء يطلقون عليه للتحبّب لقب «هوستي بو» والذي شغل أخيراً منصب الوزير المفوّض لبريطانيا في بيروت، ووظيفة قنصل في السفارة البريطانية، حين أقبل خادمنا الهندي «يوسف» راكضاً نحوي وهو في حالة هياج شديد ليقول صارخاً: «صاحب! صاحب! إنّ القصر يريدك على جناح السرعة، إنهم ما يزالون على خط الهاتف!»

استدرت من فوق الجدار، وسرعان ما سمعت ضجّة أصوات تنبعث من جهاز الهاتف. لم يكن من اليسير التأكد من طبيعة الحادث الفجائي، لأن جملة من الأصوات الرجالية والنسائية كانت تتصاعد في الحال، وتحاول أن تكون مسموعة في ذات الوقت. ولقد استطعت أن ألتقط بعض الكلمات مثل: «الملك»، «سيارة». وكانت هذه الكلمات كافية للإشارة إلى أن الملك كان ضحية حادث سيارة.

وفي الوقت الذي كنت أجمع فيه أدواتي الطبيّة في حقيبتي وأضيف إليها بعض الضمادات وغيرها، كانت «إلزي» قد اتصلت هاتفياً بالدكتور «نويل براهام» كي تخبره بأن الملك قد أصيب في حادث اصطدام سيارة، وتطلب إليه أن يتبعني إلى قصر الزهور بأسرع ما يمكن.

كانت سيارتي عند الباب، وكان سائقي «عبد الله» واقفاً بجانبها، عندما وصلت إحدى سيارات القصر، وطلب إليّ سائقها أن أصعد إليها لأنها ـ كما أصَرَّ ـ أسرع من سيارتي «الهمبوبيل»؛ لم يكن لديّ أدنى شك

بأنه كان مصيباً فيما قاله. وهكذا انطلقنا عبر المدينة وفيما وراء السدّة التي تقع خلف المطار والتي يبلغ طولها زهاء أربعة أميال، بأقصى سرعة مستطاعة.

لقد حدث ذات مرة أن كان عبد الله يقود بي السيارة فوق حافة سدّة ضيّقة وسط الضباب، فانقلبت بنا. غير أننا كنا نسير على مهل، ولم أدرك في الواقع المصير الذي كان ينتظرني.

ومهما يكن؛ فقد وصلنا إلى القصر بسلام، ولكني لدهشتي وجدتُ القصر في ظلام شامل، وحين سألت عن السبب، قيل لي: أن الحادث الذي وقع للملك قد قطع التيار الكهربائي أيضاً.

لم يكن هنالك من وقت لإلقاء المزيد من الأسئلة، ولذلك أسرعت إلى غرفة كبيرة في الطابق الأرضي كان الملك فيها مُلقى على مطرحة في شبه ظلمة، وهو فاقد الوعي، وقد لُفّ رأسه الملقى على الوسادة، وكذلك الجزء الأعلى من وجهه، بضماد غارق في الدم.

كان يحيط به كل من الملكة عالية وآخرون من أفراد الأسرة المالكة وأحد المرافقين، ومن ورائهم حشدٌ من التابعين، وجمعٌ من الخدم الباكين، الذين تم صرفهم بسرعة.

كان نبضه ضعيفاً. وكانت نظرة واحدة إلى ما تحت ضماده المتفكك، تكفي للتأكد من استحالة بقائه على قيد الحياة لأكثر من ساعات قلائل على أعظم احتمال. فقد تحطّم قحف جمجمته، وغاصت قِطَعٌ منه في دماغه.

بقيت الملكة عالية هادئة، وطلبت إليّ أن أقول لها الحقيقة وهي تتوسّل قائلة: «أريد أن أعرف. . . لأنه إذا ما مات غازي فلا بد من تعيين وصيّ!».

لقد حزرتْ مُسبقاً أن جراحه قاتلة، وحين اعترفتُ لها بشدة تلك الجروح، طلبت إليّ أن أُعطيه زرقة على أمل أن يصحو بما يكفي لكي

يقول بأنه كان يرغب بأن يخوِّل عبد الإله سلطة الملوكية؛ ما دام فيصل الثاني لم يبلغ سن الرشد بعد.

نفذتُ ما طُلب مني، لكن ذلك كان أملاً خائباً. كانت الملكة جريئة جداً، غير أن أصوات التابعين المعوّلين كانت تضيف إليها المزيد من الأسى. ولقد أصررت على أن تُغلق الأبواب، وأن توضع حراسة على كل باب منها.

طلبتُ إلى رئيس المرافقين بأن يتصل هاتفياً برئيس الوزراء نوري باشا، وأن يطلعه على الحالة. كما طلبت إليه أيضاً بأن يستدعي الدكتور صائب شوكت مساعد الدكتور براهام أستاذ الجراحة، إلى القصر حالاً. لقد كنت أخشى أن يعمد مختلقو الإشاعات - إذا لم يحضر أحد الأطباء العراقيين - إلى اتهامي أنا والدكتور براهام بأننا كنا مسؤولين عن وفاة الملك.

توفي الملك غازي في الساعة الثانية عشرة والدقيقة الأربعين، بعد منتصف الليل، وقد وقعنا ثلاثتنا على شهادة وفاته. غير أنه حتى هذا الاحتياط لم يمنع الوزير الألماني «غروبا» من الدسّ المغرض. فلقد زار في اليوم الثاني المكان الذي وقع فيه الاصطدام. وصادف أن التقى هناك بالوزير الأمريكي المفوض «بول نابنشو» ليهمس في أُذنه أثناء الحديث معه قائلاً: «لقد سمعت أن سندرسن لم يدعه (أي الملك) يعيش!».

كان «غروبا» يعتبر وفاة الملك غازي فرصة جاءت بها السماء لنشر دعاية مضادة للبريطانيين، واستطاع أن ينشر هذه الدعاية بنجاح إلى درجة أنه حدث في صباح اليوم التالي؛ أن أحاط حشد من الأهلين بالقنصلية البريطانية في الموصل، وقد واجههم القنصل «مونك ماسون» بشجاعة على درجات السُّلّم، لكنه سقط بعد أن أُصيب بضربة فأس على رأسه ثم قُتل بوحشية. ولا بد أن غروبا كان يأمل في مصير مماثل لي أنا، ولم تكن غلطته هو لأنني بقيت على قيد الحياة.

* * *

كان الملك غازي، كما أشرت إلى ذلك قبلاً، سائقاً مغامراً. ففي الليلة التي مات فيها كان يستضيف عنده مجموعة من الشبّان العزّاب. وإذ انتهت متعة الأمسية، اقترح التفرّج على أحد الأفلام في مسرحه الخاص. غير أن هذا يعني جلب الفيلم من مستودعه في «الحارثية»، والذي يقع على مسافة قصيرة من قصر الزهور.

لقد قرّر أن يذهب بنفسه ويجلب الفيلم. وإذ صحبه أحد المرافقين، وسائقه «إبراهيم» امتطى سيارة ذات سرعة عالية، وراح يستبق بها نحو القصر. كان الظلام قد أرخى سدوله. وكان جانب الطريق الذي يؤدي إلى المستودع تكتنفه أماكن مبعثرة غير مستوية. وحين كان يسير بسرعة متناهية فقدَ السيطرة على السيارة، فاصطدم بعمود كهربائي مُثبت على مقربة من جانب الطريق. كان العمود مُثبتاً بكتلة هائلة من الخرسانة، لكن الاصطدام اقتلع العمود والخرسانة معاً من الأساس، فسقط العمود داخل السيارة وعلى رأس المسكين الملك غازي. أما الراكبان الآخران معه فقد نجيا من الإصابة بجراح خطيرة[15].

في غضون عشرين دقيقة من وفاة الملك غازي، عقدت الوزارة اجتماعاً طارئاً، كان كل الوزراء تقريباً قد حضروا في ذلك الوقت إلى القصر. وقبل أن يجتمعوا طلب مني رستم حيدر، أن أعلن بأن الملك كان قبل أن يموت قد أعرب عن رغبته بأن يعهد إلى عبد الإله بتحمّل مسؤولية السلطة كوصيّ على العرش.

رفضت أن أفعل ذلك، لأن الملك غازي لم يسترجع وعيه ولو للحظة واحدة. وحتى لو أجرمتُ في إعطاء مثل هذا التأكيد الكاذب؛ فإن هناك كثيرين ممن هم على استعداد لتفنيده.

كان البديل المتوقع هو «الأمير زيد». ولسبب ما أو آخر؛ فإن أعضاء

---

(15) استدعي أحد أقاربنا وهو المرحوم السيد إبراهيم البغدادي إمام جامع باب الأغا، لتغسيل جثمان غازي. وعندما حاول نزع الضماد الذي لف به رأس غازي لغسله. رفض نوري السعيد ذلك. انظر عن مصرع غازي كتاب « جسر الودي غوري » ثلاثة ملوك في بغداد .. الذي ترجمناه ونشرناه في منتصف سنة ١٩٨٣!

الأسرة المالكة لم يطرحوا الاقتراح بتعيينه. وفي النهاية أعطت الملكة عالية والأميرة راجحة (ابنة الملك فيصل) تأكيداً مشتركاً مفاده أن الملك غازي كان على الدوام يقول: «بأنه إذا ما حدث أن توفي قبل أن يبلغ فيصل الثاني سن الرشد، فإن عبد الإله سيكون هو الوصي». وقد وافقت الوزارة على ذلك، وعُيّنَ عبد الإله وصيّاً في الحال.

* * *

كان عبد الإله الذي وُلد في مكة سنة ١٩١٣ يصغر غازي بسنة واحدة، وقد أمضى عبد الإله مع غازي السنوات الأولى من طفولته بين القبائل البدوية، وهي تجربة لم يستذوقها مثلما استذوقها ابن عمه غازي. وكان عبد الإله هو الولد الوحيد بين الأطفال الخمسة الذين أنجبهم الملك علي. وكان عبد الإله كثير التعقيد، وله قسط وافر في الآراء الحسنة التي كانت تبدر من العائلة. وكان يفتخر على الدوام بأنه أطول الأحياء قامة من الهاشميين.

أما أُمه الملكة «نفيسة» فقد كانت مثقفة وإمرأة ذات قابلية شهيرة. فقد عهد إليها بتربية أطفالها، وكانت لها عادةً الكلمة النهائية في كل الأمور التي تخص الجميع. كما كانت مؤيدة بشكل عنيد لتقاليد الزواج وصِلة الرحم بين أفراد العائلة وحدهم، ولو أنها أخفقت في أن تحول بين عبد الإله وزواجه من عروستين مصريتين.

لم يكن أفراد البيت الهاشمي معتادين على أن يتركوا للأمهات أمر العناية بأطفالهم حسب. بل إنه بالإضافة إلى ذلك، كان من غير المعتاد بالنسبة للآباء إبداء أكثر من الاهتمام الطفيف حتى في رعاية أولادهم. ولقد سألتُ الملك فيصل الأول ذات مرة، عما إذا كانت الغيرة هي المسؤولة عن ذلك، فأنكر هذا الأمر إطلاقاً، وعزا ذلك إلى التقاليد القائمة، لكنه أصرّ في الوقت ذاته بأنه كان يهتم بتربية غازي اهتماماً عميقاً.

لم يكن هناك تدليل للأطفال في مملكة الملك علي. وليس لديَّ سوى شك ضئيل بأنه لو كانت الملكة نفيسة هي أُم غازي لأصبح شخصاً مغايراً تماماً.

كذلك جرّب عبد الإله، مثل غازي، التعلّم في إنكلترا. وقد وجد ذلك أمراً لا يُطاق. وحين استبدّ به الحنين إلى الوطن، هرب من إنكلترا، الأمر الذي سبّب الاضطراب الكبير، إلى أن اكتُشف مكانه فاحتُجز في البيت.

ولقد واصل تعلّمه في كليّة فكتوريا بالإسكندرية، وهي طراز من مدرسة عامة أمضى أيامه فيها هانئاً. ومع أنه كان واسع الذكاء؛ إلّا أنه لم يفكّر في الحصول على شهادة من الجامعة، أو أن يُعيَّن في البلاط، وذلك لكي يتجنب احتمال حدوث أي نوع من الغيرة. وقد بدا على عبد الإله أنه كان يتطلّع إلى مستقبل من الأنس، والكسل، والهدوء؛ بالإضافة إلى هوايات الفروسية.

ومهما يكن الأمر، فقد برهنت وفاة الملك غازي سنة **١٩٣٩** على إيجاد فرصة واسعة محظوظة لتوسيع أُفق التجربة لدى عبد الإله؛ حيث استفاد من ذلك أوسع استفادة. والذي اعتقده هو أنه لم يذكر قبلاً وجود أمل تافه لعبد الإله بأنه سيُستدعى في يوم من الأيام ليغدو ملكاً على الحجاز، حين لم يطلب تجنّسه بالجنسية العراقية، إلّا بعد أن أصبح ذلك أمراً لازماً لتعيينه وصيّاً على العرش.

وقد اعترف لي في إحدى المرّات بأنها كانت من عناية الله أنه لم يُرزق طفلاً، لأن مثل ذلك الولد كان لا بد وأن يتطلّع في يوم من الأيام إلى عرش العراق.

الفصل الحادي عشر

قرقعة السلاح في مدينة السلام

ثورة آيار الوطنية ١٩٤١

أعلنت بريطانيا العظمى الحرب على المانيا في اليوم الثالث من شهر أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٣٩. وكان من حُسن حظ الحلفاء أن يكون نوري السعيد، وهو أقدر رجل دولة في الشرق الأوسط، وصديق ومُعجب «بالأرض التي تنبت الرجال الأحرار»[١]، هو الذي يتولى رئاسة الوزارة في العراق آنذاك.

كانت هناك حاجة إلى الشجاعة والعزم والمهارة لغرض إقناع مجلس الوزراء للإيفاء بالالتزامات الواردة في المعاهدة. وكان على نوري السعيد أن يتغلّب على وجهات النظر التي تحبّذ الدفاع كثيراً عن تأخير تنفيذ هذه الالتزامات، بل وحتى التملّص منها.

ومع هذا، وبعد تذكيرات لم تنقطع، بأن العراق - طبقاً لبنود المعاهدة البريطانية العراقية لسنة ١٩٣٠ - لن يشترك في القتال المسلّح، وأن كل ما هو مطلوب منه، استخدام سكك الحديد فيه، وأنهاره، وموانئه، ومطاراته. فقد نجح نوري في هدفه.

تعرّض مجلس الوزراء إلى إلحاح برفض التزامات العراق قام به كلٌّ من رشيد عالي الكيلاني، ومفتي القدس المنفي الحاج أمين الحسيني، ذلك الثعلب المراوغ المتربّص في الساحة، والذي يستحق كثيراً أن يُلقب

(١) يقصد بذلك «بلاد بريطانيا».

باسم: «الثعلب الأحمر». فكلاهما قد تم تلقينه بمثابرة من لدن الوزير الألماني[٢].

وكان من حُسن الحظ أنه في الوقت الذي استقرّ فيه القرار على حافة الخطر، قطعت مصر علاقاتها مع المانيا، وقد دلل عملها هذا على أنه كان أمراً حاسماً أن يتعقب العراق ذات النمط، وهو المصير الذي حققه نوري السعيد خلال ثلاثة أيام.

كانت مكائد الوزير الألماني واضحة خلال سنتين على أقل تقدير. غير أنه لم تكن هناك سوى قلّة من الناس؛ من بينهم «أرشيبالد كلارك كير»[٣]، كانت تُعلّق أهمية على تلك المكائد.

حين تم إعلان قطع العلاقات الدبلوماسية بين العراق والمانيا في اليوم الحادي عشر من أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٣٩، استُدعيَ الملك فيصل الصغير وأُمّه عالية، وأعضاء آخرون من العائلة الملكية، من مصيف «عاليه» في لبنان حيث كانوا يمضون الصيف هناك.

كانت زوجتي إلزي معهم، ولذلك تم إرسالي إلى هناك لمرافقتهم أثناء عودتهم إلى الوطن.

وعند وصولنا إلى الحدود السورية وجدنا «غروبا» وعائلته وأعضاء سفارته مع قافلة كبيرة، وقد توقفوا هناك انتظاراً لإكمال معاملة الجمرك والجوازات، وما إن وصلنا إلى النقطة التي كانوا فيها حتى انحنى «غروبا»

---

(٢) هو الدكتور «فريتز غروبا» سفير ألمانيا الهتلرية في العراق. وقد اتهم الإنكليز وعملاؤهم منذ البداية ثورة أيار (مايو) بأنها من صنع الألمان وتحريضهم. وأن القائمين بها كانوا من عملاء النازيين. والحقيقة أن الشعب العراقي لم يكن يحب الألمان في تلك الوقت، إلا بسبب تصديهم للإنكليز والفرنسيين الذين كانوا يسومون البلاد العربية كلها سوء العذاب. وكذلك للصهيونية التي أخذت مطامعها تتسع في فلسطين، وأن ألمانيا لو كانت هي التي تحتل العراق واصطدمت [illegible] لقاوم الشعب العراقي المحتلة هذه بكل ما لديه من قوة وبأس.

(٣) سفير بريطانيا في العراق أثناء الفترة التي وقعت فيها الحرب بين بريطانيا ومعها حليفتها فرنسا، وألمانيا الهتلرية.

بفتور للملك، ولذلك رددتُ أنا التحيّة نيابة عن الملك ،وبطريقة مماثلة.

أصبح الحاج أمين الحسيني مفتي القدس السابق مثار إرباك للحكومة العراقية منذ وصوله إلى بغداد. كان مُفسداً وداهية. وقد ظفر ـ نتيجة موقفه الديني ومعارضته الحازمة لإقامة دولة يهودية في فلسطين ـ باعتبار محليّ، وبأسبقية تجاوزت مكانته بين رجال الدين الإسلامي.

كان يخشى من المفتي خشية واسعة. وليس هناك غيرُ شكٍّ طفيف في وقوفه وراء عملية اغتيال الملك عبد الله ملك شرق الأردن عام ١٩٥١، بسبب تسامح حاكم شرقي الأردن إزاء دولة إسرائيل الجديدة.

ولم يمض وقت طويل حتى أصبح المفتي والوزير الألماني صديقين حميمين. وقد استخدم المفتي نفوذه للحصول على إذن لأحد أصدقائه، وهو من الأطباء السوريين البارزين، للعمل في بغداد[٤].

وسرعان ما رحّب غروبا بهذا الإجراء على أمل أن يستطيع، بتدبير هادىء، تجريدي من منصبي في القصر، وكان ذلك واحداً من الأهداف التي كان يتحرّق إلى تحقيقها.

ولقد أشرتُ في الفصل السابق إلى احتجاجي لدى الملك غازي عن الزيارات التي كان يقوم بها هذا الطبيب إليه، وبدون علم مني. ولا يساورني سوى شك ضئيل في أن غروبا كان يسعى إلى مساندة رشيد عالي الكيلاني الذي أصبح في ذلك الوقت رئيساً للديوان الملكي.

كان السيّد علي جودت الأيوبي الذي أصبح رئيساً للوزارة للمرة الثانية[٥] قد طلب إليّ أن أزوره في داره، فرحبّت بذلك ترحيباً صادقاً

---

(٤) يقصد به الدكتور أمين رويحة، وقد سبق التعريف به في صفحة ٢٣٤، هامش رقم (١٤)

(٥) ألف علي جودت الأيوبي وزارته الأولى في الفترة ما بين سنة ١٩٣٤ ـ ١٩٣٥، ثم عاد إلى رئاسة الوزارة للمرة الثانية في الفترة ما بين سنتي ١٩٤٩ ـ ١٩٥٠، وآخر وزارة ألفها الأيوبي هي وزارته الثالثة التي تألفت في ٢٠ حزيران (يونيو) ١٩٥٧ واستقالت في اليوم السادس عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) من ذات السنة.

جداً. وبعد تبادل التحيّات ذكّرني بأنني البريطاني الوحيد الذي يتمتع بسلطات تنفيذية، ثم أخبرني فيما بعد: بأنّ مجلس الوزراء قد طلب إليه أن يوضح لي بصفة شخصية، بأنّ المجلس ـ طبقاً لسياسة إحلال العراقيين في كل مناصب الإدارة ـ قد قرر متردداً في آخر الأمر، أن عليّ أنْ أتقبّل إحلال الدكتور صائب شوكت في محليّ، على شرط أن أعمل بتعاون معه. ولقد ثمنّت هذه المسألة وأعربتُ عن موافقتي. ولكن لمّا كان صائب شوكت من الموالين للألمان فقد توقعتُ احتمال وقوع مؤامرة، وقد أصبح رشيد عالي الكيلاني بعد ذلك حالاً رئيساً للوزراء.

وحتى قبل أن يتولى رئاسة الوزارة، وأثناء توليه منصب رئيس الديوان، كان رشيد عالي شوكةً في حلق نوري السعيد. فقد أصبح فيما بعد مستشاراً للوصيّ وساعده الأيمن. وكان أشد المعارضين للمعاهدة البريطانية العراقية لسنة ١٩٣٠. ولقد عمل كل ما في وسعه لتأخير تنفيذ أحكام المعاهدة؛ بقدر ما كان الأمر يتعلّق بالعمليات الحربية. وكان يتعاون في هذا المجال مع غروبا، ولكن بدناءة أكثر فيما بعد.

كان غروبا على اتصال وثيق مع بكر صدقي قبل أن يُغتال الأخير في سنة ١٩٣٧. كذلك أوجد غروبا له تفاهماً أيضاً مع طائفة من كبار ضباط الجيش عُرفوا باسم: «الرجال السبعة[٦]»، واستطاع عن طريقهم الحصول على عطاء واسع بتجهيزات عسكرية للجيش العراقي على غير علم من نوري السعيد، ومن رستم حيدر الذي كان يتولى وزارة المالية آنذاك، ولكن بعلم من طه الهاشمي وزير الدفاع. وكان أحد أولئك الضباط السبعة هو العقيد صلاح الدين الصبّاغ مدير الحركات.

لم يكن نوري السعيد يوافق على تدخّل الجيش في الأمور السياسية، ومع ذلك فقد التجأ إلى هذا التدخّل عشيّة عيد الميلاد سنة ١٩٣٨، للتخلّص من الوزارة المقيتة التي كان يرأسها جميل المدفعي[٧].

(٦) الضباط السبعة هم كل من: صلاح الدين الصباغ، وفهمي سعيد، ومحمود سلمان، وكامل شبيب، وحسين فوزي، وأمين العمري، وعزيز ياملكي.

(٧) تألفت وزارة جميل المدفعي الرابعة بعد استقالة وزارة الانقلاب التي رأسها حكمت =

وقد نجح هذا الانقلاب؛ فأصبح نوري السعيد رئيساً للوزارة، لكنه قد اختار في هذا سابقة خطرة، هي ذات السابقة التي استُعملت بعد عشرين سنة لقتل أفراد العائلة المالكة. وقتل نوري نفسه بصفة لا إنسانية!

كان لكل الساسة البارزين خصوم. وكانت المؤامرات قائمة على قدم وساق. وكان نوري السعيد هو البارز بينهم وفي دست الحكم على الدوام تقريباً، إن لم يكن رئيساً للوزارة فوزيراً للخارجية أو الدفاع. ولذلك كان محسوداً من لدن أولئك الساسة قاطبة. وخير شاهد ملموس على قابليته العظمى أنه بقي الشخصية السياسية المهيمنة على العراق منذ تأسيس الحكومة سنة ١٩٢١ حتى مصرعه في سنة ١٩٥٨.

كان شديد الوطنية، وذا كفاءة وفطنة بارزتين، ومع ذلك فلم يكن يتأثر إطلاقاً. وكان ذا روحيّة مرحة بشكل عجيب. وكان بطبيعته يثق ويعفو، لكنه لم يكن حكيماً دوماً في اختيار زملائه السياسيين.

* * *

افتُتحت سنة ١٩٤٠ باغتيال رستم حيدر[٨]. كان مقتل هذا الزميل

= سليمان، في اليوم السابع عشر من شهر آب (أغسطس) ١٩٣٧. ولكن ضباط الجيش، وفي مقدمتهم الرجال السبعة، سرعان ما شرعوا يعملون ضدها، وراحوا يلحون على الملك غازي في إقالتها وتعيين نوري السعيد رئيساً للوزارة، وقد اتصل الملك غازي في حينه بالعقيد صلاح الدين الصباغ، وكان في معسكر الجيش، محاولاً إقناعه بالعدول عن ترشيح نوري للرئاسة، وقد جرت بينهما المكالمة التالية: ـ

الملك ـ يا صلاح الدين، لقد استدعيتم جميلاً على متن طائرة من لبنان بعد مقتل بكر ليرأس الوزارة، وكان ذلك خلاف رغبتي، فماذا تريدون الآن؟

صلاح ـ حنث جميل بعهوده وقسمت وزارته الجيش إلى معسكرين.

الملك ـ سأقبل الاستقالة يا صلاح الدين بشرط أن لا يأتي نوري بعده. وأنا أوافق على إسناد الوزارة لأي رئيس باستثناء نوري السعيد.

صلاح ـ ولكن نوري هو المطلوب يا سيدي بعد أن رفض طه رئاسة الوزارة، وينهي صلاح الدين الصباغ هذا الحديث الذي دونه حرفياً في مذكراته «فرسان العروبة في العراق» بقوله: «ولم يتراجع الملك وبقي على رأيه. فما انبثق الفجر حتى كان لنوري ما تمنى، وكان لطه ما أراد».

(٨) قتل رستم حيدر، وهو سوري الأصل، جاء مع الملك فيصل الأول إلى العراق، قبل ظهر =

الموثوق به، يمثّل كارثة بالنسبة إلى نوري السعيد، ولذلك استقال بعد مرور شهر على ذلك الحادث[9]. لغرض أن يعود -وبعد يومين على استقالته ليس إلاّ- إلى إغراء «المربّع الذهبي» وهو معشر من ضباط الجيش[10].

كان من الملحوظ على الدوام تلك السرعة التي كانت تتم بها تبديلات الحكومة في هذا الشأن. ففي خلال شهر واحد استقال نوري السعيد من الحكم مرة ثانية، فأعقبه رشيد عالي الكيلاني في الرئاسة. وبإلحاح من الوصيّ قَبِل نوري السعيد بمنصب وزير الخارجية في وزارة الكيلاني تلك[11].

وعن طريق حكومة ائتلافية، كان رشيد عالي يخطط للبقاء في الحكم

= اليوم الثامن عشر من كانون الثاني (يناير) ١٩٤٠ بمكتبه في وزارة المالية على يد شخص يدعى حسين فوزي توفيق أحد مفوضي الشرطة المفصولين. وقد اتهم صلاح الدين الصباغ الإنكليز بقتل رستم، فكتب عنه في مذكراته يقول: «قتل رستم حيدر غيلة تطبيقاً لما تقتضيه المصالح البريطانية في العراق». في حين وجه العامة التهمة إلى نوري السعيد.

(٩) على أثر مقتل رستم حدث انشقاق في وزارة نوري السعيد بشأن التحقيق في حادث الاغتيال، ولذلك اضطر نوري السعيد إلى تقديم استقالته في الثامن عشر من شباط (فبراير) ١٩٤٠.

(١٠) المربع الذهبي: Golden Square: تسمية دنيئة أطلقها الإنكليز وعملاؤهم على العقداء الأربعة الذين قاموا بثورة أيار (مايو) ١٩٤١، إذ اتهموهم بأنهم تلقوا الذهب من ألمانيا الهتلريه للقيام بتلك الثورة، أي أن الذهب الأجنبي هو الذي حركهم إلى الثورة ضد الإنكليز. أما ما ذكره سندرسن عن محاولة نوري السعيد إغراء العقداء الأربعة بعد استقالته فنقول: إن نوري السعيد راح يغري أولئك العقداء وهو ما يزال في رئاسة الوزارة. ففي مساء اليوم الرابع عشر من شباط (فبراير) ١٩٤٠، دعا نوري السعيد إلى داره كلا من: صلاح الدين الصباغ وفهمي سعيد، ومحمود سلمان، وكامل شبيب، وسعيد يحيى، وإسماعيل نامق، لتناول العشاء عنده، وأعرب لهم عن رغبته في التخلي عن رئاسة الوزارة، وعن اتفاقه مع طه الهاشمي على إسناد الوزارة إلى رشيد عالي الكيلاني على أن يصبح هو وزيراً للخارجية فيها.

(١١) ألف رشيد عالي الكيلاني وزارته هذه، وهي الثالثة، في اليوم الحادي والثلاثين من شهر آذار (مارس) سنة ١٩٤٠، وقد استقالت هذه الوزارة في الحادي والثلاثين من كانون الثاني (يناير) ١٩٤١.

- خلال فترة واحدة قصيرة - إلى أن بدأت محاولته لاستلام الحكم في سنة ١٩٤١.

في أوائل سنة ١٩٤١ بُذلت الجهود، وبموافقة الوصيّ، على إقصاء رشيد عالي الكيلاني عن الحكم. ولذلك حدثت جملة استقالات من وزارته، بمن فيهم نوري السعيد، لتحقيق هذا الغرض[١٢].

ومع ذلك فقد ازدادت العلاقات، في هذا الوقت، وثوقاً بين رشيد عالي والعقداء الأربعة، وأنّ الوصيّ لم يخفق في تحقيق هدفه فحسب، بل إن الوضع ساعد رشيد عالي على أن يملأ الشواغر في وزارته بوزراء من الذين كانوا يعطفون على الألمان.

كان كل من نوري السعيد، ورشيد عالي، وحكمت سليمان، من بين الذين كنت أطببهم لسنين عديدة. وكان كل واحد منهم يعرف أنني طبيب للآخرين، مثلما أنا طبيب للعائلة المالكة وللسفارة البريطانية أيضاً.

ولقد اتهمتني الدعاية الألمانية بأنني كنت عضواً في عصابة بريطانية للاغتيال. ولعلّ خير نموذج لهذا النوع من المزاعم المضحكة، تعرضه الترجمة التالية لقصاصة من جريدة «داي تسايت Die Zeit» الألمانية الواسعة الانتشار في الشرق الأوسط قبلاً. كان عنوان الخبر المنشور في هذه الجريدة هو: «خدمة سرية من دون قناع». أما العنوان الإضافي فهو: «عصابة القتل في القاهرة مع قائمة بجرائمها». ويذكر أنّ «أثينا» هي مصدر هذه المعلومات. وأقتبس من هذا الخبر هنا بعض الفقرات التي تقول: «توافرت لنا فرصة الاطلاع بصفة مفصّلة على العمل الذي تمارسه فرقة خدمة سريّة وزعماؤها، ولقد عُرفت هذه الفرقة منذ وقت قصير باسم: «عصابة الموت»، ومصدر الخبر يُعتمد عليه كثيراً.

وهذه العصابة قسم من مصلحة الاستخبارات البريطانية في الشرق

---

(١٢) كان أول المستقيلين هو أمين زكي وزير الاقتصاد، وأعقبه طه الهاشمي وزير الدفاع، وصادق البصام وزير المعارف، ثم نوري السعيد وزير الخارجية، وناجي شوكت وزير الدولة، وناجي السويدي وزير المالية.

الأوسط، وتحت تصرّفها أموال طائلة وواسعة جداً إلى درجة لا يمكن مقارنتها بالمبالغ المودعة تحت تصرّف المنظمات الأخرى. : كالشرطة، ومكافحة التجسّس، والخدمة السريّة، وغيرها.

وتتألّف عصابة القتل هذه من نخبة من رؤساء الخدمة السريّة، وهي تعمل تحت رئاسة الجنرال «كايتون»، والجنرال «لانكلي». (يوجد خطأ في تهجئة الأسماء؛ فالإسم «كايتون» قد يُقصد به «كلايتون». أما «لانكلي» فهو اسم غير معروف لديّ).

ومن أهم أعضاء هذه العصابة، الكولونيل «بولاك» والدكتور سندرسن، وكلاهما موجودان في بغداد منذ خمسة عشر شهراً. (لا أعتقد بوجود شخص يحمل اسم بولاك، ولذلك فإنني اعتقد أنّ هذا الاسم مُختلق فعلاً. غير أن صحة تدوين لقبي قد أثارت في نفسي دهشة كبيرة). ويستمر الخبر في القول: «وهؤلاء يدعمهم تومسون مستشار السفارة البريطانية في أنقرة. ويقول الدكتور سندرسن: أنه كان صديقاً للملك فيصل، ولكن ذلك لم يمنعه من قتله. والجرائم المدوّنة في قائمة عصابة القتل البريطانية كثيرة إلى درجة لا يمكن حصرها. فهذه العصابة هي المسؤولة، دون شك، عن مقتل اثنين من رؤساء الوزارات المصرية اللذين دُسّ لهما السم، في السنوات الأخيرة. وهذه العصابة هي المسؤولة عن إرسال الملك حسين إلى المنفى. وهذه العصابة هي التي خربت الحكومة العراقية، وهي التي أثارت في النهاية ثورات الأثوريين وما شابه ذلك».

وليس من حاجة إلى القول أن هذه الاتهامات كانت مجرّدة من الصدق. ومع ذلك فقد كانت ـ لأغراض الدعاية ـ من الأكاذيب المربحة.

كانت زياراتي الاعتيادية للساسة العراقيين الثلاثة المتنافسين مهنية صرفة. ولقد حاولتُ أن ألتزم موقف الحذر إزاء علاقاتهم مع بعضهم البعض، ولم أنقل أي شيء كان يتحدث به أي واحد منهم عما يخصّ الآخرين من هذا الثالوث، وإن كان يُطلب مني عدة مرات أن أفعل ذلك.

كان نوري صديقاً قديماً جداً لي. وكان هو وحكمت يشيران في مناسبات كثيرة إلى السياسة المحليّة. غير أنّ سياستي كانت تنطوي على عدم المبالاة، وكان يندر أن أتعقّبهما في ذلك إلاّ بالنسبة إلى الأمور التي تخصّ كليّة الطب، والمستشفى الملكي، أو الصحة العامة، حيث كنت أعلن آرائي في هذه الأمور بكل صراحة.

كان رشيد عالي كثير التحفّظ جداً. ولكن بعد أن أصبح رئيساً للوزارة في شهر آذار (مارس) سنة ١٩٤٠، استدعيت ذات مرة إلى مكتبه في مجلس الوزراء بيوم أو يومين قبل أن يقابل السفير البريطاني السر بازل نيوتن (الذي أمضى في العراق الفترة ما بين سني ١٩٣٩ - ١٩٤١ كخلف للسفير السابق السر موريس باترسن)[١٣].

وفي أولى هذه المناسبات اعتذر عن إزعاجي، لكنه قال أنه طلب حضوري كصديق قديم، ولأنه هو والسفير لم يفهم أحدهما الآخر. وكان على يقين أنّ من المفيد أن ينبئني مُسبقاً عما يعتزم أن يبحثه، وأنه يود مني أن أنقل هذه المعلومات إلى فخامة السفير.

لم يكن لديّ أي اعتراض على هذه المهمة. وقد رحّب بها السفير نفسه لأنها توفّر له الوقت لتمحيص النقاط التي يرغب رئيس الوزراء أن يثيرها بشكل حسن قبل أن يجتمعا معاً.

في شهر حزيران (يونيو) سنة ١٩٤٠، استسلم المارشال «بيتان» للألمان. وكانت سوريا ما تزال تحت الانتداب الفرنسي، وفي شهر كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٤١، بدأ القتال بين قوات «فيشي» الفرنسية في كلٍّ من سوريا ولبنان، والقوات الحليفة في الشرق الأوسط[١٤].

---

(١٣) موريس باترسن: أصدر مذكراته تحت عنوان: (على جانبي الستار) On Both Sides Of Curtain (ويقصد بكلمة «الستار» الاتحاد السوفياتي الذي كان يطلق عليه اسم الستار الحديدي) من قبل الدول الغربية

(١٤) بعد سقوط باريس بيد الألمان تم تشكيل حكومة فرنسية خاضعة للاحتلال الألماني تحت زعامة: «بيير لافال»، وقد اتخذت هذه الحكومة مدينة «فيشي» عاصمة لها، وعرفت منذ ذلك الوقت باسم حكومة فيشي. وبعد سقوط باريس لجأ الجنرال ديغول وجماعة من رفاقه

وبتحريض من غروبا، كان رشيد عالي يتطلّع إلى معاونة السفير البريطاني في تزويد السوريين بالسلاح، على أساس أنهم يستطيعون - في حالة الانضمام إلى فرنسا الحرّة - انتزاع السلطة من قوات حكومة فيشي، وبذلك يحققون استقلالهم السريع.

كان رشيد عالي يأمل أن يقنع السفير بأنّ هذا الأمر هدف مرغوب فيه كل الرغبة، لكنه لم يخبره عن وجود عدد كبير من العناصر المؤيدة للنازيين في سوريا، وأنّ الشيء الذي يهم هذه العناصر هو الحصول على أي نوع من السلاح يُسلّم إليها. ومع ذلك كان السفير يدرك هذا الأمر إدراكاً جيداً ولذلك أخفق رشيد في هدفه. ولقد شعرت بالأسى على «السر بازل» لأنه لم يكن يتوقع صدور مثل هذه الأكاذيب من أي وزير في الدولة!

من الأمثلة على مسامحة نوري لخصومه ما حدث أثناء استقالته من رئاسة الوزارة في شهر آذار (مارس) سنة ١٩٤٠. فقد نصح الوصيّ بأن يكون رشيد عالي هو الذي يخلفه في رئاسة الوزارة، وعلى هذا الأساس قَبِلَ بمنصب وزير الخارجية في وزارة رشيد كما أشرنا إلى ذلك قبلاً، ومع ذلك فقد توترت علاقاته مع رشيد عالي توتراً شديداً، فاستقال من منصبه في شهر كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٤١.

وقبل أن تحدث هذه الاستقالة بشهر تقريباً، بذل عبد الإله جهداً متعمداً لكنه كان فاشلاً، لإعادة الصفاء بين نوري السعيد ورشيد عالي؛ حين دعاهما معاً لتمضية بضعة أيام في مخيّم لا يبعد سوى ميلين أو ثلاثة أميال عن القاعدة الجوية البريطانية في الحبّانية، ولقد دُعيت أنا إلى ذلك المخيّم أيضاً.

= الضباط والساسة إلى إنكلترا، فأسسوا فيها حكومة فرنسا الحرة، وتجمعت لهم بعض الوحدات الفرنسية في المنفى. وكانت سوريا ولبنان تحت نفوذ حكومة فيشي، وكذلك كل من الجزائر وتونس والمغرب. ولكن القوات الأمريكية ما لبثت أن نزلت في شمالي إفريقيا واستولت على الجزائر وتونس والمغرب، وشاركت قوات فرنسا الحرة وعلى رأسها ديغول، القوات الأمريكية في ذلك الإنزال، وأصبحت هذه الأقطار العربية الثلاثة تحت نفوذ فرنسا الحرة والاحتلال الأمريكي معاً.

بدا بصفة ظاهرية أنّ المخالطة الاجتماعية التي وفّرتها تلك الاستراحة قد حققت هدف الوصيّ عبد الإله. فقد كان الجو رائعاً، وكان المخيّم في مكان ملائم، وخيامه فاخرة.

ونظم قائد القاعدة مارشال الجو «سمارت» مباريات صيد لنا. كما أنّ التجوال في معسكره قد وفّر لنا متعة إضافية، وأثار دهشة الوصيّ ووزيريه بما وجدوه من حُسن التنظيم والكفاية؛ إلى درجة أنّ الوصيّ علّق على ذلك قائلاً: «إنه أنيق جداً حقاً». وقد سمعت هذه الكلمة ينطق بها فعلاً.

* * *

في الوقت الذي استقال فيه نوري السعيد من الوزارة، توترت العلاقات بين الوصيّ ورشيد عالي(١٥)، ثم ازدادت سوءاً، وأعقب ذلك زيادة الخصومة بينهما. وبعد أقل من ثلاثة أشهر على ذلك، أي في اليوم الأول من شهر نيسان (أبريل)، استولى العقداء الأربعة على الحكم نيابةً عن رشيد عالي.

في أوائل تلك السنة كان العقداء الأربعة يقومون بزيارات متواصلة لقصر الرحاب الذي يقيم فيه عبد الإله، وذلك بقصد مقابلته. وكانت زياراتهم تلك تقع في وقت متأخر من الليل. وقد أظهروا للناس وكأن رشيد عالي لم يكن سوى دُمية في أيديهم، وأنّ أية محاولة لتأليف حكومة جديدة ستتم مقاومتها.

وكان رشيد عالي نفسه يصرّ على حلّ مجلس النواب، وكان هذا الطلب في مثل تلك الظروف يعني منح سلطات مطلقة، وهذا ما كان الوصيّ يقاومه.

* * *

ظل نوري السعيد في الحكم منذ شهر نيسان (أبريل) سنة ١٩٣٩

---

(١٥) استقال رشيد عالي الكيلاني ببرقية طيرها يوم ٣١ كانون الثاني (يناير) ١٩٤١ إلى الوصي الذي كان قد هرب إلى الديوانية قبل ذلك بأيام.

حتى شهر شباط (فبراير) سنة ١٩٤٠. وفي الليلة التي استقال فيها كان واحداً من الضيوف المدعوين لتناول العشاء في دارنا. غير أنّ اجتماعاً طارئاً للوزارة حال بينه وبين المجيء، الأمر الذي أثار قدراً لا بأس به من التفكير والتأمل بين ضيوفنا، والذين كان من بينهم الوصيّ عبد الإله، والسفير البريطاني، والسفير الأمريكي پول نابنشو وزوجته، والمستر فيفيان هولت.

كان نوري السعيد في قصر الرحاب ينتظر عودة الوصيّ إلى هناك. وبعد أن قدّم استقالته إلى الوصيّ بصفة شخصية، سلّم إليه رسالة مطوّلة بشكل ملحوظ، كانت في الواقع انتقاداً مرأللمكائد السياسية التي وقعت في السنوات الأخيرة.

كانت أسواق بغداد تعجّ بالهيجان في صبيحة اليوم التالي. وكانت الإشاعات المتضاربة تتقافز من مكان إلى آخر، ومعظمها فج لا أساس له. غير أن الشيء الذي تمّت معرفته على نطاق واسع، هو أنّ «الضباط السبعة» قد تخاصموا فيما بينهم في الأسابيع الأخيرة، وانقسموا إلى كتلتين متنافستين، تتألف إحداهما من ثلاثة أشخاص[١٦]، والأخرى من أربعة أشخاص، وهي الأكثر قوة وبزعامة صلاح الدين الصبّاغ.

كان الثالوث يفضّل تعيين رشيد عالي الكيلاني خلفاً لنوري السعيد في رئاسة الوزارة، لكن صلاح الدين الصبّاغ ورفاقه المغامرون كانوا يتطلّعون إلى إعادة تعيين نوري السعيد للرئاسة. ولما كان هؤلاء أول من لقيَ له أُذناً صاغية من الوصيّ، وأنه كان يفضّل اختيارهم ذاك، فقد طلب إلى نوري أن يؤلف وزارة أخرى، وقد وافق نوري على ذلك بعد امتناع دام يوماً أو يومين.

وإذ خسر الثالوث الحلبة؛ فقد أُحيل أفراده على التقاعد تاركين «المربّع الذهبي» قادراً على كل شيء[١٧].

---

(١٦) كان هؤلاء الثلاثة هم كل من: الفريق حسين فوزي رئيس أركان الجيش، واللواء أمين العمري قائد الفرقة الأولى، والعقيد عزيز ياملكي.

(١٧) أحيل أعضاء الثالوث على التقاعد في اليوم الحادي والعشرين من شهر شباط (فبراير)، وقد =

أسرع نوري السعيد ـ الذي كان يتحسّس الخطر من بعيد ـ إلى تقدير احتمال وقوع تدخّل عسكري آخر موجّه ضده هذه المرة، ولذلك قدّم استقالته بعد ثلاثة أسابيع من توليه الحكم، وعندئذ خلفه في رئاسة الحكومة، رشيد عالي الكيلاني.

لم أكن أحتفظ بيوميات. لكنني كنت في بعض المناسبات أضيف بضعة سطور إلى يوميات زوجتي إلزي. ولذلك كتبتُ، تحت ما كتبتَه هي في اليوم الحادي والعشرين من شباط (فبراير)، عن وقوع زخات مطر قوية في منتصف النهار، وعن ازدهار النرجس الأصفر في حديقتنا لأول مرة، العبارة التالية: ـ

جاءني هـ. ب. (هوستن بوزويل) في الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة عشرة من هذا الصباح؛ لكي ينبئني بأنّ طارق العسكري (نجل جعفر العسكري) قد أقبل لمواجهته وهو في حالة تهيّج كبير. لقد سمع طارق إشاعات عن وقوع اصطدام مسلّح بين بعض كتل الجيش، وبأنّ قنابل قد أُلقيت على معسكر الرشيد. كان خائفاً جداً لأن نوري السعيد كان في طريقه إلى هناك. ولقد سمعتْ زوجة نوري تلك الإشاعات هي الأخرى، وبهذا تأكدت صحّتها، ولذلك هربتْ ـ وهي في اضطرابها هذا ـ إلى بيت تحسين العسكري وعائلته.

* * *

. . . وما أن انتهيت من إلقاء محاضرتي في كليّة الطب ذلك الصباح حتى استُدعيت من قِبَل البلاط. كانت الساعة آنذاك هي الحادية عشرة. ويبدو أن عبد الإله قد سُرّ بصفة خاصة لدى رؤيتي. وحين كان يهم أن يخبرني عن سبب استدعائي، دخل رشيد عالي الغرفة. كان وجه رشيد يتصبب عرقاً بشكل واضح، وتلك حالة اعتبرتها دليلاً على الجهد البالغ

= نشرت مديرية الدعاية العامة بياناً رسمياً قالت فيه بأنهم قد أحيلوا على التقاعد لأنهم: «قد تصدوا إلى أمور لا تتفق والواجبات المفروضة على أمراء الجيش وضباطه».

الذي بذله في سبيل تأليف الوزارة الجديدة، ولذلك انسحبت إلى غرفة أخرى، ولم يلبث الوصيّ أن انضمّ إليّ فيها حالاً.

لقد أراد الوصيّ من السفير البريطاني أن يقابله في الساعة الرابعة بعد الظهر في منزله بقصر الرحاب، وطلب إليّ أن أُعلم السفير بذلك، لأنه لم يكن يرغب أن يتصل بالسفير عن طريق الهاتف.

كان لي موعد مع وزير الشؤون الاجتماعية في الساعة الواحدة ظهراً، لكنني قررت أن أصل السفارة في الوقت الذي أتناول فيه الغداء مع السفير، ولأبلغه بالأحداث الأخيرة التي وقعت في وزارة الدفاع وبالشكل الذي نقلها إليّ الوصيّ نفسه.

كان الفريق حسين فوزي رئيس الأركان العامة قد طلب استقالة وزير الدفاع طه الهاشمي من منصبه، وقد أيّده في ذلك اللواء أمين العمري، ولكن شريطة أن يتخلّى نوري السعيد عن منصبه هو الاخر.

أما رشيد عالي الذي كان يخشى تدخّل الجيش فقد رفض مشاركة هذين القائدين في طلبهما، ولذلك أُحيلا على التقاعد بعيداً عن الطريق المؤدية التي أرادها لهما طه الهاشمي.

أدخل العقداء الأربعة في رَوع الوصيّ عبد الإله أنهم لا يؤيدون القائدين في مطالبهما. كذلك أبلغوا الوصيّ أنهم لا يؤيدون إقحام الجيش في السياسة، وقد ذكرني عبد الإله مبتسماً يقول: «لكن، وإن لم تكن لديهم الرغبة في تجريدي من حرية الاختيار، إلاّ أنهم قدّموا إليّ قائمة بأسماء السياسيين الذين يعتبرونهم من غير المرغوب فيهم، على أمل ألاّ أشرك أي واحد من هؤلاء في الوزارة الجديدة».

استُدعيتُ مرة أُخرى إلى قصر الرحاب في عصر أحد الأيام من أواخر شهر كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٤١. ولقد ذهبت إلى هناك حالاً فوجدتُ عبد الإله مع أفراد آخرين من العائلة المالكة متجمعين هناك.

كان الجو متوتراً. وقد أخبرني الوصيّ بأن رشيد عالي اتصل به هاتفياً

وأنبأه بأنه سيكون في الساعة الثالثة بعد الظهر. وواصل الوصيّ حديثه فقال: «إنني أعرف بأنه آتٍ لكي يطلب مني حل مجلس النواب، وإنني أريد أن أتجنّب أي تصادم علني، فما الذي أفعله؟».

كان لدينا فراغ من الوقت يقلّ عن نصف ساعة. ولذلك قررنا أن السبيل الوحيد لتجنّب هذا الاجتماع، والذي قد يجعل رشيد عالي يتحقق من أنّ موقفه أصبح لا يُطاق، هو أن يتغيّب الوصيّ عن القصر. ولقد بحثنا احتمالات مختلفة، وأخيراً توصلنا إلى نتيجة مؤداها، أن أفضل حل هو أن يسافر الوصيّ بالسيارة إلى الديوانية، إحدى الحواضر الإقليمية الصغيرة التي تقع على نهر الفرات جنوبي مدينة «الحلّة»، وأن يجد له ملجأ فيها، إلى أن يتكشف الوضع في بغداد.

أُعدّت سيارتان على عجل، واندفعتا منطلقتين من قصر الرحاب وفي ذات الوقت كانت الملكة «نفيسة» أم الوصيّ - كعادتها منهمكة، قبل أن تقع أية مغادرة من أي نوع كان - تخط بقلم الرصاص آيات من القرآن على جدار الغرفة، وتعدّ قِطعاً من الورق كتبت عليها آيات قرآنية أيضاً، ليتم تقطيعها إلى نصفين، أحدهما يُحتفظ به، ويُسلّم النصف الآخر إلى المسافر لضمان عودته سالماً.

ولقد عرضتُ على عبد الإله أن أسافر معه، لكنه أصرّ على أن أتخلّف عنه في ذلك، كيما أشاور أفراد عائلته عند الحاجة. لقد هرب الوصيّ في الوقت المحدد لذلك تماماً[١٨]. ذلك لأنني التقيت بسيارة رشيد عالي تمرّ بي عندما كنت في طريقي إلى منزلي، وقد أعددت العدة لأن أكون بعيداً عن الأنظار فجلست على أرضية السيارة عندما اقتربتْ سيارتانا، ذلك أنني وجدت أنه ليس من الحكمة أن يشك في اشتراكي في تدبير هرب الوصيّ.

وعندما كنت في طريقي إلى داري عرجتُ على السفارة لكي أُطلع

(١٨) هرب عبد الإله من بغداد إلى الديوانية في الساعة الثالثة إلا خمس دقائق، من عصر يوم الخميس، الثلاثين من كانون الثاني (يناير) ١٩٤١.

السفير على مغادرة الوصيّ. وكنت على اتصال مع عبد الإله عن طريق الشريف حسين الذي رتّب الوصيّ معه أمر الاتصال هاتفياً. أما بالنظر إلى خطورة الحالة فقد كنت أنقل أية توترات تقع إلى فيفيان هولت، وإلى قائد الجناح «بات دومفيل»[١٩]، ضابط الارتباط الجوي الذي كنت ألتقي معه في مكان نتفق عليه مُسبقاً، ولا يتكرر هذا المكان كل ليلة.

كان لقاؤنا الأول في مكان لم يكن يبعد كثيراً عن مقر المفوضية الإيطالية، وقد رأينا السفير الإيطالي يقوم بجولته الليلية سيراً على الأقدام قاصداً دار أحد الأصدقاء المقرّبين إلى رشيد عالي والتي تقع على مقربة من دار المفوضية ذاتها.

لم يكن العراق قد أعلن الحرب على إيطاليا بعد. ولذلك كان الوزير الإيطالي المفوّض يمثّل بؤرة النشاط المساند للمحوَر في بغداد منذ إبعاد غروبا، وكانت رؤيتنا لهذا الوزير الإيطالي تصيبنا بالجنون نحن الإنكليز.

كان من اليسير جداً علينـا أن نقـوم باختطافه. وكنا فرحين حقاً لأن نفعل ذلك، غير أن هذا العمل قد يؤدي إلى تعقيدات سياسية حتماً.

انتهى المأزق بين الوصيّ ورشيد عالي بعد بضعة أيام، حين عرض رشيد عالي أن يتخلى عن الحكم إلى طه الهاشمي الذي كان البـديل الوحيد المقبول لدى «المربّع الذهبي» لتولي رئاسة الوزارة[٢٠].

---

(١٩) كان «بات دو مفيل» يشغل في الحقيقة رئاسة مصلحة الاستخبارات البريطانية كلها في العراق في ذلك الوقت.

(٢٠) عندما وصل الوصي إلى الديوانية نزل في دار قائد الفرقة العسكرية الرابعة هنالك اللواء إبراهيم الراوي، وسارع إلى مقابلته كل من متصرف اللواء أحمد السوز، ومدير الشرطة فيها عبد الجبار جسام، وحين علم رشيد عالي الكيلاني بذلك بعث في اليوم التالي صباح الجمعة ٣١ كانون الثاني (يناير) برقية باستقالته إلى الوصي في الديوانية، فقبل الوصي الاستقالة ببرقية مقتضبة كتبها صالح جبر، متصرف لواء البصرة آنذاك، والذي أنزله الوصي في الديوانية عندما كان عائداً من بغداد في طريقه إلى البصرة. وكان الوصي قد استدعى إلى الديوانية لفيفاً من الساسة، من بينهم بعض أعضاء الوزارة المستقيلة، وإذ ذاك قام محمد الصدر رئيس مجلس الأعيان بإخبار طه بأن الوصي يطلب حضور: الصدر والهاشمي وناجي السويدي وجميل المدفعي وعلي جودت وصادق البصام إلى الديوانية. وبعد نقاش =

لقد كانت تلك عملية طارئة، وهي وإن جعلت من المستطاع أن يعود الوصيّ إلى بغداد في اليوم الأول من شهر شباط (فبراير)، إلاّ أنها لم تحسّن الأوضاع السيئة إلاّ قليلاً.

أُجري ترحيب احتفالي معتاد بعودة الوصيّ إلى داره. ووقع هذا الترحيب في قصر الرحاب وحضرته أنا بنفسي، فأحسَست بوجود جو من الهدوء الصريح كان يغمر جميع الحاضرين.

وفي خلال أسبوعين استأنف العقداء الأربعة زياراتهم الليلية للوصيّ في قصر الرحاب، وراحوا يلحّون عليه بوجوب تغيير الحكومة، وإعادة تعيين رشيد عالي الكيلاني نفسه لرئاسة الوزارة.

أخذت استمرارية زياراتهم وطول الوقت الذي كانت تقع فيه تزداد يوماً بعد آخر. وفي صباح أحد الأيام استدعاني الوصيّ المتضايق من ذلك الوضع إلى قصر الرحاب بحجة أنه مريض.

كان الوصيّ قبل ذلك قد أنبأ رئيس الديوان الملكي بأنه متوعك، وأنه لن يحضر إلى البلاط في ذلك اليوم. أنبأني عبد الإله بأنه غدا متضجراً

= تم الاتفاق على أن يسافر كل من: الصدر والهاشمي وصادق البصام، فاستقلوا طائرة من القوة الجوية العراقية طارت بهم إلى الديوانية، وتبعهم بالسيارات كل من: جميل المدفعي وعلي جودت ومولود مخلص. وكان طه الهاشمي قد نال موافقة العقداء الأربعة مسبقاً على تأييده إذا ألف الوزارة الجديدة. وقد تحدث الوصي إلى الجميع حول تأليف الوزارة الجديدة، فاتفقوا على إناطتها بالعميد طه الهاشمي الذي وعد الوصي بأنه سيضمن ولاء العقداء الأربعة لسموه، وإطاعتهم له، وعلى أثر ذلك عاد الوصي إلى بغداد وعاد بقية الوزراء الآخرين أيضاً.

* * *

ويذكر العقيد صلاح الدين الصباغ في مذكراته: «فرسان العروبة في العراق، ص ١٣٢» أنه جاءه صبيحة إحباط حركة الوشاش، وإحالة الفريق حسين فوزي وأمير اللواء أمين العمري والعقيد عزيز ياملكي على التقاعد، كل من محمود سلمان ومعه فهمي سعيد الذي بادره بقوله: أتدري ما لقبنا عند الإنكليز؟ فقال له الصباغ: لا!

قال: إنه «المربع الذهبي المتوج».

يقصدون بالمربع، نحن الأربعة، وبالتاج طه الهاشمي.

جداً من صلاح الدين الصبّاغ وزملائه الثلاثة، وأنه قد عزم على التخلّي عن الوصاية، ولقد فزعتُ مما قاله، وأنبأته بأن مثل هذا التصرّف سيكون بمثابة خضوع مذلّ لا يليق به، وأنّ الوقت قد حان الآن لكي يُظهر للضباط الأربعة ما يريد أن يعمله، وأن يبين لهم بأنه هو الحاكم المؤقت للعراق، وأنه يريد أن يبقى كذلك.

عندئذ قال لي متسائلاً: «ما هو نوع التأييد الذي أتوقعه من الحكومة البريطانية؟». فأجبته قائلاً: «أتوَد أن ترى السفير؟». فردّ يقول: «أجل، لكنني متأكد أن رشيد عالي قد بثّ جواسيسه حتى هنا في هذا المكان أيضاً. وإذا ما جاء السفير فلسوف يعلم بذلك، إنني أود أن لا يعرف ذلك». وعندئذ قلت له: «إنني سوف أطلب إليه أن يأتي في سيارتي».

اتصلت بالسفارة لكن كان ذلك اليوم هو يوم الأحد. وكان السر بازل نيوتن قد خرج إلى الصيد. كان «أدريان هولمان» ـ الذي عُيّن فيما بعد سفيراً في كوبا وحصل على لقب سر، والذي خلف هوستن بوزويل كقنصل، ويقيم مثله إلى جوار بيتي ـ موجوداً آنذاك في بيته عندما عدت من القصر، وقد قام على الفور بزيارة الوصيّ ليعمل ما يستطيع له أن يشجّعه إلى أن يعود السفير من القنص.

وفي الوقت الذي شاهدتُ فيه فيفيان هولت في السفارة، وطلبتُ إليه أن يتصل بي هاتفياً حينما يعود السر بازل، أخبرته أيضاً، بأن صاحب السمو الوصيّ لا يرغب أن يصل السفير إلى قصر الرحاب في أية سيارة كانت تعود إلى السفارة، وأعلمته بأنّ سيارتي إنما هي خير واسطة للنقل في مثل هذه الظروف.

وحين كلّمني فيفيان بالهاتف مؤخراً، قال لي: «إن السر بازل سيزور الوصيّ بعد وقت قليل فيما بعد، لكنه سوف يذهب إليه بسيارته التي خصصتها له السفارة». وإذ ذاك سألت فيفيان عما إذا كنت أستطيع أن أتحدث إلى السفير، وأخيراً تم إقناعه بقبول اقتراحي في أن أرافقه. ما إن وصلتُ السفارة حتى وجدت السر بازل نيوتن قد أكمل تنكّره، بأن وضع

على رأسه قبّعة خفيفة يتدلى منها شريط عريض، وارتدى معطفاً خفيفاً ذا ياقة كانت تخفي أكثر أجزاء وجهه، ووضع بين شفتيه سيجارة مشتعلة، ثم ما لبث، وهو في هذا الزي التنكّري، أن خطا إلى سيارتي «الهمبويل» واسترخى في مقعده.

قمنا بجولة قصيرة خلال منشآت سكك الحديد، قبل أن نتوجه إلى القصر. وما إن فعلنا ذلك حتى أشار السفير إلى سائق سيارتي ثم سألني: «هل هو يتكلم الفرنسية؟». فاستطعت أن أؤكد له أن سائقي المخلص «عبد الله» لا يعرف كلمة فرنسية واحدة، وهكذا كنا نتحدث بالفرنسية عن كل أمر سرّي.

وعلى أمل أن يقتنع كل متلصّص محتمل بأن الزيارة كانت مهنية صرفة، أسلمتُ إلى السر بازل سمّاعة الطب حين ارتقينا الدرجات من الفناء إلى الباب الرئيس للقصر.

تشجّع الوصي حين أكدّ السفير له بأنه سينظر في كل مساعدة ممكنة تقدّمها الحكومة البريطانية إليه، وعلى أثر ذلك تقدّم الوصيّ بطلب مساعدة مالية له؛ لمساعدته على توزيع وتعزيز احتياطاته الأمنية، ووعد السفير بأنه سيقدّم توصية عاجلة بذلك إلى لندن. وقد تمّت المصادقة بسرعة على تخصيص مخصصات شهرية لأربعة أشخاص، وعهد إليّ بدفع مرتباتهم.

ولغرضٍ أن نضمن سرّية اتصالنا بأولئك الأشخاص، انتحلنا أنا وفيفيان عدداً من الألقاب السرّية، من بينها كلمة «سابر Sapper»، أي «مفجّر الألغام» لتطلق على الوصي، وهي تورية شنيعة لكلمة «الوصيّ».

ومهما يكن الأمر فقد سارت العملية سيراً حسناً، لكن الوضع السياسي استمر في التردّي لسوء الحظ، ولم يبقَ هنالك أي أمل في تجنّب الكارثة، إلّا عن طريق تعيين اخصائي بالشؤون العربية ذي خبرة وشهرة خارقتين، ومعرفة بالشخصيات السياسية البارزة في القُطر، وذي إلمام بمشاكله.

كان السر كنهان كورنواليس، المستشار السابق لوزارة الداخلية،

يمتلك كل هذه الصفات إلى درجة معتبرة. وكان المؤمل أن يتم إقناعه في ترك تقاعده آنذاك، وأن يخلف السر بازل سفيراً لبريطانيا في العراق.

حظيَ اختيار السر كورنواليس لهذه المهمة بتأييد من لدن كبار الموظفين والتجّار والمتنفذين من الإنكليز، كما نال موافقة الوصيّ ونوري السعيد من بين العراقيين المناصرين للإنكليز. ومع ذلك فما دام رشيد عالي الكيلاني في الحكم، فإنّ كورنواليس لا يمكن أن يُعتبر هو الشخص المقبول، لأنّ العلاقات بين الاثنين لم تكن وديّة أبداً، ولأنّ رشيد عالي كان هو المسؤول عن إنهاء عقد السر كورنواليس مع الحكومة العراقية.

تم تقديم آرائنا تلك حول هذا الموضوع إلى وزارة الخارجية البريطانية فوراً، وباتفاق عجيب وصل كورنواليس إلى بغداد، وعاد السر بازل نيوتن إلى الوطن في اليوم الأول من شهر نيسان (أبريل)، وهو اليوم المحدد بالذات الذي قام فيه العقداء الأربعه بانقلابهم العسكري الخطر، والذي كان يهدف إلى الإطاحة بالوصيّ، واستغلال رشيد عالي في دور «دكتاتور»، ولسوف أشير إلى هذا الحادث الخياني مرة أُخرى في هذا الفصل.

* * *

عند اندلاع نيران الحرب مع المانيا، حاصر المقيمون البريطانيون دار القنصل البريطاني «لزلي بوت» مطالبين بالتطوع لأداء الخدمة الوطنية. وبعد مشاورات مع سكرتير الدولة للشؤون الخارجية، أخبرنا بأنه قد تقرر أن يظلّ المقيمون البريطانيون في العراق، سواء منهم المستخدمون لدى العراق أو في وظائف أخرى، في مناصبهم.

ولقد تأيّد هذا القرار مرة أُخرى بعد انقلاب سنة ١٩٤١، عندما أصبح الاتصال مع الزملاء العراقيين يُعتبر ذا أهمية خاصّة.

ولما كان الرعايا البريطانيون قد حُرموا من القيام بأي دور فعّال في الحرب، فقد اتخذوا قراراً مباشراً ومحتماً بأن يُسهم قسم منهم، وبأية

وسيلة ممكنة، في المجهود الحربي لبلادهم. وسرعان ما باشر صندوق الإسهام في الحرب، وصندوق العون لطائرات «السبتفاير»[٢١] عملهما في بغداد وفي شمالي العراق، فراحت الأموال تتدفق على الصندوقين بطريقة جد واضحة، إلى درجة أنّ آلافاً عديدة من «الباونات» قد أُرسلت إلى لندن خلال فترة قصيرة جداً.

كان العمل الذي عُهد به إليّ هو أن أنظم جمع هذه التبرعات، ولكن رجال الخزينة وكبار موظفي البنوك البريطانية، كانوا هم الذين نهضوا بالدور الأعظم في هذا الشأن.

استطاع صندوق إعانة «السبتفاير» أن يحقق الغرض من إنشائه، في حين استمرّ صندوق التبرعات الحربية يتعاظم، ولذلك استطعت أن أكرّس المزيد من أوقات الفراغ لديّ لنشاطات أُخرى. كان من بين هذه النشاطات إنشاء معهد بريطاني في بغداد تحت إشراف المجلس البريطاني[٢٢]، وإقامة مهرجان لتبرعات الحرب البريطانية.

وكنت عند اندلاع الحرب قد أشرتُ على فيفيان هولت بأنّ إنشاء مكتب للمعلومات ستكون له فوائد لا تُقدّر بالنسبة إلى العلاقات البريطانية ـ العراقية. كذلك اقترحت أن يكون هذا المكتب رئيساً، فيه غرفة مطالعة مزوّدة بكل منشورات الدعاية، والأفلام، والصحف والمجلات الدورية، مع مسرح صغير؛ يمكن أن تُلقى المحاضرات وتُعرض الأفلام السينمائية والأفلام الإخبارية فيه[٢٣].

---

(٢١) سبتفاير: «Spitfire» أي باصقات اللهب، وهو نوع جديد من الطائرات النفاثة التي صنعتها بريطانيا في تلك الفترة من الحرب، واستخدمتها بنجاح في المعارك الجوية مع الألمان والطليان.

(٢٢) هو ما عرف باسم المعهد البريطاني لتدريس اللغة الإنكليزية، وكان مقره في محلة الوزيرية على مقربة من البناية التي يشغلها نادي وزارة المالية في الوقت الحاضر. وكان هذا المعهد أحد مراكز التجسس البريطانية في بغداد.

(٢٣) هو مكتب المعلومات البريطاني الذي كان يرأسه «بيرون» أثناء الحرب، وكان يشرف على مكاتب الإرشاد التي افتتحها الإنكليز في كل أرجاء العراق بعد فشل ثورة أيار (مايو) ويزود =

كذلك ألححتُ على وجوب تأسيس إذاعة عربية من لندن، لتقابل الإذاعة العربية التي كانت تبثّ من برلين تحت إشراف المرتدّ «يونس بحري»[٢٤]، والتي كان العراقيون ينصتون إليها باهتمام شديد.

وقبل أن يتم تقييم نظريتي تلك، قفز فيفيان منتصباً، وخبط الطاولة بيده وأعلن، لدهشتي، يقول: «إنني لا أؤمن بوجود أية قيمة للدعاية مهما كان نوعها، وأعتقد أنّ اقتراحك مجرّد إضاعة للوقت وللأموال». ولربما كان رد الفعل لديه قد تعاظم نتيجة تفكيره بأنني كنت متهماً بالتحرّش المثير، وهو الهجوم الذي كنت أخشى دوماً أن أكون مسؤولاً عنه.

كان لا بدّ لي من أن أُكرر الاقتراح على السفير، لكن فيفيان هولت كان هو سكرتير الشؤون الشرقية، ولذلك حسبت بأنّ رأيه سيكون له وقع أقوى لدى السر بازل نيوتن من وقع رأيي أنا. ومع ذلك فقد أظهر فيفيان شهامة عندما اعترف فيما بعد بغلطته وقدّم اعتذاره، وهكذا تم نقل ستيوارت بيرون ضابط المعلومات الذكي من عدن إلى العراق، وعُيّن ملحقاً للعلاقات العامة، وهو منصب أشغله بكفاءة ملحوظة وبنجاح منقطع النظير.

كنت قبل الحرب أتراسل مع اللورد لويد رئيس المجلس البريطاني في لندن، حول إمكانية إنشاء معهدٍ ونادٍ بريطانيين في بغداد. وكان فيفيان نفسه يلحّ عليّ أن أضغط لإكمال هذا المعهد بأسرع وقت ممكن. وكان «أرشيبالد كلارك كير» قد بارك هذا الاقتراح قبل تعيينه سفيراً في الصين. ومع أنّ السر بازل نيوتن الذي خلف كلارك كير في منصبه لم يكن متفائلاً بمستقبل هذا المعهد؛ إلاّ أنه لم يحجب موافقته عليه.

كان اللورد لويد يعدّ العدّة لزيارة يقوم بها إلى العراق في شهر آذار (مارس) سنة ١٩٣٩. غير أن نُذر الحرب قد جعلته يتخلّى عن تلك

= الصحف العراقية بالأخبار ومواد الدعاية الإنكليزية. وكان هذا المكتب في نهاية الشارع الممتد من السفارة البريطانية إلى شارع الصالحية.

(٢٤) أطلق سندرسن على يونس بحري كلمة «المرتد» فهل يعني هذا أن يونس بحري كان في خدمة الإنكليز قبلاً ثم ارتد عنهم إلى خدمة الألمان؟.

الزيارة. ومع ذلك فقد وَفَدَ المستر «دنداس» ممثل المجلس البريطاني في الشرق الأدنى من القاهرة، وفي خلال سنة تم افتتاح المجلس باحتفال مشهود من قَبل الوصيّ عبد الإله.

كانت بناية المجلس التي تقع في منطقة الباب الشمالي تتألّف من نادٍ للطلبة يضم غرفتين، ومن مكتبة، وغرفتين لإلقاء المحاضرات. ولقد كنت أنا وزوجتي «إلزي» نعتبر المؤسسة الجديدة وكأنها تحت انتدابنا، حيث عانت «إلزي» كثيراً من المتاعب في تأثيث المعهد، بل شاركتنا أنا وإياها حتى في تعليق ستائره.

في هذا الوقت تقريباً عُيِّن اللورد لويد في منصب وزير الدولة لشؤون المستعمرات، ومع ذلك واصل اهتمامه بالمجلس البريطاني، ولهذا بعث في شهر أيار (مايو) سنة ١٩٤٠ برسالة لطيفة يثني فيها عليّ وعلى إلزي لإسهامنا في افتتاح فرع للمجلس في بغداد.

* * *

في ليلة الانقلاب الذي قام به رشيد عالي، والذي دبّره العقداء الأربعة لإرغام وزارة طه الهاشمي على الاستقالة، والإمساك بزمام السلطة العليا نيابة عن رشيد عالي (وبذلك يهيّئون احتلال الألمان للعراق)[٢٥]، حضرت أنا وزوجتي إلزي، حفلة عشاء مختلطة كبرى أقامها جمال بابان وعقيلته في حدائق دارهما التي لا تبعد كثيراً عن البلاط.

كانت عقيلة جمال بابان تركية المولد وغير محجبة. وكانت حفلات العشاء العراقية عبارة عن أعياد لا تحدّد مواعيدها، وكانت هذه الحفلة قد أعقبَتها سهرة رقص غير محددة، ولذلك فلم نعد إلى دارنا إلاّ عند منتصف الليل تقريباً.

---

(٢٥) بدأ الانقلاب ليلة يوم الأربعاء الثاني من نيسان (أبريل) ١٩٤١، عندما حرك العقداء الأربعة قطعات الجيش، فاحتلت النقاط الحساسة في بغداد، وذهب العقيد فهمي سعيد إلى طه الهاشمي في داره، وكان معه محمد أمين زكي وكيل رئيس أركان الجيش، فأبلغاه بوجوب استقالة حكومته، وتسلما منه كتاب الاستقالة وغادراه. ولقد حاول طه الهاشمي الاتصال هاتفياً بالوصي فلم يفلح في ذلك.

وإذ كنا في طريق عودتنا، دهشنا لرؤية قوات الجيش ونقلياته وهي تتحرك، وحيث لم يكن هناك أي دليل على السرعة أو التهيّج، فقد رحت أتصوّر أن هذه الحركة هي مجرّد بداية.

أسرعت إلى الرقادُ، وعندما أيقظتني إلزي في حوالي الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، كان الهاتف يدق، وحين رفعت السمّاعة سمعتُ صوت امرأة تقول: «إنّ عمتّي مريضة جداً، أرجوك أن تأتي بسرعة». وقبل أن أنبس ببنت شفة أُغلق الهاتف، ومع ذلك فقد استطعت أن أتبيّن بأنّ صوت المتكلمة هو صوت الأميرة بديعة، وإذ ذاك دعوت «عبد» حارسنا الليلي بأن يخبر السائق «عبد الله» بأنني في حاجة إلى السيارة في أسرع وقت ممكن.

وفي الوقت الذي أخذتُ فيه أرتدي ملابسي، رحت أحدّث نفسي عمّا إذا كانت هنالك علاقة بين ظهور الجُند في الشوارع، وبين استدعائي على عجل إلى بيت الأميرة «صالحة». وعلى هذا وجدت أنّ من الحكمة أن أقوم بدَورة قبل أن أتوجه إلى دار الأميرة رأساً.

كانت الأميرة صالحة شقيقة للملك فيصل، ولم تُرزق بمولود، وقد انفصلت عن زوجها «عبد الله باشا» وهو شيخ مرح وزير نساء يقيم في مصر.

قصدتُ الجهة المقابلة من المدينة فيما وراء الباب الجنوبي[٢٦]، وعند منتصف الطريق بين العلوية، كانت الدار تطلّ على النهر، لا تفصلها عنه سوى رحبة ليس إلاّ، وهي مجاورة لبيت الدكتور فاضل الجمالي أحد الوزراء.

ما إن وصلت الدار حتى وجدت الوصيّ متهيّجاً ومعه أمّه، والأميرة صالحة والأميرة بديعة، والكلّ في حالةٍ قلقة بشأن الأوضاع الجارية.

أطلعني عبد الإله على شهادة طبيّة أُعطيت إلى أحد موظفيه المدنيين

(٢٦) هو ما يعرف لدى عامة أهل بغداد وحتى الآن باسم: «الباب الشرقي». أما دار الأميرة صالحة فكانت تقع على شارع أبي نؤاس جنوبي فندق بغداد.

لكي يسلّمها إليه، وتعلن تلك الشهادة الطبيّة بأنّ الوصيّ قد مات في تلك الليلة فجأة نتيجة إصابته بتخثّر الدم في الشريان الإكليلي.

ولما كانت الشهادة لم تصدر بالصفة المحددة لها، وكان التوقيع عليها مُبهماً، فقد ارتبتُ في صحّتها. ولكن حين عمد الوصيّ على أن يهرب من قصر الرحاب، كان لا بدّ له من أن يمرّ خلال خط من القوات العسكرية بين القصر والمطار، إذ لا يوجد سوى شك ضئيل على الأقل في إمكانية القبض عليه[٢٧].

ظلّ الوصيّ يلحّ بعض الوقت في ضرورة التجائه إلى السفارة البريطانية، لكنني استطعت أن أقنعه بأنّ هذا يعني أنّ عليه أن يعبر النهر مرة أخرى، وأنه وإن كانت السفارة أفضل مكان يستطيع أن يلجأ إليه، إلاّ أنّ الحراسة على السفارة مكثّفة جداً.

كانت نصيحتي له أنّ عليه أنْ يرتدي ملابس امرأة عربية، وأن ينشد الأمان له في المفوضية الأمريكية، في الوقت الذي أقوم أنا فيه بالاتصال مع السفارة البريطانية لتدبير وسائل هربه.

كان السر بازل نيوتن على وشك أن يغادر بغداد في ذلك الصباح عائداً إلى بلاده عن طريق أفغانستان. وكان السر كنهان كورنواليس متجهاً هو الآخر، وعن طريق أفغانستان أيضاً، إلى الحبّانية بعد ذلك مباشرة.

وكان من عادة الدبلوماسيين البريطانيين أنه إذا ما نُقل الواحد منهم؛ فعليه أن لا يواجه الشخص الذي سيخلفه في مكانه، لتكون عملية النقل اعتيادية.

ولذلك لم يكن من المعتاد حتى بالنسبة إلى الاثنين المشار إليهما، أن يكونا في البلد في وقتٍ واحد.

---

(٢٧) ذكر عبد الرزاق الحسني في كتابه: (الأسرار الخفية، طبعة ثانية، ص ١٠٠). «أما سمو الوصي فقد كان نائماً، وقد أيقظه من نومه خدم القصر وأخبروه بوجود حالة غير اعتيادية من الجيش في منطقة القصر، فتمكن من خرق نطاق الحصار بسيارته، وهو بلباس النوم، وانتقل إلى دار عمته «صالحة» في الرصافة ببغداد».

كان السر كنهان كورنواليس والمستر پول نابنشو[٢٨] صديقين قديمين. ولذلك لم يكن من المستغرَب أن يرحّب نابنشو بالسفير البريطاني الجديد لدى وصوله إلى الحبّانية.

كان الاقتراح الذي طرحته، هو أنّ على الوصيّ أن يصحب الوزير الأمريكي وأن يختفي تحت سجادة عند قدَمي الوزير في سيارته، وأن يرتدي مرافقه عُبيد عبد الله المضايفي، بزّة ضابط في القوة الجوية البريطانية، وينتقل إلى الحبّانية برفقة حاشية مسلّحة من أفراد القوة الجوية البريطانية.

وافق الوصيّ على هذه الخطة، وقد وعدته بأن أطرحها على السفير البريطاني، ومن ثم أعود إلى المفوضية الأمريكية حاملاً إليها تفاصيل الخطة.

عرجتُ وأنا في طريقي إلى داري على المستشفى الملكي؛ فأمضيت زهاء نصف ساعة فيه كيلا يثير تغيّبي عنه شيئاً من الهمس فيما بعد. وبعد ذلك قمت بزيارة «أدريان هولمان».

كان الوقت ما يزال في باكر الصباح، لكن أدريان كان قد استيقظ قبل ذلك. وبعد أن صادق على خطتي اتخذ سبيله إلى السفارة ليحظى بموافقة السفير عليها.

كان السفير قد أستدعي قبل ذلك إلى المفوضية الأمريكية. ومع ذلك فلم يتردد أدريان في أن يطلب من قاعدة الحبّانية إرسال بذلتين من بذلات القوة الجوية البريطانية، وسيارتي جيب تحرسهما حاشية مسلّحة، وأن يرتّب إبلاغي بكل ما فعله في «نادي العلوية» بأسرع وقت مستطاع.

عدت إلى المفوضية الأمريكية فوجدت السر بازل نيوتن والمستر پول

---

(٢٨) پول نابنشو: هو القائم بأعمال المفوضية الأمريكية في بغداد في تلك الأيام، وكانت دار المفوضية الأمريكية تقع على الطريق إلى معسكر الرشيد، وهي اليوم مقر القيادة الجوية العراقية.

نابنشو في مشاورات عاجلة. لقد بحث الاثنان مجموعة من الخطط. كان السر بازل يفضل إجراء موعد في الصحراء، وأن تكون هنالك طائرة تنتظر وصول الوصيّ. ومع ذلك فقد تقبّل المستر نابنشو اقتراحي وأضاف عليه بقوله: أنه متأكد بأنّ زوجته يسرّها أن تصحبهم في هذه الرحلة. وقد أكّدتْ نفسها هذه الرغبة من دون تردد. والواقع أن وجود امرأة في السيارة قد يخفف من الشكوك.

وتبعاً لذلك تم الاتفاق على أن تنتظر سيارتا القوة الجوية البريطانية وصول سيارة الوزير الأمريكي وأن تحرسها حتى الحبّانية.

كنت أنا وعُبيد المضايفي في نادي العلوية، وقد انضم إلينا أدريان هولمان في الحال، عندما ظهرت الحاشية. وسرعان ما تنكّر عُبيد في زي ضابط في القوة الجوية البريطانية؛ فاتخذ مقعده بين اثنين من نواب الضباط، ووضع نظارتين غامقتين على عينيه، وقبّعة مدوّرة فوق رأسه، وأمسك بيده نسخة من العدد الأسبوعي لجريدة «الأوقات»[٢٩] التي كانت معي في سيارتي، وبهذه الصفة اختفت هويّته تماماً.

سأل نائب الضابط المتقدّم: «هل نحشو السلاح؟» وكان واضحاً أنه غدا يتطلّع إلى العراك. لكنني أجبته قائلاً: «لا. إلاّ إذا طلبك السفير الأميركي لمساعدته!»

ومع ذلك فقد سارت الأمور سيراً حسناً، ووصل عبد الإله إلى الحبّانية دون أذى من أي نوع كان، ومن ثم طار من هناك إلى البصرة حيث انضم إليه كل من علي جودت وجميل المدفعي، فرحلوا سوية إلى فلسطين عن طريق عمّان. وكان نوري السعيد موجوداً آنذاك في عمّان لأنه توقّع تطور الوضع مُسبقاً قبل ذلك بيوم أو يومين. ولا بد لي من الإشارة إلى أن هذا الرجل الشهير، نوري السعيد، قد تولى رئاسة الوزارة أربع عشرة مرة في الفترة ما بين سنة ١٩٣٠ حتى سنة ١٩٥٨ التي قُتل فيها.

---

(٢٩) يقصد بذلك جريدة «التايمز Times» اللندنية التي اعتادت منذ صدورها نشر عدد أسبوعي بعدة صفحات يخصص معظمه للأبحاث الأدبية والاقتصادية.

كان «جيرالد دي غوري»[٣٠] يشغل وظيفة السكرتير الأول للمفوضية البريطانية في طهران، وسرعان ما عُيّن وزيراً مفوّضاً لدى بلاط عبد الإله في المنفى. وفي الوقت ذاته اعتُقل صباح بن نوري السعيد، لكن أُطلق سراحه فيما بعد وسُمح له بمغادرة العراق مع أمّه وزوجته «عصمت»، فمكثوا جميعهم في فلسطين إلى أن سمحت الأحوال في العراق بعودتهم إليه.

كان الوصيّ وهو يصطحب معه ثلاثة من رؤساء الوزارات السابقين[٣١] يقيم في فندق الملك داوود؛ وقد انضم إليهم الأمير حسين الذي كان يقوم بزيارة لعمّان في ذلك الوقت. وكانت هنالك آراء تدور حول تشكيل حكومة عراقية في المنفى، بل حتى إنشاء جيش تحرير في المنفى أيضاً. غير أن أيّاً من هاتين الفكرتين لم تتحقق.

كانت عائلة عبد الإله قلقة جداً على مصيره في ذلك الصباح الذي غادر فيه. ولذلك تلقيتُ بعد ظُهر ذلك اليوم مباشرةً؛ نداءً هاتفياً من قصر الزهور يطلب إليّ أن أزور الأميرة «جليلة»[٣٢] التي كانت تعاني من آلام مُبرحة.

توجّهتُ إلى القصر حالاً، لكن كانت تقوم على جانب الطريق خلف المطار خيمة لنقطة عسكرية أوقفتْ سيارتي. اعتذر الضابط الذي كان يقوم بالواجب عن ذلك، لكنه قال: إنّ لديه أوامر من رشيد عالي لا تسمح لأحد بالمرور، وقد طلب إليّ بكل أدب أن لا أحاول ذلك. لقد كان من الجنون أن أواصل سيري، وعدت بعد تردد إلى البيت.

بذلتُ عدة جهود للاتصال هاتفياً بالقصر، لكن عامل البدّالة كان في

(٣٠) جيرالد دي غوري من الانكليز الذين جاءوا الى العراق في سنة ١٩٢٦ وشغل وظيفة الملحق العسكري في السفارة البريطانية، وأصدر في سنة ١٩٦١ كتاب بعنوان «ثلاثة ملوك في بغداد»، قمنا بترجمته ونشرناه في سنة ١٩٨٣

(٣١) هم كل من: نوري السعيد، وجميل المدفعي وعلي جودت الأيوبي.

(٣٢) هي أصغر بنات الملك علي، وقد تزوجت من الدكتور الشريف حازم، وتوفيت في شهر كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩٥٥ نتيجة إصابتها بالجنون ولم تعلن وفاتها.

كل مرة يردّ عليّ قائلاً: «آسف الرقم عاطل!» اتصلت هاتفياً برشيد عالي وأنبأته أن إحدى الأميرات مريضة، وأنني كطبيب للعائلة الملكية، أطلب السماح لي بزيارتها.

كان رشيد دمث الأخلاق كعادته، ولذلك وعدني بأن ينظر فيما يستطيع أن يدبّره. كان عَلَيّ أن أكون حذراً كيلا أُضايقه، وخوفاً من أن يبعث بأحد أصدقائه من الأطباء نيابة عني.

كنت أقوم لعدّة أيام بفحص أحد أولاد الدكتور فاضل الجمالي الذي وقع ضحيّة الإصابة بالتهاب السحايا الحاد، وكنت أتشاور في ذلك مع الدكتور «هانس هوف». ولقد التقينا معاً في وقتٍ متأخر بعد ظهر هذا اليوم المليء بالحوادث، وبعد أن تشاورنا تحدّث فاضل الجمالي، وهو يحمل شهادة دكتوراه في الفلسفة من أمريكا، عن الأحداث السياسية الراهنة. كانت الوزارة لا تعرف بكل وضوح، المكان الذي يوجد فيه الوصيّ، عندما أخبرني فاضل بأنه تلَقى الآن رسالة هاتفية تؤكد له أنّ الوصيّ عبد الإله موجود في قصر الرحاب! لم أطلعه أنا على شيء ما. ترى هل فطن إلى أنني كنت في الدار المجاورة لداره في الساعات الأولى من صباح هذا اليوم، وأنا أنصح الوصيّ بشأن وسائل هربه؟.

عُيّن عبد القادر الكيلاني، وهو من أقرب أقرباء رشيد عالي، رئيساً للديوان الملكي. وقد كلّمني هاتفياً في منتصف صباح اليوم التالي يقول لي: بأنّ الإذن قد مُنح لي بالذهاب معه إلى قصر الزهور كحماية لي. ذهبنا معاً بسيارة القصر. كانت الزيارة قد خُططت لغرض الحصول على أنباء عن مصير عبد الإله، وللتشاور بشأن سلامة الملك فيصل الثاني.

كانت أُم الوصيّ، واثنتان من شقيقاته الأخريات موجودات مع الملكة عالية في ذلك الوقت، وبذلك توافرت الفرصة لعقد مؤتمر عائلي موسّع جداً[٣٣]. لم يكن هنالك أدنى شك في أنّ النداء الهاتفي الذي تلقيته من

---

(٣٣) ذكر سندرسن في حاشية الصفحة ١٨٨ من مذكراته ما يلي: -

في مساء اليوم السابق، وفي غمرة قلق العائلة المالكة لأنباء هرب الوصي، استطاعت =

القصر، لم يكن قد تم عن طريق البدّالة المركزية، ولذلك تقرر أنه في حالة مرض أحد أفراد العائلة، ينبغي إخبار عبد القادر الكيلاني بذلك، وأن يتم ترتيب زيارتي للقصر عن طريقه هو.

كنت متأكداً من عدم وجود خطر على حياة الملك الذي كان في السادسة من عمره آنذاك، ومع هذا فقد تناقشتُ مع «بات دومفيل» في عددٍ من الخطط البديلة، لتهريب الملك مع أُمّه وحاضنته إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك.

ومهما يكن الأمر؛ فقد خرجتْ هذه القضية من أيدينا في النهاية، ذلك أن رشيد عالي الكيلاني أمر بنقل العائلة المالكة إلى مدينة أربيل الكردية حيث بقيتْ هناك؛ إلى أن عاد الوصيّ إلى بغداد في نهاية شهر أيار (مايو).

قبل أن أُغادر إلى القصر تلقيت أنباء من «أدريان هولمان» تقول: إنّ عبد الإله قد وصل سالماً إلى فلسطين، وقد انضم إليه نوري السعيد وآخرون معه في فندق الملك داوود.

* * *

كان شهر نيسان (أبريل) سنة ١٩٤١، مثار قلق شديد للمقيمين البريطانيين في العراق. فلم نعان، أنا وإلزي من قبل، مثل هذا المدى من الاضطراب؛ ذلك لأنه حتى أصدقاؤنا العراقيون قد أصبحوا يخافون أن يُظهروا لنا أي دليل من دلائل الود والاتصال معنا. والواقع أنه لم يكن في الأنباء سوى القليل مما يشجّعهم على ذلك. فقد كانت الأنباء عن القتال في اليونان وشمالي افريقيا مثيرة للقلق. وكانت إذاعات «يونس بحري» من برلين تزيد في أحزانهم. لقد كانوا في ذلك الوقت يتطلّعون، مثلنا نحن الإنكليز، إلى العزاء والتشجيع من لدن إذاعات تشرشل المليء بالحماسة.

= الملكة عالية والأميرة بديعة - وقد ارتدتا ملابس تافهة - بكل جرأة وعناد ومهارة، أن تصلا إلى دارنا «النخل»، وأن تلما بنجاح عملية هرب الوصي وتعودان من حيث جاءتا.

غير أن هذه الأنباء سرعان ما شاركت نفس المصير الذي صارت إليه بقية الأنباء الأخرى عن وجود الوصيّ في فلسطين؛ بأن أصبحت كلّها خاضعة للرقابة. فقد كانت بدّالات الهاتف، ودوائر البريد، ومحطة الإذاعة، والنقاط الاستراتيجية الأخرى، تخضع كلّها للرقابة العسكرية، وراح الجنود المسلّحون يجوبون الشوارع.

وسيطر على دوائر الحكومة جو من التوقعات المخيفة، وكانت الأسواق تعجّ بالإشاعات عن حتمية وصول قوات ألمانية، مما كان ينشره، دون شك، الموالون لدول المحور الذين كانوا يعتبرون الانقلاب مجرّد مقدّمة لأن تغزوهم تلك القوات.

ولقد كانت حتى إحدى الجولات النهارية تمثّل لحظات كابوس. فقد اعتاد عبد الله سائقنا الهندي أن يكرر باللغة الأوردية على مسامع زوجتي إحدى النكبات، كلّما استشارته في القيام بجولة في أحد الأجزاء النائية من المدينة أو ضواحيها.

كان سائقنا مسلماً. لكنه كان يخشى بصفة خاصة من الذهاب إلى القباب المذهبة في الكاظمية، ذات الممرات الضيّقة المحيّرة، والموطن المكتظ بالناس.

لقد وجدتُ أن من الضروري، ولو أمام الناس على الأقل، أن أتظاهر بالفرح والتفاؤل. ومع ذلك فلا بد لي من الاعتراف بأنه عندما أعلن المفتي الجهاد[٣٤]، وجدتُ أنّ من العقل أن أحدّد جولاتي في ضمن المناطق السكنيّة التي لا تبعد عن داري كثيراً.

---

(٣٤) أصدر كل من محمد الحسين كاشف الغطاء، وعبد الكريم الجزائري في النجف، والسادة: إبراهيم الراوي، ويوسف العطا مفتي بغداد، وحمدي الأعظمي، وكمال الدين الطائي، وعبد الرزاق الهاشمي، ومحمود الوتري، ومحمود فؤاد الألوسي، وإسماعيل وعبد الكريم الشيخلي، وحسين العبيدي، وغيرهم في بغداد أيضاً، فتاوى ونداءات تحث المسلمين على الجهاد ومناصرة الثورة، وقد أذيعت هذه الفتاوى من دار الإذاعة، ونشرت في كل الصحف التي كانت تصدر في العراق آنذاك.

وكمناورة لكسب الوقت، واظب رشيد عالي الكيلاني، على إظهار عدائه لبريطانيا العظمى وللسفير ذاته.

وكان كورنواليس يدرك جيّداً أن رشيد عالي كان يخدع نفسه، غير أنه لم يكن أمام رشيد عالي، بعد أن ضمن مساندة «المربّع الذهبي» له، إلا أن يطلب إلى الحكومة البريطانية بأن تعترف اعترافاً رسمياً بالحكومة الجديدة، وأنه قد سمح ـ على أمل تحقيق هذا الغرض ـ بنزول قوات عسكرية جاءت من الهند طبقاً لالتزامات المعاهدة.

ومع ذلك فإنَ الاعتراف البريطاني الذي كان رشيد يتطلّع إليه فيما بعد، لم يتحقق، وعندما نزلت قوات أكثر في البصرة، أعلن رشيد أن ذلك الإنزال كان مناقضاً للمعاهدة، إلاّ إذا كانت القوات التي نزلت أول الأمر، قد غادرت البلاد. ولا حاجة إلى القول بأنّ الجدل العقيم الذي ثار قد تم تجاهله. فقد بلّغ السفير بأن مرور القوات مسموح به، ولكن لا يُسمح لها بالمكوث في البلاد.

استمرّ الوضع في التردّي وأصبح مهدَداً إلى درجة أنه تم في يوم التاسع والعشرين من نيسان (أبريل)، إجلاء جميع النساء والأطفال البريطانيين الموجودين في بغداد، والذين يتجاوز عددهم مائتي شخص، إلى القاعدة الجوية البريطانية في الحبّانية، والتي تبعد ستين ميلاً إلى الغرب من بغداد. وكانت النيّة قد انعقدت على نقل هؤلاء جواً إلى الهند، كما تلَقى السفير وعداً من رشيد عالي شخصياً بضمان سلامة هؤلاء. ولكن في غضون الأربع والعشرين ساعة التي تلت ذلك، أو ما يقرب من هذا الوقت، قُصفت قاعدة الحبّانية بالقنابل، ولذلك أصبح من اللازم الإسراع بإجلاء النساء والأطفال.

تم إسكات المدافع التي نصَبها الثوار بهجوم جوي متواصل عليها تقريباً، وبذلك تم إكمال عملية الإجلاء بنجاح تحت غطاء جوي؛ حيث نُقل جميع الذين تم إجلاؤهم تقريباً إلى الهند بطريق الجو. وعندما حطّت الطائرة التي كانت تقلّهم في البصرة للتزوّد بالوقود، عرض القنصل

البريطاني الفريق ويلد فورستر، وهو صديق قديم لنا، بكل لطف على زوجتي إلزي، وزوجة أدريان هولمان معها، بأن تكونا في ضيافته هناك، وقد استخدمتا خلال إقامتهما كمساعدتين في مكتبه... وقد بقيت البصرة خالية من الاضطراب أثناء الثورة.

لم يتغاضَ السفير عن إمكانية إيجاد ملجأ للرعايا البريطانيين وللهنود البريطانيين، إما في السفارة البريطانية أو في المفوضية الأمريكية. وعلى هذا الأساس عَيَّن مجلس الجالية البريطانية عدداً من الحرّاس في المناطق لإعطاء الإنذارات عند الحاجة. وكانت الأمتعة المعيّنة لكل شخص تتألف من حقيبة للملابس، وأسلحة نارية من كل الأنواع، وطعام يكفي ليومين أو ثلاثة أيام، مع لفّة فراش، بالإضافة إلى سيارته الخاصة. وكانت كلمة السر التي اختيرت لذلك هي: «الاعتقال».

قامت قوات الثوار الآلية أثناء الليل بالتحرّك في أعقاب قوات النقل، واحتلّت موقعاً يطلّ على القاعدة الجوية البريطانية في الحبّانية. وفي الصباح بعث الأمر العراقي[٣٥] برسالة إلى مارشال الجو« سمارت» آمر القوة الجوية البريطانية يحذّره من أنّ أية طائرة ستحلّق في الجو سوف تُطلق عليها النار.

لقد كان هذا الأمر تصرّفاً لا يُغتفر من أعمال الغدر، ومعادلاً لإعلان الحرب. وعندما تلقى السفير هذه الأنباء من المارشال «سمارت» سارع إلى تنفيذ مشروعه في الحال.

جمعتُ الممرضات البريطانيات وأمتعتهنّ وأوصلتهنّ بسيارتي إلى

(٣٥) كان هذا الأمر هو الشهيد العقيد فهمي سعيد. وكانت قواته هذه تتألف من سرية الدبابات يقودها الرائد عبد الوهاب الشيخ علي، وسرية المدرعات بقيادة النقيب رشيد فليح، وسرية الرشاشات الآلية بقيادة النقيب حمود السعدون، وفوجين آليين بقيادة الرائد عبد الكريم فيصل الأنصاري، والرائد خير الله حسين، وكتيبة المدفعية الآلية بقيادة الرائد صالح فوزي، ولواء المشاة السابع بقيادة العقيد حسين جاهد، وقد جيء به على عجل من كركوك، وبطاريتي مقاومة الطائرات، وسريتي هندسة ومخابرة آليتين (محمود الدرة: الحرب العراقية البريطانية ١٩٤١، ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩).

السفارة. ثم عدت إلى داري لأنقل خدَمنا الثلاثة. ولقد عزمت على القيام برحلة أخرى لكي أعيد سائقنا عبد الله معي كيما يقوم بدوره في جلب سيارة إلزي، في الوقت الذي أستطيع فيه أن أقوم بإنقاذ الأشياء الثمينة. غير أنّ الفريق «غي وتُرهاوس» رئيس البعثة العسكرية البريطانية في العراق، والذي عُهد إليه بأمر الإشراف على تنفيذ عملية الالتجاء إلى السفارة، رفض أن يسمح لي بذلك على أساس أنني لا بد وأن أقع في الأسر، ولذلك أعلن يقول: «لقد اعتبرك رشيد عالي بأنك العدو رقم واحد، ولذلك أمنعك من الذهاب». وكان قد أنبأني عن تصميم رشيد عالي هذا قبل يومين أحد الجيران، وهو وزير سابق، عندما أشار عليّ، بعد اجتماع مجلس جمعية الهلال الأحمر العراقية التي كنت أنا وإياه عضوين فيها، بأن أكون حذراً، لأنني قد وُضعت تحت الرقابة طبقاً لأوامر من رشيد عالي.

كان هناك سيل متواصل من السيارات، ومع ذلك تمّت عملية الجلاء في ذات الوقت المحدد لها، حيث التزم أكثر من ثلاثمائة وستين شخصاً بكلمة السر التي حدّدتها القيادة. كان موظفو السفارة خلال هذا الوقت منهمكين في إحراق الوثائق الرسمية. وقد دهشت إذ وجدت بين ذلك الحشد الذي اجتمع في السفارة عدداً قليلاً من البغداديين الذين كانوا يحملون جوازات سفر بريطانية. كما سُمح بعد الظهر لعدد من الرعايا البريطانيين الذين هبطوا العاصمة آنذاك بالمجيء إلى السفارة البريطانية أيضاً.

في هذا الوقت تم إغلاق الباب الرئيس للسفارة، وهي بناء فخم موثق بالحديد، ووقف على حراستها اثنان من أفراد القوة الجوية البريطانية الذين كانوا من حرس السفارة المختارين، والذين انفصلوا الآن عن العاملين في قاعدة الحبّانية.

والذي أعتقده أنّ آخر من وصل إلى السفارة في صباح اليوم التالي، هي «فريا ستارك»، وكانت في طريقها من طهران إلى بغداد عندما أُعلنت حالة الطوارىء[٣٦].

---

(٣٦) تحدثت «فريا ستارك» عن هذه الحالة في كتيب صغير نشر بعد الثورة مباشرة، عنوانه:

لقد أُبلغنا فيما بعد من مصدر يُعتمد عليه جداً، أنّ طائفة من العراقيين، من بينهم العقداء الأربعة، قد تسلّموا ربع مليون باون اعترافاً بالخدمات التي أدّوها إلى دول المحور. ومما دعم هذا القول أنه حينما انضمّت إيطاليا إلى ألمانيا في الحرب، شعرت وزارة رشيد عالي أنها قوية إلى درجة تجاهلت فيها المعاهدة البريطانية العراقية، وراحت تميل إلى قطع العلاقات الدبلوماسية مع بريطانية، وهذا الأمر مكن «غبريائيلي» السفير الإيطالي في بغداد من إطلاق يده في نشره دعاية المحور في بغداد، وفي إنفاق الوعود والنقود لتجنيد المزيد من الأنصار للمحور، والتأكيد في الدرجة الأولى على أولئك الذين كانوا يرتدون بذلات الخاكي[37]

وتنفيذاً لمساندة المحور للثورة، حلّقت طائرتان من طراز «مِسر

= «الحصار». ولقد ترجمناه مع الفصول التي وردت عن ثورة أيار (مايو) من مذكرات تشرشل، ونشرناه في كتيب مستقل سنة ١٩٦٣ بعنوان: «ثورة العراق - مايس ١٩٤١».

(٣٧) يقصد بذلك كتائب الشباب التي أنشئت في أوائل الثورة، ونظمت على نمط عسكري خالص. ولقد قمت أنا وجماعة من الشباب من مختلف المهن بتأسيس منظمة باسم: «الحرس الوطني» وكانت مهمتنا مكافحة الإشاعات المغرضة، والمشاركة في أعمال الحراسة ومساعدة الجند والحيلولة دون انتشار الفوضى، وكانت منظمتنا هذه مرتبطة بالشهيد محمد يونس السبعاوي، ولها نظام خاص وضعته أنا، ووافقت عليه وزارة الداخلية في حينه، وعندما فشلت الثورة تم اعتقال معظمنا، فأمضينا في الاعتقال مدة ثلاثة أشهر، وحوكمنا أمام المجلس العرفي العسكري في معسكر الرشيد، وكان يرأسه مصطفى راغب، ومن أعضائه العسكريين ناجي عبد الرزاق ومحمد طه. أما من أعضائه المدنيين فهما عبد العزيز الخياط (الأعرج) والسيد حمدي صدر الدين، وقد أفرج المجلس عنا عدا اثنين، حكم أولهما وهو محمد فوزي بغرامة مائة دينار أو الحبس لمدة سنة، وعطا جميل بخمسين ديناراً أو الحبس لمدة ستة أشهر، وقد حبس الاثنان. وكان اثنان من أعضاء المنظمة هما عبد الجبار حمزة ومهدي هاشم السامرائي قد فرا مع السبعاوي إلى إيران، وهناك ألقي القبض على عبد الجبار حمزة وأخذ مع بقية العراقيين الذين اعتقلوا هناك إلى سالسبوري عاصمة روديسيا، فمكثوا هناك ثلاث سنوات، ثم أعيدوا إلى معتقل العمارة في العراق، ولم يطلق سراحهم إلا في أواخر سنة ١٩٤٦ (أنظر مقالتي الموسعة عن منظمة «الحرس الوطني» في مجلة الثقافة - صلاح خالص - عدد أيار (مايو) ١٩٧٦). أما عن ربع المليون باون التي يزعم سندرسن أن العقداء الأربعة قبضوها من دول المحور، فالمعروف أن العقداء، لم يخلفوا لعوائلهم غير الفقر والثكل.

شميت» الألمانية فوق مطار الموصل، في الوقت الذي تم فيه احتجازنا داخل السفارة. كما ظهرت طائرة ألمانية أخرى فوق مطار بغداد، وكانت تستعد للهبوط فيه. ولقد تعقّبنا منظر هبوطها لكننا لم نتأكد من ذلك؛ إلاّ فيما بعد، عندما علمنا بأنها قد أُسقطت بفعل إطلاقة من بندقية عراقية، على اعتقاد بأنها كانت طائرة إنكليزية. وكان طيّار تلك الطائرة سيء الحظ هو ابن المارشال الألماني «فون بلومبرغ»، وقد اخترقت إحدى الطلقات جمجمته فمات في الحال(٣٨).

كان اليوم الثاني من شهر أيار (مايو) حافلاً بالأحداث. كان قد مضى على احتجازنا في السفارة يومان، وقد صمم السفير على إصدار بيان. وكان الأمل الوحيد لتوزيعه هو أن يقوم زورق بخاري بإلقاء رزم من نُسخ هذا البيان في أي مكان مُستطاع على ضفتي النهر.

في الساعة السابعة صباحاً قامت فئة من أصغر المقاتلين، وكل أفرادها من المتطوعين، ولم تكن مهمتهم معروفة لبقيّتنا، بقيادة زورقين بخاريين سار أحدهما ضد التيار، وتحرّك الآخر معه. لقد كانت تلك مهمة باهرة لكنها لم تكن ناجحة تماماً. ذلك لأنه أُلقي القبض على راكبي أحد الزورقين قبل أن يكملوا مهمتهم تماماً. ولذلك تم حبسهم وتعذيبهم، وكان من حُسن الحظ أن مخاوفنا على سلامتهم لم تتحقق، فقد أُعيدوا إلينا أثناء

---

(٣٨) وقعت أثناء الثورة حوادث عديدة، وعلى الأخص في الجنوب، تصدى فيها الأهالي للطائرات العراقية فأسقطوها، منها طائرة أرسلت لضرب البواخر الإنكليزية في ميناء شط العرب بالبصرة، كان فيها الطيار حميد عمار ومساعده الطيار عصام دويشا. أسقطها الجنود والأهلون العراقيون في مطار الديوانية، فقتل جميع من فيها. وتلتها في اليوم التالي حادثة إطلاق النارأيضاً على طائرة عراقية أخرى كان فيها الطياران مصطفى زلزلة وسعدي محمد علي، وقد انفجرت في الجو وسقطت على الأرض، ونجا منها الطيار سعدي محمد علي وجنديان آخران معه في الديوانية أيضاً. وكان أحد الجنود الذين نجوا من الموت هو يحيى عبد يونس التكريتي ـ الموظف الآن في وزارة النفط والمعادن ـ والذي كان هو الوحيد الذي أعطى المعلومات عن سقوط هذه الطائرة، عندما استفسر منه هاتفياً، الطيار كاظم عبادي.
وأسقطت العشائر في الناصرية طائرة ثالثة كانت من طراز «دوف» الإنكليزية، وقد نجا الطيار نافع عبد الله من الموت لكنه أصيب بكسر في رجله.

الحصار. لقد عومل هؤلاء بشكلٍ مُزْرٍ، وطوِّف بهم في الشوارع، وتعرّضوا للإهانات أثناء حبسهم.

كذلك كان اليوم الثاني من أيار (مايو) هو الذكرى السادسة لميلاد الملك فيصل الثاني. فتقدّمت محطة «باري»[39] بالتهاني والمباركات؛ ثم اختتمت ذلك، وبطريقة دعائية لبقة، بالهجوم على البريطانيين، وادّعت بأنّ صحة الملك الصغير أُوكلت، ومن دون أية رحمة، إليّ أنا الطبيب البريطاني الذي كان طبيباً لأبيه وجدّه وقت وفاتهما. كما صبّت اللعنة عليّ أيضاً بدعوى أنني كنت عضواً في عصابة للاغتيال!

في هذا اليوم أيضاً تمّت إزاحة هوائي المذياع في دار السفارة، وقد أُنبئتْ لندن بالحادث في حينه، وإنّ إزاحة الهوائي من شأنه أن يعقّد قضية اتصالاتنا. فلقد اكتشف وجوده ولم يكن من المفيد أن نزعم بأنه ليس في حوزتنا هوائي للمذياع.

عهدت الحكومة العراقية إلى عبد الجبار محمود[40]، وهو ضابط في القوة الجوية وزوج الأميرة راجحة، بأن يتسلّم منا الهوائي نيابة عنها. ولقد كنت أعرفه معرفة جيّدة. وكان كثير المجاملة معنا أثناء هذه الإجراءات.

وما أن عُرف الغرض من زيارة عبد الجبار محمود هذه، حتى أبرق «پات دومفيل» إلى لندن بآخر اتصال معها، وأوضح لها الأوضاع، وألقى لها بتحية الوداع، ولم تجرِ أية محاولة لتجنيد أدوات استقبال أُخرى؛ فتلك مهمة مخيفة على أي حال.

---

(٣٩) كانت الحكومة الإيطالية قد أنشأت في بداية الحرب العالمية الثانية محطة إذاعة تذيع باللغة العربية في مدينة «بِاري»، وقد راحت هذه الإذاعة تتبارى مع محطة برلين في إثارة العرب ضد الإنكليز والفرنسيين. كذلك أنشأ الألمان بعد احتلالهم اليونان محطة إذاعة عربية في أثينا، كان يذيع فيها عبد اللطيف الكمالي الذي هرب بعد فشل الثورة إلى سوريا، ووصل من هناك إلى برلين وَاشتغل في إذاعتها ثم نقل إلى إذاعة أثينا وقد وقع في الأسر عند احتلال الحلفاء برلين ولم يطلق سراحه إلا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بسنوات.

(٤٠) كان عبد الجبار محمود هذا من أوائل الذين برعوا في فن الكاريكاتور في العراق، وكان قبل تخرجه في الكلية العسكرية يرسم الصور الكاريكاتورية لجريدة «حيزبوز» في السنة الأولى من صدورها، وقد تزوج من الأميرة راجحة بعد تخرجه في الكلية العسكرية برتبة ملازم ثان وكان هو وزوجته خارج العراق عندما وقعت ثورة الرابع عشر من تموز ١٩٥٨

كان في المقهى التي لا تبعد سوى بضعة يارادت عن الجدار الجنوبي الخارجي لمبنى السفارة مذياع له مُكبّرة صوت. وكان هذا المذياع لا يكفّ عن اللغو طوال النهار. وكان خلال فترات تنافر الأصوات يتحدث بإسهاب عن خسائر الإنكليز، وانتصارات الألمان، وعن إنهاء عقود الموظفين الإنكليز في العراق.

* * *

سيطر العراقيون على الجو لأيام قلائل، لكن سرعان ما أُسقطت طائراتهم ودُمّرت على الأرض، وبذلك أصبحت القوات العراقية عاطلة عن العمل تماماً. ولقد شهدنا في الضواحي مشهد هذا الانتصار، ورأينا طائراتنا القاصفة من طراز «ولنغتون» تهاجم المطار، والقاعدة العسكرية في «الهنيدي» الذي يُطلق عليه الآن اسم «معسكر الرشيد».

ولقد قامت إحدى طائراتنا القاصفة، في إحدى المرات، بالتحليق بشكلٍ واطىء فوق السفارة وألقت عليها بعض الأوراق الرسمية والبريد. وكنت محظوظاً إذ تلقيتُ رسالة من زوجتي إلزي بهذه الوسيلة.

في صباح اليوم الثلاثين من أيار (مايو) استيقظت مُبكراً، فقمت ـ قبل تناول الفطور ـ بجولة عبر أراضي السفارة وبلغت الباب الرئيس. وقد دهشت عندما حيّاني بكل مودّة أحد ضباط الشرطة الذي كان يقوم بواجبه خارج بناية السفارة. ولقد سألني بالعربية قائلاً: «كيف حالك يا باشا؟» ثم واصل حديثه ليؤكد صداقته لبريطانيا وإعجابه بها.

لقد كان ذلك فألاً حسناً أحسست معه بالثقة في أن أُعلن للحاضرين عند تناول الفطور؛ أن نهاية احتجازنا هنا قد غدت وشيكة.

رُفع الحصار عن السفارة بعد ظهر ذلك اليوم. لقد هرب رشيد عالي الكيلاني ورفاقه المتآمرون بعد أن أصابهم اليأس في آمالهم الضائعة التي قطع لهم «هتلر» البعض منها، إلى إيران، ومن هناك اتخذ سبيله إلى برلين.

توَقف قِسْمٌ من لواء الإنقاذ عند مشارف محطة القطار، وعلى أثر

ذلك حدّثني القنصل «لزلي پوت» هاتفياً بقصد المجاملة ودعاني أن أصحبه. وطبقاً لذلك كنت أنا أول المحتجزين الذي رأى العالَم الخارجي منذ يوم الاعتقال.

كنا مدينين بإنقاذنا إلى رتل «كينغكول» الطيّار الذي كان يعمل تحت إمرة أمير اللواء كينغستون. وكان هذا الرتل خليطاً من أفراد الحرس الخاص، والحرس الملكي الداخلي، ودوريات الصحراء التابعة لإمرة «غلوب»[٤١] تدعمه ثماني سيارات مصفّحة تابعة للقوة الجوية البريطانية.

لقد تحدّثت قصة الإنقاذ عن قوة رحلتْ من «نثانيا» على ساحل فلسطين، والتي وصفها من الناحية الجغرافية أحد ضباط تلك القوة، وهو «سومرست دي شير» في كتابه: «البساط الذهبي»[٤٢].

أوقفتُ تدوين يومياتي خلال أيام الحصار داخل السفارة؛ ذلك لأنّ تسجيلاً يومياً مدهشاً لتلك الأيام قد دُوّن في السيرة الذاتية اللطيفة التي وضعَتها «فريا ستارك» تحت عنوان: «غبار في مخلب الأسد» «Dust in the Lions' Paw».

قامت محطة الإذاعة الداخلية التي كانت تذيع، طبقاً لتوجيهاتي، ليلاً داخل السفارة أثناء الحصار، بآخر إذاعة لها في اليوم السابع والعشرين من شهر تموز (يوليو) سنة ١٩٤١.

أعد مسرح للإذاعة في حدائق المجلس البريطاني. وكانت المناسبة هي تقديم ثلاثة صكوك شخصية إلى السفير لشراء تذكار له حسب اختياره نُقشت عليه العبارة التالية: «هدية إلى فخامة السر كنهان كورنواليس دليل

---

(٤١)هو جون باجت غلوب باشا قائد الجيش الأردني الذي كان يعرف باسم «الفيلق العربي»، وقد بقي غلوب قائداً للجيش الأردني حتى استغني عنه بعد الانتفاضة الوطنية التي حدثت في الأردن، وفي عهد الملك حسين الحالي، في أوائل الخمسينات، عندما تولى سليمان النابلسي رئاسة الوزارة بعد تلك الانتفاضة.

(٤٢)البساط الذهبي The Golden carpet: ترجمه السيد موسى حبيب إلى اللغة العربية، ونشره في جزئين صغيرين سنة ١٩٤٢. الأول بعنوان: «البساط الذهبي». والآخر بعنوان: «الهلال الفضي». وقد نال هذا الكتاب رواجاً واسعاً عند صدوره في بغداد في تلك الأيام.

تقدير وإعجاب من لدن المحتجزين الذين أسعدهم الحظ لأن يكونوا ضيوف فخامته في السفارة البريطانية ببغداد خلال شهر أيار (مايو) سنة ١٩٤١».

وقد تحدّثت الإذاعة التي سبقت تقديم هذا التذكار عن إعجاب رفاق السفير المحتجزين بشجاعته وثباته أيام القلق والاضطراب الطويلة[٤٣].

كانت السفارة البريطانية في ليلة الثلاثين من أيار (مايو) مسرحاً للاحتفال، حيث أُلقيت كلمات التوديع والتحيّات لفخامة السفير، ثم أعقب ذلك تنظيم الهدنة، وفي صباح اليوم التالي غادرنا السفارة أحراراً.

اختير المستر سميث خلفاً للمستر لوغين مديراً للسكك الحديدية، ولذلك دعوت المستر لوغين إلى المكوث معي إلى أن يصبح في مقدوره مغادرة البلاد.

كانت حركة نهب حوانيت اليهود مطّردة في الوقت الذي مررنا فيه بسياراتنا خلال الشارع الرئيس في المدينة، غير أننا لم نتعرض لأي أذى، وبأية طريقة، ذلك لأن أعمال النهب كانت ذات فائدة أكبر.

ما إن وصلتُ إلى بيتي حتى وجدت اثنتين من سيارات النقل الخاصة بالجيش وستة جنود على مقربة من الباب. كانت إحدى السيارات تحمل مدفأة وثلاثة كراسٍ من النوع الذي يُستعمل في الحدائق، في حين كانت السيارة الأخرى تحمل ثلاّجة كبيرة، وبلغةٍ عربيةٍ بذلتُ جهدي لجعلها غير مهذّبة، طلبتُ إليهم إعادة الثلاّجة والأشياء الأخرى إلى المكان الذي أخِذَتْ منه! . . ألحّ عليّ «لوغين» قائلاً: «كن حذراً إنهم جميعاً مسلّحون». غير أن نظرة ألقيتها داخل الباب المفتوح قد أكدت مخاوفي بأن أثاثي قد تم

(٤٣) تحدثت فريا ستارك في كراسها «الحصار» ما يلي: كنا في الايام القلائل الأولى نعيش في خطر التعرض لهجوم قد يقع علينا في أية لحظة. كان مجموعنا داخل السفارة ثلاثمائة وثمانية وخمسين شخصاً، بينهم بريطانيون وهنود ويهود وأرمن ويونانيون وعراقيون، ومغنية مجهولة الهوية اعترفت أن ابويها ألمانيان. (أنظر كتابنا: ثورة العراق - مايس ١٩٤١، ص ٤٥) . وقد روت زرياستارك حوادث العراق في تلك الفترة في كتاب خاص اصدرته بعنوان « غبار في مخلب الاسد »
ADUST IN THE UOONS PAW
قمنا بترجمته واعداده للنشر قرويا

نهبه، وقد انتباني السخط بشكل جعلني أتجاهل نصيحة لوغين. وقد برهن هذا الموقف على فعاليّته. فقد أعيدت أحمال السيارتين إلى أماكنها الصحيحة، وأسرع الجُند بالتراجع.

كان المنظر داخل البيت لا يمكن تصديقه. فلقد نُسفت الخزانة وسُرقت منها النقود والمجوهرات، ولم تبقَ في البيت، لا ستارة ولا سجادة، وكان عدد السجادات التبريزية التي تم جمعها في مدى عشرين سنة؛ قد بلغ ثلاثين سجادة. كذلك لم نرَ أية حاجة يمكن نقلها.

ولقد تم تحطيم الدواليب والخزانات؛ كما حُطِّمَتْ محتوياتها، عدا ما نُقل منها، وبُعثرت على أرضيات الغرف مع المواد الأخرى التي لا أهمية لها، مثل الرسائل، والمجلات والصحف، والقناني والصحون والزجاج المحطّم.

واقتُلعت الرسوم من الجدران ومُزّقت، وحتى أدوات الحمّام والمرافق الصُحيّة قد نُهبتْ، كما سُرق أي شيء له قيمة. وكانت سيارة إلزي ذات المقعدين، وجهاز الراديو الجميل الذي أُهديَ لها من قبل الملك غازي، من بين المواد التي سُرقت.

كانت زوجتي إلزي رسّامة موهوبة بالتلوين المائي. ولم يؤلمني شيء بقدر ما آلمني إلحاق التلف بثلاث من رسومها التي لا تقدّر بثمن.

قرر لوغين بصفة حكيمة؛ بأنّ وسائل الراحة في الفندق ستكون أوفر. وكان من حُسن حظي أن استطعت استعارة بعض الحاجات المباشرة من دار التمريض. وهكذا أمكنني ترتيب الأمور إلى أن عادت زوجتي بعد ثلاثة أيام.

يا للمسكين الشائخ «مرملاد»! لقد وجدتُ قطّي الفارسي ملقى في الحديقة، شديد النحولة بشكل يثير الشفقة، ويصعب تمييزه بين الحشائش الطويلة الجافّة التي كانت قبل شهر تغطّي المرج الأخضر الذي يوشك أن يُعطي ثماره.

لقد استجاب القط المسكين لندائي وزحف نحوي، ولذلك حملته إلى الداخل وسرعان ما شرع يلعق اللبن، وذلك لأول مرة في خلال شهر كامل دون شك، لكنه ما لبث بعد أن عادت إلزي بأيام قلائل أن لفظ أنفاسه عند أقدامها عندما كانت تردّ على نداءٍ في الهاتف!

لقد استُعملتْ داري مقرّاً لقيادة الفرقة الثالثة في الجيش العراقي تحت إمرة العقيد صلاح الدين الصباغ زعيم «المربّع الذهبي». قدّمتُ أخباراً عن الأضرار التي أصابت الدار، وقد دُعيت، بعد بضعة أيام، لزيارة عدد من بيوت الضباط، حيث أُرسلتْ نسخ من الدعوة التي وصلتني إلى كل واحد من أولئك الضباط المعنيين سلفاً، مع تحديد التاريخ والساعة المقترحة لتلك الزيارة؛ لغرض تشخيص أي من الأثاث العائد لي قد تشير الدلائل إلى وجوده هناك.

لقد غدا واضحاً أنّ زياراتي هذه، مع وجود علم مُسبق لها ستكون مضيعة للوقت، غير أنني قررت أن أقوم بهذا الإجراء كيلا أُتهم بأنني كنت غير راض. ولا حاجة إلى القول بأنني لم أعثر على شيء، ولكن بعد مضي فترة على ذلك؛ شوهدتْ ملابس السهرة التي كانت ترتديها زوجتي على أجسام بعض من حضرنَ صالات الرقص والحفلات. ومع ذلك فإنني أعتقد بأنّ وزير الدفاع كان قد وجد الدليل على السرقة، وأنّ بعض الضباط قد ثبتت عليهم التهمة، ولكن لم تُعد إليّ ولا قطعة واحدة مما فقدته.

أُلِّفتْ لجنة للتحقيق في طلبات التعويض عن الأضرار من ثلاثة أعضاء تحت رئاسة القاضي «پريشارد» (أخيراً السر جون) رئيس المحكمة العليا في العراق. وقد استبعد حب الانتقام بصفة خاصة بالنسبة إلى الأضرار، وطلب إلى المستدعين تقديم تفصيلات عن التاريخ والمكان وقيمة شراء كل مادة، وتلك مهمة مستحيلة لكل واحد كان قد أُفرغ بيته تماماً ـ مثل بيتي ـ مما كان يحتويه.

كما أنقصت الادّعاءات عن بعض المواد كالملابس مثلاً إلى نسبة خمس عشرة في المائة عن كل سنة من سني تملّكها. ولقد كانت

التعويضات تافهة، لكن اللجنة كانت تقوم بمهمة شاقّة جداً ومن دون أي شكر لـها. وكنت أنا وزوجتي إلزي مّن أسوأ المتضررين على الإطلاق.

كان هناك عدد من مطالب التعـويض عـن الجروح. وقـد أُحيلت إحدى هذه القضايا إليّ أنا لغرض الفحص، وهي تخـصّ مدير أحد معامل الألبان. لقد ادّعى ذلك المدير بأنه ضُرب ضرباً مبرحاً، كما تم سلبه، وأنه كان يعاني من ألم شديد ورجّة عنيفة لم يُشْفَ منهما إلاّ بعد خمسة أشهر. تم تشخيص وجود حصاة في المثانة قبل وقوع الحركات العسكرية، غير أنّ إعادة الفحص بالأشعة لم يكشف عن وجود أية حصاة. وبعبارة أُخرى، وبفضل الاعتداء العنيف الذي تعرّض له ذلك المدّعي فقد تخلّص من تلك الحصاة. ولذلك فلم يؤخذ ادعاؤه بنظر الاعتبار.

بعد أن انتهى احتجازنا بأيام قلائـل، شرعت القـوات التي نزلت البصرة قادمة من الهند، تصل إلى بغداد، وكان وصولها هذا بمثابة نجدة لنا جميعاً، ولكن ما هو عدد القوات التي ستخصّص لقيادة الجنرال «ويفل؟»

لقد شهد الجنرال ويفل القـائد العـام لقوات الحلفـاء في الشرق الأوسط وقتاً عصيباً منذ أن هرب عبد الإله. فقد افتتحت أمامه جبهتان جديدتان، هما سوريا والعراق، تتطلبان قوات يصعب عليه توفيرها.

كان شهر نيسان (أبريل) كابوسا غيـر منقطع، حين راح «رومـل» يتقدّم، وأصبح غزوٍ مصر واحتلالها متوقعاً، في ذات الوقت الذي أصبحت فيه الحالة في كلٍ من قبرص وكريت، تنذر بكارثة.

قام الجنرال ويفل بزيارة جوّية سريّة جداً لبغداد. فقد طار عَبْرَ طُرُقٍ عديدة وليست طريقاً واحداً؛ كيما يواجه السر كنهان كورنواليس بعد هرب عبد الإله مباشرة تماماً.

كلّمني مرافق السفير هاتفياً وطلب إليّ الذهاب إلى السفارة حالاً، وأن أحمل معي مزرقة الإبر. بقيَ الغـرض والشخص مبهمين، إلى أن وصلتُ السفارة فاندفعتُ، بسريّة زائدة، إلى غرفة نوم فوق السُلَّم، وإلى الرجل العظيم الموجود فيها.

كان الرجل يبدو مُتعباً جداً، وهو يتخطى في الغرفة إلى أمام وإلى خلف وقد غرق، بكل وضوح، في تفكير عميق عندما دخلتُ عليه الغرفة. كانت قد حُدّدت له مجموعة من الزرقات، وكان موعد إحداها قد حان آنذاك.

تطلبت مكائد رشيد عالي الكيلاني إرسال قوات لا يمكن الاستغناء عنها من جبهة أُخرى، الأمر الذي سبّب الاهتمام الشديد من جانب الجنرال ويفل.

كانت لجنة كتائب المعونة المؤلّفة من المتطوعين، ولجنة تنمية القوات الأمبراطورية، موجودة في بغداد منذ بعض الوقت. وحين وصلت زوجة كورنواليس تقبّلت بسخاء أن تترأس هذه اللجنة. وسرعان ما نشطت مشاريع الترفيه والضيافة نشاطاً فعالاً، غير أن نشاط هذه اللجنة قد تم - لسوء الحظ - تجميده لأغراض الضرورة، وذلك بسبب الأعمال الأخيرة التي رافقت إجلاء النساء البريطانيات وأطفالهنّ إلى الهند.

كانت المتطلبات المالية للجنة الإغاثة يجري تسديدها من «صندوق المشاركات البريطاني وحرب شمالي العراق». وقد بقيت هذه الترتيبات جارية إلى ما بعد ستة أشهر، وتطلّب تنظيمها قدراً كبيراً من الوقت. غير أن اللجنة غدت الآن أبعد عن النشاط، وعندما دعاني الفريق «لوكنر» للخدمة في لجنة الإغاثة العسكرية التي يرأسها، قبلتُ هذه الدعوة بسرور، لأنّ فعالياتها كانت قد توقفت على نطاق واسع بسبب نقص الاتصالات، ونقص الإلمام بالأمور المحليّة بصفة عامة.

وفي الوقت ذاته كنت أفكّر في خُطَطٍ لتأسيس نادٍ للخدمة ومركز للإغاثة، وإنشاء صندوق النصر لتبرعات الحرب البريطانية. كانت بيوت الراحة قليلة جداً. وكانت المهام الرسمية التي أقوم بها في ذلك الوقت، عدا عن مهماتي في القصر والسفارة، تشتمل على عمادة كليّة الطب العراقية التي كانت تشمل رئاسة المستشفى الملكي أيضاً، بالإضافة إلى كرسي الطب، ووظيفة طبيب الحكومة العراقية والمستشفى الملكي، ومستشارية وزارة الشؤون الاجتماعية والصحة.

ولذلك راح كثيرٌ من العراقيين يقولون لي: بأنّ وجوههم قد اسودّت نتيجة التصرّف المنحط الذي سلكه رشيد عالي الكيلاني وعصابته السرّية، وأنهم يَوَدّون ترضيتي والتعويض عَليّ بشكلٍ أو آخر.

ولذلك كنت واثقاً بالنسبة إلى الشهرة التامة، أن يحصل تجاوب سخي مع البيان الذي يصدر نيابة عن لجنة الإغاثة الحربية البريطانية، لإزجاء الشكر لما قامت به من تخفيف ويلات الحرب وآلامها، وإنني بعد أن أحصل على موافقة وزير الداخلية والسفير البريطاني، قررت أن أوجّه ذلك البيان. كان الأشخاص البارزون في اللجنة هم: رئيس الوزراء نوري باشا السعيد، السر كنهان كورنواليس، والفريق السر هنري ميتلاند ولسون الذي وصل إلى بغداد حديثاً قائداً للقوات البريطانية في العراق.

كنت أنا وداوود باشا الحيدري رئيسين مشتركين للجنة، وكنت أنا أقوم بمهمة السكرتير فيها، وقد ساندتنا اللجنة المؤلفة من اثني عشر رجلاً مساندةً تامة.

وما إن عُرفت هذه اللجنة عن طريق الإذاعة والصحافة والطوابع باسم: «صندوق النصر»، حتى أصبحت تحظى بالتأييد، وكان أعظم تأييد لها قد قام به ستيوارت بيرون مدير مكتب العلاقات العامة للسفارة البريطانية.

وكان من بين الإجراءات التي قام بها الصندوق، الاتفاق مع محطة الإذاعة البريطانية على إذاعة اسم كل متبرّع يتبرّع بمقدار خمسمائة دينار فأكثر، الأمر الذي أثار المنافسة في التبرّع بين شيوخ العشائر بصفة خاصة.

ولقد أثمرت الأشهر الثلاثة الأولى من تأسيس الصندوق مبلغ خمسين ألف دينار، في حين لم يحصّل الصندوق في الأشهر الثلاثة الثانية سوى خمسة عشر ألف دينار. ومع ذلك، وفي أمل الحصول على مائة ألف دينار، كنت أتطلّع إلى تمديد مدة التبرّع لستة أشهر أُخرى. وقد تَمّت الموافقة على هذه المدة ومُنحت الإجازة المطلوبة لذلك، ولكن بعد انقضاء ثلاثة أشهر، وبوصول مبلغ التبرّعات إلى حد خمسة وسبعين ألف دينار،

صمّمت على إغلاق الصندوق، حيث عُهد إلى رؤسائه بمهمة إجراء التوزيع.

كان الفريق ولسون في هذا الوقت قد غادر العراق ليتولى منصب قائد قوات الشرق الأوسط، وقد أعقبه في منصبه اللواء السر هنري باونل قائداً للقوات البريطانية في العراق وإيران ورئيساً لصندوق النصر. وقد انتهى العمل بهذا الصندوق بعدما ظهر بأنه قد فقد التقبّل من الناس بمرور الوقت.

لقد كنت أرفض الاعتقاد بأنّ العطف على ضحايا أعمال العدو قد نفد، ولذلك طلبت إلى الملكة الأم ما إذا كان من قبيل السخاء جدّاً أن تمنح مساندتها لصندوق جديد بتأييد من الصندوق الوطني لكوارث الغارات الجوية الذي يترأسه أمين عاصمة لندن. ولقد رضيْت الملكة «عالية» بذلك دون أدنى تردّد، وأعلن نوري السعيد استعداده لتقبّل رئاسة الصندوق، كما وافق جميل المدفعي على أن يرأس اللجنة المركزية للصندوق. وكان مدير الخزينة والأعضاء الخمسة الآخرون للجنة كلّهم من العراقيين، ومن بينهم ثلاثة رؤساء وزارات. والواقع أنني كنت، كمؤسس للصندوق، الشخص غير العراقي الوحيد في هذه المجموعة. ولقد توصلّت إلى نتيجة مؤداها: أن هذه الهيئة قد تصبح أكثر نجاحاً من أية هيئة مشتركة.

ناقشت مشروعي هذا مع السفير البريطاني، لكنه كان أبعد عن التفاؤل في وجودِ فُرَصٍ لنجاحه، ولذلك فلم يرغب في انضمام أي موظف إليه. ومما قاله لي: «لقد عملت حسناً بالنسبة إلى صندوق النصر، فكن قانعاً بذلك الصندوق. إنك لا تستطيع أن تأمل في تكرار ذات العملية». لكنني ما لبثت أن احتجيّت بعناد قائلاً: «إنني أستطيع ذلك وسأنفّذه!» وكان جوابه قوله: «إنني أمنحك بركاتي، ولكن لا تقل إنني لم أحذّرك إذا ما ظهر بأن ذلك المشروع سوف ينهار!».

ولكي أُوجز الحكاية أقول: «إنّ المبلغ الذي تم جمعه من العراقيين لصندوق كوارث الغارات الجوية، قد تجاوز مجموع مبلغ صندوق النصر بعشرة آلاف باون».

بعد أن عادت إلزي من البصرة قررنا، أنا وإياها، بأنّ أملنا الوحيد في إعادة تأثيث دارنا التي نُهبت، واستبدال المواد الضرورية من الملابس والأدوات، يكمن في قيامنا بسفرة إلى بيت المقدس. وطبقاً لذلك طلبت الحصول على إجازة عاجلة. وقد تمّت الموافقة على تلك الإجازة، لكن إلتزاماتي حالت دون سفرنا المباشر، وعلى هذا قنعنا بزوجين من كل شيء حصلنا عليها محليّاً في الوقت الحاضر.

وفي الوقت ذاته تلقيت رسالتي تهديد، ومكالمة تلفونية من إحدى مريضاتي التي لم تجرؤ على ذكر اسمها، تخبرني بأنها قد سمعت حديثاً بين رجلين كانا يعدّان العدة لقتلي. لم أقلق لسماع ذلك في الواقع، لكنني ظننت أن من الأفضل أن أخبر الشرطة بالأمر. وكم كانت دهشتي إذ أخذت الشرطة ذلك التحذير بصفة جدّية، وأصرّت عليّ بأن يكون لي حرس حماية من شرطيين مسلّحين ومرافق مدني يرافقني ليل نهار. وقد تم إعداد أولئك الحرس، فكنت حيثما ذهبت، حتى في ردهات المستشفى، يكون أحدهما إلى جانبي وهو يحمل مسدّساً ظاهراً من تحت سترته، أما الآخر فيكون مترصّداً على مقربة مني، وكان عليّ أن أوفر لهما الراحة والطعام والسجاير والبخشيش، كما أتحمّل تيقظهما باهتمام متزايد، إلى أن غادرنا أنا وإلزي إلى فلسطين، وإذ ذاك ودّعتهما. ولم أتصل بالشرطة بعد عودتنا لأنني قرّرت أنّ من الأفضل أن تصلح الأخطار عن طريق السلامة الرسمية.

ولقد ظهر أن تلك التهديدات كانت مجرّد عبث لأنه لم يُشتبه بأي أحد.

ومع ذلك فلم تكن بغداد خالية تماماً من حوادث الاغتيال. وقد شهدتُ بنفسي أحد هذه الاغتيالات عندما كنت أتمشى في أحد الأيام، في الشارع الرئيس، في المدينة. لقد شاهدت صبياً اعرابياً متسخ الملابس أشعث المنظر، يترجّل عن درّاجة هوائية فجأة، ويتعقب رجلاً كان يسير على بُعد حوالي عشرين ياردة أمامي، ولم يلبث ذلك الصبي أن أطلق عيارين من مسدس على ذلك الرجل الماشي من الخلف، ثم عاد إلى درّاجته فركبها ولاذ بالفرار.

لقد كان ذلك القتيل فلسطينياً من عائلة «النشاشيبي». وكان أفراد هذه العائلة خصوماً سياسيين لمفتي القدس المُبعَد ولأنصاره[٤٤].

كان مكوثنا في القدس قصيراً؛ لكننا خطّطنا لأن نشتري معظم الأشياء الضرورية، وبذلك أصبح في الإمكان استمتاع الضيوف الذين يفدون على دارنا مَرّةً أخرى.

ومع أنّ رشيد عالي الكيلاني وكثيرين من رفاقه قد استطاعوا الهرب، إلّا أنّ عدداً من رفاقهم البارزين قد تخلّفوا وراءهم، حيث تم اعتقال أكثر من عشرين منهم، واحتجزوا في محطة الأبحاث الزراعية، وهي مؤسسة حكومية تقع إلى الغرب من بغداد[٤٥]، ومن ثم نُقلوا على جناح السرعة إلى محتجَز أُعدّ للسجناء السياسيين. ولقد حاول معظم الموقوفين أن يظفروا بإطلاق سراحهم على أُسُس طبيّة، وهكذا عُهد إليّ بمهمة شاقة، هي إجراء الفحص الطبي على هؤلاء، وإعطاء قرار بإطلاق سراحهم أو بإبقائهم رهن الاعتقال. ولم ينجح سوى واحد من هؤلاء المعتقلين في ادعائه، وهو موسى الشابندر وزير الشؤون الخارجية في حكومة رشيد عالي. فقد كان هذا الرجل ضحيّة تدرّن رئوي حاد.

وكان بعض المعتقلين من محرري الصحف التي كانت بغداد تحتفظ

---

(٤٤) يشير سندرسن بهذا إلى اغتيال فخري النشاشيبي رئيس بلدية القدس في تلك الأيام. وأحد الموالين المندفعين للإنكليز ولليهود، وقد قتل فخري هذا، في التاسع من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤١، في شارع الرشيد عند مدخل سميراميس قبالة بدالة الهاتف المركزية حالياً، ولقد اتهم عدد من الفلسطينيين الموجودين في بغداد باغتيال فخري النشاشيبي والقى القبض عليهم وكان من بينهم المجاهد الشهيد عبد القادر الحسني، والكاتب والمترجم خيري حماد والخطاط الفلسطيني حسن قطب وغيرهم. وقد أكد لي الأستاذ الأديب وليد الأعظمي أن الشخص الذي اغتال فخري النشاشيبي هو الفلسطيني صبحي شاهين وكان من جماعة المفتي ويسكن في شارع عشرين في الأعظمية. وقد تولى الحاج عبد الكريم والد السيد وليد الأعظمي تهريب صبحي شاهين إلى سوريا بطريق (عانة) وكان صبحي يحمل دفتر نفوس عراقي يعود إلى السيد مولود صالح خال وليد الأعظمي. وأذاعت مديرية الدعاية العامة ببغداد بياناً عن مقتل النشاشيبي.

(٤٥) هي مدرسة الزراعة في منطقة أبي غريب، والتي راحت بعد ذلك التاريخ تعتبر من أماكن الاعتقال الشهيرة في بغداد.

بعدد كبير منها، والتي صدرت في شكل وريقات، كان معظمها يموّل سابقاً من قبَل «غروبا» السفير الألماني في بغداد، وقد أُطلق سراح هؤلاء فعلاً، وحاول واحد أو اثنان منهم أن ينتقموا مني بأن اتهموني بتُهم باطلة، فادّعوا بأنني صهيوني وأنني جاسوس[٤٦].

أصبحت الحاجة إلى نـادٍ للخدمة ومركز للترفيه، ماسّة بشكل متزايد، وقد تأكدتْ ضرورتها الملحّة بتدفق البغايا من الطوائف المدنية الأخرى، وانتشار الأمراض الزهرية بين أفراد القوات البريطانية، وما لبث آمر القوات أن قدّم مذكّرة مفصّلة عن هذا الموضوع إلى السفارة البريطانية، فسارع جوفري تومبسون بتقديم تلك المذكرة إليّ لإبداء الرأي حولها، ولقد كنت واثقاً أن تهيئة مكان التقاء مريح في منطقة جذّابة وبهيجة وذات ضيافة عطوفة، سوف تؤدي إلى إبعاد العزلة التي كانت حسب تجربتي الخاصة، هي السبب الرئيس في الالتجاء إلى اللقاءات غير المرغوب فيها.

وكان من حُسن حظي أن اهتديت إلى موقع ملائم عند ضفة النهر. فقد شُرع بتحويل أحد الأبنية القائمة وتم تخطيط هيكل جديد له يكون ملائماً للمفهوم الشائع، حيث أُطلق عليه اسم «سفينة نوح»، وسرعان ما أُقيمت ركائزه ليشتمل على مطعم واسع، وغرفة للتسلية، وقاعة في المدخل، ودائرة، وغرفة للخدم، ومطبخ واسع، ومخازن، وتقوم بين البناء وضفة النهر ساحة مغطاة بالخضرة والأزهار.

قام الملك فيصل الثاني بافتتاح «سفينة نوح»[٤٧]، وذلك في اليوم الثلاثين من شهر تموز (يوليو) سنة ١٩٤٣، وكان ذلك أول نشاط عام يقوم به. وقد كان يعد المفتاح التذكاري الذي قُدّم إليه آنذاك، من بين أعظم المقتنيات التذكارية التي كان يحتفظ بها.

وقبل أن أغادر العراق في سنة ١٩٤٦، كان نادي «سفينة نوح» الذي

---

(٤٦) كتب المؤلف كلمة «جاسوس» بلفظها العربي.

(٤٧) يقصد به نادي ضباط الصف الحالي المجاور لجسر الأحرار (جسر مود سابقاً) على الضفة الشرقية من نهر دجلة.

استضاف مليوناً من أفراد القوات الحليفة أثناء الحرب، قد تمّ تسليمه إلى الجيش العراقي كمركز للترفيه، وذلك في احتفال عظيم. كان من بين الذين حضروه: السفير البريطاني، وقائد القوات البريطانية في العراق وإيران، ورئيس وزراء العراق، ووزير الدفاع، ورئيس أركان الجيش.

وكانت هناك أرباح تبلغ أربعة آلاف پاون معدة للتوزيع، وكان لي شرف التبرّع بنصف هذا المبلغ إلى قائد القوات البريطانية في العراق وإيران، لمصالح الترفيه عن الجيش، والنصف الآخر، وبموافقة من قائد القوات نفسه إلى «جمعية فيربريدج» تبرّعاً من نادي «سفينة نوح» لدعم مدارسها الزراعية.

كان من أطرف ذكرياتي عن أيام الحصار في السفارة البريطانية يتعلّق برجل كبير السن من «لانكستر» زُوِّدَ بكرسي داخل نقطة مراقبة، عُهد إليه بمهمة يومية قصيرة لمراقبة البوابة الرئيسة للسفارة، والإخبار عن أية حالة مكدّرة. وبعد ظهر أحد الأيام كان «غي وُترهاوس» يقوم بجولة في المواقع الدفاعية؛ فوجد ذلك الرجل نائماً، فعزره تعزيراً عنيفاً إلى درجة أن كُرسيه عُثر عليه قبالة مخرج السفارة، وقد أدار ظهره للبوابة. وإذ طُلب منه إعطاء توضيح لما حدث، أجاب قائلاً: «إنني أستطيع أن أرى من هنا، الحقير الذي يدخل بصفة أفضل».

الفصل الثاني عشر

وزارة الشؤون الاجتماعيّة

عُهـد إليّ بمنصب المستشار لـوزارة الشؤون الاجتماعيـة في سنة ١٩٤١، بالإضافة إلى واجباتي الأخرى. ولم تبرهن هذه الوظيفة على أنها كانت مُتعبة تقريباً، كما دلّل اسمها عليها. وذلك لأن الاهتمام الرئيس بهذه الدائرة الحكومية المستحدَثة؛ ينصبُّ على مصلحة الصحة الوطنية، وطبـقاً لذلك عُرفت هذه الدائرة باسم: «وزارة الشؤون الاجتماعية والصحيّة».

كنت قد عُيّنت قبلاً بوظيفة المفتش العام للخدمات الصحيّة، ولذلك فإنّ مثل هذا التعيين لم يضف شيئاً طبيعياً جداً إلى مهمتي الحالية، فقد كانت مصلحة الصحة قبلاً تمارس عملها تحت إشراف وزارة الداخلية.

وحين تقاعد السر كنهان كـورنواليس من منصبه كمستشار لـوزارة الداخلية، (وقد عاد مؤخراً إلى العراق سفيراً) خلفه في هـذا المنصب «إدموندز» المستشار السابق لشؤون المشرق (سوريا ولبنان). وهو من أقدر الضباط السياسيين البريطانيين في تاريخ العراق.

ومع ذلك فقد غدت وزارة الداخلية مثقلة بالقضايا الداخلية. وبتطور الخدمة الصحية واتساعها، أصبح تعيين أحد رجال الطب مستشاراً للوزارة الجديدة، أمراً مرغوباً فيه بصفة واضحة.

لقد توسع نطاق الدائرة الجديدة اتساعاً كبيراً. فبالإضافة إلى إدارة خدمات الصحـة والمستشفى، كان اهتمـامها يشمـل بعض الأمور مثـل الاسكـان، والصحـة العـامـة، والخـدمـات الصحيـة، وتجهيـز المـاء،

والاحصاءات الجوية، والرخاء والتوفير العام، والجمعيات الخيرية والنوادي، بل وحتى البغاء، ونقل جثث الموتى.

كان الدكتور سلمي شوكت، أثناء توليه وزارة الشؤون الاجتماعية لفترة قصيرة، يحلم في إصلاح البغايا، وذلك بإقامة مراكز للتأهيل. ولقد تضايق مني كثيراً حين أخبرته بأنّ محاولات مماثلة قد جرت في بلدان كثيرة لكنها برهنت على فشلها.

كان الوسط السافل في بغداد يُحكم بقضيب من حديد؛ تمسك به أرملة شهيرة، متوسطة العمر، ومن أصل تركي، عُرفت لدى الجميع دون استثناء باسمها؛ وبشهرتها أنها: «رجينة باشا»!

كانت «رجينة» تتمتع بفتنة، وبراعة لا تُجارى، وتعيش بأسلوب معتبر، في بيتٍ واسع يحيط بباحة مركزية مؤثثة، يتجمّع فيها أصحاب الأعمال كل يوم قبل الظهر. وكانت دارها التي تساكنها فيها ابنتها «سليمة»[1] تقع في أجمل جزء من بغداد، وعلى بُعد مرمى حجر من قصر الملك فيصل في المدينة، وهو المقر الحالي لمجلسَي النواب والأعيان[2].

كانت «رجينة» تجلس إلى أصدقائها العديدين في الأماسي بعد قيلولتها المعتادة، وبعد الطواف في المدينة بسيارتها الجميلة التي يقودها سائق خاص. وكانت سخيّة ودائنة بقدر كبير من النقود. وكان من بين المدينين لها شخصيات معظمة. ولذلك فإنّ اعتقالها بسبب تهمة غامضة وفي أعقاب غارة قامت بها الشرطة على دارها، قد أثار الاعتقاد الشامل بأنّ تلك الغارة كانت تستهدف الحصول على سندات الديون التي وقعها المقترضون من ذوي المناصب الرفيعة في الدولة.

---

(١) يقصد بها سليمة مراد المغنية اليهودية الشهيرة، والتي كانت تلقب باسم «سليمة باشا» أيضاً، وقد أسلمت بعد أن تزوجت من المطرب والممثل المعروف «ناظم الغزالي» وتوفيت في سنة ١٩٧٤. وقد أخطأ المؤلف، إذ ذكر أن سليمة هي بنت رجينة، والصواب أنها أختها، ولها أختان أخريان هما: مسعودة وروزة.

(٢) استعمل هذا المبنى بعد ثورة تموز (يوليو) ١٩٥٨، مقراً لمحكمة الشعب في عهد حكم عبد الكريم قاسم، ثم أصبح متحفاً للأسلحة. أما الآن فقد حول إلى قصر الثقافة. الذي الذي اقيم في مبنى القصر العباسي داخل وزارة الدفاع.

وكانت «رجينة» قد أصابت نفوذاً كبيراً ملموساً إلى درجة أنه عندما كان يحدث تأخير في تشكيل وزارة جديدة، يروح رجل الشارع في بغداد يقول: بأنّ «رجينة باشا» لم تقرر بعد تأليف الحكومة الجديدة! يا للمسكينة «رجينة»! لقد قُتلت بطعنة خنجر، وخلفتها على عرشها أُختها «سليمة» ولكن عرشها أخذ يترنح في الحال، وإنني أتوقع زواله عما قريب[٣].

* * *

قبل أن يتم تعيين الدكتور سامي شوكت لمنصب وزير الشؤون الاجتماعية كان متشرّباً بالروح العامة. وكانت مشاريعه طموحة عادةً، لكنها ليست قابلة للتطبيق دوماً، فلقد أنشأ منظمة من الشبان ذوي القمصان السود كان فيها بمقام الدوتشي موسوليني! وكان شعار هذه المنظمة العبارة القائلة: «اخشوشنوا فإنّ الترف يُزيل النِعَم». غير أنّ هذه المنظمة لم يكن لها سوى تأثير ضئيل[٤]. وقد بقيت قائمة حتى بداية الحرب العالمية الثانية. أي لمدة سنتين، ومن ثم تعرضت لانطفاء مفاجىء. وكان مصيرها مماثلاً لمصير زعيمها. فقد كان «سامي» مثل أخويه «ناجي» أحد وزراء حكومة رشيد عالي الكيلاني، والدكتور «صائب»، واللذين هربا إلى خارج العراق سنة ١٩٤١، يعتبر من الموالين للمحور.

---

(٣) كان الشخص الذي اتهم بقتل «رجينة» صديقاً لها، وهو مهندس في امانة العاصمة يدعى عبدالكريم الحصان وعرف باسم عبدالكريم الاقچم وقيل انه طلب منها بعض لنقود فامتنعت، فعاجلها بضربة من خنجر. ولكن المتفق عليه إنها اغتيلت بتدبير من بعض المدينين لها وفيهم عدد من الوزراء واشيع فى حينه ان محمد البمبيلي كان من بين المشاركين في عملية اغتيال زوجته

(٤) ما لبث الدكتور سامي شوكت في سنة ١٩٤٤ - ١٩٤٥، أن عاود تفكيره القديم في أن يصبح زعيماً عالمياً مثل هتلر وموسوليني في ذلك الوقت، حين أصدر صحيفة باسم: «البعث القومي» تنطق بلسان منظمة حزبية غير مجازة رسمياً، كانت ترسم خطى المنظمات الهتلرية في العالم. وسرعان ما انبرت الصحافة التقدمية، وعلى رأسها جريدة «صوت الأهالي» إلى محاربة صحيفة سامي شوكت ومنظمته، وعلى الأخص المقالات القوية الرزينة التي نشرها المرحوم كامل الجادرجي في صحيفته بعنوان: «بعث الفاشية في العراق»، والتي تم جمعها فيما بعد في كتاب مستقل. ولم تلبث صحيفة «البعث القومي» وأنصارها أن زالت من الوجود. ولو أن سامي شوكت قد أجيز بتأسيس حزب واصدر له جريدة اخرى باسم الاصلاح لم تعش طويلا ولفظت انفاسها بسرعة بعد ان تفرق الانصار عنها واصبح تحريرها بيد بعض الاميين الانتهازيين المحسوبين على الصحافة العراقية وهم كثيرو العدد في كل عهد وزمان وقد انضم اكثرية اعضاء حزب سامي شوكت الى حزب صالح جبر فيما بعد

وبعد أن تم إعفاء الدكتور سامي من منصبه على أثر تغيير الوزارة، كتبتُ إليه مقترحاً بأنّ انصاره من الوطنيين الشبّان قد يرحبّون بفرصة مهيّأة لخدمة بلادهم، وذلك عن طريق التبرّع بالدم. غير أن جوابه كان مخيّباً للآمال. فقد قال في جوابه: «إنّ منظمته سوف تريق، بكل فخر، كل قطرة من دمائها لخدمة بلادها المحبوبة». أما أن تتبرع بالدم لأغراض طارئة، فإنّ ذلك أمـر لا يمكن أن يُعتبر ملائماً لأهدافها، وإن كان هو نفسه لم يستطع أن يحدّد تلك الأهداف.

وكان من بين المشروعات الأخرى التي أكثر سامي شوكت التحدّث عنها؛ مشروع لإقامة شِقَقٍ من طابقٍ واحدٍ لذوي الدخل المحدود، ولقد طلب إليّ أن أساعده في تحقيق هذا المشروع. وفعلاً أعددت خطة لهذا الغرض، ولكن قبل أن يتم اختيار المخطَّط بـأيام قـلائل تـألفت وزارة جديدة، ووُضع المشروع على الرف من قِبَلِ الوزير الذي خلف سامي شوكت في المنصب.

لقد كان من النادر لأي وزير أن يطبّق أية خطة كان سلفه قد أوصى بها، إلّا إذا كان الائتمان المعدّ لتنفيذ تلك الخطة مما يتمتع به الوزير المتأخر.

من الأمور المعتادة بالنسبة إلى المستشار، أن يقوم بزيارة مجاملة مباشرة لوزيره الجديد، وأن يعلن الوزير أثناء تبادل التحيات بأن سياسته ستقررها مشروعات مستشاره. وكانت توصياتي الأولى التي أفضيت بها لم يطرأ عليها أي تغيير، وهي تقضي بدفع عدد من الأطباء الشباب إلى العمل خارج المراكز القائمة.

فقد كان مثل هذا الأمر يحتاج إليه حاجة كبيرة، ذلـك لأن هناك مناطق واسعة لا تتوفر فيها أية عناية طبيـة من أي نوع كـان. غير أن التعيينات في المحافظات لم تكن مرغوبة. وذلك يعود في الدرجة الأولى إلى ضعف المغريات النفسية في تلك المناطق، ولذلك فإن أي جهد يتم بذله بأية وسيلة، يكون مستبعداً.

كان التجاوب المباشر للوزير مؤيداً بشكل لا غبـار عليه، وأنه سيعهد إلي باعداد أمر وزاري بشأن اعلان النقل، لأن مثل هذا الأمر ـ كما هو معروف جيداً ـ سوف يبطل مفعوله بصفة عملية، إن لم يتم الغاؤه برمته.

لقد كانت مثل تلك المحاباة والمحسوبية موجودة، وهي واسعة الانتشار بصفة خاصة في مصلحة الصحة، ولا يستطيع أحد نكرانها.

وبتأسيس كلية الطب في بغداد، طرحت فكرة المسلك المهني، وكانت هذه الفكرة غير مفهومة قبلاً للكثيرين من الذين أيدوها، وهكذا غدت المنافسة على القبول شديدة. ومع ذلك فبعد التخرج أصبحت المحاولات المتعلقة بالمحسوبية، وهي مغلوطة ومؤثرة في الخدمة الحكومية، واضحة كل الوضوح، وعلى هذا كان من الصعب القضاء على مثل تلك المحسوبية.

وإذ كانت وزارة الشؤون الاجتماعية تهتم في الدرجة الأولى بالصحة وبالخدمات الطبية في القطر، فلم يكن من اليسير على رئيسها ـ إلا إذا كان طبيباً ـ أن يدير شؤونها من دون مجلس مهني. وقبل أن يتم تعيين مستشار تم صرف عمل كثير لمعالجة مثل هذه الأمور، كالتعيينات وما شابهها.

مثال ذلك أن أحد الخريجين، وبسبب لياقته الخاصة، والذي اختاره استاذ مادة الطب للخدمة في دائرته، قد تم إرساله إلى لندن للقيام بدراسة مكثفة. ولكن اتفقت عودته، بعد مرور سنتين، مع وجود وظيفة شاغرة في إحدى مدن المحافظات. وعلى الرغم من احتجاج كلية الطب فقد تم تعيين ذلك الطبيب في تلك الوظيفة.

وهناك أحد الخريجين كان قد عاد من لندن بعد دراسة لمدة سنة واحدة لأمراض الأطفال، ونال شهادة في ذلك الموضوع، وكان يأمل أن يعين في مستشفى الأطفال، قد أعطيت له وظيفة ادارية في مدينة البصرة.

فأمثال هذه التصرفات الشاذة، كان مستطاعاً منعها دون شك، لو لم يصل الدكتور حنا خياط، وهو من أقدر الأطباء الاداريين في العراق، إلى

سن التقاعد. ذلك لأن الأطباء الذين خلفوه في الخدمات الصحية العامة، كانوا أقل قابلية منه.

بقيت أدافع لمدة طويلة، ولكن دون جدوى، عن تشكيل مؤسسة تكون وظائفها مشابهة لوظائف المجلس الطبي العام في بريطانيا. وكنت واثقاً بأن الأفراد الذين يسجلون بصفة متمرسين طبيين، والتدريب الطبي العام، يجب أن يكون تحت رقابة أوسع شدة. ولقد تغلب الالحاح على هذا الأمر في حينه، على المعارضة، وهكذا تم تشكيل مجلس صحي أعلى بموافقة الوزير.

ولما كنت أنا الذي تبنى ذلك المشروع فقد عهد إلي برئاسة ذلك المجلس الذي تألف من اثني عشر عضواً، وكان يملك سلطات تشتمل على ترقين اسماء الأطباء من السجل الطبي. كانت جلسات ذلك المجلس تحظى بمشاهد احتفاليه، ويقوم فيها المدافعون بالدفاع عن المتهمين على غرار ما يجري في المحاكم.

كانت إحدى القضايا الشهيرة ما تزال حية في ذاكرتي. ففي الوقت الذي كان فيه المستشفى الملكي تحت توجيهي، باعتباري عميداً لكلية الطب، وجهت التهمة إلى أحد الجراحين، وهو من درجة غير رفيعة، بارتكابه جريمة سوء التصرف بالنسبة إلى معالجة كانت تعوزها العناية المعقولة. كانت جريمة ذلك الطبيب في المستشفى ذات أهمية خاصة، ولذلك رحت أسعى إلى استبداله، غير أن وزير الشؤون الاجتماعية كان متردداً في ذلك، لأن اخوي الطبيب هما من صنف الوزراء، ويتمتعان بسلطة سياسية كبيرة، ولذلك حاولا التدخل في الموضوع لكنني رددت على ذلك بأن هددت باثارة الموضوع أمام المجلس الصحي الأعلى متهماً الطبيب المذكور بالاهمال.

وما أن أدرك الطبيب ذلك حتى طلب تحويله، وبدون مراجعة مني، تم نقله إلى وظيفة شاغرة في قسم الجراحة في الموصل. ولقد أعربت عن معارضتي لذلك التعيين، لأنه كان من الناحية الاسمية يعتبر بمثابة ترفيع.

غير أن الوزير ما لبث أن اعتذر عن ذلك مؤكداً بأن تلك الوظيفة كانت ادارية خالصة، وأنها تعتبر في الواقع تنزيلاً للدرجة.

ولكن هذا التعيين الجديد المجرد من التجربة الخاصة قد اعتبره ذلك الطبيب تضحية بالنسبة إليه. فما أن وجد أن تلك الوظيفة ذات طبيعة مشجعة على الربح، حتى بدأ يتطلع إلى تحسين مدخولاته بعد أن أصبح يشرف على أمور مائتين من البغايا في مدينة الموصل، ويتقاضى من كل واحدة منهن عشرة دنانير في الشهر الواحد.

ومهما يكن الأمر فقد كان عمله المربح هذا قصير الأجل، لأن أولئك النسوة الساقطات اللواتي لم يتعودن دفع أجور، ما لبثن أن رفعن شكوى في هذا الشأن إلى محافظ الموصل الذي سارع بتقديم تلك الشكوى إلى بغداد، وإذ ذاك أصريت على إحالة المتهم إلى المجلس الصحي الأعلى بتهمة الإساءة إلى المهنة، وقدمت بذلك مذكرة سرية إلى الوزير للمصادقة عليها.

وكما سبق أن أشرت في فصل سابق أن كلمة «سري» حين يراد تطبيقها تعتبر اشارة إلى الأهمية الخاصة التي تمس الموضوع المبحوث عنه، الأمر الذي يجعل القوم يتشوقون إلى معرفة طبيعة ذلك الموضوع. وقد طبقت هذه القاعدة على هذه القضية. وقبل أن تتوفر للوزير فرصة الاطلاع على المذكرة، وصلت من الطبيب المذكور رسالة يقدم فيها استقالته من الخدمة في الحكومة. ولقد بقيت اتطلع إلى محاكمته أمام المجلس الصحي الأعلى، لكن الوزير اعتبر رسالة الطبيب تلك عملية انقاذ له. فقد كانت تلك الاستقالة في نظره تمثل الحل المرغوب فيه جداً، لأن أخوي الطبيب سبق لكل منهما أن تولى رئاسة الوزارة، وهكذا القى الوزير بالمذكرة التي قدمتها إليه عن الموضوع، في سلة المهملات!.

كانت الصحة المدنية في العراق تتطلب الشيء الكثير الذي يُتطلّع إليه. فحتى في أكبر المدن لا توجد سوى بيوت قليلة لها نظام مجارٍ لتصريف المياه القذرة، وإنّ ما وُجد منها كان محصوراً في المناطق

الجديدة وفي الضواحي ومنها الشارع الذي كنا نسكن فيه وما عدا هذه الاستثناءات، كان النظام المعمول به، يتمثّل في نقل هذه القاذورات في ظروفٍ تُحمَل على ظهور الدوابّ.

ولقد كان من بين الأمراض الوافدة إلى العراق، مرض الملاريا، والجدري، والطاعون. وكانت هذه الأمراض تحدث في فصول مُعيّنة من السنة، وتسبّب المزيد من المتاعب. فقد كانت موجات الهيضة التي تصل إلى بغداد، تنتقل دون ريب من المسافرين الذين يصلون إلى البصرة من موانىء الخليج العربي، ومن الهند، وجنوبي إيران.

وكانت مثل هذه الأمراض الوافدة ترتبط عادةً بارتفاع نطاق السفر لأداء فريضة الحج، الأمر الذي كان يتطلّب التعاون في أعمال المكافحة.

كانت بغداد قبل الاحتلال البريطاني هي المدينة الوحيدة المجهزّة بشبكة نظام نقل المياه بالأنابيب. وحتى هذا النظام كان ضعيفاً، ضيّق النطاق لا يمكن الاعتماد عليه. وفي سنة ١٩٢٤ كمل وضع نظام لإسالة الماء في بغداد، ثم شُرع بتطبيق هذا النظام في كلٍّ من مدن البصرة، والموصل، والعمارة، والناصرية، وأربيل، وذلك عن طريق قروض تقدّمها الحكومة إلى بلديات هذه المدن. ولم تلبث أن امتدت هذه المشاريع إلى المدن الأخرى.

يعتبر الالتهاب المعوي الحاد من أشهر الأمراض التي تصيب الإنسان، وهو من الأمراض السائدة جداً في العراق. وكنت اعتقد أن التعفن الذي يصيب الأسنان من العوامل المؤثرة جداً في ذلك. لكنني لم أكن لاشارك زملائي آراءهم في اعتبار تعفن الأسنان عنصراً له أهميته القصوى في حدوث سلسلة من عوامل الضعف. ومع ذلك كنت أصر على اجراء فحص شهري لكل الوافدين من الردهات التي تخضع لاشرافي.

والحقيقة أن فئة ضئيلة من سكان العراق كانت تهتم بصحة الأسنان، وأن قلة من المرضى كانوا خالين تماماً من تقيح اللثة. ذلك لأن عدد

العراقيين الذين ينظفون أسنانهم بالفرشاة قليل جداً. وليس من شك في أن اللوم في ذلك يقع على عاتق الفقر والأمية.

وفي أثناء الحكم التركي لم يكن هناك أدنى اهتمام بمعالجة الأسنان. وكان المرضى يحشرون سوية في ردهات المستشفى العام دون الفصل فيما بينهم تبعاً لأمراضهم. ومما تجدر الاشارة إليه أن قدراً كبيراً من مخازن المستشفى وتجهيزاته قد نقلتها القوات التركية معها أثناء انسحابها من بغداد. ويكفي ما خلفته القوات التركية وراءها، لتقدير مدى اهتمام الباب العالي بالمرضى والجرحى في «مدينة الخلفاء» السابقة هذه. فقد أهمل تاريخها العريق، ولم تحترم قدسيتها.

ولقد أخفقت في العثور على أي دليل يؤكد وجود قسم للأشعة، أو الفحوص البكترولوجية، أو التسهيلات المختبرية من أي نوع كان. ولما كنت أشغل وظيفة المفتش العام للخدمات الصحية، والمستشار للوزارة، بالإضافة إلى عمادة كلية الطب، فقد منحت سلطات دكتاتورية كنت محسوداً عليها بشكل متواصل دون شك، ولو أن وظائف العميد لم تكن محددة بدقة.

لقد كانت معظم تصرفاتي قابلة لأن تفسر بأنها سلطات مطلقة تخص كلية الطب، وكان عذري الوحيد هو وجود العديد من القرارات المباشرة التي ينبغي اتخاذها، وأن أعضاء مجلس الدراسات كانوا منشغلين بحيث لا يستطيعون حضور الاجتماعات المتواصلة باشارة قصيرة!.

حدث في إحدى المرات أن اتهم أحد الوزراء بتهمة الاقدام على الإتيان بعمل مثير، بصفة خاصة، من أعمال المحسوبية. فقد أقدم ذلك الوزير، دون الرجوع إلي، على تعيين أحد أقاربه في كرسي التشريح الشاغر في الكلية الطبية، علماً بأن ذلك الشخص كان قد وصل حديثاً إلى بغداد، وليست لديه المؤهلات الخاصة باشغال ذلك الكرسي. وما أن تسلمت مذكرة من الوزير بشأن تعيين ذلك الشخص حتى رفعت إليه استقالتي، وأوصلت نسخة منها إلى رئيس الوزراء.

لقد كان لتلك الاستقالة أثرها المطلوب. فقد ألغي تعيين ذلك الشخص في الحال. وفي الاجتماع التالي اعتذر الوزير عما بدر منه، واعترف بغلطته. لقد قدمت استقالتي عشرات المرات أثناء الخدمة، وقد وجدت أن ذلك من الاجراءات المشجعة للأمل، لكنني لم أكن أقدم على مثل ذلك من دون سبب ملح.

بعد أن تَوَلّى الملك فيصل عرش العراق، شرع الأطباء العراقيون يعودون إلى بغداد وبقية المراكز التي يتجمّع فيها السكان. وفي مدى سنتين ابتلعت هذه المراكز طائفة كبيرة من الأطباء السوريين؛ بلغ عددهم ثلاثة وسبعين طبيباً، خمسون منهم في بغداد، وعشرة في البصرة، وأحد عشر في الموصل وإثنان في مكان آخر.

وفي هذا الوقت بالذات كان الجهاز الطبي يشتمل على اثنين وعشرين طبيباً بريطانياً، معظمهم من الأخصائيين، وأربعين طبيباً عراقياً. ونظراً لوجود سبعة عشر طبيباً عسكرياً في الجيش العراقي، فقد ارتفع مجموع عدد الأطباء العاملين في القطر إلى مائة واثنين وخمسين طبيباً. وفي الوقت نفسه لم يكن بين هؤلاء الأطباء سوى خمسة من أطباء الأسنان المعروفين. ولذلك اتُخذت الإجراءات لتدريب عدد من المضمدّين على أعمال طبابة الأسنان.

في الوقت الذي فشلت فيه ثورة رشيد عالي الكيلاني، كانت إحدى الحملات التي نظّمتها قيادة القوات البريطانية في العراق وإيران قد وصلت إلى البصرة[٥]. وعند وصول الحملة إلى بغداد، تم الاتصال بسرعة بين الأطباء العاملين فيها وكليّة الطب العراقية، حيث تم توفير المستشفى والخدمات الصحيّة اللازمة لهذا الغرض. وقد أبدى المستشارون العسكريون تجاوباً سريعاً مع هذه الحملة فقدموا لها الخدمات المهنية التي كانت تتطلع إليها، وعملوا بمثابة ممتحنين خارجيين، وراحوا يلقون المحاضرات عن الموضوعات الخاصة.

---

(٥) عرفت هذه الحملة العسكرية البريطانية باسم «بي فورس Paiforce» أي (قوات إيران والعراق). وقد حور كتاب خاص منها تضمن بعض المعلومات عن ثورة ايار في العراق، وعن دخول القوات الحلفية الى ايران في اوائل سنة ١٩٤١.

ومما كانت تحتفظ به قيادة القوات البريطانية في العراق وإيران، فرقة من الخبراء في مرض الملاريا تحت رئاسة الفريق «كوفل» مدير معهد الملاريا في الهند. وقد أجري مسحٌ شاملٌ لكل المناطق التي تستوطنها الملاريا في كل أنحاء العراق، ووُضع مخطّط مفصّل لكل ما عُثر عليه في تلك المناطق، بالإضافة إلى وضع مشروع كامل لمكافحة البعوض.

ولقد قُدّمتْ هذه التفصيلات برمّتها إلى وزير الشؤون الاجتماعية، وذلك للمباشرة بتنفيذها، غير أنّ الوزير ما لبث أن أعلن، بأنّ نقص الأموال يحول دون تنفيذ هذا المشروع، وهكذا ذهبتْ سُدى كل الجهود التي بذلْتها لضمان تحقيق ذلك المشروع، ومع أنّ المشروع الذي طبّقتَه قيادة القوات البريطانية في العراق وإيران قد برهن على نجاحه لمدى أربع سنوات، فقد أهمل المشروع بعد أن انسحبت القوات البريطانية من العراق، وبقيت تفصيلاته مطوية على الرفوف في أضابير الوزارة، وربما لن تُبعث مرة أخرى.

* * *

كانت حالة الأغلبية الساحقة من النساء في الأقطار الإسلامية المتأخرة في الشرق الأوسط عند انتهاء الحرب العالمية الأولى، مؤلمة لا تستطيع الكلمات أن تأتي على وصفها، إذ كُنّ على درجةٍ كبيرةٍ من الجهل والأميّة. وكانت النساء تقمن بدور مزدوج؛ هو الكدح وإنجاب الأطفال.

ولقد طبّقت سلطات الانتداب البريطاني سياسة تحرير المرأة. ولكن الشيء الغريب هو أنّ الإسهامات الأولى في تحرير المرأة، قد جاءت بدافع قويّ من تركيا. ففي شهر تشرين الأول (أُكتوبر) سنة ١٩٢٣، أعلنت الجمعية الوطنية التركية قيام النظام الجمهوري في تركيا، واختارت الغازي مصطفى كمال رئيساً لها. وفي الثالث من شهر آذار (مارس) سنة ١٩٢٤، تم إلغاء منصب الخلافة. وبعد يوم واحد من ذلك التاريخ، أُبعد السلطان عبد المجيد وأفراد أُسرته عن البلاد؛ فكان ذلك العمل هو حجر الزاوية في تحرير المرأة من القيود القائمة.

كان طب التوليد والأمراض النسوية، من أهم موضوعات التخصص المهملة في بلدان الشرق الأوسط في ذلك الوقت. فقد كان الرجال يبعدون عن ممارستها. وكان عدد الطبيبات نادراً جداً، وإذا ما وجد مثل هذا العدد، فإن قلة منهن يحتفظن بالمؤهلات الضرورية لذلك.

ومهما يكن الأمر فإن تعيين أستاذ بريطاني لطب الولادة والأمراض النسوية، وتزويده مؤخراً بموظفين لديه من خريجي كلية الطب، قد وضع نهاية سريعة للحشمة المصطنعة التي كان العلماء يدافعون عنها، والتي كان عامة الشعب يعتقدون بأنها ذات أصل ديني. لقد كانت هناك حاجة إلى الصبر، والدقة، والعطف للتغلب على الخجل الذي ورثته النسوة العربيات ولهذا وجدت الأطباء العراقيين أقل اهتماماً بهذا الموضوع من زملائهم البريطانيين.

وأنني لاسجل هنا مثالاً وجدته مغايراً، بصفة غير اعتيادية. فلقد طلب إلي أحد كبار الأطباء العراقيين أن أقوم بفحص مريضة في إحدى الردهات التابعة لاشرافه، وذلك بقصد التشاور معه. وفي الوقت الذي كنت فيه أطرح على المريضة الأسئلة عن ماضي تاريخها، بدا عليها الارتباك فأدلت ببيانات متناقضة. وما لبث ذلك الطبيب أن عزرها فاعتذرت إليه قائلة «أنا عربية ليس إلا!» وإذ ذاك رد عليها حنقاً يقول: «وأنا كذلك عربي ولكن هذا لا يعني أنني حمار!».

* * *

كان لوزارة الشؤون الاجتماعية يد في شبكة واسعة من الجمعيات والنوادي والمعاهد من كل الأنواع. وكانت تخضع لاشرافها، بصفة اسمية على الأقل، كل تلك الجمعيات التي كان يبلغ مجموعها مائتي جمعية ولكن الجمعية التي كانت تتميز بالاعتبار والتأثير، هي جمعية الهلال الأحمر الموازية لجمعية الصليب الأحمر.

كانت الأكثرية المطلَقة من المنظمات التطوعية في العراق، ذات نموّ فطري. وكانت أهدافها ومقاصدها تراوح بين جمعية الطيران والفرَق

الرياضية. ولذلك كانت هذه المنظمات قصيرة الأعمار، وإنجازاتها تافهة. ذلك لأن حسابات هذه المنظمات كانت تُعلن بصفة صوريّة، ولا يتم نشرها بصفة عملية. وكان تنقيب وزارة الشؤون الاجتماعية عن معلومات تخصّ هذه المنظمات، يخضع عادةً للتملّص المتعمّد تمهيداً لتصفيتها.

* * *

في حديث جرى بين السفير البريطاني السر أرشيبالد كلارك كير والسيد حكمت سليمان الذي تولى رئاسة الوزارة فيما بعد، أعرب حكمت سليمان عن قلقه الشديد من بعض المظاهر الخاصة بالخدمات الصحيّة، وأعلن عن ترحيبه بالاطلاع على تقرير مُفصّل وصادق بشأن هذه المظاهر، والتوصيات المقترحة لإصلاحها.

ولقد سألني السفير عما إذا كنت أستطيع أن أنهض بهذه المهمة، وأكدّ لي بأنّ حكمت سليمان قد كرّر له بأن مثل هذه المعلومات ستظل خاصة بصفة دقيقة، وأنه لغرض التقليل من خطر ذيوعها، اقترح السفير بأن يجري تسليم المذكّرة المطلوبة موقعة وبالأصل؛ من قبَل المستر: «إدموندز» مستشار وزارة الداخلية، والمستر «هوغ» مستشار وزارة المالية، ومني أنا.

ومع كل ذلك فقد كنت مُقتنعاً بأنني سوف أُتهم، إن عاجلاً أم آجلاً، بوضع هذه المذكّرة. غير أن أهمية هذا الأمر تبدو ضئيلة جداً؛ إذا ما قورنتْ بالحاجة الملحّة للحصول على معلومات صادقة.

مضت حوالي ثلاثة أسابيع لإعداد هذه المهمة. غير أنّ وزير العمل والشؤون الاجتماعية كان متردداً في توجيه اللوم إليّ؛ بعد أن تحقق من أهمية العمل المطلوب... وفضلاً عن ذلك كان عدد من زملائي العراقيين مرتابين في ذلك هم الآخرون. ولكن بعد أيام قلائل قُبلت المذكّرة التي أعددتها، واعتُبرت محتوياتها بنّاءة تماماً.

والذي اعتقده أن المذكّرة قد حققت غرضها. فقد كان أهم تأثير مباشر لها على الوزارة هو تعيين لجنة عهد إليها بوضع برنامج صحّي عام

ذي خمس سنوات للبلاد، وكان من شدة المي انني عينت رئيساً لتلك اللجنة.

لم يكن أي من وزراء الشؤون الاجتماعية يرغب في أن يتعرض لأي قدح يوجه إليه باعتباره البادىء بتعداد النفوس. وبعد أيام قلائل من المداولة المهنية، وضع كل واحد منهم بكل أدب مشروعي في الإضبارة التي بين يديه كيما يظل هناك آمناً ينتظر وصول خلفه. ومهما يكن الأمر فإنني قبل أن أغادر العراق، وصل العراق زائراً الدكتور «غرانفيل ايج» الاخصائي بتعداد النفوس، وقدم تقريراً يتعلق بتأسيس دائرة لتعداد السكان، غير أنني لا أدري ما إذا كان مشروعه هذا قد لقي ذات المصير الذي لقيه مشروعي البائس. وليست لدي أية معلومات عن اجراء تعداد حقيقي للنفوس في العراق[٦].

---

(٦) أجري أول تعداد للنفوس في العراق سنة ١٩٣٤ ثم جدد في سنتي ١٩٤٧ و١٩٥٧. أما آخر إحصاء لسكان العراق فقد أجري في سنة ١٩٧٨ ويعتبر غير كامل

الفصل الثالث عشر

زيارة الوصي عبد الإله الى بريطانيا

كان عبد الإله شديد الابتهاج جداً، عندما تسلّم في أواخر صيف سنة ١٩٤٣، وعن طريق السر كنهان كورنواليس، دعوة رسمية لزيارة المملكة المتحدة، وللاطلاع على شيءٍ ما، من إسهامها في التغلّب على أعدائنا المشتركين.

كنت قد صحبتُ عبد الإله في السنة الماضية، في رحلة إلى الصحراء الغربية. ففي «العلمين» مسرح العمليات العسكرية الجارية، كنا قد ركبنا سيارات عسكرية مع طائفة من الانضباط العسكريين البريطانيين الذين كانوا يمتطون الدراجات البخارية كحماية لنا.

كان قد انقضى شهران تقريباً منذ أن تحقق النصر العظيم في العلمين، لكن الأنقاض وبقايا الأدوات المحطّمة التي انتشرت فوق ساحة واسعة، ما تزال باقية. وكانت الأرض مُمزّقة بعددٍ لا حصر له من الحُفر التي أحدثتها القنابل والصواريخ والدبابات والطائرات، كما كانت أدوات النقل المحطّمة والمدافع العديدة ما تزال جاثمة في مواقعها.

كانت المخازن العسكرية والذخيرة المهجورة قد حان حصادها الآن. وكانت حقول الألغام عديدة وعلى نطاق واسع، وهي تؤلّف شكلاً حديثاً من الاستراتيجية بالنسبة إلى استراتيجية العسكريين العراقيين، بحيث راح كلٌ من: الوصيّ عبد الإله، ونوري السعيد، والفريق إسماعيل نامق، يلقون العديد من الأسئلة. وفي الوقت ذاته أراد إسماعيل نامق أن يعرف لماذا كانت حقول الألغام مؤشّرة.

كان يفترض أن تكون الطرق التي تمرّ عبر حقول الألغام في المناطق التي تحتفظ بأهمية عملية استثنائية، على شكل مُعقّد. وكانت الحدود بين حقول الألغام قد حُددّت بأعشاش صلبة من الأسلاك الشائكة ترتفع إلى عدة أقدام، وقد وُضعت تحذيرات عن طبيعتها، تكشف عنها الإعلانات المُعلّقة التي تقول: «مُلغمة».

وكانت هنالك حقول ألغام صغيرة أقلّ خطراً، وقد قامت إلى جوانبها المدافع والخنادق، وكأنها تريد أن تحمي الممرات بين كل منطقة مزروعة بالألغام. ولقد حُذّرنا من الوقوع في الكمائن، غير أنّ عبد الإله كان يتشوّق إلى أن يحمل معه إلى بغداد بعض مشاهد القتال، ولذلك كان كل واحد منّا يبحث عن مواد لها أهميتها الاستثنائية ويمكن حملها. وفي حدود دقائق تم تكوين مجموعة منوّعة من هذه المواد؛ اختار الوصيّ قدراً كبيراً منها. وقد شارك عبد الإله في البحث، لكنّ اختياره الأول جعله يتقدم بحذر أكبر، فقد رأى حذاء قماش خشن مغموراً في الرمال، لكن ما أن رفعه حتى وجد به ساق ضابط ألماني!

تمّت تمضية اليوم التالي بصفة رئيسة في الجو، وذلك في التحليق فوق ميدان المعركة الواسع حتى إلى ناحية الغرب من «طبرق». ولقد أمضينا عطلة عيد الميلاد في الاسكندرية، وكان الفندق الذي حللنا فيه مزدحماً بالضباط المجازين القادمين من الجبهة.

أقام عبد الإله حفلة عشاء راقصة دعا إليها عدداً من زملائه في المدرسة، هم وزوجاتهم[١].

كان بين الضباط طفلان يرتديان سراويل قصيرة. ولم يلبثا بعد أن تناولا المزيد من الطعام أن راحا يدوران في القاعة بحثاً عن زملاء لهما... وكانا في كل وقت يصلان فيه إلى المائدة التي يجلس إليها عبد الإله ينحنيان له مجاملة. وبعد أن كررا ذلك عدة مرات، وقف أحدهما وخاطب

---

(١) يقصد المؤلف بذلك زملاء عبد الإله في كلية فكتوريا بالاسكندرية التي درس فيها فترة غير طويلة أيام فتوته.

عبد الإله متسائلاً عما إذا كان في مستطاعه أن يتشرّف بمراقصة زوجته!.

كان ذلك الطفل المتوسل يقف عند الكرسي الذي كنت أجلس عليه، واستطعت أن أقول له: «صه! لا توجد سيدة ملكيّة حاضرة هنا»، وإذ ذاك ضرب كعبّيه وأعلن بكل اعتزاز ومباهاة قائلاً: «إنني متأسف جداً يا سيدي أنا من فرقة الفرسان الحادية عشرة!».

والمعترف به أن يكون المركز التجاري للفندق أمميا، لكن علي أن أعترف بأنني قد أصبت بالدهشة عندما وجدت اعلاناً مطبوعاً عند زر الجرس الموجود بجانب سريري يقول ناصحاً: «دقة واحدة للعربي، ودقتان لخادمة الغرفة!..

* * *

كنت مسروراً جداً لاختياري في حاشية الأمير عبد الإله، لأنني سوف أزور وطني، لكنني بقيتُ قلقاً لأن «إلزي» ستظل وحيدة لمدة ستة أسابيع أو ما قارب ذلك.

كنا قد غادرنا بغداد في صباح اليوم الثامن والعشرين من شهر تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٤٣. وكانت حاشية عبد الإله تتألّف من: الفريق الأول إسماعيل نامق، والمقدّم عُبيد المضايفي مرافق عبد الإله، ومني أنا. وكان الجميع يرتدون البزات العسكرية وكنت أحمل رتبة لواء عراقي وهي الرتبة التي عينت بها بصفة فخرية.

طرنا إلى قاعدة القوة الجوية البريطانية في الحبّانية بإحدى طائرات «شركة الخطوط الجوية البريطانية لما وراء البحار» B.O.A.C.، وحين وصولنا إلى القاعدة، نُقلنا إلى طائرة نقل مائية من نوع «ساندرلاند»، وهذا النوع من الطائرات يُستخدم للرحلات من إنكلترا وإليها، ويُعتبر بالنسبة لنا النوع الأفضل، والأكثر ملائمةً لمتابعة رحلتنا عبر القاهرة.

تناولنا طعام الغداء في «قِليَة» على شاطىء البحر الميّت، وهناك انضم إلينا الأمير عبد الله وبعض كبار الموظفين من الفلسطينيين.

كان الفندق الذي حللنا فيه هناك، معروفاً لديّ تمام المعرفة، لأنني أمضيت فيه عدة فترات مع إلزي أعياد الميلاد مرات، وتباريتُ في لعبة «الغولف» السنوية التي تنظّمها «جمعية سدوم وعمورة للغولف»، ويُعتبر هذا النادي أوطأ ناد للغولف في العالم، وكنت أحد الأعضاء المؤسسين له، ولقد أُقيم فيه نُصْبٌ هو عبارة عن تمثال من حجر البازلت الخشن أُطلق عليه اسم «زوجة لوط».

كانت مدينة القدس بصفة خاصة هي الملجأ البهيج لتمضية أيام عيد الميلاد. وكان من أشهر احتفالاتها إقامة حفلة واسعة للأطفال. واتذكر أنه حدث بعد إقامة مثل حفلة التنكر هذه، والتي مثل الدور الكبير فيها أحد رجال الشرطة الفلسطينيين السابقين المؤنسين، أن أسرت فتاة صغيرة إلى أمها قائلة بأن بابا نوئيل تشم منه رائحة الازدراء. !

انطلقنا بهدوء فوق نهر النيل رغب تناول الشاي. وبعد استقبال حافل عند هبوطنا، توجّهنا إلى المفوضيّة العراقية حيث استمرّ تدفّق الزوّار حتى المساء، حين انطلق أربعة منّا إلى ملهى «أوبـرج الأهرام» في ضـاحية «الجيزة» لتناول طعام العشاء هناك، يصحبنا القائم بالأعمال العراقي «خالد الجوربجي» شقيق أحد الأطباء المتخرّجين على يدي[٢].

كان مقصف أوبرج الأهرام هذا من الأماكن المفضّلة جداً لدى الملك فاروق، وكان عبد الإله جدّ متشوّق لأن يرى فاروق في الأجواء غير الرسمية التي يعيشها في ذلك المقصف. فقد ذُكر له أن لفاروق قصصه الغرامية التي تشبه مغامرات «كازانوفا»[٣]، وأنّ مغامراته غالباً ما تحدث في ذلك المقصف.

كان فاروق يرتدي بزّة عسكرية، وقد حضر معه اثنان من مرافقيه.

---

(٢) يقصد به الدكتور عبد الرحمن الجوربجي الذي تولى منصب مدير المستشفى الجمهوري لسنين عديدة في العهد الملكي. وفي العهد الجمهوري أيضاً.

(٣) المغامر النسوي الشهير في إيطاليا، والذي وضع مذكرات إضافية عن مغامراته العديدة مع النساء.

وكان يتناول عشاءه في الوقت الذي وصلنا فيه إلى هناك، فاختيرت لنا مائدة في بقعة مظلّلة، وهناك أمضيّنا أُمسية ممتعة حقاً.

كان العشاء وفيراً، وأعقبت ذلك حفلة راقصة. وقد راح أحد مرافقي فاروق يبحث عن نِسوةٍ شابات كي ينضممنَ إلى مائدة الملك مما سلط الأضواء الساطعة على متعة تلك الليلة. كان فاروق، وقد بدأ خط شعره يرتد، أوفر بدانةً مما رأيته عليها آخر مرة قبل عشرة أشهر. وكانت لحيته المقرمة ظاهرة، وقد فعل ذلك دعماً لادعائه بالخلافة الإسلامية، وبأنه متحدّر من ذريّة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

ومع ذلك فإنّ لحية فاروق هذه لم تعش طويلاً، وربما كان من أسباب إقدامه على حلقها، أنه سمع بما كان يتحدث به الضباط الشبّان البريطانيون، حين كان الواحد منهم يحيي الآخر قائلاً: «ليحلق الله لحية الملك»! بدلاً من قوله: «ليحفظ الله الملك»[٤]

تناولنا في اليوم التالي طعام الغذاء على مائدة المستر «كيسي» وزير الدولة البريطاني المقيم في الشرق الأوسط، وذلك في أفخم نادٍ موجود في القاهرة، هو: «نادي محمد علي». كان من بين الضيوف المدعوين الفريق السر هنري متلاند ولسون الملقب بلقب «جمبو»، والذي عُيّن حديثاً قائداً عاماً للشرق الأوسط، بعد أن كان يقيم في بغداد منذ سنة قائداً عاماً للقوات البريطانية في العراق وإيران. والسر شولتو دوغلاس قائد القوة الجوية البريطانية فيما بعد، والمستر ألكسندر كرك الوزير الأمريكي المفوّض لدى البلاط المصري. كان الملك جورج ملك اليونان يجلس إلى المائدة المجاورة لمائدتنا. وقد قام المستر كيسي بتقديم الوصيّ عبد الإله وحاشيته إلى الملك جورج.

كان مما تحدث به المشير ولسون في تلك الليلة، أن طائفة من ضباطه الشبان قد وضعوا خطة لاختطاف المارشال رومل، وقد وافق ولسون على تلك الخطة، وأمر بتنفيذها، وبعد أن تاه أولئك الضبّاط في الصحراء

(٤) كان من سخرية الضباط البريطانيين بالملك فاروق أنهم استبدلوا عبارة: «ليحفظ الله الملك God Save the King» بعبارة: «ليحلق الله الملك God Shave the King».

الغربية لعدة أيام، وصلت برقية تقول: بأن رومل قد أُلقي القبض عليه. وقد قوبلت هذه البرقية بابتهاج كبير في مركز القيادة البريطانية، وتقرّر إقامة احتفال بهذه المناسبة.

غير أنّ برقية أُخرى وصلت، وهي تصحيح لما ورد في البرقية الأولى، تقول: «إنّ عبارة أُلقي القبض على رومل إنما تعني في الواقع أن بعيراً قد تمزّقت أشلاؤه إرَباً»[٥].

بعد تناول الطعام استبقاني المستر كيسي معه لكي أطلعه على الأوضاع السائدة في العراق. فلقد سبق له أن زار بغداد قبلاً، وقد ذكر أن السبب الذي جعله يرفض العودة إليها؛ هو أن مشاكل العراق تُعتبر تافهة نسبياً، إذا ما قورنت مع مشاكل بعض الأقطار الأخرى في الشرق الأوسط، وكانت مصر واحدة من هذه الأقطار.

غادرنا مصر في الساعات الأولى من صباح اليوم التالي، فاتجهنا بالسيارة إلى أحد المطارات العسكرية الذي يبعد زهاء الساعة عن القاهرة، حيث كانت إحدى الطائرات من طراز «ليبراتر» تنتظرنا هناك.

جوبة طيراننا إلى مطار «كاسل بنيتو» الإيطالي في طرابلس، بعاصفة، لكن الطائرة لم تضطرب، ولم يُصب أحد من ركابها بأي اضطراب. تناولنا طعام الفطور في نادي الضباط، بعد الهبوط مباشرة، كان أفراد القوة الجوية يعيشون في إحدى الواحات وسط الادغال وأشجار الدفلى التي تبدو خضراء منعشة بعد سقوط المطر. كان الضباط يصدرون صحيفة أنباء يومية اطلقوا عليها اسم «أوقات طرابلس TRIPOLI TIMES». اشتهرت فيما بينهم باسم «دقيقتان من الصمت»، حيث قيل لهم أن دقيقة واحدة قد خصصت لقراءة وجه واحد من وجهي تلك الصحيفة.

وحين صعدنا إلى الطائرة مرة أخرى، ارتدينا ثياب طيران، وصداريات

(٥) يبدو من هذا أن الجند كان لديهم بعير يطلقون عليه اسم رومل، وأن ذلك البعير قد نسف في حادث اصطدامه بلغم أو ما شابه ذلك. وقد حدث الالتباس في الكلمة Ruptured (مزق اربأ) التي حرفت إلى captured (ألقي القبض عليه).

وسطية قابلة للانتفاخ مزودة بمصباح كهربي وصفارة، وذلك في الحالة التي قد نجد فيها أنفسنا وقد سكرنا، ثم استأنفنا الطيران إلى جبل طارق عن طريق «بِسكرة» في منتصف النهار؛ حيث وصلنا إلى هناك بعد طيران استمرّ ست ساعات. وقد قابلنا على الرصيف عدد من رجال المحافظ. كان «السر نويل ماسون مكفرلين» رئيس البعثة العسكرية الحليفة لدى المارشال بوداليو في إيطاليا، وكان اللواء «هيلاند» يقوم مقام المحافظ أثناء غياب الأخير عن جبال طارق.

* * *

أبدى المرافقان الكبيران للمحافظ، وهما قائد الجناح «بيري» والمقدم «انطوني كويل» منتهى الكرم والتقدير خلال الأيام الأربعة التي أرغمنا سوء الأحوال الجوية على تمضيتها ضيوفاً على دار الحكومة. لقد كان هذا المنزل الواسع والمريح معاً، في وقت من الأوقات، ديراً للطائفة الفرنسسكانية. وإلى أن قام الملك أدورد السابع بزيارة جبل طارق في سنة ١٩٠٨، كان يعرف باسم «نزل الدير». وعندما عاد الملك إلى بريطانيا، كتب اللورد «بنسونباي» إلى المحافظ يخبره بأن الملك يرغب في عدم استعمال اسم «نزل الدير»، وأن يستبدل باسم «دار الحكومة» ولقد وضعت رسالة اللورد تلك في اطار وعلقت في غرفة الاستقبال، وأصبحت منذ ذلك الوقت مثار اهتمام بالغ من لدن الزوار.

لقد ذكر أنه بعد ظهور فقرة في الصحافة الداخلية أوردت بأن الملك قد تناول طعام الغداء في نزل الدير، أن قدم احتجاج ضد تلك الزيارة الملكية من قبل إحدى المنظمات البروتستانتية المتطرفة إلى المعهد الروماني الكاثوليكي. وحين زار الملك جورج جبل طارق، قبل زيارتنا له بوقت قصير، استعاد منزل المحافظ تسميته السابقة بناء على طلب من الملك نفسه. كانت أرض نزل الدير بهيجة لكنها ليست واسعة. فلم تزرع فيها سوى أشجار قليلة من قبل الملوك الذين كانوا يزورون الدير، وكانت أضخم هذه الأشجار هي التي زرعها آخر قيصر في المانيا. وحين سأل عبد

الإله عن أسباب عدم سقوطها، كان الجواب الذي أعطي له هو أن تلك الشجرة كانت مطمح أنظار كلاب الدير، وأن قطعها يسبب حرماناً مؤذياً لتلك الكلاب!

يقع جبل طارق في الأرض الاسبانية، ولا تفصله عنها سوى أسلاك شائكة. وكانت منطقة المسفن تقع داخل سلسلة من المدافع الممتدة على طول الساحل. وكان جبل طارق يشرف على الساحل الأفريقي. وذات أهمية لجبل «طنجة» التي أكدها مرشدنا القدير الفريق «هايلاند». فلم يكن يساوره أدنى شك في أن المتعاونين الساكنين هنا، كانوا يزودون دول المحور عن حركات السفن الحليفة. كما أنه متأكد أيضاً بأن عواطف اسبانيا، قبل الانتصارات الحليفة في الأشهر الأخيرة، كانت مع المحور، وأن موانئها الحرة من أمثال «كوتيا» و «ملتا» كانت مراكز لتزويد اعدائنا بالمعلومات.

كان القائدان «فون ارنم» و «كريمر» من الفيلق الألماني الأفريقي، قد عبرا جبل طارق اسيري حرب قبل زيارتنا إلى هناك ببضعة شهور. وكان «كريمر» يتباهى بأن جبل طارق قد وهبه إلى بريطانيا أمير الماني، هو «جورج» من مقاطعة «هس»، وأن كريمر كان يرأس الكتيبة الالمانية التي كانت معركة جبل طارق من معاركها المشرفة. وقد ظهر شيء من الصدق أو عدمه في أمثال هذه التأكيدات.

عند تناول الطعام في «نزل الدير» الذي يقوم عند صخرة جبل طارق. كانت المفاتيح الضخمة الأربعة لحصن جبل طارق تستقر فوق قطعة قرمزية اللون وسط المائدة. وكانت هذه المفاتيح هي بقايا الأيام الخوالي التي كانت تُغلق بها أبواب الحصن الأربعة الهائلة كل ليلة. وقد ذُكر أن أحد هذه المفاتيح قد اختاره المسلمون شعاراً لهم سنة ٧٢٥م، للدلالة على أنّ الصخرة هي مفتاح أسبانيا.

قمنا أثناء مكوثنا في جبل طارق، بعد ظُهر أحد الأيام، بجولة عبر الميناء في البارجة المخصصة لأمير البحر. كان يوجد هناك أسطول من البحرية الملكية البريطانية راسياً في الميناء، بالإضافة إلى بواخر فرنسية

وإيطالية تم الاستيلاء عليها. ومما له أهميته الخاصة وجود سفينة حربية اغرقت إحدى الغواصات ليلاً.

تناولنا الشاي في «الجبل» مقرّ أمير البحر السر هارولد بوروّ. وفي وقت قصير دعا مضيفونا عدداً من كبار ضباط القوات المحاربة إلى حفلة وداع مسائية، كانت الأحاديث خلالها تدور حول قصص الحرب. وقد تحدثت بعضها عن البطل مونتغمري، وعن زيارة الملك جورج في السنة السابقة. فقد كان الملك يتحدث مع «الن بروك» رئيس الأركان الأمبراطورية، عندما مر بهما مونتغمري. وإذ ذاك قال «بروك» للملك «لقد قالوا لي أنه يسعى إلى أن يحتل منصبي» وإذ ذاك رد عليه الملك قائلاً «لقد تنفست الصعداء جداً. لقد سمعت بأنه يريد أن يحل محلي». وسواء صحت تلك الحكاية أم لا فقد حل مونتغمري محل بروك في رئاسة الأركان.

وصلنا إلى إنكلترا قبل الساعة الثامنة من صباح اليوم الرابع من شهر تشرين الثاني (نوفمبر). ولأسباب تتعلق بالأمن جرى وصولنا عن طريق المحيط الأطلنطي. ونظراً لشدة الضباب فقد اتجهتْ طائرتنا إلى قاعدة القوة الجوية في «وست زيلند». لقد هبطنا هناك في الوقت المناسب تماماً، ذلك لأن الضباب ما لبث، بعد نصف ساعة، أن أطبق على «وست زيلند».

سارعت فتيات يرتدين الملابس العسكرية إلى إفراغ أمتعتنا من الطائرة، ثم قمن بنقلنا في سيارة إلى نادي الضباط، ووقفن لخدمتنا أثناء تناول طعام الفطور. كان من حُسن حظنا أن الضباب لم يدم طويلاً، وهكذا أسرعنا في الساعة العاشرة؛ في سيارات إلى موعدٍ أُعِدّ مُسبقاً لنزولنا.

كان دوق غلوسِستْر، وأعضاء الوزارة، وثلاثة من السفراء البريطانيين السابقين في العراق؛ هم كلٌ من: السر فرنسيس همفريز، والسر موريس باترسون، والسر بازل نيوتن، بالإضافة إلى السر مالكولم روبرتسون رئيس المجلس البريطاني، من بين الشخصيات البارزة التي تجمّعت في محطة «بادّنغتون» للترحيب بالوصيّ عبد الإله عند وصوله إلى لندن.

وكإجراء احتياطي لم يتم نشر نبأ وصول عبد الإله، ولكن حشداً كبيراً كان قد تجمع، وقد اجتذبته المعالم الواضحة لاستقبال أحد الضيوف المبجلين. وقد أضاف ثناؤهم حرارة غير رسمية إلى الترحيب الحكومي الودي جداً.

كان بين المشاهدين قلة ممن تعرف شخصية الزائر الذي كانوا يكرمونه. وقد ظن البعض أن الزائر هو «بطرس» ملك يوغسلافيا أو «هاكون» ملك النرويج. ومهما يكن الأمر فقد كان الاحتفال من المستوى الذي كان يحدث قبل الحرب. وبعد إتمام عملية التعارف نُقل الضيف وحاشيته بسيارة إلى «فندق كلاريدج».

* * *

كان منهاجنا أثناء مكوثنا في لندن حافلاً، بالإضافة إلى ما أُضيف إليه من مُتع خاصة تم تقبّلها، وشراء بعض الحاجيات حيثما أمكن ذلك. فلقد أمضينا صبيحة ذات أهمية في دار سكّ النقود الملكية، وبنك إنكلترا، كنا خلالها ضيوفاً على السيد «مونتاغ نورمان» محافظ البنك وبقية المدراء. وقد قام السيد ماكرينغ نائب رئيس سك النقود بتقديم كيس إلى عبد الإله فيه مجموعة من النقود العراقية التي كان يجري سكها، كما طلب إلى عبد الإله أيضاً التوقيع على عملة ورقية من فئة الف باون لتحفظ كذكرى لتلك الزيارة.

وأعقب ذلك تناول طعام الغداء بصفة رسمية في فندق كلاريدج، حضرها المستر كليمنت أتلّي نائب رئيس الوزراء، وعدد آخر من الوزراء، من بينهم: إرنست بيفن، وألكسندر، والسر إدوارد غريغ، والمستر إيمري، والمستر أوليفر ليتلّتون، بالإضافة إلى السفراء الثلاثة السابقين في العراق، والذين سبق لهم أن قدموا للترحيب بعبد الإله إثر وصوله إلى لندن. ومع أنّ الخطاب الذي أعددته لعبد الإله كان موجزاً، إلّا أنه استطاع أن يلقيه بيُسر ظاهر.

تأثر عبد الإله تأثراً بالغاً بالدفاع المضاد للطائرات في لندن. فقد قمنا

بجولة كان مرشدنا فيها الجنرال السر فريدريك بايل آمر الدفاع المضاد للطائرات. وكان قسم من هذه القوات الدفاعية مؤلفاً من وحدات من النساء، الأمر الذي دهش له عبد الإله، وتضاعفت دهشته عندما قُدّمت إليه المس ماري تشرشل، وكانت على رأس إحدى الوحدات، ذلك أن عبد الإله لم يكن يُصدّق أن يجد ابنة تشرشل في خط النار!... ولقد أعقب ذلك تفقّد بعض المراكز المدنية والملاجيء، وزيارة وزارة الأمن القومي حيث صحبنا الوزير هربرت موريسون بجولة فيها.

* * *

قضى عبد الإله يرافقه عُبيد المضايفي يومين ممتعين، من العاشر حتى الثاني عشر من شهر تشرين الثاني (نوفمبر)، ضيفاً على ملك إنكلترا في قصر بكنغهام. وأقيمت أثناء وجوده هناك، حفلتا عشاء تكريماً له حضرَتها شخصيات بارزة.

كان عبد الإله، مثل الملك جورج ودوق غلوستر، يرتدي البزة العسكرية. وكانت الملكة وبعض السيدات، ومنهن كل من دوقتي غلوستر وكنت، يرتدين ملابس بسيطة، ويتحلين بالقليل من الحلي. وكانت دوقة «ديفو نشاير» وزوجة تشرتشل، والليدي بروك، من بين الضيوف الاثنين والعشرين الذين حضروا الحفلة الأولى، والتي كانت تضم كلّاً من تشرتشل، واللورد تشمبرلن، ورئيس الأركان «الن بروك» و«ريتشارد لو» وزير الدولة.

وكان عبد الإله قبل ليال خلت قد صافح تشرتشل الذي كان يرتدي بذلته الداكنة الشهيرة وذلك في فندق كلارج حين كان تشرتشل نفسه يهم برحلة عاجلة إلى بعض المناطق التي قصفت للتعرف على أحوال سكانها وتشجيعهم. كانت فرصة تناول الطعام هي الفرصة الوحيدة التي توفرت لعبد الإله لتجاذب الحديث معه، والتي رحب بها ترحيباً واسعاً. وإذ اعتذر تشرتشل لعدم زيارته العراق، وعد ضاحكا بأنه سيفعل ذلك إذا ما غدت الفرصة مؤاتية، على شرط أن يؤكد له عبد الإله قبل أن يبدأ سفرته، بأن العراق غير خاضع للحظر!

أما الحفلة الثانية فقد كانت مقتصرة في الدرجة الأولى على أعضاء آخرين من الوزارة، ورؤساء المصالح وزوجاتهم. وقبل أن يغادر عبد الإله الحفلة أنعم عليه الملك جورج بوسام فكتوريا مع ياقة، حيث رد عبد الإله على ذلك بأن قدم الوسام الهاشمي إلى الملك جورج، وذلك بالإضافة إلى الهدايا الشخصية التي تبودلت بينهما، وكان من بينها منسوجات حريرية، ومصنوعات فضية جلبها عبد الإله معه، وقد اشتملت على علب من الفضة قدمت إلى الأميرتين اليزابث ومرغريت، وصورتين كبيرتين للملك والملكة مؤطرتين باطارات فضية.

وبعد ذلك أمضينا يومين بهيجين في جامعة كمبردج، ضيوفاً على البروفسّور تريفليان عميد كليّة «ترينتي». غير أنّ المتعة التي تفوق كل هذه المتع؛ قد توافرت عندما زار عبد الإله القاعدة الجوية في «هورنجرج» حيث كان الاحتفال محدداً، واستطاع عبد الإله أن يلتقي بعدد من الأبطال الشبان دون أقل عناء.

انتقلنا بسيارة عبر ضاحية «إيست إند لندن»، وبعض المناطق التي دمّرتها الغارات الألمانية تدميراً شديداً. كما قمنا بجولة مع إحدى الوحدات، بما في ذلك أسطولها الجويّ المؤلف من طائرات «سبتفاير»، وغرفة العمليات، واطلّعنا على جهاز الإنذار المعقّد أثناء العمل، ومن ثم التقينا في نادي الضباط بعدد من الطيارين المشهورين.

هنالك جولة أخرى لها أهميتها هي قيامنا بزيارة إلى مدينة «كوفنتري» حيث قوبل عبد الإله بترحاب كبير من لدن أمين كوفنتري، والذي أسرع بمرافقته لمشاهدة أنقاض الكاتدرائية، ومخطّط المشروع الذي أُعِدّ لإعادة بنائها. لقد دُمّرَ نصف المدينة على أقل تقدير، وأصبحت خمسة وستون ألف دار فيها بحاجة إلى الترميم. فقد عانت المدينة أكثر من خمسين غارة عليها. وفي إحدى المرات استمرت الغارات أكثر من إحدى عشرة ساعة قُتل فيها ألفان من السكان.

تجوّلنا في معامل الذخيرة في كوفنتري، ثم انتقلنا من هناك إلى «برمنغهام» فتناولنا طعام الغداء ضيوفاً على أمين البلدة المستر وليَم روتيس في دار المجلس البلدي.

توقفنا بعد ذلك في «كاسل بروموبج» حيث كان ينتظر عبد الإله في معامل طائرات «فيكرز» هناك، المستر لينّوكس بويد عضو البرلمان ووزير إنتاج الطائرات. وقد أصبح بويد هذا صديقاً لعبد الإله وظل يزور العراق حتى انتهاء الحكم الملكي فيه.

كان هذا المعمل يغطّي أرضاً مساحتها عشرين ألف فدان، ويعمل فيه خمسة عشر الف شخص اربعون في المائة منهم من النساء وكان المعدل الشهري فيه لانتاج طائرات سبتفاير التي قيل عنها انها كانت تحتوي ثمانية وعشرون الف جزء قد تجاوز ثلثمائة طائرة بالاضافة الى طائرة لانكستة القاصفة التي شرع في انشاء حجمها مؤخرا.

السر جورج نلسون رئيس شركة الكهرباء في مقراتها القائمة هناك... ثم في غلاسغو، وكضيوف على السادة: وليم برود مور وشركائهم، تفرّجنا على عملية صنع المدافع من مختلف الأصناف، وكيفية صهر الحديد وصبّه، ومن بعدها توجّهنا إلى «أدنبره» في سكوتلندا يصحبنا المستر توماس جونستون وزير الدولة لشؤون سكوتلندا، الذي استضافنا لتناول العشاء تكريماً للأمير عبد الإله في «الفندق البريطاني الشمالي».

حدثت رحلتنا إلى «الهوم فليت» جواً عن طريق «دونيبر ستل»، المحطة الجوية للأسطول، والتي وصلنا إليها في زورق بخاري من «كوينز فرّي». كان الصباح رطباً، شديد الرياح لبعض الوقت. وكان هناك بعض الشك حول ملاءمة الأحوال الجوية لطيران الزائر الملكي. ومع ذلك ففي أعقاب تفتيش المحطة بعد تناول طعام الغداء مع الكومودور بوريل في النادي، بدأ التحسن في الجو، وهكذا كنا في الساعة الثانية نحلّق في

الهواء، وقد قيل أن أولى قنابل الحرب قد سقطت قرب الجسر، لكن المَنطقة لم تتعرض للغارات الجوية طوال سنتين.

استغرقت رحلتنا إلى «هاتستون»، مطار كركوال، أكثر من ساعة ونصف الساعة. كانت طائرتنا صغيرة إلاّ أنها أكثر سرعة. وكان صغر الطائرة بالاشتراك مع اضطراب الجو، قد جعل عبد الإله يتوقع شراً. ولذلك طلب إليّ أن أطلب إلى الملاّح العودة. لقد وجدت في الواقع أن مثل هذا الطلب سوف يكون تفسيراً سيّئاً جداً، ولذلك تخليّت عنه، وسألت الملاّح بكل بساطة عما إذا كنا نمضي الآن وقتاً طيّباً، وما إذا كنا قد قطعنا نصف الطريق إلى «هاتستون». ومع أنّ أجوبة الملاّح كانت مؤكّدة لذلك، فقد أنبأتُ عبد الإله بأننا سوف نهبط في وقتٍ أقصر مما لو قررنا العودة إلى قاعدة «دونيبرستل»، وأضفتُ إلى ذلك قائلاً: بأن الجو قد ساء من ورائنا. وإذ نجحتْ هذه المغامرة، اعترفتُ للوصيّ بما بدر مني. وإذ ذاك سامحني بمنتهى السخاء.

ركبنا من «هاتستون» زورقاً بخارياً إلى إحدى المدّمرات التي بُنيت حديثاً، ثم عدنا منها إلى الباخرة «دوق يورك»، وهي مقر قائد الأسطول أمير البحر «بروس فريزر». وفي طريقنا إليها مررنا بعدة بواخر أخرى.

احتلّ عبد الإله ذات الصالة التي احتلّها تشرشل أثناء انعقاد مؤتمر «ميثاق الأطلسي» وإذ سأل عبد الإله أمير البحر عن انطباعه عن تشرشل، كان جوابه «أنه متجبر لكنه رجل عظيم!». وقد تناولنا طعام العشاء في الباخرة، وبعد الانتهاء منه دُعينا إلى مشاهدة أحدث الأجهزة الخاصة باستكشاف الطائرات، ومن بينها جهاز الرادار.

* * *

في الساعة العاشرة والربع من صباح يوم الخميس، الخامس والعشرين من شهر تشرين الثاني (نوفمبر)، وهو آخر يوم من إقامتنا في

سكوتلندا، حضر اللورد بروفوست إلى الفندق لكي يصحب عبد الإله وحاشيته في جولةٍ إلى الأماكن التاريخية في مدينة «أدنبره».

كان أول توقّف لنا خلال هذه الجولة في جامعة «أدنبره»، إذ كان ينتظرنا فيها السر توماس هولاند. وقد لفت السر هولاند أنظار عبد الإله إلى القاعة التي كنت أدرس فيها في الجامعة.

فقد قال مخاطباً إياه «في هذه القاعة يا سيدي كان طبيبكم قد أكمل تخرجه مرتين» وإذ كان يصحبنا الأستاذ «برانت» قمنا بزيارة صالة التشريح لنشاهد النصب التذكاري للعلامة «اندرو كننغهام» من كبار علماء التشريح. ولقد حضر اللورد بروفوست إلى المحطة لتوديعنا؛ حين غادرنا ونحن في طريقنا عائدين إلى لندن.

في نهاية تلك الليلة استمرّت سفرتنا عشر ساعات، ثم أعقبَتها أيام حافلة في لندن. فقد كنا في ضيافة المستر «كنن» عضو البرلمان، وذلك في منزله بميدان «بلغريف». وفي محطة «پوول» ركبنا إحدى طائرات الخطوط الجوية البريطانية لما وراء البحار، عائدين إلى العراق.

كانت هناك مجموعة من الطائرات المقاتلة ترافق طائرتنا حتى ساحل ارلندة. وكان الجو شديد البرودة، ولذلك سرعان ما أُصيب عبد الإله بدُوار شديد وغثيان؛ لكنه استعاد صحّته بسرعة عندما هبطنا، وكان متشوّقاً لتناول الشاي.

تطلّبت المرحلة التالية من سفرتنا تطبيق نظام التعتيم لأسباب أمنية، لكننا هبطنا عند منتصف الليل في مطار «لشبونة»، وذلك في أعقاب هبوط هادىء في قاعدة «تاغوس».

استقبلنا عند هبوطنا ممثّل السفارة البريطانية هناك، ثم اصطحبنا معه إلى فندق «أفيز» الشهير، والذي يعد من أفخم الفنادق في لشبونة، والذي يأوي إليه المسافرون من رؤساء الدول، وأرباب الملايين والسفراء.

أُعجب عبد الإله في الفندق إعجاباً كثيراً بنفّاضات رشيقة ملوّنة ومزخرفة كانت موضوعة على موائد الفندق، ولذلك طلب إليّ أن أسأل عما إذا كان يستطيع أن يشتري بعضاً منها. وقد ردّ مدير الفندق بأن هذه النفّاضات ليست معروضة للبيع، وأنّ الضيوف يحصلون عليها كذكرى، وأنه ليسرّه جداً أن يقدّم قلّة منها إلى عبد الإله. وقد نفذّ المدير وعده ذاك ووهبني أنا أيضاً واحدة منها؛ مع الطلب إليّ بأن أقرأ ما كُتب على قفاها. وإذ قلبتُ النفّاضة اكتشفتُ فيها كتابة تقول: «هدية تكريم من فندق «أفيز» في لشبونة».

* * *

بعد أن غادرنا جبل طارق بساعة واحدة، قرّر الملاّح أن يعود بسبب تسرّب الوقود في إحدى مكائن الطائرة، ولذلك تأجّل طيراننا حتى اليوم التالي. ظلّت الأمطار تنهمر طوال النهار، وبلغ عمقها بوصة ونصف البوصة، وهذا يعني حدوث فيضان بعد جفاف مخيف، الأمر الذي فرح به محافظ جبل طارق فرحاً شديداً.

دُعينا بعد انبثاق فجر الصباح التالي إلى تناول الفطور، وما كدنا ننتهي من ذلك، حتى وصلَنا ـ في آخر لحظة ـ إشعار من شركة الطيران؛ بأنّ التحليق سوف يؤجّل مؤقتاً بسبب اضطراب الجو.

وصل الجنرال «سمَطْس»* إلى المطار في الوقت الذي كنا فيه نتناول طعام الفطور. لكنه لم يأبه بعوارض الجو، وأصرّ على أن يواصل طيرانه دون أدنى تأخير. ولقد تأثر عبد الإله كثيراً لأنه لم تتح له فرصة مقابلة هذا الرجل الكبير.

اشترك محافظ جبل طارق معنا في تناول طعام الغداء، وفي لعبة

---

* المارشال جون سمطس ١٨٧٠ ـ ١٩٥٠ حارب الانكليز في حرب البوير ثم ما لبث ان اصبح اداة طيعة في ايديهم واشتهر بمناصرته للتمييز العنصري وتولى رئاسة حكومة اتحاد افريقيا الجنوبية حتى وفاته.

البولو أيضاً. وإذ كنا منشغلين بذلك، وصلتنا الأنباء بأن الجو قد تحسّن قليلاً، وأننا سوف نستأنف طيراننا حالما نستطيع الوصول إلى الميناء.

لقد ساءت الأحوال الجوية كثيراً في الأيام التي أعقبتْ ذلك. ولقد سُررت كثيراً لأننا استطعنا أن نغادر قبل أن تصبح الأحوال أكثر سوءاً. كان عبد الإله شديد الخوف، لأنه خشي أن يكون مصيره مثل مصير الجنرال سيكورسكي الذي فَقَدَ حياته في حادث سقوط الطائرة التي كانت تقلّه فوق جبل طارق(٦).

وإذ صعر عبد الإله وجهه خاطبني يقول بأنه، إذا لم نشارك ذلك الزعيم البولندي ذات المصير، فسوف يخبر «إلزي» بأنني كنت ـ على الرغم من ذلك ـ شريكاً في مغامرة خطرة وضعت حياته على حافة الخطر.

ولم يتضاءل خوف عبد الإله حتى عند الوصول إلى مرحلة الهبوط. فقد كان الملاّح يعتقد ـ كما قيل لنا ذلك ـ أنه يستطيع الإقلاع إذا ما توافرت له وقاية من الريح. وطبقاً لذلك أمضينا ساعة كاملة في الميناء قبل أن نصعد إلى الطائرة، وكان الجو بارداً وعاصفاً جداً.

أخفقت المحاولتان الأوليان للإقلاع. وإذ كانت المحاولة الثانية تجري هتف بي عبد الإله، خلال ضجيج المكائن، بأن أُخبر الملاّح أن يكفّ عن محاولة التحليق. كانت إشارات الانطلاق قد أُعطيت، ولذلك قلت لعبد الإله: «ليس في الإمكان الآن إيقاف ذلك، لكن إن فشلت هذه المحاولة أيضاً فسأطلب منه ذلك». وكان من حسن الحظ أن نجحت المحاولة فأصبحنا محلّقين في الهواء.

تحسّن الجو بعد تحليقنا، وهكذا هبطنا بعد طيران متواصل استمرّ

---

(٦) الجنرال سيكورسيكي: تولى قيادة القوات البولونية التي أسرها السوفييت أثناء هجوم هتلر على بولونيا، وقد نقلت هذه القوات من الاتحاد السوفياتي إلى العراق، وأصبحت تحت قيادة القوات الإنكليزية، وقد راجت في حينه إشاعات بأن حادث سقوط طائرة سيكورسكي كان متعمداً من قبل الإنكليز للتخلص منه.

سبع ساعات ونصف الساعة. كان هبوطنا في «جربة»[٧] على الساحل التونسي. وبعد ساعة انطلقنا ثانيةً على ارتفاع عشرة آلاف قدم، وكانت وجهتنا نحو القاهرة. كان الجو بارداً، لكن الريح كانت رقيقة، ولم نشعر بحركة الطائرة غالباً، بحيث استطعنا أن ننام.

أصبحنا فوق نهر النيل بعد سبع ساعات ونصف. كانت القاهرة آنذاك تغتسل بأشعة الصباح. وبعد وصولنا إلى المفوضية العراقية مباشرةً، أقبل اللورد كلّيرن لتأدية زيارة مجاملة لعبد الإله. وقد أخبرنا بأن تشرشل كان في القاهرة في طريق عودته إلى إنكلترا؛ بعد انتهاء المحادثات مع أقطاب الحلفاء في طهران، وكان من بينهم: روزفلت وستالين. وكان من بين المواد التي أشارت إليها تلك المحادثات قلق تركيا الشديد من الأهداف المباشرة المتوقعة التي ستقوم بها روسيا بعد الحرب.

طلب إليّ عبد الإله بعد الغداء أن أصحبه لزيارة الأميرة «صالحة» عمّته التي تقيم في القاهرة. كانت الأميرة طاعنة في السن، وكانت صحّتها متدهورة. لكنها فرحت واستبشرت؛ إذ وجدت ابن أخيها يتفقدها.

* * *

كان وصول عبد الإله، وكما هو دائماً، يحتل عناوين الأنباء في الصحف المحلية. وكان من بين الأنباء التي نشرتها صحف القاهرة نبأ شفاء الملك فاروق من حادث الاصطدام الذي وقع له مؤخراً. ومما ذكرته الصحف أنه في اليوم التالي لمغادرة فاروق المستشفى سيتم إلقاء عشرة آلاف كيس من الحلوى بالمظلّات على القاهرة. وقد علّق عبد الإله على هذا النبأ بقوله: «لست أعرف ما كان سيحدث لو أن هذه المظلّات لم تنفتح»! وذلك احتمال كان يتوقع حدوثه إذا ما تمت اجراءاته تحت اشراف القوة الجوية المصرية التي لم يبد سوى اهتمام طفيف بها.

كان عبد الإله يتوق جداً إلى مواجهة تشرشل قبل أن نعود إلى بغداد،

---

(٧) جربة: جزيرة تونسية تقع في خليج قابس، شهيرة بصناعة السجاد والفخار.

ولذلك تأخرت مغادرتنا على أمل تحقيق هذا اللقاء مع تشرشل. كان توقفنا يمثّل مشكلة، لأنه تم حجز مكان لنا في الطائرة، وحُدّدَ موعد سفرها. ومهما يكن الأمر، فقد أعدّ المستر إلتايد كلايتون العدة لسفرنا فيما بعد؛ إما بطائرة وزير الدولة اللورد موين، أو بإحدى طائرات القوة الجوية البريطانية إذا ما وجد أنّ ذلك ضروري. ومع ذلك أكّدَ كلايتون أنّ احتمال الالتقاء مع رئيس الوزراء البريطاني المستر تشرشل يُعتبر متوقعاً، لأنه حتى جورج ملك اليونان الذي يستحق الأولوية في المقابلة، مايزال ينتظر تلك المقابلة.

أقبل المستر إيدن في النهاية وقد طلب إليّ عبد الإله بأن أكون بين الحاضرين. كان وزير الخارجية إيدن منشرحاً. وقد أشار أثناء الحديث معه إلى أنّ المستر تشرشل سوف يقابل جورج ملك اليونان، بعد ظُهر اليوم، وإنه يأمل أن يصبح الاجتماع بعبد الإله ممكناً في صبيحة اليوم التالي. لكن إيدن أضاف: بأن تشرشل مُتعب جداً، وإنه على أية حالة قد يحصل لقاء أكثر من المجاملة نوعاً ما.

وصل الرجل العظيم تشرشل في الوقت المحدّد لوصوله. غير أن وضعه لم يكن على ما يرام. وكانت زيارته قصيرة، لكنه لم يكن في مقابلته وديّاً، كما لم يكن عبد الإله ممتناً كثيراً، وراح يكرّر المرة تلو المرة قائلاً: «يا له من رجل عجيب! ولكن كم هو الأمر مدهش أن تكون لمثل هذا الرجل الحديدي مثل هاتين اليدين الصغيرتين اللدنتين!»

كانت عودتنا إلى العراق خالية من الحوادث. فقد هبطنا في الحبّانية، واستمرّت رحلتنا بإحدى قاصفات القوة الجوية البريطانية. ولقد تجمّع لاستقبال عبد الإله حشدٌ كبيرٌ كالمعتاد، وحضره كل فرد ذي مكانة في العاصمة عندما هبطت الطائرة في مطار بغداد.

كانت موسيقى الجيش العراقي تشنف آذان الحاضرين بألحانها، وقد نحرت الذبائح في الوقت الذي هبط فيه الوصي من الطائرة، يرافقه رئيس الوزراء إلى مكان الإستراحة. أما أنا فودّعتُ عبد الإله والعضوين الآخرين من حاشيته، حيث كان ينتظرني سائق سيارتي الهندي «عبد الله»، وهكذا كنت بعد دقائق قليلة في طريقي إلى «باب المعظَم» وإلى جانبي زوجتي المحبوبة إلزي.

الفصل الرابع عشر

زيارة الوصي عبد الاله للولايات المتحدة الأمريكية

أوشكت الخطط التي أُعِدّتْ لسفر الوصي عبد الإله إلى الولايات المتحدة الأمريكية أن تتم، عندما توفي الرئيس الأمريكي «روزفلت» في شهر نيسان (أبريل) ١٩٤٥.

كان انتهاء الحرب في أوروبا قد أُعلن رسمياً في اليوم التاسع من شهر أيار (مايو) ١٩٤٥، لكن الحرب استمرّت في الشرق الأقصى حتى اليوم الرابع عشر من شهر آب (أغسطس) ١٩٤٥[١].

ولقد أُلغيت الزيارة عند وفاة الرئيس روزفلت، لكن الدعوة ما لبثت أن تجدّدت حال تولّيّ هاري ترومان رئاسة الجمهورية الأمريكية. وهكذا كان الأمر، وركب عبد الإله وبقية أفراد حاشيته، في صباح اليوم الثاني والعشرين من شهر أيار (مايو) إحدى الطائرات المخصصة لاستعمال الرئيس الأمريكي، وهي من طراز «سكاي ماستر ـ سيّد السماء»، فأقلعت به في سماء صافية بعد إجراءات حفل التوديع المعتاد في مطار بغداد.

كانت هذه الطائرة الأمريكية في طريق عودتها من «موسكو» إلى

(١) استسلمت ألمانيا الهتلرية في أوروبا للحلفاء في ٩ أيار (مايو) ١٩٤٥. لكن اليابان حليفة هتلر وموسوليني بقيت تقاتل الحلفاء في الشرق الأقصى لوحدها، إلى أن ألقى الأمريكان عليها أول قنبلتين ذريتين، ألقيت الأولى على هيروشيما والثانية على «نغازاكي» فاضطرت إلى الاستسلام. ومع أن الأمريكان قد صنعوا القنبلة الذرية منذ زمن، فإنهم لم يضربوا بها سوى منافستهم الأولى، وهي اليابان وليس ألمانيا.

أمريكا، حيث نقلت السيد مولوتوف وزير خارجية الاتحاد السوفياتي عند عودته من مؤتمر سان فرانسيسكو، وكانت مزوّدة بأجهزة فخمة، من بينها سريران للنوم تحجبهما ستائر عن بقية وسائل الراحة الأخرى التي اشتملت على ستة عشر كرسياً يمكـن تحريكها بيُسر.

كانت حاشية الأمير عبد الإله تتألّف من كلٍّ من: نوري باشا السعيد، وداوود باشا الحيدري[٢]، والعقيد عُبيد عبد الله، وأنا. وقد انضم إلى فريقنا هذا في السفر إلى نيويورك، النقيب «إرشي روزفلت» حفيد الرئيس تيودور روزفلت.

منحت هيئة مراقبـة التحويـل الخارجي في بغـداد كل واحـد منا مخصصات مقدارها ألف وخمسمائة دولار أمريكي. غير أن هذا التحديد لم يُطبّق على الوصيّ عبد الإله، وإن كان السفير[٣] قد أوضح له الحاجة الملحّة للضغط على المصروفات، وذلك بالنظر إلى النقص الحاد في كمية الدولار، كما طلب إليّ أن أبذل كل جهدي لكي أجعل عبد الإله يفهم سبب هذا النقص، وأن أقنعه بتجنّب الإنفاق الذي لا حاجة إليه.

لقد كان يخشى، أثناء وجود الوصيّ في الولايات المتحدة الأمريكية، أن يتصل به أصحاب الشركات الكبرى فيها، وغيرهم ممن يعبّرون إلى حدٍّ ما عن التفكير المرغوب فيـه حول تـطوير العـلاقات التجـارية العـراقية الأمريكية، والذين يحاوِلون أن يتركوا في ذهن عبد الإله انطباعاً خاطئاً تماماً، مؤداه، أن بريطانيا هي التي يجب أن تُلام إلى درجةٍ ما عن النقص الحالي في كميّة الدولار، ليس في العراق فحسب، بل وفي الشرق الأوسط بصفة عامة، وفي أي مكان آخر بصفة عرضيّة.

---

(٢) كان داوود الحيدري آنذاك خارج الوزارة، وذلك بعد أن استقالت الوزارة السعيدية السابعة، التي اختير فيها وزيراً للعدلية، في التاسع عشر من كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩٤٣.

(٣) المقصود بالسفير هنا، حسبما نعتقد، هو السفير البريطاني آنذاك في العراق، وهو السـر «ستون هيو بيرد» الذي خلف كنهان كورنواليس في هذا المنصب عندما غادر العراق في ٣١ آذار (مارس) سنة ١٩٤٥.

فمنذ سنة ١٩٣٩ وما بعدها، اضطرت منطقة الاسترليني التي كانت تضم بريطانيا والعراق ومصر والهند وبورما والملايو وأستراليا ونيوزيلندا، إلى سحب كميّات كبيرة من مواردها من الذهب والدولار، لغرض شراء الذخيرة واللوازم الحربية الأخرى من أمريكا، إلى درجة أن مخزوناتها من الذهب والدولار تناقصت في ربيع سنة ١٩٤١ إلى مستويات مخيفة. وبسبب هذا النقص عرض الرئيس روزفلت مشروعه للإعارة والتأجير(٤).

وأخيراً عندما اجتاحت اليابان، الملايو في سنة ١٩٤٢، حُرمنا، نحن الإنكليز، من أفضل منطقة كانت بريطانيا تحصل من ورائها على الدولار، لأنه لم يعد مُستطاعاً تصدير الزيوت والمطاط والتوابل والمنتجات الأخرى التي كانت أمريكا تشتريها قبلاً بكميّات كبيرة.

وقد أدّى اشتراك أمريكا في الحرب إلى تحسُّن الوضع نوعاً ما. وذلك نتيجة النفقات الواسعة التي كانت تنفقها القوات الأمريكية في بريطانيا، وفي كل مكان آخر. غير أن هذا الوضع ما لبث أن تردّى عندما تمّ نقل هذه القوات الأمريكية إلى منطقة الشرق الأقصى.

وفي الوقت ذاته لم تكن الولايات المتحدة الأمريكية تستورد الشيء الكثير من بريطانيا، كما أنها لم تستورد أي شيء بصفة عملية من الأقطار الأخرى لمنطقة الاسترليني. وكانت نتيجة ذلك حدوث نقص حادّ في الدولار في كل أقطار هذه المنطقة.

---

(٤) في هذا التفسير الذي أعطاه سندرسن لنقص الدولار في منطقة الاسترليني مغالطة كبيرة. فما إن وقعت الحرب العالمية الثانية حتى بدأت بريطانيا تشرف إشرافاً مباشراً على كل ما كانت تصدره بلدان منطقة الاسترليني إلى الخارج وما تستورده منه. فكانت تتسلم هي وحدها أثمان الصادرات من بلدان الاسترليني وتحتكرها لنفسها، ومن ثم تقنين الاستيرادات التي تستوردها تلك البلدان، وتدفع بريطانيا ذاتها أثمان تلك الاستيرادات. وهكذا كانت بريطانيا تستغل فائض منطقة الاسترليني من الدولارات لصالح المجهود الحربي البريطاني، وليس لصالح أي من تلك البلدان، وعلى هذا الأساس ترتبت في ذمة بريطانيا ديون هائلة لبلدان الاسترليني لم تسدد حتى أواخر الستينات.

ولقد تأثّر العراق بصفة خاصة تأثراً بالغاً بهذا الأمر، وذلك بسبب انعدام المشتريات الأمريكية منه، مثل: الصوف والتمور والجلود وما شاكلها(٥). وهكذا غدا واضحاً في نهاية سنة ١٩٤٤، أنه إذا لم يتم اتخاذ إجراء ما، وبسرعة متناهية، فإنّ العراق لن تكون لديه أية كمية من الدولار إطلاقاً في منتصف سنة ١٩٤٥.

وكان من مصلحة العراق أن تم التفاوض على عقد اتفاق للتحويل الخارجي وافقت فيه بريطانيا على أن تُسهم بمبلغ أربعة عشر مليون دولار لشراء الحاجيات الضرورية التي يحتاج إليها العراق من الولايات المتحدة الأمريكية، ولتغطية النفقات الأخرى التي يحتاج إليها، مثل: الإبقاء على المفوضية العراقية في الولايات المتحدة الأمريكية، وتغطية نفقات سفرة الوصيّ، ومؤتمر سان فرانسيسكو، وتدريب الطلبة، وما شابه ذلك.

لا يمكن الادعاء بأن عمل بريطانيا هذا كان في سبيل حب الغير أبداً. ذلك أنها كانت تتوخى من وراء ذلك الحصول على منافع سياسية واقتصادية طويلة الأمد لبريطانيا ذاتها، ولبقية البلدان الأخرى التي تؤلف كتلة الاسترليني.

مثال ذلك: أنه تم في سنة ١٩٤٢ استيراد ستة وعشرين ألف طن من القمح من أُستراليا، وذلك لمواجهة النقص الحاصل في العراق. ولم يكن من المستطاع الحصول على هذه المادة لو لم يكن العراق وأستراليا عضوين في منطقة الاسترليني.

لقد كان نقص الدولار في بلدان الشرق الأوسط مصدر قلق دائم للأمريكيين الذين كانوا يتطلّعون إلى المتاجرة، والذين لم تكن أغلبيتهم بارعة تماماً في التجارة والمالية الدولية، بحيث تستطيع أن تتفهّم الوضع،

(٥) الشيء الواضح الذي لا سبيل إلى إنكاره، هو أن بريطانيا كانت خلال الحرب تحتكر كل المواد الخام التي كانت أقطار كتلة الاسترليني تصدرها إلى الخارج قبلاً. ولهذا السبب لم يعد في مستطاع هذه الأقطار تصدير أي شيء من منتجاتها الأولية إلى أمريكا، عدا المواد التي لم تكن بريطانيا راغبة في الحصول عليها لمجهودها الحربي.

وحتى إذا ما تفهّمته؛ فإنها لا تَوَدّ أن تفكّر فيه، ولذلك يجري الحديث عن هذا الوضع بقدر من عدم المبالاة الظاهرة.

ولقد كان علاج الوضع في يد أمريكا وحدها. ذلك لأن البلدان المحتاجة، كالعراق وغيره من الأقطار، تستطيع - إذا ما زُوِّدَتْ بالدولار - أن تعقد مع أميركا صفقات مشتريات واسعة جداً، مما كان التجار الأمريكيون يتطلّعون إليه تماماً.

أما السبب الذي جعل تجارة الولايات المتحدة الأمريكية مع أقطار أمريكا اللاتينية ترتفع إلى درجة عالية، فهو أنّ الولايات المتحدة الأمريكية كانت تشتري كميات هائلة من النحاس والقصدير والنترات، والصوف، والمواد الخام الأخرى من بلدان أمريكا الجنوبية. وبذلك توافرت لهذه البلدان موارد فيّاضة من الدولارات تستطيع أن تشتري بها سلع الولايات المتحدة الأمريكية.

تلك هي الوقائع التي أكثرتُ التحدّث عنها إلى الأمير عبد الإله ونوري السعيد وداوود الحيدري أثناء سفرتنا تلك، مخافةَ أن يقعوا ضحايا دعاية مضللة! والذي أعتقده أنّ محاضراتي تلك قد حققت بعض الشيء، لكن التغيير لم يكن كُلِّياً!

* * *

وبدعوة كريمة من الوصيّ عبد الإله، سافرتْ زوجتي إلزي معنا، وهي في طريقها إلى إنكلترا، على أن تفترق عنّا في مدينة القاهرة. فلقد قررنا، أنا وهي قبلاً، أن نغادر العراق عند انتهاء عقد عملي فيه بعد سنة.

كانت والدة إلزي في صحة غير جيّدة... ولم تكن إلزي لترغب في العودة إلى العراق، وأن أقيم أنا في أحد الفنادق ببغداد، ولذلك تخلّصنا من محتويات بيتنا الذي نُهب، وأعَرناها إلى بعض الأصدقاء، من العراقيين.

كان قرارنا بمغادرة العراق قراراً مؤلماً لنا، لأنه سوف يبعدنا عن

نشـاطاتنا المناسبة، ويفصلنا عن البعض من أصدقائنا المقربين إلينا. ومع ذلك، فقد كان هذا القرار حكيماً، ولم يخامرني فيه أدنى شك.

وقبل أن نغادر «النخل»[٦] ألقينا آخر نظرة على حديقتنا المحبوبة، ووزّعنـا المكافـآت والشهادات على خـدمنا، بـالنظر للخـدمات الـطويلة المخلصة التي أدّوها لنا، وودّعناهـم وداعاً محزنـاً، وقد أوصلنـا سائقنـا الهندي المخلص نفسه إلى المطار.

في حوالي صباح الجمعة، اليوم الخامس والعشرين من شهر أيار (مايو) هبطت طائرتنا في مطار «لاغارديا». كانت النقاط التي توقفنا فيها منذ أن غادرنا القاهرة ثلاثاً: هي: الدار البيضاء، وساو مغويل (جزر الآزور) وبرمودا.

وعندما كنا نحوم فوق نيويورك استعداداً للهبوط، كان منظر المدينة الجبّارة، وأبراجها الشامخة قد أذهلتنا حقاً. لقد سبق لي أن شاهدت الممر الجوي من نقطة منخفضة قبل الآن، لكن هذه هي المرة الأولى التي أشاهده فيها من مكان مرتفع.

وما خلا داوود الحيدري، كنا جميعنا نرتدي البزّات العسكرية. ولكن لما كان المنهاج الرسمي لن يبدأ قبل مرور ثلاثة أيام، فقد كان وصولنا خالياً من الاحتفال.

قام المستر «ريموند موير»[٧]، وموظفون آخرون من وزارة الداخلية الأمريكية، بالإضافة إلى «علي جودت» وزير العراق المفوّض، ونائبه «سيف الله خندان»[٨]، بتقديم التحيّات إلى الوصيّ. وكان عدد مُقتنصي التواقيع،

---

(٦) «النخل»: هو الأسم الذي أطلقه سندرسن وزوجته على الدار التي شيداها على قطعة أرض للأوقاف في شارع جعفر العسكري بمحاذاة المستشفى الجمهوري حالياً، وما تزال الدار قائمة بحالتها الأولى حتى اليوم.

(٧) كان المستر «موير» أحد موظفي وزارة الخارجية الأمريكية. كتاب: الأمير عبد الإله الوصي على عرش العراق، ص ٩.

(٨) كتب الاسم «سيف الله خندام» وأظنه غلطة مطبعية. وكان «خندان» من كبار موظفي وزارة الخارجية العراقية حتى قيام ثورة ١٤ تموز (يوليو) ١٩٥٨.

ومصوّري الصحف كبيراً جداً، وكان الأوّلون يحملون نقوداً ورقية من عملات مختلف البلدان وقد ألصقوها على ورقة باللصاق.

بعد أن أجاب عبد الإله مبتسماً على أسئلة قليلة حول الغرض من زيارته هذه، توجّه هو وحاشيته، تحيط بهم ثلّة من الشرطة راكبي الدرّاجات البخارية، وبسرعة خارقة، إلى فندق «ولدورف أستوريا». وقد اشتملت حاشية المرافقين، على كلٍ من: اللواء «أوليفر» والنقيب «ماكولَم» ممثلين عن الجيش والبحرية بالتتابع.

وفي الوقت المحدّد تماماً، وهو الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والعشرون، وصلنا إلى محطة الاتحاد في واشنطن، حيث ضم ممثلو وزارة الداخلية الذين كانوا ينتظرون للترحيب بالوصيّ، كلًا من: الدكتور «جوزيف غرو» الوزير بالوكالة، والمستر «جورج سَمّرلين» رئيس التشريفات، والمستر «جون بلفور» ممثل السفير البريطاني، بالإضافة إلى ممثلي دول الشرق الأوسط.

بعد الانتهاء من مراسيم التعريف، توجّه عبد الإله مع نوري السعيد في سيارة إلى البيت الأبيض، بينما توجّهنا أنا وداوود الحيدري وعُبيد عبد الله إلى «بلير هاوس»، وهو المنزل الرسمي لرئيس الجمهورية المُعَدّ للضيوف، ويقع على مقربة من مقرّه. ولقد رحبّت الجموع المحتشدة في ميدان «پنسلفانيا» بالوصيّ ترحيباً حارّاً عندما مرّ موكب السيارات فيه.

كان الرئيس ترومان ينتظر الضيف الملكي عند مواجهة المقرّ، حيث عُزف النشيدان القوميان من قِبَلِ جوق من رجال البحرية. وإذ ذاك قام عبد الإله بتفتيش حرسَي الشرف الممثلين للبحرية والجيش (بما في ذلك القوة الجوية) قبل أن يدخل الرئيس ترومان يصحبه الوصيّ ونوري السعيد إلى داخل المقرّ للانضمام إلى وليمة الشاي التي أقامتها زوجة ترومان وابنته.

لقد ظهر لنا الرئيس ترومان وهو أبعد ما يكون عن المباهاة إطلاقاً. كان ذا بنية وطول معتدلين، استقرّ على شفته العليا شاربان رقيقان، وقُصّ

شعره الذي وخطه الشيّب قصاً نظيفاً. وكان بالنسبة إلى الوصيّ وحاشيته يجسّد اللطف والأريحيّة.

كان ترومان قد وصل إلى رئاسة الجمهورية[٩] قبل شهرين ليس إلّا، وذلك إثر وفاة الرئيس روزفلت.

لم تكن الحرب قد انتهت بعد. ولذلك كان من الضروري أن يكون الاهتمام بأوضاع العراق والشرق الأوسط أثناء زيارة الوصيّ قد خُطّط مُسبقاً.

ولقد تحدّث ترومان إلى الوصيّ حديثاً صريحاً عن حياته الأولى، فأنبأه بأنه ظلّ لمدة عشر سنوات يُدير مزرعة العائلة في ولاية «ميسّوري». غير أن جهوده تلك قد باءت بالفشل، وفي النتيجة هجر الزراعة وفضّل عليها عمل القانون. ومع ذلك كان ما يزال يهتم بموضوع الزراعة، وقد طرح العديد من الأسئلة عن الفلاحة والحاصلات، والقضايا الزراعية بصفة عامة في العراق.

كان مكوثنا في واشنطن قصيراً، وكانت لقاءاتنا مع الرئيس ترومان قليلة هي الأخرى، ولم تكن كافية لكي نفهم منه ما يعيننا على الإلمام بما كان يجري تحت اللمسات الظاهرة. ومع ذلك فقد عُدنا إلى بغداد ونحن نحمل انطباعاً عن رجل غني جداً، وهبه الله نباهة عَملية أكثر من المواهب الذهنية المدهشة.

انتهت الضيافة في واشنطن بحفلة عشاء في «ديب ووتر»، المنزل المؤقت للمشير (الفيلد مارشال) السر هنري مِتلَند ولسون والسيدة عقيلته، وهو رئيس بعثة الأركان البريطانية المشتركة في الولايات المتحدة الأمريكية. كان من بين الضيوف الذين ناف عددهم على العشرين، السيدة «كلير بووث لوس» النائبة عن ولاية «كونَكتكوت»، والتي أصبحت سفيرةً للولايات المتحدة الأمريكية في إيطاليا خلال السنوات ١٩٥٣ ـ ١٩٥٧.

---

(٩) كان ترومان يشغل منصب نائب الرئيس، وعندما توفي روزفلت، اختير رئيساً للجمهورية بحكم منصبه، وليس نتيجة فوزه في انتخابات الرئاسة كما هو الأمر عادة.

أمضى الوصيّ ونوري السعيد الليلة في البيت الأبيض، وتوّجها عند الصباح باحتفال إلى «بلير هاوس»، حيث بقينا بمجموعنا حتى اليوم الأول من شهر حزيران «يونيو» عندما عدنا إلى نيويورك.

وقبل أن نغادر واشنطن قمنا بزيارة وداع للبيت الأبيض، وإذ ذاك أنعم الرئيس ترومان على الوصيّ بوسام الاستحقاق من درجة القائد الأعلى، وهو وسام لا يُمنح إلّا نادراً. وقد سبق الاحتفال بذلك ثناء تكريمي مطوّل على الوصيّ الذي كان يحمل رتبة «مشير» في الجيش العراقي، وذلك بسبب إخلاصه للأمم المتحدة، وشجاعته وتفانيه في خدمة قضية الحلفاء.

سافرنا إلى نيويورك في سيارة خاصة تسير على سكك الحديد، وقد تأخرت الرحلة بسبب عطب آلي. وفي نفس الوقت الذي وصلنا فيه إلى محطة بنسلفانيا كان محافظ «لا غارديا» ينتظرنا هناك لمدة ساعة كاملة.

وبعد المصافحة الودّية، والتحيّات المعتادة التي اشتملت على عزف النشيد الوطني، استقلّ عبد الإله سيارة الليموزين الخاصة بالمحافظ، وهي سيارة قوية مزوّدة بمنضدة وهاتف، حيث انضم إليه المحافظ نفسه، واتخذا سبيلهما إلى فندق «ولدورف أستوريا».

كانت الضيافة بالغة أقصى حدود الكرم منذ أن غادرنا بغداد. غير أنّ المتعة والحفاوة التي نعمنا بها من لدن «شركة إنماء الشرق الأدنى»، والتي شارك فيها ما يزيد على الثلاثين من الضيوف، في حفلة عشاء أُقيمت على شرف الوصيّ، كانت تلك الحفاوة لا مثيل لها إطلاقاً.

لقد أُقيمت الحفلة في قاعة «قوس قزح» بقصر «روكفلر». وإذ كانت هذه القاعة تقع في الطابق الخامس والستين، فقد هيّأت لنا الفرصة لمنظر كنا نشاهد فيه منطقة واسعة من أعظم مدينة في العالَم.

كان ارتفاع البناية سبعمائة وخمسين قدما. وهي الرابعة بين أعظم ناطحات السحاب في نيويورك. كانت قائمة الطعام قد حفلت بكل ما لذّ

وطاب. وكان الطعام يُقدّم من قبَل فتياتٍ جميلاتٍ يرتدين ملابس خلاّبة. وكانت معظم الصحون مضاءة بأداة حاذقة أو أخرى.

ومما أتذكّره أنني حين تناولت قطعة من «الكافيار» قبل الطعام، انبئت بأن إحدى السيدات كانت تشكو من غلاء أسعار الكافيار، ولم يلبث الرجل الذي كان يجهّز هذه المادة أن رد عليها بقول: «ولكن يجب أن تتذكّري يا سيدتي أننا ننفق سنة كاملة كيما نصيد إحدى الأسماك التي نستخرج منها الكافيار!»

* * *

بدأ تحليقنا نحو الولايات الغربية من أمريكا في الساعة الثانية صباحاً. ولقد توقفنا لأول مرة بعد طيران استمرّ سبع ساعات، في «بنكسديل فيلد» بولاية «لويزيانا». وهو مقر مركز التدريب الذي يقع على مقربة من «شروز بورت».

كان مكوثنا وجيزاً. وبعد أن تناولنا طعام الغداء، وهو أول استراحة لنا منذ أن غادرنا نيويورك، واصلنا التحليق إلى «كلافيس» و«نيو مكسيكو»، حيث كان في انتظارنا قطار خاص لنكمل به الجولة باتجاه الغرب. كانت كلافيس موقعاً آخر لتدريب الجيش. ولذلك أمضينا زهاء الساعة في نادي الضباط قبل أن نصعد إلى سيارة «البولمان».

وصلنا إلى مدينة «وليَم» في ولاية «أريزونا» بعد وقت الفطور مباشرة، وتوجهنا من هناك إلى «غراند كينيون» التي تبعد زهاء ستين ميلاً. كانت الخضرة ظاهرة على امتداد الطريق، وقد ضمّت مختلف أنواع الأشجار والنباتات، وحفلت بمختلف أصناف الحيوانات والطيور؛ بما فيها غزلان جبال «الروكي» ذوات الآذان الطويلة، وبعض الظباء وغيرها. ولم تكن الهوة القائمة بين جبلين، أقل إثارة مما كانت عليه حين شاهدناها بدهشة، أنا وزوجتي، قبل عشرين سنة مضت.

فقد كان فريقنا يسير على امتداد حافة جنوبية ذات ظاهرة جميلة

وغريبة في سعتها، إذ يبلغ طولها مائتي ميل، وعُمقها ميل واحد، وعرضها عشرة أميال. وقد ذُكر لنا أن ما يزيد على نصف مليون من الناس يزورون «كينيون» هذه كل سنة.

استغرقت رحلتنا إلى «كينغمان» ثلاث ساعات، وبعد أن تناولنا الفطور مُبكرين، واصلنا مسيرتنا التي قطعنا فيها سبعين ميلاً إلى سد «بولدر»، وهو أعلى سد قائم من نوعه، يقوم بامتداد طريق مشقوق خلال واحدة من أعظم المناطق الصخرية في العالَم. وكانت تهيمن على هذه المنطقة الطبيعية بحيرة «ميد»، والتي تبلغ مساحتها مائة وخمسين ألف فدّان، وهي أكبر بحيرة اصطناعية تم صنعها.

أما بناء السدّ ذاته، والذي يحيط بنهر كولورادو عند النهاية الواطئة لـ «غراند كينيون» فقد كلّف أكثر من ثلاثمائة مليون دولار. وكان الغرض من بناء سد بولدر هو تأمين الحماية من الفيضان لمنطقة مساحتها نصف مليون فدّان، وتوفير الماء إلى ذلك المستوى أثناء فترات الجفاف. وكانت محطة القوة الكهربائية المائية التي أُقيمت على السد أكبر محطة من نوعها في العالم، وقد خصّصت القوة الكهربائية التي تولّدها، ومقدارها ستة ملايين ونصف مليون كيلو واط في الساعة، لإدارة عشر من المنشآت الصناعية. وقد أصبحت هذه القوة جدّ مربحة إلى درجة أن كلفة بناء السد يمكن تسديدها كلّها من ثمن هذه القوة في مدى خمسين سنة.

اعتاد الوصيّ عبد الإله أن يحصل على توقعّات فلكيّة من مختلف الأنواع، لكن خامره نوع من الشك عندما قيل له؛ أنّ الماء الذي يحتجزه السد يمكن أن يوزّع على كل البشر بمعدّل نصف غالون لكل فرد كل يوم، وأن هذا التجهيز يمكن أن يدوم مدة ثماني وعشرين سنة!

تحرّكنا من هناك إلى «لاس فيجاس» بالسيارة، وسرعان ما وصلنا إلى فندق «الرانشو فيجاس»، والذي كانت طاحونته الهوائية السامقة تُرى ظاهرة للعيان من بُعد أميال عديدة. وهنا أُنعم على الوصيّ بلقب نائب رئيس كونتيّة «كلير»، وقام الشريف «غلين جونز» بتثبيت نجمة النائب على صدر

الأمير عبد الإله، وأخبره بأن لديـه الآن سلطة اعتقال أي مشـاكس في الولايات المتحدة الأمريكية. أما نائبه فقد كان شخصية أريبة مهندمة، يضع على رأسه قبّعة من طراز «ستيتسون»، ويتمنطق بمسدس، ويضع على ردائه شارة الدائرة، وبين فكيّه سيكار غير مشتعل، لكنه كان يمضغه ويستبدله حين يترطب ويفقد طعمه. وهو لا يظهر إطلاقاً إلّا وهذا السيكار في فمه.

أُقيمت حفلة عشاء فاخرة في أعقاب تجوالنا في صالات لعب القمار، وفي قاعة عرض من الدرجة الأولى. وفي إثر ذلك أقبل عدد من نجوم السينما الذين كانوا يقضون العطلة في «لاس فيجاس»، على الأمير عبد الإله وحاشيته. وكان من بين هؤلاء النجوم الممثلة «كارول لاندِس» النشطة اللعوب، المحبوبة التي كان يبدو عليها قبلاً وكأنهـا وضعت العالم بين يديها. أما الآن، وبعد سنوات قلائل فيما بعد، فقد اتخذت لها نمطها الخاص في الحياة.

كان الفندق يتألف من طابق واحد، له طاحونة هوائية عالية تُشاهد من على بُعد أميال عديدة، وقد اشتُهر بأنه أجمل فندق يضّمه الجزء الغربي من الولايات المتحدة الأمريكية. وكانت منطقة «لاس فيجاس» في الواقـع، واحة ارتبط رخاؤهـا بالاستثمـار الفطري لمصنـع المغنيسيوم الهـائل في «نيفادا».

أعقبت استراحتنا القصيرة في لاس فيجاس، سفرة ممتعة بالقطار إلى منابع نهر كولورادو، استغرقت أقل من أربعين ساعة. كان طريقنا خلال مدينة «سالت ليك ـ بحيرة الملـح» يجتاز أراضي خالية شاسعة من صحاري «نيفادا» و«أوتّاه»، وقد أعاد بي الذكرى إلى سفرة بالقطار لعدة مئات من الأميال فوق صحراء بدا أن لا نهاية لها، كنا قد قمنا بها أنا وزوجتي «إلـزي»، من لوس أنجلوس إلى نيـويورك، حيث تـوجـد ذات التـلال الحمراء، والسهول الواسعة من الرمال ، والأشجار التي ذكّرتنا بعاصمة العراق التي تمثّلها لوحة في إحدى المحطات تحمل اسم «بغداد».

ونظراً لإصابته بالزكام، فلم يستطع الأمير عبد الإله أن يمضي سوى

ساعات قلائلٍ في مدينة «كنساس»، حيث كان مقرّراً القيام برحلة لمدة يومين إلى كل من مدينتي: «لنكولن» و «نبراسكا».

وقبل أن نغادر «لنكولن» سألتُ مدير الزراعة فيها عما إذا كان يتلطف فيسمح لي بالحصول على بذور بعض الأشجار التي شاهدناها في «نبراسكا». وقد تقاسمنا أنا والأمير عبد الإله هذه البذور، فزرعتُ بعض ما أصابني منها في حديقة بيتي، بينما سلّمتُ البقية إلى مدير الزراعة في بغداد. ومن دونِ تَروٍ زرعتُ بذوري في أرضٍ مُشجرة؛ فكانت غذاءً شهيّاً للأرانب، ولذلك فلم تعش منها سوى شجرةٍ واحدة.

قمنا بسفرة ليلية بالقطار إلى شيكاغو، فأمضينا أربعة أيام في فندق «ستيفنز»، الذي أعاد إلى ذهني ذكريات سعيدة عن مكوثنا القصير فيه، أنا وزوجتي إلزي، أثناء جولتنا حول العالم.

وفي صباح آخر يوم من بقائنا في الولايات المتحدة الأمريكية، وإذ كان الوصيّ يقوم بشراء بعض الحاجيات من مخزن «مارشال فيلد الكبير» وشركاه؛ استطعتُ أن أنفق بضع ساعات في متحف التاريخ الطبيعي في شيكاغو. أما مخزن «مارشال فيلد» فقد أصبح يُدعى الآن باسم: «مخزن شيكاغو».

لقد مضت الآن عشرون سنة كاملة تماماً منذ وجدتُ نفسي في هذه المؤسسة العجيبة حقاً، والتي كان يديرها «هنري فيلد» في سنة ١٩٢٥. ولقد جاء هنري فيلد إلى العراق يصحبه «ستيفن لانغدون» مدير متحف بعثة جامعة أوكسفورد[١٠] للتنقيب في «كيش»، التي كانت عاصمة العالَم في وقتٍ من الأوقات[١١]، ولقد قام هنري فيلد بجولات عديدة متوالية

(١٠) ستيفن هربرت لانغدون (١٨٦٩ - ١٩٣٧ م) عالم إنكليزي متخصص بالمسماريات، وقد ترأس البعثة الآثارية البريطانية الأمريكية المشتركة التي نقبت في مدينة «كيش» و «جمدة نصر» خلال الفترة ١٩٢٣ - ١٩٣٣.

(١١) كيش: وتعرف باسم «الأحيمر» وهي مدينة سومرية ومقر عدة سلالات حاكمة. تقع إلى الشمال الشرقي من مدينة بابل. نقب فيها لأول مرة العالم الفرنسي جنيوياك سنة ١٩١٢.

خُصّصت للبحوث الأنثروبولوجية، حيث توثقت الصلة فيما بيننا منذ زيارته الأولى للعراق.

لقد كنت آمل أن أراه في شيكاغو، لكنه كان آنذاك في فلوريدا منهمكاً كل الانهماك في تدوين سيرته الذاتية البهيجة التي أصدرها بعنوان: «أثر الإنسان».

قمنا بعد الظهر بزيارة المعهد الشرقي للجامعة، والذي أُسِّسَ سنة ١٩١٩ بمنحة من «جون روكفلر» الأصغر. كما قمنا بزيارة معهد الفن في شيكاغو، والذي شاهدنا فيه مجموعة شاملة لا تنافسها مجموعة أخرى تشتمل على عدة قرون. ويفخر هذا المعهد بأنه أكبر مدرسة للفن في العالَم، ويزيد عدد الطلابِ فيه عن خمسة آلاف طالب وطالبة. وقد كرس هذا المعهد بصفة مطلقة للحضارة القديمة في الشرق الأوسط، والتي تضم أكثر من اثنتين وأربعين ألف مادة.

وعندما كنت في هذا المعهد، استأذنتُ من الأمير عبد الإله لكي أُلبّي دعوة وديّة من الدكتور «باكمبير» مدير جامعة الطب، وذلك بقصد زيارة المدرسة الطبيّة والمستشفيات التعليمية الملحقة بها، وهي زيارة وجدتها عظيمة الأهمية وتستحق التقدير الواسع.

كانت الشقة التي احتلّها الوصيّ في الفندق تقوم على جانب واحد من مربّع الزوايا. وعندما غادرها أشار الضابط الموكل بالحراسة إلى الغرفة المقابلة، فشاهدنا فيها شخصين عاريين تماماً مضطجعين على سرير، وقد غابا في غمرة عناق مشوّق، دون أن يدركا جليّاً بأن ستائر غرفتهما كانت مفتوحة، وأنهما كانا فرجةً للناظرين.

كان مثل هذا العرض الفاضح يُعتبر خرقاً للقانون، ولذلك تم إرسال ضابط من رتبة صغيرة للتأكد من هوية الشخصين العاريين المتعانقين. وما أن قمتُ بتقديم هدايا، نيابة عن الأمير عبد الإله، إلى رجال الحرس وإلى السائقين، وإدارة الفندق؛ حتى عاد ذلك الضابط بإسمَي الشخصين العاريين وعنوانهما.

كان الرجل أحد ضباط الجيش الأمريكي. أما رفيقته فهي إحدى العاهرات العاديات. وقد احتجّ اللواء «أوليفر» بأن مثل هذا التصرّف من جانب أحد ضباط الجيش أمرٌ لا يستحق التفكير فيه، وكانت تلك هي نهاية القصة بالنسبة لنا، خلا ملاحظة أبداها الأمير عبد الإله حين قال له: «إننا لم نستنكر، في الواقع، أي شيء مما وقع عليه بصرنا في هذه الجولة السخيّة التي لا يمكن أن تُنسى أبداً».

ولقد عبّر عبد الإله عن ذات المشاعر في البرقية التي بعث بها إلى الرئيس ترومان، والتي عهد إليّ صياغتها نيابةً عنه، قبل أن نغادر الولايات المتحدة الأمريكية، وقد جاء فيها ما يلي: -

«أبعث إليكم - وأنا أغادر الولايات المتحدة في نهاية سفرة لا تُنسى - وإلى شعب هذا البلد العظيم، أخلص تمنّياتي، وأثمن شكراني للحفاوة المفرطة التي تمتّعت بها، وللطف والود العميقين اللذين قوبلتُ بهما، في كل مكان.

لقد كان الامتياز الذي حظيتُ به، أنني استطعت أن أجوب ولايات كثيرة، وأن ألتقي بالكثيرين من ممثلي أنماط عديدة من حياتكم القومية.

لقد تأثّرتُ تأثراً بالغاً بكل شيء رأيته، بعظمة مجهود أمريكا الحربي، وبمواردها التي لا تُحَدّ، وبسعة تطورها الصناعي والاقتصادي والتعليمي.

إنه ليسعدني أن أؤمن بأنّ الزيارة قد أكّدَتْ تقييم مثالياتنا المشتركة، وأنّ أملي المخلص جداً، هو أن روابط الصداقة التي توحّد بيننا بسعادة في الوقت الحاضر، سوف تتعاظم قوّتها بمرور الزمن».

* * *

لم يسمح الفراغ الذي توفّر لديّ أن أُوفي الاستقبال الذي لقيه عبد الإله في الولايات المتحدة الأمريكية، حقّه. ومع ذلك فهناك عدة حوادث لم تُدوّن هنا مُفصّلة، وإن كانت لا تُنسى، وهي ذات أهمية كبيرة تتطلب الإشارة إليها على أقل تقدير.

لقد كان من بين هذه الحوادث، زيارة قبر الرئيس الراحل فرانكلين روزفلت، وتلبية دعوة السيدة تيودور، روزفلت في خليج «أويستر»، وتمضية فترة الصباح في «مـونت فيرنـون» منزل جـورج واشنطن، وزيـارة مقبرة «أرلنغتون» القومية، وتمضية يوم في الأكاديمية البحرية في «أنّا بوليس»، وكذلك القيام بزيارة «الكابيتول»[١٢] والمحكمة العليّا، والقيام بجولة في ساحة نيويورك البحرية في «بروكلين»، والتفرّج على شـلاّلات نياغـارا، وتمضية فترة الصباح في جامعة «برنستون»، وقضاء يوم في حظيرة تربية الخيول العائدة للمستر «فان فليت» قرب دنفر، ومشاهدة عرض للجيـاد العربية، وإنفاق يوم في المزرعة النموذجية التي يمتلكها المستر شيمـي ماكورميك في مدينة «ويتون» بولاية «أللّينويس».

(١٢) الكابيتول: هو بناية مجلس النواب، أو «البرلمان الأمريكي».

الفصل الخامس عشر

جولة الوصي عبد الإله في كندا وايطاليا وأوروبا وتركيا

انتهت جولة عبد الإله في الولايات المتحدة الأمريكية في ليلة الأربعاء السابع والعشرين من شهر حزيران (يونيو) سنة ١٩٤٥. كان القطار الذي يقلّنا قد تحرّك من واشنطن في الساعة الثامنة مساء. وقد وصلنا إلى مقاطعة «تورنتو»، وحاضرتها «أونتاريو»، وقت تناول الفطور من صباح اليوم التالي.

وفي شيكاغو استأذن علي جودت الأيوبي، وأفراد مفرزة الجُند الأمريكيين، من عبد الإله في انتهاء مرافقتهم لنا. وطبقاً لذلك هبط عدد أفراد حاشية عبد الإله، والذين استُثنيَ منهم ثلاثة من أعضاء الحرس الخاص من العراقيين، إلى أربعة أفراد؛ هم: نوري السعيد، داوود الحيدري، وعُبيد المضايفي، وأنا.

لقد كنت أحاول أن تُدرج زيارة كندا ضمن الجولة في الولايات المتحدة الأمريكية. وقد برهنت الأمور على حُسن توقيتها. ذلك لأن عبد الإله كان قد وصل ـ كما حدث ذلك قبلاً ـ في نهاية منهاج زيارته لأمريكا، إلى إنكلترا وهو في طريق عودته إلى العراق، وكان يحمل ودّه العميق لبريطانيا العظمى ولامبراطوريتها، وإعجابه الشديد بمؤسساتها، وطريقة الحياة فيها بصفة لا تبارى، بل ومؤكدة في الواقع، كما أعتقد ذلك.

كان نائب الحاكم العام لكندا ينتظر وصول عبد الإله في أونتاريو، وبعد يومين كان كلٌ من: الحاكم العام «الإيرل أثلون» ورئيس الوزراء

«مكنزي كنغ» عند منصّة التحيّة، وهما ينتظران وصول عبد الإله إلى «أوتّاوا». كان كل فرد من أعضاء فريقنا قد التقى بالحاكم العام، وبالأميرة «أليس» زوجته، وذلك أثناء مرورهما ببغداد وهما في طريقهما إلى طهران لحضور حفلة عقد قران شاه إيران الحالي.

وعندما وصلنا إلى «قاعة ريدو»، وهي منزل الحاكم العام، تقدّمت، الأميرة أليس فحيّت عبد الإله وأفراد حاشيته بلطف، وكأنهم من الأصدقاء القدامى. كان الإيرل أثلون ممن كانوا يتطبّبون عندي أثناء وجوده في العراق، وإشارة إلى الوقائع، كان يمزح معي حول عدم استساغة مهنة الطب التي احترفتها.

كان يُشار إلى كندا دوماً بأنها مملكة «مكنزي كنغ». وكان مكنزي كنغ نفسهُ يبتهج تماماً بهذه التسمية. ذلك لأنه تحمّل شخصياً مشقّة كبيرة كيما يوفّر لعبد الإله إقامة مريحة ومقبولة في هذه المملكة التابعة لبريطانيا. وكنت اصر على الحاجة إلى هذا الأمر لأن دلائل التعب البدني والذهني كانت جد واضحة بالنسبة لي، وذلك عندما أوشكت جولة الأسابيع الستة الصارمة في الولايات المتحدة أن تنتهي.

كان رئيس الوزراء مكنزي كنغ نفسه، هو دليلنا في صباح اليوم التالي الذي أمضيناه داخل المؤسسات البرلمانية. والحق يقال: أنه كان دليلاً ممتعاً جداً، يحتفظ بسيل لا ينضب من الحكايات المدهشة. وإنني لأتذكّر أطرف تلك الحكايات، ومؤدّاها أن رجلاً كان في حاجة إلى بذلة الصباح لغرض حضور حفلة رسمية، ولذلك راح يتطلّع إلى شراء بذلة وقُبّعة من أحد الحوانيت التي تبيع الملابس المستعمَلة وحين اشترى لوازمه تلك، وفتحها في البيت، وجد القبعة معثوثة، وإذ ذاك عاد إلى الحانوت وطلب استبدالها. وعندئذ بادره صاحب المخزن متسائلاً: «ما هو الثمن الذي دفعته في القُبّعة؟». فرَدّ عليه الرجل: «دولار واحد!» وكان جواب البائع على ذلك قوله: «حسناً! وما الذي تتوقعه بالنسبة للأرانب؟ أهي طيور مغرّدة؟».

أقام المستر مكنزي كنغ في تلك الليلة حفلة عشاء رسمية على شرف عبد الإله، في النادي الملكي في «أوتّاوا». وقد رحّب بالضيف بخطاب رائع. ومع أنّ عبد الإله كان قد زُوّد بخطاب استعداداً للرد على خطاب المستر كنغ، إلاّ أنه تجاهله واعتذر لنفسه بالتوعك المعتاد لصحّته.

مضى اليوم التالي، وهو يوم الأحد الأول من شهر تموز (يوليو)، بهدوء تام جداً. ففي الصباح رافق الإيرل أثلون ضيوفه في سيارة لمشاهدة المناظر البديعة عند النهر، واتجه في طريق العودة نحو «ستورناواي» المقر المتواضع المؤقت للأميرة «جوليانا»[1]، التي كانت قد وصلت في اليوم السابق على ظهر السفينة «الملكة ماري»، بعد زيارتها الأولى لهولندا منذ توقّف القتال في أوروبا، وقد عادت إلى هنا لتودّع كندا، ولتأخذ معها بناتها الثلاث. وكانت اثنتان من هذه البنات هما: «بياتريس وإيرين» معها في كندا منذ اندلاع الحرب، في حين وُلدت البنت الثالثة «مرغريت» في «أوتّاوا» في أوائل سنة ١٩٤٣.

توجّهنا من أوتّاوا ترافقنا ثلّة من الحرس تركب الدرّاجات البخارية إلى مونتريال، حيث استمتعنا بالالتقاء مع علية القوم، وكبار رجال الصناعة في كندا، لأن مونتريال هي عاصمة كندا التجارية والمالية، وهي عبارة عن جزيرة كبيرة في ولاية «كويبك». ولقد كان من بين مشاهد الترحيب بهذه الزيارة، أن مُنح عبد الإله درجة شرف فخرية من جامعة «ماك غيل».

سافرنا إلى كويبك بسيارة تُقطر على سكة الحديد. وقوبلنا عند وصولنا من لدن نائب الحاكم العام هناك أمير اللواء السر «يوجين فيزت»، وهو زميل سابق في الطب، ورجل متأنق في طعامه وشرابه. ومن هناك توجّهنا إلى «سبنسر وود» وهي المقر الرسمي لنائب الحاكم، والتي تُشرف على نهر سانت لورنس. ومع أن مكوثنا في كويبك كان وجيزاً، إذ إنه لم يزد على يوم ونصف اليوم، إلاّ أنه برهن على حدوث تغيير مُسِرّ، واستراحة

(١) ولية عهد ملكة هولندا. وقد خلفت والدتها على عرش هولندا بعد أن اندحر هتلر وتحررت الأقطار التي احتلها أثناء الحرب العالمية الثانية.

مناسبة بالنظر إلى الأسابيع الأخيرة التي احتشدت فيها المشاهد الدراميّة البهيجة.

كان الطيران من مونتريال إلى «نورثولت»، يمثّل المرحلة الأولى في طريق العودة إلى بغداد. فلقد أنفقنا اليوم التالي في «ملكة المدن»، لتعقبها ثلاث مراحل أخرى، هي: السفر بسيارة عبر أقطار أوروبا التي بعثَرَتها الحروب، فرحلة بحرية من نابولي إلى اسطنبول على ظهر الباخرة «أجاكس»،ومن ثم القيام بزيارة رسمية لتركيا؛ تُختم بالعودة جواً إلى بغداد.

كانت إقامة الوصيّ في مدينة لندن خاصة. وما عدا الانشغال بأمور ذات أهمية سياسية، كان عبد الإله حُراً في أن يتصرّف كما يشاء. أثارت أنباء اندحار تشرشل في الانتخابات العامة في بريطانيا دهشة بالغة لدى جماعتنا برمّتها، ولدى عبد الإله ونوري السعيد بشكلٍ خاص. وكانت المشاعر التي تردّد صداها في كل أنحاء العالم العربي تعرب عن انحطاط اعتبار بريطانيا. ولذلك بعث عبد الإله برسالة ملؤها الأسف العميق إلى تشرشل. وأقتبس هنا الردّ الذي بعث به تشرشل على تلك الرسالة، وهذا هو نصه: -

١٠ داوننغ ستريت،
وايتهول.
الخامس من آب (أغسطس) ١٩٤٥

صاحب السمو الملكي
الوصيّ على عرش العراق

سيّدي،

تسلّمت رسالة سموّكم المؤرخة في ٢٨ تموز (يوليو)، وإنني إذ أشكركم على عطفكم، أودّ أن أقول، كم أنا مسرور لأنّ العلاقات بين بلدينا كانت - أثناء إدارتي - وديّة. ولقد كنت أرغب أن لا تمنعني الشؤون العامة من الاتصال بسموّكم شخصياً أثناء زيارتكم لهذه البلاد، وسأظل الصديق المخلص لسموّكم.

ونستون تشرشل

لم يعتزم عبد الإله المكوث في لندن سوى أيام قلائل. غير أن

إمكانية العودة إلى العراق بالطريقة التي حُدّدت قبلاً قد أثارت فضوله ولا يمكن تجنّبها. ومهما يكن الأمر فإنّ ترتيبات العودة قد استنفدت وقتاً بالنظر إلى الدقّة التي لها أهميتها الكبرى، ولا سيما بالنسبة إلى السفرات الملكية. ولا حاجة إلى القول بأنّ التأخير كان من صالحي أنا، لأنه قد تهيأت لي فرص كثيرة لزيارة أهلي في منطقة «فوريست رو» في الوقت الذي أصرّ فيه عبد الإله على أن ترافقنا إلزي إلى أي مكان تستطيعه.

* * *

بدأت المرحلة التالية في العودة إلى العراق، في باكر صباح أحد الأيام من كلاريدج. وكانت قد سبقتنا شاحنتان تحملان ثلاثة من أفراد حرس عبد الإله، وكلبين للصيد من نوع «أبردين» لا يزيد عمر الواحد منهما عن ستة أسابيع، ولم يكونا قد تدرّبا بعد على السكن في البيت، بالإضافة إلى ما كان لنا من أمتعة.

كانت ترتيبات السفر التي أُعدّت في كلاريدج هيّنة جداً. غير أن الجروَين شرعا يُظهران بعض المشاكسة. ولما كنت أنا البريطاني الوحيد في الجماعة، فقد أصبحت أنا الواسطة في الإعراب عن عدم رضائهما.

سافرنا في سيارات اشتراها عبد الإله عندما كان في لندن، كانت منها سيارتان جديدتان من طراز «رولز رويس ليموزين»، وسيارة مستعمَلة من طراز «همبر سنايب». وكان يُراد تخصيص إحدى السيارتين الجديدتين لاستعمالها من قبَل والدة عبد الإله، والثانية لاستعماله الشخصي هو. أما الغرض من سيارة الهمبر سنايب، فهو إعدادها للاستعمال من لدن بعض أفراد العائلة المالكة.

رافقتنا حتى فولكستون سيارة جيب تحمل شرطة عسكرية مع ضابطَي شرطة على درّاجات بخارية. وكان عبد الإله نفسه يقود إحدى سيارات الليموزين بينما كان الدكتور الشريف حازم[٢] يقود السيارة الثانية.

---

(٢) من أفراد العائلة الشريفية، وقد تزوج من الأميرة «جليلة» فيما بعد.

سارت الرحلة من دون أدنى حادث. وبعد توقّف قصير في فندق فولكستون الكبير لتناول القهوة والشرائح، صعدنا إلى الباخرة التي تقطع القنال الإنكليزي إلى ميناء «كاليه» الفرنسي، كان جيرالد دي غوري[٣] قد انضم إلينا بعد انتهاء مكوثنا في لندن، ولما كان ملحقاً عسكرياً وصديقاً لعبد الإله، فقد تقرر أن يرافقه في رحلته هذه عبر أوروبا. ومهما يكن الأمر فإنّ عبد الإله قد طلب إلى هذا الملحق أثناء الطريق، أن يواصل سفره معنا إلى بغداد، ولذلك سُررنا بمرافقة هذا الرفيق المؤدّب فيما تبقّى من رحلتنا.

كانت معظم أجزاء ميناء «كاليه» في حالة خراب. وكانت الوظيفة الباقية لهذا الميناء لا تزيد عن اتخاذها محطة لمرور القوات العسكرية التي كانت تصل إلى حدّ خمسة عشر ألف رجل. وقد التقى عبد الإله مع آمر المنطقة، وأفراد حاميته الذين رافقونا حتى وصولنا إلى باريس. واستضافنا آمر المنطقة نفسه لتناول طعام الغداء في نادي الضباط المريح، والموضوع تحت تصرّفه، والذي كان قبل الحرب مسكناً لأحد الأطباء المحليّين.

لم تصل الشاحنات التي كانت تنقل أمتعتنا إلى «كاليه» إلّا في وقتٍ متأخر بعد الظهر. ولذلك غادرنا الميناء في الوقت الذي أُسدل الظلام فيه.

كان دليلنا لا يعرف الطريق بعد حلول الظلام. وقد تطلّب وجود الجسور المخرّبة حدوث توقّف مستمر، وذلك لغرض الرجوع إلى الخرائط لمعرفة التبدلات التي حدثت في الطرق، وذلك إجراء اضطرّنا إلى أن نسلك عدة طرق مغلوطة. ولقد كان من المدهش حقاً أن استطعنا الوصول، في مثل هذه الظروف، إلى المكان الذي نقصده، وهو «فندق ريتز» في ـ پلاس فاندوم ـ بعد الساعة الثانية صباحاً.

---

(٣) من ضباط الاستخبارات البريطانية، جاء مع الجيش البريطاني أثناء الحرب العالمية الأولى، ومكث في العراق أكثر من أربعين سنة، وأصدر في سنة ١٩٦١ كتاباً بعنوان: «ثلاثة ملوك في بغداد Three Kings in Baghdad» ترجمناه واعددناه للنشر وسيصدر قريباً.

كان طريقنا يمرّ عبر مدن؛ بولون، وأبيفيل، وبوفيه المخرّبة، وكان واضحاً أننا عندما كنا نسافر من الساحل إلى الداخل، كنا نرى، أنْ آثار الدمار الواسع قد أخذت تتناقص بشكل ملموس.

فَقَدَ «فندق ريتز» البهاء الذي كان يتمتع به قبل الحرب. ولذلك فلم يكن من حقنا أن نتذمر، بالنظر إلى الأحوال الراهنة، من وسائل الراحة المتوافرة فيه. كانت الرثّة ظاهرة فيه، وكانت الإضاءة ضعيفة، ولا يتوافر الحمّام إلاّ مرتين في الأسبوع؛ في يومي الأحد والخميس. ولكن بفضل الدكتور حازم الذي اعتاد الإقامة في باريس عادةً، استطعنا أن نستبدل كل باون انكليزي بأربعمائة فرنك فرنسي في السوق السوداء، وهذا يعادل ضعف التحويل الرسمي تماماً.

كانت الشمس قد ارتفعت في كبد السماء حين استيقظنا من نومنا. ولما كان ذلك اليوم هو يوم الأحد، وأن الحمّام متوافر، فقد حلّ وقت الغداء قبل أن يكون أحدنا قد التقى بالآخر. كان يوماً مجيداً حقاً. فبعد وجبة طعام بسيطة قُدّمَتْ على ثلاث مراحل، تمشّينا أنا وعبد الإله على مهل حتى نهاية شارع «الشانزليزيه»، وفي داخل شارع «ريفولي»؛ حيث شاهدنا حفلاً أُقيم لتكريم الجنود والمدنيين الذين فَقدوا أرواحهم في ذلك الموقع، وفي ذات التاريخ من السنة الماضية أثناء تحرير باريس.

ما كدنا نعود إلى الفندق حتى أقبل علينا وزير الخارجية الفرنسية والسفير التركي، ثم جاء في أعقابهما مباشرةً المندوب السامي الفرنسي في سوريا، والذي اغتاظ لأنه اضطرّ إلى الانتظار بعد أن تناول معي ومع داوود الحيدري شراباً بارداً في حديقة الفندق، ومن ثم ودّعنا وانصرف.

* * *

غادرنا باريس إلى مدينة «ليون» بعد وقت الفطور من اليوم التالي؛ ترافقنا ثلّة من ضباط الأمن الفرنسيين، وسيارة جيب تحمل شرطة عسكرية كان عليها أن تصحبنا حتى وصولنا إلى مدينة «البندقية».

استغرقت الرحلة زهاء اثنتي عشرة ساعة لكنها كانت بهيجة. وقد أصرّ عبد الإله على الراكبين في سيارته أن يغيّروا مقاعدهم من وقتٍ لآخر، وذلك ـ كما قال لي بالحرف الواحد ـ كيلا يحدث أي ملل أو غيرة لديهم!

كانت مدينة «ليون» ذات منظر كئيب. فلقد دمّرتها الحرب، ولم تكن فيها سوى فنادق قليلة قد فتحت أبوابها، وكان من بينها الفندق الذي كنا نقصده، وهو فندق «رويّال»، الذي لم يفتح أبوابه إلاّ قبل أيام قلائل ليس إلاّ.

عند وصولنا إلى الفندق تقدّم بالتحيّة إلى عبد الإله، المستر «روبرت بار» القنصل البريطاني العام. وقد اعتذر عن ضعف وسائل الراحة في الفندق، لكنه أكّد لعبد الإله أن هذا الفندق أفضل مما هو متوافر من الفنادق في المدينة. وقد تناولنا مع المستر «بار» طعام العشاء في مطعم كبير، كانت الأجور فيه ضئيلة إذا ما قورنت بأجور المطعم الذي استمتعنا قبلاً فيه في «أفالون».

كان المستر «بار» والذي حصل على لقب «سر» مؤخراً، يتحدث ببطء وبقليل من الفخامة بشكل غير اعتيادي. لكنّه كان رقيقاً جداً ومضيفاً معتبراً. كانت له لحية مقرمة، وكان يتناول السعوط من عُلبةٍ فضيّة. ولم يكن في ذلك الفندق شيء ما يدلل عليه سوى الاسم. فقد كان كالح اللون، وكانت الخدمة فيه صورية، والنور كليلاً. وقد قيل لنا أن ضبّاط الأركان الألمان كانوا يقيمون فيه. ولكن بعد أن انقضت سنة كاملة على تحرير باريس، كان من المدهش على الأقل أن يظل مثل هذا الفندق الرئيس مُهْمَلاً طوال هذه المدة. ولا حاجة بنا إلى أن نقول بأن أفخم طاقم من الغرف قد خُصِّصَ للضيف الملكي، غير أن هذه الغرف وإن كانت واسعة وتشير إلى الأناقة التي كانت تتمتع بها قبل الحرب، إلاّ أنها غدت الآن مغبرة ووسخة وفقيرة بالأثاث. أما بقية الغرف فقد امتلأت بالأدوات المحطّمة، وقد فُرِشتْ قاعة غرفتي بسجّاد أحمر باهت اللون، تكثر فيه الخروق، في حين كان أثاثها قليلاً خالياً من الذوق.

ولم يكن في الفندق ماء متداور بل أوعية متنقلة اشتملت على مغسلة مُثبتة على حامل خشبي متأرجح، وحوض اغتسال هو عبارة عن وعاء معدني مليء إلى نصفه بماء بارد. أما بالسنبة إلى داوود الحيدري فقد كانت حوائج غرفته قذرة، كريهة وقرفة. ولقد حاولتُ عبثاً أن أريح الباشا المتقزّز، وذلك بأن أخبرته بأننا سوف لا ندفع عنها ثمناً.

كانت الليلة خانقة بسبب احتباس الهواء ورطوبته. وكانت غُرفنا مأوى للحشرات التي تمصّ الدم والبق. وكانت الاسِرَّةُ التي ننام عليها مزعجة.، وعند تناول الفطور راح داوود الحيدري، وهو زير نساء محترف، يتشكى بمرارة بأنه لم يغمض له جفن طوال الليل، وأخذ يلقي معظم اللوم في ذلك على البعوض. وحتى التأكيدات التي أبديتها له في أنّ البعوض الماصّة للدم هي من نوع السيدات، وأنّ الذكور منها هي من أكلَة النبات، حتى هذه التأكيدات لم تهوّن الأمر عليه. لقد كان نومنا كُلّنا نوماً تعساً، ولما كنت قد استطعت أن أُشخص بأنّ البعوض ليست من نقلَة الملاريا وما شاكلها، فإنني لم أخشَ منها على الأقل.

غادرنا مدينة «ليون» في الحال بعد تناول فطور تافه. ولم يكن أي واحد منّا قد أسف لمغادرة هذه المدينة التي تُعَدّ ثالثة مدن فرنسا، والتي ما تزال جميلة وتُعتبر من أعظم المراكز لصناعة الحرير في العالم. ولقد سِرنا عبر «كان» في طريق مريح جداً إلى «ميلان»، وكان معظم سيرنا هذا عبر أرض خضراء من صنف عظيم. كانت المدن والقرى الساحلية التي تقع على الطريق إلى «جنوا» قد خُرِّبَتْ تخريباً واسعاً، نتيجة القصف الذي تعرّضت له من البر والبحر والجو. وقد دلّلت آثار الرصاص على جدران المدن عند الحدود الفرنسية، على شدة القتال الذي اندلع في الأحياء القريبة منها.

كان حرس الشرف الذي أعدّته حامية الحدود ينتظر وصول عبد الإله عندما دخلنا إلى مدينة «ميلان»، حيث أوصلَتنا ثلّة من السيارات المصفّحة إلى فندق «كونتينتال» الذي كان يخضع الآن للإشراف العسكري، لكنه فتح أبوابه للضيوف المدنيين. كانت الجدران الخارجية للفندق قد اخترقتها

القنابل، وأُصيبت البنايات المحيطة به بالمقذوفات. ذلك أنّ المدينة تعرّضت لقنابل ذات انفجار وتدمير هائلَين. وكانت قنابل التدمير هي التي سبّبت معظم التدمير الذي أصاب المدينة. وقد قيل لنا أن أكثر من أربعين في المائة من أثاث المنازل في المدينة قد التهمته النيران.

قرّرتُ أن أقوم بمشاهدة أُخرى للكاتدرائية الشهيرة في ميلان. لقد سبق لنا، أنا وإلزي، أن دُهشنا من جمال هذه الكاتدرائية حين تجوّلنا فيها أثناء إجازتنا التي تمتّعنا بها قبل نشوب الحرب الأخيرة. ذلك أن كاتدرائية ميلان، تُعَدّ - بعد كاتدرائية القديس بطرس في روما، وكاتدرائية أشبيلية في أسبانيا - من أعظم الكنائس في أوروبا. وهي تغطّي منطقة مساحتها زهاء أربع عشرة ألف ياردة مربّعة! وتتسع لأربعين ألف شخص.

كذلك استطعتُ أن أُشاهد للمرة الثانية صورة «العشاء الأخير» للرسّام الشهير «ليوناردو دافينشي»، والتي رسمها على جدران كنيسة الدومينكان السابقة المعروفة باسم «سانتا ماريا دل غراتسيا». وقد قيل لي إنّ الكنيسة أُعطبت نتيجة غارة جوية بريطانية، وأنّ الغارة أحدثت تدميراً في الصوَر، وقد حزنتُ لذلك. كنت وأنا في طريق العودة إلى الفندق لتناول طعام الفطور أُشاهد هياكل المنازل المدمّرة التي جلّلها سواد الحريق.

كانت اجراءات الأمن المتقنة قائمة على قدم وساق. ولقد عنفت لأنني كنت اسير في الخارج من دون حاشية. كان رجال الانضباط يحرسون المدخل إلى حاشية عبد الإله، وكذلك الممر الذي يمتد إلى الغرف التي يقيم فيها أفراد الفريق. ففي جولة في المدينة، كان راكبو السيارات، والسيارات المصفحة يحيطون بموكب السيارات. ولقد أثار الموكب اهتمام المشاهدين، غير أن هؤلاء لم تكن لديهم أية فكرة عن شخصية الزائر الملكي، ومع ذلك فقد كانت قلة منهم تصفق.

كانت النهاية الشائنة التي انتهى إليها «موسوليني» عندما أُعدم رمياً بالرصاص، وأُلقيَ بجثته في مجرى ماء، ومن ثم أُخرجَ وعُلّق من قدميه على أحد الجدران، وجُعل منه هدفاً لإطلاق الرصاص؛ كانت هذه النهاية

قد جعلت ـ كلاً من عبد الإله ونوري السعيد يتصوران بأنّ «الدوتشي» سوف يخلّده التاريخ كواحد من أعظم زعماء بلاده، لو أنه ركز اهتمامه في ميدان التطور القومي، وفي الصناعة، وفي استغلال الموارد الطبيعية، وبناء الطرق الخارجية وما شاكلها.

* * *

تحرّكنا بالسيارات من «ميلان» إلى بحيرة «كومو»، حيث تناولنا طعام الفطور في «فيلاّ فيسكونتي»، في قرية «تشرنو بوبّيو» المجاورة. كانت هذه الفيلاّ هي المقر الريفي للكونت فيسكونتي، وهو شخص متحدّر من عائلة إيطالية شهيرة كانت تحكم «ميلان» في وقت من الأوقات، وتزعم أن أحد أجدادها هو الملك «دزديريوس».

كان المنزل قد صودر لاستعماله دار استراحة لضباط الحلفاء، لكن خُصِّصَتْ منه سبع غرف للكونتيسة فيسكونتي لاستعمالها الخاص. كانت أراضٍ شاسعة تطل على البحيرة. وفي الناحية القصوى منها تقع «فيلاّ الشرق» التي اشتهرت كفندق قبل نشوب الحرب، وهي تُستعمل الآن دار استراحة للجنود الأمريكيين، بعد أن كان الألمان قد حولّوها إلى مستشفى عسكري.

نقشت كلمتان أو ثلاث باللاتينية على اسكفة من المرمر فوق كل واحد من الأعمدة الأربعة لغرفة الطعام، وهي تؤلف بمجموعها الجملة التالية: «والآن يجب أن يكون شرابنا احتفالاً. ذوب الثلج ولا تدع باقة الزهور تغيب عنك».

ومهما يكن الأمر فإني مدين إلى «ستيوارت بيرون» بهذه الترجمة خفيفة الروح التي تقول «دع «فلورا» و«باخوس» يشاركان في المأدبة. ولنكن متخدرين بالورود وزجاجات الشراب!».

كان يُتوقّع وصول المستر تشرشل إلى هناك، طلباً لاستراحة قصيرة، وذلك في نفس اليوم ليحلّ ضيفاً على المشير «ألكسندر» الذي كان يقيم في

فيلاّ مماثلة. غير أن زيارة تشرشل هذه كانت تنكّرية.

كانت علائم البشر ظاهرة على محُيا عبد الإله. وبعد تناول وجبة غداء مُفرطة، دُعِيَتْ جماعتنا للقيام بجولة في قارب بخاري في البحيرة. ولقد أبى نوري السعيد أن يرافقنا في هذه الجولة. وعزا عبد الإله ضاحكاً، ذلك الرفض، إلى الغثيان الذي أصاب نوري السعيد من أن يكون مصيره مماثلاً للمصير الذي لقيه موسوليني رئيس ايطاليا.

يا لها من مصادفة غريبة ومحزنة حقاً، في أن يُقتل عبد الإله ونوري السعيد فيما بعد، بذات الطريقة الوحشية التي قُتل بها موسوليني.

كنا ونحن في الزورق البخاري عند الجزء الشمالي من البحيرة، نشاهد الفيلاّ الصغيرة ذات السقوف الحمراء، والجدران الصفراء، التي أمضى فيها موسوليني مع محظيته «كلارا بيتاشي» آخر ليلة من حياتها، حيث شُنقا في اليوم التالي أمام تلك الفيلاّ.

لقد ذُكر أنه تم اكتشاف موسوليني، الذي تنكّر في زي جندي ألماني، من قِبَل أفراد المقاومة الإيطالية، عندما كان في سيارة حمولة على مقربة من قرية «دونغو»، وذلك في صباح اليوم الذي شُنق فيه، وهو السابع والعشرين من شهر نيسان (أبريل) سنة ١٩٤٥.

وقد ذُكر لنا أيضاً أنّ «الدوتشي» مات ميتةً شُجاعة. فحين وصل رجال المقاومة إلى الفيلاّ، وأمروه هو وعشيقته بمغادرتها، قال لعشيقته المنتحبة المعولة: «لا تصرخي يا عزيزتي. كوني شجاعة!» وهكذا نُفِّذَ حُكم الإعدام فيهما بسرعة، وأعقبت ذلك أعمال التمثيل الوحشية في جثتيهما.

وصلنا إلى مدينة «البندقية» في أقلّ من عشر ساعات، مارّين بمدن برسشيا، وفيرونا، وفيتشنزا، وبادوا، وميستر، بالطبع، وذلك هو الطريق الذي يؤدي إلى البندقية. كانت كل الأبراج قد دمّرتها المعارك، ومع ذلك كان الريف يزهو بخضرته، وأشجاره، وثماره اليانعة.

قمنا في أول صباح لنا في البندقية بجولة فيها، فتفرّجنا على ساحة «بيازا» (ساحة سانت مارك) التي تشتهر ببناياتها الجميلة المتعدّدة، كما شاهدنا الكاتدرائية، وقصر «دوج»، و«اليريالتو» أي (جسر الآهات) وما شابه ذلك. وكان يصحبنا في جولتنا هذه أحد الأساتذة المحليّين الذي حدثنا عن تاريخ المدينة، وكنوزها الفنّية. ولكنه كان من المعجبين جداً برسم البندقية «تنتورتو».

كان من غير المعقول أن تخلو زيارة مدينة البندقية من مشاهدة معمل الزجاج. ولذلك أمضينا صباحاً ملائماً في الاطلاع على كثير من عمليات صنع الزجاج، وأُعجبنا بمنتجاته، وأضفنا إلى أمتعتنا المثقلة قبلاً، كميات إضافية من مشتريات لم نستطع التخلّي عنها.

كانت متعتنا البالغة حين قمنا ـ خلال ليلتين ـ بجولة في الجندول عبر القنال الكبير. وقد صحبنا في هذه الجولات موسيقيون ومُغنون كانت مهارتهم الفنيّة باهرة، إلى درجة أنّ الجموع قد احتشدت على ضفاف القنال، وراحت تهتف عالياً عند انتهاء كل مادّة من البرنامج.

طلب إليّ عبد الإله أن يزور، أثناء العطلة، أصنافاً أُخرى من القوم في فندق «إكسلسيور». وقد صحبته في هذه الزيارة التي تأثّر فيها بحرارة الاستقبال الذي استُقبل به. كما أننا ذهبنا إلى لقاء آخر أعد للقوات المسلحة في مقهى كان قد كمل بناؤها قبل اندلاع نيران الحرب بمدة قليلة، حيث تتصدّر زينتها الآن صورة تشرشل، كذلك قمنا بزيارة قصيرة إلى نادي روزفلت! وهو المكان المفضّل لدى قوات الحلفاء والأصناف الأخرى من الناس، الذين تجتذبهم إليه الوسائل الترفيهية الاستثنائية التي تتوافر فيه.

كانت الفيلاّ العائدة إلى «دوق جنوا» على القنال الكبير قد استُعملت مقراً للقيادة الحليفة. ولذلك دُعي عبد الإله وأفراد حاشيته إلى حضور وليمة عشاء راقصة في ذلك المبنى الرفيع. كان من بين الضيوف طائفة من ممثلات الطبقة الارستقراطية في المدينة وفي المناطق المحيطة بها. وكانت

كل واحدة من هؤلاء تحمل لقب «كونتيسة». ويبدو أن هذا اللقب قد أُطلق على سيدات عديدات، إما عن طريق النسب، أو عن طريـق الزواج؛ سواء كان ذلك باستحقاق أو مجاملة.

كان من بين السيدات الكونتيسة «فولبي»، والتي كانت تُسمّى قبلاً، بالأميرة «رسبولي»، وهي سيدة تتصف بفتنة فريدة، ومن الشخصيات البارزة في المجتمع البُندقي.

كانت «فريا ستارك» من بين الذين حضروا تلك الوليمة. وما أن سمعت الكونتيسة فولبي بأننا سوف نمضي اليوم التالي مع فريا ستارك في منزلها في قرية «أسولو»، وأننا سوف نمرّ بالقرب من الفيلاّ التي تقطنها، حتى اقترحت علينا بأن نمضي فترة استراحة عندها أثناء الطريق.

كانت الكونتيسّات قد تضرّرن من الدَّوْرِ الشـائن الذي لعبـه ملك إيطاليا «فكتور عمانوئيل». وطبقاً لما أوردنه، كانت إيطاليا مسرحاً للقلق والإضطراب وأنّ هناك أملاً كبيراً في أن تمكث قوات الحلفاء في البلاد إلى أن يزول الخطر الذي يتهددها من وقوع انقلاب موحى به من الشيوعيين.

توقفنا، ونحن في طريقنا إلى أسولو، في «كازا دي ميزر»، وهـو المنزل الريفي العائد للكونتيسة فولبي، والذي كان يُدعى في الأصل: فيلاّ «جياكومللي»، التي بناها المعماري الإيطالي الشهير «بلاّديو» قبل حوالي أربعمائة سنة. وإذ وصلنا إلى هناك تلّقى عبد الإله التحية من الكونتيسة التي اصطحبت إحدى صديقاتها ومعها ابنتها، وما لبثْ أربعة كلاب صيد من «يوركشاير» أن أخذت تنبح مُرَحِّبَةً هي الأخرى.

كان هذا المنزل قد بُنيَ لحساب «ماركانتونيو بربـارو» أحد نبـلاء البندقية، ومن أعضاء السلك الدبلوماسي، وقد تملّكته الكونتيسة «فولبي» إثر وفاة أبيها. وإذ كانت الأميرة «رسبولي» قد انفصلت عن زوجها؛ فإنها تعيش الآن في هذا المنزل بمفردها. واتذكر عبارة نقشت على المدفأة تقول «لا تحـرك النار بـالسيف». كان البيت يحتله الألمـان وقـد اختفي فيـه «غرازباني» وزير خارجية ايطاليا عند سقوطها. وعندما اخلاه الألمان اطلقوا

عيارات نارية على أبواب النوافذ كانت آثارها ظاهرة.

كان منتجع «فريا ستارك» البهيج، يقع في وسط قرية أسولو. وعلى مقربة منه يقع مصنع صغير للنسيج أنشأته والدة فريا ستارك بقصد تهيئة العمل للنساء الفقيرات في القرية. ولذلك فحين نشبت الحرب، سارع القرويون إلى نقل كل ما له قيمة في بيت فريا ستارك، واحتفظوا به في مكان أمين، إلى أن عادت إليه بعد أن سكتت أصوات المدافع. وفي هذا المنزل أَلَفتْ «فريا ستارك» معظم كُتبها. وكانت فيلا الكونتيسة فولبي تبعد مسافة أربعة أميال وأكثر قليلاً وقد شاركت الجماعة في تناول الغداء.

* * *

أمضينا يوماً كاملاً في مدينة «فلورانس». كنا قد قطعنا القسم الأول من الرحلة عبر ريف متفتح، غنيّ بالخضرة، من حقول حبوب وأشجار. غير أن كل مدينة وكل قرية فيه، كانت تحمل آثاراً ظاهـرة من ويلات الحرب، وأنّ العدوّ قد دّمر ـ أثنـاء تراجعه ـ كل مـا كان مـوجوداً من الجسور، وكان أحد هذه الجسور يحمل شعاراً ملوّناً يقول: «استنفدَ هذا الجسر عند بنائه المزيد من الدماء، فعليك أن تراقب خطواتك فوقه».

تناولنا طعام الغداء في مزرعة من أشجار الصنوبر؛ كان العديد منها قد ذهب طعمة للنار، وعلى مقربة من المكان الذي توقفنا عنده مستودع حربي كبير. وفي الأخير واصلنا سيرنا عبر جبال «الأبنين»، وتوقفنا في نهاية مسيرة طويلة، فوق إحدى التلال المرتفعة لكي نريح بعض مكائن سياراتنا، قبل أن تنحدر من المرتفع.

كان منظر الطبيعة فخماً، فقد كانت الأرض مغطاة ببراعم أشجار «الأكاسيا» التي جمعتُ عدداً منها قدَّمته إلى مدير الزراعة بعد عودتنا إلى بغداد. وحين غادرتُ بغداد بعد ذلك بأشهر قلائل؛ لم أكن قد عرفتُ شيئاً عن مصير تلك البراعم. ولمـا عدت إلى انكلترا زرعت ما تبقى لدي منها في حديقتي فنمت وتعاظمت.

تعرّضت مدينة «بولونيا» لتدمير شديد. غير أن مدينـة «فلورانس»، كانت أسعد حظاً منها، وذلك نتيجة قرار القيادة الحليفة تجنيب هذه المدينة ويلات الحرب بكل وسيلة ممكنة.

ولقد تم تحريرها، ولكن مع ذلك قام الألمان، قبـل انسحابهم، بنسف كل الجسور القائمة على نهر «أرنو» باستثناء جسر واحد هو جسر «بونتيفتشيو» القديم، الذي قيل، إنّ تاريخ بنائه يعود إلى عهد الرومان، ومع هذا فقد دُمرّت الممرات التي تصل إلى هذا الجسر، وخُرّبت مئات المنازل التي تقوم على ضفة النهر تخريباً وحشياً شاملاً.

* * *

مررنا أثناء طريقنا إلى «روما» بالعديد من آثار الحرب وشواهدها، ولا سيما على مقربة من «فيتّربو» حيث شاهدنا العديد من السيارات والدبابات والطائرات الألمانيه المعطوبة. كانت أسره «مديتشي» تمثل التجار القدامى في فلورنس، ومن أكبر مقرضي النقود في الوقت ذاته. وكانت قلائد سـاعة أفراد هذه الأسرة تشتمل على ثلاث كرات ذهبية. والذي اعتقده أنه من هذه السمة شرع المرتهنون يختارون شعارهم. كان سيرنا نحو روما يجري على مهل؛ إذ استغرقت الرحلة سبع ساعات ونصف الساعة، وقد وصلنا إلى فندق «غراند» في وقتٍ مناسبٍ لتناول العشاء.

كنت قد أمضيت الرحلة كلّها بصحبة الأمير عبد الإله، وكان آنذاك منفتحاً، حيث بحثنا شؤون تطوير العراق، وفي مستقبله السياسي الذي لم يخفِ عبد الإله تشاؤمه منـه. ذلك لأنّ التـدخّل العسكـري في شؤون الحكومة، وتمرّد الأكراد، والحالة في فلسطين، كانت من الأمور التي تشغل باله إلى أقصى حد.

كان معظم مستشاري عبد الإله يحملون أفكاراً تنطوي على استعمال الشدّة. وكان عبد الإله يرحّب بتبادل الآراء مع الثقات الذين ليس لهم من غرض خاص يخدمونـه. وكانت المشـاكل الـوحيدة التي لم نَخُض في الحديث عنها، هي قضايا زواجه التي كانت تُعتبر من المسائل الشخصية

والعائلية الخاصة جداً. ومع ذلك فقد كنت من بين الذين اشتركوا في البداية اشتراكاً مباشراً في عملية طلاقه من زوجته الأولى «الأميرة ملك».

فبعد ظُهر أحد الأيام، اتصل بي «أوبري هولفورد» السكرتير الثاني في السفارة البريطانية هاتفياً ليسأل عن السبب الذي جعل الأميرة «ملك» تطلب الحصول على سمة بالسفر إلى مصر. فقد كان نوري السعيد هو الذي تقدّم بذلك الطلب، وبتكليف من عبد الإله.

كانت زوجتي إلزي تمضي الصيف مع الملك فيصل الثاني وسيدات العائلة المالكة، في القصر الملكي الصيفي في الجبال الكردية[٤]. ولذلك اتصلتُ بإلزي هاتفياً وأخبرتها بأنّ والد الأميرة «ملك» ليس في صحّة جيّدة، وأنه يريد أن يرى ابنته. والحقيقة أنّ الأميرة «ملك» كانت قد طُلّقَتْ دون أن تعلم. وحين وصلتْ إلى بغداد في اليوم التالي صحبها نوري السعيد في السفر إلى مصر، وقبل أن تصل الطائرة إلى القاهرة سلّم إليها كتاب الطلاق المعتاد.

لم أحاول أن أُثير هذا الموضوع، كما أنني لا أعتقد بأنّ الملكة «نفيسة» قد رضيتْ عن هذه الفتاة الجميلة المرحة اليافعة السافرة إلى أن تم زواجها، كذلك لستُ أعلم ما إذا كانت الملكة نفيسة قد أرادت طلاق تلك الأميرة من ابنها لهذا السبب، أو نتيجةً لتصرّفاتها الصبيانيّة. على أنّ الأميرة «ملك» ما لبثت بعد طلاقها من عبد الإله، أن تزوجت من أحد ضباط الجيش المصري، وأنجبتْ له الأولاد.

بعد مرور فترة قصيرة على طلاق الأميرة ملك، صحبتُ عبد الإله في سفرة إلى بيت المقدس، وقد مكثنا هناك زهاء ثلاثة أو أربعة أيام في فندق الملك داوود. كان من بين الضيوف في ذلك الفندق، الملكة «نازلي» أُم الملك فاروق. وفي إحدى الأمسيات، وإذ كنت مستلقياً في كرسي وأنا أُطالع، اقترب مني أحد المرافقين، وأخبرني بأن الملكة نازلي تَوَدّ أن

---

(٤) كان هذا القصر موجوداً في مصيف «سر سنك».

أتصل بها، وأن أتحدّث إليها عن بعض أخبار العائلة المالكة في العراق. كانت تجلس أمام طاولة على مقربة مني. وكانت جد لطيفة، وقد طرحت عَليّ المزيد من الأسئلة. وتأكد لديّ أثناء ذلك؛ أنّ توطيد علاقات الزواج بين البيتين المالكين في مصر والعراق مما تستبشر به وتبتهج.

لقد أفضيت طبعاً بذلك الحديث إلى عبد الإله، لكنه لم يبد سوى إهتمام ضئيل به، ولم يعلق عليه، ولم يبذل أي جهد للالتقاء بأم فاروق. ومع ذلك وعلى الرغم من عدم موافقة أمه فقد اختار عبد الإله مصرية أخرى تدعى «فوزية» كانت هي عروسه الثانية. وسرعان ما أصبح التناقض بينهما في المزاج واضحاً، وانتهى ذلك الزواج الذي لم ينجب طفلاً إلى الانفصال سريعاً.

أما الزوجة الثالثة والأخيرة التي تزوجها عبد الإله، وكانت على الأقل مقبولة من لدن العراقيين، فهي الآنسة «هيام» بنت أمير «ربيعة» أحد كبار الاقطاعيين، ومن رؤساء العشائر البارزين في العراق. ومع انها قد جرحت إلا أنها كانت الشخص الوحيد الذي بقي على قيد الحياة من العائلة المالكة في صبيحة الرابع عشر من تموز ١٩٥٨.

* * *

كان من بين الذين حضروا لاستقبال عبد الإله عند وصوله إلى روما، اللواء «ألبان لو» نائب القيادة الحليفة، والمستر «أوبري هولفورد» الذي أصبح الآن المستشار السياسي للبعثة الحليفة في إيطاليا.

كانت الأميرة «عزّة» كبرى بنات الملك فيصل الأول قد بعثت ـ عن طريق السفارة البريطانية في روما ـ برسالة إلى عبد الإله تطلب فيها مقابلته. وقد وصلت «عزّة» نفسها بعد طعام العشاء إلى الفندق الذي حللنا فيه، وانضمّت إلى أفراد حاشية عبد الإله.

لم يكن عبد الإله راغباً في رؤيتها. وقد طلب إليّ أن أستمع إلى قصّتها المحزنة، ومن ثم أُطلعه على الغرض من زيارتها. يا للمسكينة

«عزّة»!! لقد كانت شاحبة الوجه، مغبرة الشعر، تتّشح بالسواد، وهي زريّة الملبس، ويبدو عليها أنها كانت محطّمة الأعصاب، وتلك هي نتائج زواج لم يأذن به الأهل!

ما إن دخلتُ عليها الغرفة حتى ألقت بنفسها على قدَمي باكية، وهي تتضرّع إليّ كصديق للعائلة، أن أتدخّل في الأمر نيابةً عنها، ولقد وعدتها بأن أفعل ذلك. كانت «عزّة» قد طلبت أن تهجر إيطاليا وتعيش في مصر.

لقد قوبلتْ أول الأمر في إيطاليا كأميرة بقبول ملكي. غير أنّ أصدقاءها الأوَل ما لبثوا أن هجروها. كانت مُدمنةً على التدخين، وكانت تتقبّل مني السيجارة تلو السيجارة حين كنا نتحدّث سويّة. كان زوجها قد هجرها، ولذلك غادرت جزيرة «رودس» قبل ست سنوات من الآن. وإلى ما قبل سنتين خلتا، كانت تعيش في «نابولي». أما الآن فإنها تسكن في غرفة لا تتسع لأكثر من سرير واحد، وتتلقى إعانة ضئيلة من الحكومة الإيطالية، وقد قيل لها أنّ هذه الإعانة سوف لا تستمر من قَبل الجمهورية الجديدة في إيطاليا.

لقد اعترفت لي بأنها غدت مدمنة على التدخين، لكنها لا تفعل ذلك إلّا عندما تتوافر لها النقود، وأنها أصبحت غارقة في الديون منذ مدة طويلة، وأنها لا تأكل إلّا بتقتير، ونادراً ما تغادر غرفتها، وقد اضطرت إلى أن تقصّ شَعرها لأن نفقة تصفيفه أصبحت خارج نطاق قدرتها.

طلبتُ إليها أن تنتظر إلى أن أتحدث مع عبد الإله. ولقد قصصتُ عليه قصّتها التي تدمي القلوب، وتضرّعتُ إليه أن يراها. لقد رفض ذلك أول الأمر، وأصرّ بأنها لا تستحق العفو لأنها دنست شرف عائلتها. ولقد جادلته بأنها إذا ما ذهبت إلى مصر، مثلما صمّمت على أن تفعل ذلك، إذا ما استطاعت إليه سبيلاً، فإنّ هربها هذا سوف يثير المزيد من الإشاعات البغيضة.

وهكذا وافق أخيراً على أن يقابلها شريطة أن أكون أنا حاضراً لتلك المقابلة. لقد كنت متأكداً أن حالتها المزرية سوف تلين قلبه، وسرعان ما

انفجر الاثنان باكيين، وبإذْنٍ منه انسحبت، وإذ ذاك منحَها مبلغاً من المال، وأكّد لها بأنه سوف يبحث مع عمّه الأمير عبد الله في إمكان تدبير إقامتها في عمّان. كنا قد بحثنا، أنا وعبد الإله، في أول الأمر؛ إمكان عودتها إلى بغداد، لكن تقرر في النهاية بأنه إذا ما أُريد ترتيب أمر إعادتها، فإنّ من الأفضل لها أن تستقر في عمّان لأنها غير معروفة هناك، وقد صار هذا القرار هو الحل النهائي.

* * *

أقام السفير التركي وليمة غداء على شرف عبد الإله. وكانت بناية السفارة التركية قد زُيّنَتْ زينةً مفرطة؛ فبرزت في حلّة زاهية أخّاذة. حضر الوليمة عشرون من الضيوف، كلهم من الذكور، كان من بينهم: سفراء بريطانيا وأمريكا والأفغان. كذلك حضر عبد الإله حفلة شاي مع الأمير «أمبرتو» وليّ عهد ملك إيطاليا، ومعه زوجته وولداهما، وهما: فتاة في العاشرة من عمرها، وصبيّ في الثامنة والنصف من عمره.

كان الملك «فكتور عمانوئيل» قد وعد بأنْ يتخلّى عن العرش حين دخل الحلفاء مدينة روما، ولذلك وقع مع المارشال «بادوليو» مرسوماً في شهر حزيران (يونيو) سنة ١٩٤٤ يقضي بأن يصبح الأمير «أمبرتو» برتبة فريق. وظلّ الملك عمانوئيل رئيساً لبيت سافوي، واحتفظ بلقب ملك إيطاليا؛ إلى أن خُلع عن العرش في شهر أيار (مايو) سنة ١٩٤٦، وما لبثت إيطاليا أن أصبحت جمهورية، وإذ ذاك غادرت العائلة المالكة البلاد.

تأثر الأمير عبد الإله تأثراً بالغاً بالاستقبال الوديّ، وبالمجاملة التي قوبل بها. ويبدو أنّ الأمير «أمبرتو» كان متفائلاً بمستقبله الذي كان سيتقرر عن طريق الاستفتاء العام. غير أن زوجته لم تكن تشاركه في تفاؤله ذاك. وأعرب «أمبرتو» عن أسفه لأنّ الوصيّ على عرش العراق سوف يجد إيطاليا مخرّبة وكالحة إلى هذه الدرجة، وراح يتحدث بمرارة عن القسوة والدمار الذي أحدثته القوات الألمانية التي كان الإيطاليون حلفاء لها حتى إلى وقتٍ

متأخر. ولقد نُهبتْ كثيرٌ من كنوزه هو، لكن أمكن إنقاذ القليل منها منذ ذلك الوقت.

* * *

استغرق طريقنا إلى «ناپولي» ست ساعات، لكنه اشتمل على توقفات في «سيينا» لمشاهدة كاتدرائية هذه المدينة القديمة الأنيقة، وفي «مونت كاسّينو» التي كانت مسرحاً لأعنف قتال جرى أثناء الحرب الإيطالية، والتي استولى عليها الحلفاء تماماً في شهر أيار (مايو) من السنة المنصرمة.

التقينا هنا بمقدّم وعدد قليل من صغار الضباط الذين شاركوا في القتال المرعب الذي كبّد الطرفين المتحاربين عدداً كبيراً جداً من القتلى. ذلك أن القرية التي كانت قبل الحرب تُعَشِّشُ في قاعدة جبل يبلغ ارتفاعه ألف ومائتي قدم، ويُتَوِّجه أحد الأديرة، لم يعد يمثّلها الآن سوى أنقاض المباني المخرّبة، ودلائل ضئيلة على إعادة تعميرها، وسوى الإعلانات المنتشرة على جانبي الطريق وهي تعلن أنها: «منطقة خطرة مؤذية».

يمرّ بجانب القرية جدول ماءٍ مُلتوٍ في سَيره، وقد حدثت عدة إصابات بسبب الألغام والكمائن بين المدنيين الذين زاروا المنطقة. وكان يؤكد للذين يريدون أن يسكنوا القرية بأنّ نجاحهم في هذا، سيكون جزئياً، إلى أن يتم التحقّق من سلامتهم هناك.

يا لها من مغامرة هذه الحياة التي يحياها المحارب، في ظروف كهذه الظروف، التي وُجدت أثناء المعارك الرهيبة المدّمرة التي شهدَتها تلك السفوح الخضراء لجبل «كاسّينو». لقد تحدّث دليلنا عن ضابط أُصيب بجراح قاتلة خلال ساعة واحدة من وصوله إلى ميدان المعركة. كذلك تحدّث الدليل عن فريق صغير، من إخْوَةٍ، من الضباط الذين كانوا يمتطون صهوة جواد على امتداد الطريق في كل يومٍ ولمدة شهر كامل، ومن ثم اكتشفوا في أحد الأيام عندما كانوا يسيرون في ذات الطريق؛ أحد الألغام الصغيرة التي جنّبتهم الصدفة المحضة، التماس به.

تناولنا طعام الغداء في الهواء الطلق عند قاعدة تل مجاور لجبل

«كاسّينو» ودَيره المهدّم. وكان يقوم أمامنا مرتفعان آخران؛ أُطلق الجنود عليهما اسم: «تل المشنوق» و «تل القلعة».

وصلنا إلى الملتقى الذي نقصده، بطريق أُشير إليه بـأنه: طـريق الملك، والذي افتتحه جورج ملك بريطانيا عندما زار المنطقة في شهر تموز (يوليو) سنة ١٩٤٤. وكانت تقوم إلى جانبنا مقابر واسعة تضم القتلى من الإنكليز والأمريكان والفرنسيين والبولونيين، وهي من الشواهد الماثلة على الخسائر الفادحة المرعبة.

كانت السفوح الصخرية تؤلّف مشاكل سـوقيّة كثيـرة، لا تقلُّ عن مشاكل التجهيزات الضرورية التي كان يتم نقلها بصفة أساسية على البغال عند حلول الظلام. كانت هناك كميات كبيرة جداً من القنابل، لكن قيل لنا: أنّ الملاجيء الخفيّة داخل أرض الدير، والتي التجأتْ إليها القيادة الألمانية والمقيمون في «كاسّينو»، قد برهنت على صمودها بوجه القنابل بشكل مدهش. ذلك أنّ القيادة الحليفة لم تقدم على مهاجمة الدير إلاّ بعد تردُّدٍ طويل، وبهذه الطريقة أمكن الاستيلاء على «مونت كاسّينو» بإصابات أقَل مما لو استُعملتْ أية وسيلة أُخرى ممكنة. وقد قيل لنا: إن خسائر الألمان كانت تعادل ثلاث فرَق. وطبقاً لما تحدّث به دليلنا، أنه تم إخبار البابا مُسبقاً بالضرورة المؤسفة لقصف الديـر، لأنه غـدا ملجأً للقيـادة المعادية.

كان وقوفنا في «مونت كاسّينو» محزناً، ولذلك سُررنا جميعاً حين خلّفناها وراءنا ظهريّاً. أما بالنسبة إليّ، فإنني ما زلت إلى الآن أعتبرها من الذكريات المؤسية.

* * *

في مساء اليوم الذي وصلنا فيه إلى «ناپولي»، تناول عبد الإله طعام العشاء بكل هدوء مع المشير «ألكسندر»، وذلك في الفيلاّ التي كان يشغلها المشير، والتي تقع في ضاحيةٍ من مقر قيادته، وهي عبارة عن قصر واسع

كان في وقتٍ من الأوقات دار إقامة لملك نابولي. وكان ـ كما قيل لنا ـ ينافس في عظمته قصر فرساي ذاته.

وعندما كان عبد الإله يتناول العشاء، جاء من أخبره بإلقاء القبض على «ناجي شوكت»، أحد المتعاونين مع رشيد عالي الكيلاني؛ وإذ ذاك عاد مسروراً إلى «نابولي» لكي يحصل على نموذج مدفع مضاد للدبابات يقدّمه إلى ابن شقيقته المحبوب، وكان الملك فيصل الثاني قد حصل على نموذج لدبابة من ذات المصدر.

نقلَنا زورق طوربيد بريطاني إلى جزيرة «كاپري» بسرعة تزيد على أربعين عقدة. وكانت هذه السفرة أعظم إثارة بالنسبة إلى عبد الإله. وما أنّ وصلنا الجزيرة حتى طوّفنا حولها في سيارتي «جيب».

كان رصيف «كاپري» قد خُطّتْ عليه بالدهان مثل هذه الشعارات: «ثق، وأطع، وحارب». وكانت على سيارتي «الجيب» كتابات مطبوعة بحروف كبيرة تقول: «قُدْ سيارتك بعناية إن كنت تَوَدّ أن ترى أمريكا مَرّةً أخرى! قُدْ بلا مبالاة إن أردتَ أن تبقى في إيطاليا!»*

ولقد سأل عبد الإله سائقي السيارتين عن البديل الذي يريدانه من هذين الخيارين. فكان جوابهما واحداً: هو أنهما يَوَدّان أن يريا أمريكا مَرّةً أخرى، لكنهما ليسا مستعجلين لأن يفعلا ذلك.

بعد أن قمنا بزيارة «الكهف الأزرق» الشهير، سار بنا الزورق عبر الخليج حتى «إسشيا»، ومن ثم عُدنا إلى ميناء «نابولي» مَرّةً أُخرى، حيث كانت السفينة البريطانية «أجاكس» تنتظر عبد الإله للقيام برحلتها إلى اسطنبول.

ما إن صعد عبد الإله ظهر السفينة حتى حيّاه أمير البحر السر «جون

---

* الشعار موجه للأمريكيين بصفة خاصة والقصد من عبارة «أن اردت تبقى في ايطاليا» هو اذا أردت ان تموت نتيجة تهورك في السياقة حيث ستدفن في ايطاليا حتما.

كَننغهام»[٥] قائد أسطول البحر الأبيض المتوسط، يرافقه النقيب «جون كَثبرت» قائد السفينة «أجاكس»، وذلك قبل أن يقوم عبد الإله بتفتيش حرس الشرف.

كانت هذه السفينة آخر مدمّرة من طراز «ليندر». تم تدشينها لأول مرة في سنة ١٩٣٥، وهي سابع سفينة بحرية تحمل ذات الاسم: «أجاكس»، وتقدّر حمولتها بسبعة آلاف طن، ولكن حين يتم تحميلها بصفة تامة تبلغ حمولتها حوالي عشرة آلاف طن. وكان طولها خمسمائة وأربعة وخمسين قَدَماً، وقوّة مكائنها اثنين وسبعين ألف حصان، وتقطع إحدى وعشرين عقدة في الساعة الواحدة، وتحمل أكثر من ثمانمائة ضابط وجندي.

ولقد اشتركتْ في أولى المعارك البحرية في الحرب الأخيرة، وذلك في معركة «ريفر بلات» في سنة ١٩٣٩، بالاشتراك مع المدمَّرتين: «إكسيتر» و«أشيلّس» اللتين أرغمتا السفينة الألمانية الطرّادة «غراف تسبي» على أن تنتحر وتفجّر ذاتها على بُعد حوالي خمسة أميال من «مونتفيديو». وقد عادت «أجاكس» بعد تلك المعركة إلى بريطانيا لإجراء التصليحات فيها. وفي صيف سنة ١٩٤٠ انضمّت إلى أسطول البحر الأبيض المتوسط؛ فشاركت في معركة أخرى ناجحة في تشرين الأول ١٩٤٠، وفي معركة «هاتابان» في آذار ١٩٤١ عندما أحرز الأسطول البريطاني نصراً خالداً على القوات البحرية الايطالية.

لم يكن خليج «نابولي» قد نُظِّفَ من الألغام حتى الآن. ولذلك كان الإبحار فيه محدَّداً ويجري في قناة ضيّقة. كان داوود الحيدري يخشى من انفجار أحد الألغام، ولذلك راح عبد الإله يعزره على هذا الخوف، ويشير إلى أن كارثة قومية سوف تحدث إن هو غرق، وأنّ عليه أن يظل يتمنطق بحزام النجاة ليل نهار! غير أنّ داوود الحيدري كان يخجل أن يلبس الحزام

---

(٥) عين كننغهام بعد الحرب العالمية الثانية رئيساً لمجلس إدارة شركة النفط العراقية وزار العراق سنة ١٩٥٥.

أثناء النهار، لكنه كان يستعمل سترة الوقاية في كلِّ ليلة قبل أن يأوي إلى فراشه.

بعد ظُهر يوم الرابع عشر من أيلول (سبتمبر) وعقب يومين على مغادرتنا ميناء نابولي، انضمّت إلينا مدمِّرتان إيطاليّتان استسلمتا للحلفاء، بنيتْ إحداهما في بريطانيا، وصُنعت الأخرى في إيطاليا. وعند المساء دُعينا لكي نشهد عملية توزيع الشراب على الملاّحين. كان الشراب يُغرف من دنان ذات أطواق برونزية. وكان كل واحد من ضباط الصف البحريين يتلقى مقدار أونسين ونصف الأونس من شراب غير ممزوج بالماء، أما الجُند فكان الواحد منهم يتلقى ذات الكمية لكنها مخفّفة بالماء. أما الضباط فلا نصيب لهم من الشراب؛ إلاّ إذا كانت هناك مناسبة ذات أهمية يراد الاحتفال بها عن طريق الارتباط بالرابطة الأساسية. وحين يتلقى الواحد جرايته من الشراب ينطق قائلاً: «الملك! فليباركه الله!».

* * *

كانت الرحلة من «نابولي» تجربةً مُفرحة. ومع ذلك فلم يكن الطريق عَليّ جديداً. ذلك أنّ مضائق «مسيّنا» و«سترومبولي» و«إتنا» والبحر الإيجي، وجزر سيكلاديس، وسبوراديس الشمالية؛ كانت مألوفة لي، وقد استيقظتْ في ذهني كثير من ذكريات الحرب العالمية الأولى عندما مررنا باليونان متّجهين إلى الشرق.

في الساعة التاسعة وفي جَوٍّ لطيف، وصلت القافلة حسب الوقت المحدّد إلى مضيق «البوسفور»، وعندئذ أطلقت السفينة «أجاكس» إحدى وعشرين إطلاقة تحيّة. وردّت التحيّة عليها مباشرةً ثكنات «السليميّة» التي تقع على بُعدِ ميلٍ ونصف الميل. ومن ثم مررنا بالبارجة التركية «ياوز» التي كانت قابعةً في المرسى، وقد نكستْ أعلامها تكريماً لعبد الإله. وطبقاً للمراسيم لا يمكن الرد على مثل هذه التحيّة، وأنّ في مقدور السفينة «أجاكس» أن ترسو على مقربة منها.

كان عبد الإله وبقية أفراد حاشيته قد استيقظوا مُبكرين، لمشاهدة

دخول السفينة إلى مضائق الدردنيل التي كانت تُعرف قديماً باسم: «هليّسبونت» ولكي يشاهدوا قلعة «غاليبولي» وخطوط القتال الساحلية في الشواطىء المقابلة التي تقع فيها جُزر: «سيستوس» و«أبيدوس» القديمة، وتُعيد ذكرى «هيرو» و«ليندر».

كان الجميع على صدر السفينة عندما اجتازت القافلة بهدوء عَبَر المضيق البالغ عرضه أربعين ميلاً إلى بحر مرمرة. كان كل واحد منّا قد حظيَ بمشاهدة منظر اسطنبول الأخّاذ من السفينة قبلاً، غير أن أياً منّا لم يكن مستعجلاً لكي يتحوّل عن ذلك، وكان كل واحد منا ينافس الآخر في تحديد العلامات الشاخصة، من أمثال: جامع السلطان أحمد وجامع آيا صوفيا (الذي كان يُدعى قبل الفتح العثماني باسم: كاتدرائية سانتا صوفيا)، وقصر يلدز، وصراغليو، وما شابه ذلك. لقد كان أمراً حسناً أن أشاهد ثانيةً: «القرن الذهبي» الذي تقع عليه مدينة اسطنبول، والذي أُطلق عليه هذا الاسم بسبب شكله وجماله العظيم.

ما إن هبط عبد الإله من السفينة «أجاكس» حتى أطلقت ذاتها إحدى وعشرين إطلاقة تحيّةً له، وحين توجّه إلى قصر «دولمه باجه» على الجانب الأوروبي من البوسفور، حيّته البارجة «ياوز» بعدد مماثل من الإطلاقات. بُنيَ هذا القصر من قبَل السلطان عبد العزيز قبل تسعين سنة خلت، وهو صرحٌ عظيمٌ من حجر باهت اللون وأساطين مدوّرة، وواجهة فخمة منحوتة! وتحيط به قضبان حديدية مصبوغة بدهان أبيض. وكان قصر يلدز مقرّ السلطان عبد الحميد، ينتصب على مقربة منه.

لم يكن قصر «دولمه باجه» مأهولاً منذ اندلاع نيران الحرب الأخيرة، حين نُقل أثاثه، توقّعاً لغزوٍ مُحتمَلٍ من قبَل الألمان، ولذلك كان يُستعمل مقرّاً رسمياً لرئيس الجمهورية «عصمت إينونو» حينما يزور اسطنبول. غير أنه الآن يمضي معظم وقته في أنقرة العاصمة الجديدة لتركيا، وقد كان هناك حين وصل عبد الإله.

يتألف القصر من صرح هائل ذي ستة أجنحة تجاور بناية مركزية

واسعة، ووفرة مُفرطة في الأثاث والزينة. وفيه خَدَمٌ مضيفون من الذكور، وقد خُصِّصَتْ بالإضافة إلى هؤلاء فتاتان لخدمة عبد الإله. وحين كان يطلب حاجةً ما تُسارع الفتاتان إليه معاً؛ فتحمل إحداهما السترة مثلاً لِكَتِّها، في حين تحمل الأخرى السراويل. كان موظفو القصر مؤدبين جداً، وكانوا يرفعون قُبعّاتهم وينحنون كلّما مرّ بهم أحد أعضاء الحاشية.

لم تعد اسطنبول، وهي مدينةٌ يسكنها خليطٌ واسعٌ جداً من السكان، عاصمة لتركيا. ذلك أن مقرّ الحكومة أصبح الآن في أنقرة، وهي مدينة تقع داخل آسيا الصغرى، وعلى مسافة حوالي مائتي ميل، في حين لا يزيد عدد سكانها عن ربع مليون نسمة؛ إذا ما قورن بسكان اسطنبول قبلاً، والبالغ عددهم ثمانمائة وخمسين ألف نسمة. ومع أنّ كل مدينة تستطيع أن تدّعي بأنها من أصل روماني، إلاّ أن اسطنبول مدينة بيزنطية، في حين أن أنقرة كانت العاصمة الإقليمية لولاية «غلاطيا» الرومانية القديمة، وهما تختلفان إحداهما عن الأخرى اختلافاً كبيراً؛ حتى بالنسبة إلى وجود إحداهما في أوروبا والثانية في آسيا.

كان نقل العاصمة من اسطنبول إلى أنقرة جزءاً من عملية قام بها مصطفى كمال؛ لتتريك الأمبراطورية العثمانية ذات الشعوب المتعددة، منذ أن أُطلق عليه لقب «أتاتورك» ومعناه (أب تركيا)، والذي توفي سنة ١٩٣٨ نتيجة إدمانه على تعاطي الخمرة؛ حيث كان الشراب المفضّل لديه هو «العرق».

كان هناك عددٌ كبيرٌ من العراقيين يمضون إجازتهم في اسطنبول، وقد قام عددٌ منهم بزيارة مجاملة لعبد الإله، منهم بعض الوزراء السابقين وآخرين من أفراد العوائل العشر العليا في بغداد. كان من بين الذين جاؤوا إليّ أنا، الدكتور صائب شوكت الذي هرب من العراق على أثر انهيار حكومة رشيد عالي الكيلاني. وكان صائب شوكت قد خلّفني في منصب عمادة كلية الطب، وقد أعيد تعييني مؤقتاً في مكانه. وكما أشرتُ إلى ذلك قبلاً، فإن أحد أخوي صائب، وأعني به ناجي شوكت - قد

سبق اعتقاله. كان صائب شوكت يلحّ باستمرار على براءته من تهمة عدم الإخلاص من أي نوع كان، وأنّ السبب الوحيد لهربه هو خوفه من أن يُتّهَمَ خطأً. ولذلك أوضحتُ له أن هذا العذر مردود، وأعقب ذلك نقاش مستفيض أخبرته خلاله بأنه عندما هرب حامت الشبهة حوله فحسب، وتأكدتْ ضده بشكل ثابت. لقد بقيَ هارباً لمدة أربع سنوات، ولذلك نصحته بأن يعود إلى بغداد، ووعدته بأنه إن فعل ذلك، فلسَوف أسأل عبد الإله أن يعفو عنه. ولقد وصل خلال بضعة أسابيع إلى بغداد، وفي الوقت ذاته أُعيد تعيينه مساعد أُستاذ في الجراحة.

إنّ الدور الذي تقوم به اسطنبول دورٌ تجاريٌّ في الدرجة الأولى، في حين تلعب أنقرة دوراً سياسياً. تم قطع المسافة بين المدينتين والبالغة مائتي ميل بسرعة تخلّلتها فترات راحة. وبعد تناول طعام الغداء في أول يوم، قام عبد الإله ونوري السعيد بزيارة مجاملة لرئيس الجمهورية. وكان معه رئيس وزارئه ووزير خارجيته. وقد بقيا لتناول الشاي وانضمّتْ إليهما فيما بعد زوجة إينونو، وزوجتا رئيس الوزراء ووزير الخارجية. وقد سُرَّ عبد الإله ونوري السعيد سروراً بالغاً بالترحيب الودّي الذي لقياه.

ولقد تحدّث الرئيس عصمت إينونو عن رغبته في توثيق العلاقات بين القطرين المتجاورين، وأعرب عن ذلك بمشاعر حارّة، وأبدى قلقه بشأن الأهداف الروسية، وكان من بينها: إعادة عدد من الولايات، وحريّة مرور السفن الروسية من جميع الأنواع عبر مضيق الدردنيل.

طلب عبد الإله في أحد لقاءاته مع الرئيس إينونو، تسليم العقيد صلاح الدين الصباغ أحد الأعوان العسكريين الأربعة لرشيد عالي الكيلاني، الذين عُرفوا باسم: «المربّع الذهبي». كان صلاح الدين الصبّاغ قد هرب إلى تركيا بعد انهيار حكومة رشيد عالي، وقد صدر بحقه حُكم الإعدام غياباً. وعند وصوله إلى تركيا تم إيداعه في السجن، لكنه لم يُسلَّم إلى الحكومة العراقية، لأنّ ذلك يتعلّق باتفاقية تسليم المجرمين بين البلدين. والواضح أن صلاح الدين الصبّاغ لم يُتهم بمحاولة اغتيال عبد الإله، كما

أنّ الحكومة التركية لم تقرّر بعد؛ ما إذا كانت تعتبره لاجئاً سياسياً في بلادها. ومهما يكن الأمر، وتكريماً لعبد الإله ونوري السعيد، وافق رئيس الجمهورية على تسليم صلاح الدين الصبّاغ، وهذا يعني أنّ الغرض الرئيس من زيارة تركيا قد تحقق، وكانت نتيجة ذلك أن نُقل صلاح الدين الصبّاغ إلى الحدود العراقية، وسُلّم إلى الحرس العسكري، وأُرسل في الحال إلى بغداد. وفي صباح أحد الأيام، وحين كنت في طريقي إلى المستشفى بعد وصولنا إلى بغداد مباشرةً، شاهدتُ جثة صلاح الدين الصبّاغ مُعلّقة في حبل المشنقة أمام وزارة الدفاع، وقد عُلِّقَتْ عليها قطعة تحمل كلمة «خائن». لم يكن هنالك أدنى شكٍّ في خيانته، لكنني كنت جد مكتئب حين علمتُ بأن صلاح الدين قد أُخذ في الليلة التي أُعدم فيها إلى قصر الرحاب ليطلب العفو من عبد الإله.

أثار وجود عبد الإله في تركيا كثيراً من الإشاعات حول احتمال وجود بعض الدوافع الخفيّة لذلك. فقد ذكر الرئيس عصمت إينونو لعبد الإله، أن مراسل جريدة «التايمس» اللندنية قد قال له: «إنني أتشمّمُ شيئاً ما في زيارة الوصيّ على عرش العراق». وأنه قد ردّ عليه قائلاً: «إنني لا أتشمّمُ شيئاً ما، لكنني سأدعك تعرف ذلك حين أطلّع عليه!».

كانت آخر مرحلة من سفرتنا، من أنقرة إلى بغداد، تزيد بقليل عن ثمانمائة ميل عبر آسيا الصغرى الجرداء، وجبال طوروس، ونهر الفرات، وشرقي سوريا، وكانت هذه المرحلة خالية من الأحداث. لقد امتدّت سفرتنا مدة أربعة أشهر، ولذلك كان الاستقبال الذي ينتظر وصول عبد الإله إلى مطار بغداد، فخماً وواسعاً.

بعد مرور أربع وعشرين ساعة كنت في بيت المقدس، ذلك لأنه أثناء غياب عبد الإله عن العراق، كان الملك فيصل الثاني والملكة عالية وأعضاء آخرون من العائلة المالكة يمضون إجازتهم في الإسكندرية والقاهرة، وكانت زوجتي ترافقهم طبعاً في رحلةٍ كهذه.

كانت الجماعة قد أعدّت العدّة للعودة إلى بغداد قبل عودة عبد

الإله، لكنه ما إن وصلتْ إلى بيت المقدس، وهي في طريق العودة، حتى أصبح الملك فيصل في وضعٍ غير جيّد، ولذلك تقرّر تأجيل السفر إلى أن تمكنتُ من الانضمام إليه، وأن أصحب الفريق عبر الصحراء.

في هذا الوقت كانت المصادمات جارية بين العرب واليهود في كل أنحاء فلسطين. ولقد عُيِّنَتْ ثلّة من الشرطة الإنكليزية لحماية الملك فيصل، وقد أخبرني الضابط الذي يرأس تلك الثلّة، عن حدوث اضطرابات جديدة في مدينة فيها مجموعة نفيسة من مواد ذات أهمية تاريخية؛ كان قد جمعها عَدَدٌ من الجيولوجيين البريطانيين. وقد قام مدير الشرطة العام بإرسال برقية إلى آمر الشرطة المحليّة هناك يطلب فيها آخر الأنباء. وقد رَدَّ عليه ذلك الآمر، وهو فلسطيني عربي، يقول: «لقد سيطرنا على الوضع، وكل اليهود في المتحف البريطاني!».

الفصل السادس عشر

بعد العاصفة يحلّ الهدوء

أمضيتُ الأشهر القلائل الأخيرة من خدمتي في العراق، في فندق «ريجنت پالاس» (فندق قصر الوصيّ)، الذي كان في الوقت ذاته مقرّاً إضافياً لمديرية السكك الحديدية. وكانت تعيش في الفندق زمرة صغيرة من المعارف؛ من بينهم: الزميل «نورمان» أستاذ الأشعّة الذي كان يقيم فيه من قبل.

ومع أنّ الفندق كان على مسافةٍ أوسع من مدرسة الطب، ومن المستشفى الملكي، الذي أصبح الآن يؤلّف مع كليّة الصيدلة والتمريض، كليّة الطب، إلاّ أن هذه المسافة لم تكن أبعد من المسافة بين كلٍّ من: قصر الزهور، وقصر الرحاب، والسفارة البريطانية. كما أنّ الفندق كان قريباً جداً من وزارة الشؤون الاجتماعية والصحيّة، ولذلك لم تكن هذه المسافة لتؤلّف مشكلةً ما.

كان مطمحي منذ زمن طويل أن أمكث في العراق إلى أن يتم تخرّج خمسمائة طبيب من كليّة الطب. ولمّا كان هذا الهدف قد تحقق، فلم تدع لي الأحوال من خيار سوى أن أستسلم وأعود إلى إنكلترا.

ومهما يكن الأمر، قرّرتُ أن أفعل ذلك، ما دام ما يزال لي شيء من الاحترام الشخصي، وأن لا أنتظر إلى أن تُملي المشاعر القومية المتطرّفة، والمعادية للبريطانيين بشأن فلسطين، أحكامها في هذا الشأن.

نجمَ عن تقديمي كتاب الاستقالة من وظائفي، ظهور عدد من

الطلبات تلحّ عَلَيّ بسحبه، من مصادر منوّعة غير متوقعة؛ بما في ذلك الصحافة المحلية. ومع أن هذه الطلبات كانت تمجيداً لي، إلاّ أنها لم تؤثر في القرار الذي اتخذته.

عندما انفصل العقيد «درو» (الذي أصبح الآن يُدعى الفريق السر روبرت) من الجيش، تم تعيينه أُستاذاً للطب بدلاً مني. ولذلك فلم تعد أمامي أية إجراءات مُعدّة بقصد التخلّي عن أعمالي في القصر، وفي السفارة البريطانية.

كان أفراد العائلة الملكية في صحة جيدة. أما الملك فيصل الثاني فقد كان منذ الطفولة ضحية للإصابة بذات الرئة، لكن لم يصحب ذلك حدوث التهابِ في الشُّعَب الرئوية بصفة دائمة، كما أنّ ضربات الألم أخذت تقلّ بصفة مطْردة وبأقل حدّة في السنوات الأخيرة، مما جعلني آمل أن يتخلّص جلالته من هذا المرض كُلِّيَّةً في وقتٍ مُبكِر.

يضاف إلى هذا، أنّ الطبيب «ريموند ديكسون فيرث» المستشار الطبي للبعثة العسكرية البريطانية في العراق، كان قد حلّ مكاني طبيباً في القصر. في حين خلفني البروفسور «ستاسي» طبيباً للسفارة البريطانية.

قبل اندلاع أعمال العنف في بغداد بوقت قصير، أخذت النوبات الحادّة تظهر على الملكة «عالية» بشكل متواصل، ومن دون أي سبب واضح. ولقد أخفقتْ الفحوص الجلدية في تشخيص أي نوع من الحساسية. ولذلك سألتني الملكة عالية ـ وهي في غمرة قلقها ـ عما إذا كان أحد أطباء الملك جورج يودّ القدوم إلى بغداد لاستشارته.

لقد رحبّتُ بإمكان ذلك. كما طلب السفير «السر أرشيبالد كلارك كير» مساعَدة وزارة الخارجية البريطانية في هذا الأمر، وفي الوقت ذاته أظهرتْ الحالة العامة للملك فيصل تحسّناً ملموساً. وهكذا فإنه في الوقت الذي كنت أوشك فيه أن أُغادر العراق في إجازة، قد تُوفّر لي فرصة البحث

مع زملائي في بريطانيا في هذا الأمر، وأنّ الأجور المقترَحة لزيارة الطبيب الراغب إلى العراق، هي في حدود ألف باون. في هذا الوقت لم يكن اللورد «هوردر»[1]، ولا بعض الآخرين من أطباء الملك جورج، قد وافقوا على إنجاز هذه المهمة.

وهكذا عدتُ إلى بغداد مستصحباً معي وكلاء منوّعين من ذوي الفطنة، وكميّة ضئيلة من المواد الصيدلانية المنتجة حديثاً، وكميّة قليلة من الزرقات؛ كان لها تأثير ظاهر على النوبات الحادّة المستمرة التي كانت تصيب الملكة عالية.

* * *

كان عَلَيّ أن أواجه في أوائل سنة ١٩٤٦ تجربةً مُفزعة. لقد استُدعيتُ إلى قصر الزهور في باكر إحدى الأمسيات لرؤية الملك فيصل الثاني، ولدى وصولي إلى هناك، أنبأتني مربيّته بأن درجة حرارته قد أخذت بالارتفاع بعد الظهر، وذلك في أعقاب قشعريرة خفيفة أصابته، وأنه يشكو من صُداع شديد، وألم عام في رأسه. لكن لم تكن تظهر عليه أية دلائل لضيق النفس أو النزلة الصدريّة.

سألني الملك الصغير متضرّعاً بتكرار قائلاً: «أرجوك يا [دوكي][2] أعطني شيئاً ما يُهَدّئ الصداع في رأسي!» لقد كنت من تلك العقلية القديمة التي تعتبر ارتفاع درجة الحرارة في الجسم بمثابة ميكانيكية تحميه، ولذلك كنت حذراً بشأن استعمال المنتجات المهدّئة، المركّبة من مواد مضادة.

ومهما يكن الأمر فقد اضطرب الملك. كنت أحمل معي حبّات من نوعيّة مُركبّة تحتري على قدر صغير من الأسبرين. ونظراً لإصابته بالتهاب

---

(١) رئيس أطباء الملك جورج السادس.

(٢) «دوكي»: هو اللقب الذي أطلقه الملك فيصل الثاني على سندرسن، وظل يخاطبه به حتى النهاية.

القصبات فلم يوصف له مثل هذا الدواء قبلاً. لكنه وقد تخلّص من أي عارض مَرَضي، وكانت الحبّات ما تزال في يدي، فقد حطّمتُ واحدةً منها وأعطيته ثلثها، ثم أخذتُ نقطة من دمه، وقلت بأنني سأعود فيما بعد.

ما كدت أصل إلى فندق «ريجنت بالاس» بعد عودتي، حتى تلقيت نداءً هاتفياً يقول: إنّ الملك مريضٌ بشكل ميئوس منه، وأن إحدى سيارات القصر في طريقها إليّ لتنقلني إلى قصر الزهور حالاً؛ قطعت المسافة في سرعة هائلة جداً. كان يخيّم على سيدات القصر هدوءٌ مشوبٌ بالخوف، في حين كان بقية أفراد العائلة في حالةٍ من الهياج.

كان إلقاء نظرة واحدة على المريض، يكفي لتشخيص أسباب الهلع، لقد كان الأسبرين شديد الحساسية. وكان وجه الملك، وشفتاه، وجفناه، قد انتفخت إلى درجة أن عينيه كانتا مُطبقتين، وكان تنفّسه يدلّ على إصابته بنزلة صدريّة.

أحدثَ زرقه بمادة «الأدرينالين» تحسُّناً مدهشاً؛ تلقيّتُ من جرّائه عبارات التبجيل والشكران، في الوقت الذي كنت أشعر، وأنا جد متألم، بأنني أنا المذنب في ذلك.

* * *

وقع حادثٌ مُقلقٌ آخر قبل أن أغادر العراق بأسبوعين أو ثلاثة أسابيع. تُركتْ لي علبة كافيار صغيرة عند منضدة الاستقبال في الفندق بعد ظهر أحد الأيام. وقد طلبتُ إيداعها في الثلاّجة استعداداً لتناول عشائي في تلك الليلة. كانت مع العلبة ورقة كُتبتْ باليد، وهي تحمل اسم مُهديها، وهو من أطبائي الصغار. وإذ تم إعداد الكافيار لتناوله، وما إن ابتلعت سوى جزء صغير منه، حتى اشتعلت النار في فمي وفي بلعومي، بحيث توقّعتُ احتمال إصابتي بالتسمّم.

أسرعتُ بالخروج من المطعم وأنا أحمل الصحن الصغير معي. وفي الوقت الذي وصلتُ فيه إلى غرفة نومي، تغلّب عَلَيّ المرض وألم المعدة،

وأعقب ذلك ظهور أعراض أُخرى لإلتهاب الأمعاء المعوية الذي استمرّ عدة ساعات. لم أكن قد فزعتُ كثيراً من ذلك؛ لأنه لم تظهر عَلَيّ أية أعراض أُخرى. وقد اتضح بجلاء فيما بعد، أنّ الطبيعة هي التي وصفت لي العلاج الملائم.

لقد اكتُشفتْ بلّورات محطّمة من مادة زئبقية تحت سُرّة الكافيار. لا يوجد أدنى شك في براءة المُهدي المفتَرض. غير أن تحقيقات الشرطة أخفقتْ في تشخيص هويّة المجرم، وبقيَ سبب تقديم الكافيار سراً من الأسرار. على أنني كنت أعتقد أنه كان من عملِ طالبٍ منتقم، كان قد طُرد من الامتحان، بل ربما كان من عملِ عضوٍ في جمعيةٍ متطرّفةٍ كانت تُطلق على نفسها لقب: «جمعية سيف الله المسلول»، والتي تلقيّتُ منها عدداً من الرسائل المهمة في السنوات القلائل الماضية.

* * *

كان قلق الأتراك من مطامع السوفييت ظاهراً جداً، أثناء الزيارة التي قام بها عبد الإله لاسطنبول وأنقرة سنة ١٩٤٥. لقد كانت حرب الأعصاب متّقدة الأوار آنذاك. وكان رئيس الجمهورية التركية «عصمت إينونو»، شديد الرغبة بشكلٍ متزايدٍ في إيجادِ تقاربٍ أوثق بين العراق وتركيا، وبقية البلدان الأخرى القريبة، التي لم تكن لتهتمّ اهتماماً جدّياً بهذه الأمور. وكان ذلك هو الهدف الجوهري من الدعوة التي وجهّهَا الرئيس التركي إلى عبد الإله لزيارة تركيا.

كان يجري التمهيد لعقد معاهدة بين البلدين. وكان نوري السعيد قد عاد إلى «أنقرة» بعد تلك الزيارة بأشهر قلائل لإجراء محادثات تفصيلية حول أحكام تلك المعاهدة. وكانت وزارة «توفيق السويدي» قد اختارت بعض الأساليب لتأخير عقد المعاهدة، غير أن وزارة «صالح جبر» التي أعقبت وزارة توفيق السويدي، وافقت على كل مواد المعاهدة بكاملها. (٣)

كنت واثقاً بأنّ الرئيس التركي «إينونو» في الظروف الراهنة سوف يضع، بكل سرور، يخته الخاص تحت تصرّف العائلة الملكية إذا ما

(٣) اخطأ المؤلف هنا ذلك لان صالح جبر كان قد الف وزارته في ٢٩ آذار ١٩٤٧ بعد استقالة الوزارة السعيدية التاسعة في اليوم الحادي عشر من آذار ١٩٤٧

تأكدتْ سفرتها المقترحة إلى إنكلترة أثناء الصيف. وما إن صودق على هذا الأمر حتى استدعاني الوزير التركي المفوّض في بغداد، والذي أعرفه حق المعرفة، وبعد أن أنبأته بأنّ أحداً ما لا يعرف زيارتي، اقترحت عليه بأن يخبر وزير الخارجية التركية بنيّة العائلة الملكية هذه، ويسأله ما إذا كان الرئيس «إينونو» سيوافق على أن يقوم يخته الخاص بنقل الملك فيصل الثاني، وأمّه، وأعضاء آخرين من العائلة الملكية، من الإسكندرونة مثلاً إلى مارسيليا، وهم في طريقهم إلى انكلترا.

سُرّ الوزير التركي كثيراً بهذا الاقتراح، ووعد بأن يتصل مع أنقرة حالاً. وبعد أيام قلائل اتصل بي هاتفياً ليقول لي: «بأنّ الرئيس التركي قد أظهر غبطته لأن يضع يخته «سافارونا» تحت تصرّف العائلة الملكية في سفرتها تلك، وأنه سوف يوجّه دعوة شخصية إلى عبد الإله».

استُدعيتُ إلى القصر مؤخراً في ذلك اليوم، واستطعتُ أن أفضي بالأخبار التي قوبلتْ بدهشة مُفرحة. فقد سُئلتُ قبلاً عما إذا كنت أستطيع أن أضع خطة لأن أغادر العراق، بحيث تتفق هذه المغادرة، مع منهاج العائلة الملكية لكي أرافقها في رحلتها إلى إنكلترا.

حَلّتْ إشارة الرئيس التركي تلك كثيراً من المشاكل، وسَهّلَتْ اتخاذ الترتيبات بشكل معقول تماماً. كانت الجماعة تتألف من: الملك فيصل الثاني، وأُمّه الملكة «عالية»، والملكة السابقة «نفيسة»، والأميرات: «عبدية» و «بديعة» و «جليلة» وزوجها الدكتور «الشريف» حازم. كما ضمّت الجماعة أيضاً السيدة «بَسك» زوجة المستشار وسفير بريطانيا في فنزويلا فيما بعد، والآنسة «نورا ستونهوبيرد» إبنة السفير البريطاني في العراق «السر هيو»، والمدرّس «جوليان بت - ريفرز»، ومربيّة الملك «المس بورلاند»، واثنين من المرافقين وعدداً من الخدم.

غادرنا بغداد بقطار خاص في الساعة السابعة والنصف من صباح يوم الإثنين السابع والعشرين من شهر أيار (مايو)، وجرى الاحتفال المعتاد خلال مغادرتنا. وقد تأثرتُ إذ وجدتُ بين جماعة المودّعين، عدداً كبيراً من

الأطباء، من بينهم: الدكتور إبراهيم عاكف الألوسي وزير الشؤون الاجتماعية والصحيّة، والدكتور هاشم الوتري الذي خلَفني في عمادة كليّة الطب، وقد غدا، قبل أيام قلائل، أستاذاً متمرّساً، وجُملةٌ من الأطباء الذين تخرّجوا على يدي؛ فجاؤوا لتوديعي.

كان صباحاً مُشمساً حارّاً. وكانت درجة الحرارة في القطار تصل إلى حدود ١١٠ درجات فهرنهايت. كما كان هناك إنذار باحتمال قيام عواصف ترابية أيضاً. غير أن هذه العواصف لم تثر لُحسن الحظ، وهكذا سارت الرحلة في سرعةٍ ومن دون أي حادث، لأنّ ماكنة قطارنا كانت تدرج، وتنفث دخانها في طريقٍ منبسطٍ بصفةٍ رئيسةٍ وسطَ ريفٍ أجردٍ خالٍ من أية مظاهر.

كانت السيدات يمضين معظم النهار في لعبة الورق، أو أنهنّ اعتصمن بالصبر، في حين كان الملك فيصل الثاني، في الفترات ما بين الدروس يلهو - بمساعدة مني ومن المدّرس جوليان ﮨت - ريفرز - بلعبة أحازير كبيرة. وكان عندما يتضايق من ذلك ينسحب إلى زاوية من العربة، وينهمك في رسم صُوَرٍ خيالية بقلم الرصاص، تكشف عن موهبة فنيّة حقيقية.

يا له من طفل بهيج! إنه لم يُلَوّث بعد. إنه سخيّ، معتدل، مرح، ذكي، نابه، ومتعطش إلى المعرفة. لقد كانت أمّه منذ الأيام الأولى لولادته تُصِرّ على أن يُعامَلَ كما يُعامَلَ أي طفل اعتيادي آخر، ومن دون خضوع من أي نوعٍ كان، وذلك خلال سنوات قبل أن يتحقق بأنه كان رئيساً للأمّة، ولكنْ بالاسم فقط!

وقد حدث هذا الأمر عندما خاطبه أحد المرافقين بكلمة: «جلالتكم». وحين سأله لماذا استعمل هذه الكلمة. أجاب المرافق: «لأنك أنت مليكي!» ومن ثم أنبأ ذلك المرافق فيصلاً بأنه قد فعل ذلك من دون انتباه، وأنه قد خالف الأوامر، وأنه يتضرّع إلى الملك بأن لا يخبر أحداً عن غلطته هذه، وقد حصل هذا الأمر قبل اكتشافه ببضعة أشهر.

اعتاد خدم القصر في أيام العيد أن يتسلّموا الهدايا. كانت الملكة «عالية» تظنّ أنّ الوقت قد حان لكي يقوم فيصل نفسه بتوزيع تلك الهدايا. كان العاملون قد تجمّعوا بهذه المناسبة، وبعد أن وُزّعَتْ الهدايا عليهم، انصرفوا. وإذ ذاك سأل فيصل أُمّه قائلاً: «أهَذا ما يفعله الملك؟».

والذي أعتقده أن نابليون الأول هو الذي كان يقول: «إنّ مستقبل مصير الطفل هو من صُنْعِ أُمّه دوماً». وكان واضحاً بأنّ الملكة «عالية» كانت تشارك في هذا الرأي. فلقد صمّمتْ على أن يصبح فيصل رجلاً بمعنى الكلمة، وكانت تعمل على تقويمه بكلّ مثابرة.

كان فيصل يحبّ أُمّه حُبّاً جَمّاً، ولم يتمرّد على أي أمر يتسلّمه منها. فهو منذ أوائل طفولته كان يخاطبها بكلمة: «ستي» أي (سيدتي). كما كان يخاطب مربيّته بكلمة: «ماما». ولم تكن أُمّه لتنطق إلاّ بعبارة: «وقح، بابا!» أو «جيجي، بابا!» ـ بالجيم الفارسية ـ على عبثه الصبياني.

ولم يظهر عليه سوى خوفٌ ضئيلٌ من أول زَرْقَةٍ عَملتْ له. كان صغيراً جداً. ولكنه ما إن أُخبر من قِبَل أُمّه بأنه لن يصرخ، حتى راح يغالب دموعه بشجاعة، مع غصّة خفيفة في تنفسُّه، وهو يقول: «إنها مجرّد لعبة!».

* * *

توفيّتْ الملكة «عالية» بمرض السرطان، في اليوم الثاني والعشرين من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٥٠. لم تكن تخشى الموت. كنت على الدوام أسمعها تردّد هذه العبارة: «لا يموت المرء مرّتين! إن لم يكن اليوم فغداً؛ كلٌّ منا يموت». كانت امرأةً نبيلة، وزوجةً مخلصة، وأمّاً مدهشة. ومع أنها كانت متحجبة، إلاّ أنها كانت مصدر حكمة سياسية وعالمية ملحوظة، إلى درجة أن عبد الإله كان ـ ولا يقلّ عن ذلك بقية أفراد العائلةالملكية ـ يعتبر نصيحتها صائبة، ويبحث معظم مشاكله معها، وكان يردّد على الدوام بأنه فَقَدَ بموتها مستشاراً حكيماً.

* * *

وصلنا إلى مدينة حلب قبل منتصف ليلة الثامن والعشرين من شهر أيار (مايو)، ثم بلغنا ميناء الإسكندرونة ـ الذي سلّمته فرنسا إلى تركيا سنة **١٩٣٩** ـ في الساعة العاشرة والنصف من صباح اليوم التالي.

كان «عطا أمين» والأميرة «سارة» والمحافظ التركي للواء الإسكندرونة وزوجته، وفريقٌ كبيرٌ من حرس الشرف العسكري، يَنتظرون في المحطة للترحيب بالركب الملكي الذي كانت معظم السيدات فيه سافرات.

كان يخت رئيس الجمهورية التركية، الذي تبلغ حمولته ستة آلاف طن، يهدر في مرسى قريب. تمّ الصعود إلى اليخت بيُسر، وفي غضون ساعتين كنا قد خرجنا من الميناء إلى البحر الأبيض المتوسط.

كان اليخت «سافارونا» في الواقع فندقاً فخماً عائماً. وكان كلُّ أثاثه وترتيباته بصفة عامة توحي بأنه فندق كبير، أكثر من كونه سفينةً بحرية، وكانت الإدارة والمطبخ فيه مُحكمةً إحكاماً مُتقناً.

لم أكن غريباً أبداً عن الأكلات التركية، وكنت أُحبّها، ولكن لم أكن قد ذقتُ طعم المشروبات التركية بمثل هذه الفخامة. وقد دهشتُ من لذة طعم الجعة المنتجة محليّاً والمتوافرة بكثرة على ظهر اليخت.

كان الجو خلال اليومين الأوّلَين صحواً، وقد أمضينا معظم الوقت على ظهر اليخت. كانت مسيرتنا في البحر متعرِّجة، بالنظر إلى وجود بعض الألغام التي لم يتم كنسها بعد، وإلى وجود جُملةٍ من الجُزُر اليونانية؛ من بينها: جزيرة «كريت». وقد بدت بعضها، بشكل غير متوقع، ظاهرة للعيان، وذلك عندما اقتربنا من ميناء «مسّينا».

كان أمراً بهيجاً، إذ استطعتُ أن أرتدي ملابسَ مخالفةً للأصول، وأن أسترخي في كُرْسِيٍّ مستطيلٍ عند دكّةِ اليخت، وأن أتشمّس في ضوءِ شمسٍ معتدلة، بعد شهرٍ صاخبٍ بحفلاتٍ كانت تُقام وأُدعى إليها؛ بالإضافة إلى واجباتي المعتادة. وقد أُضيف إلى هذا إدخالُ دَمٍ جديدٍ في مواعيدي، وتنظيم دوائر مُبعثرة أشبه بالسفن، وقراءة أكوام المراسلات التي

كانت تستأثر بمعظم وقتي، ومن ثم، إلقاء المراسلات التي تأخّر تاريخها في سلال المهملات.

لقد توافر لي الوقت الكافي للانتعاش والمراجعة. فقد عاد إلى ذاكرتي الكثير من الأحداث الماضية والمنسيّة، وهي أشبه بأحلام اليقظة. وقد تألّقتْ في ذهني ـ وأنا أفعل ذلك ـ سنوات خدمتي الطويلة في العراق، والتي بلغت: **«عشرة آلاف ليلة وليلة!»**.

لقد شهدتُ خلال هذه المدة تحوّلاً عظيماً، ذلك التحوّل الذي كان من حُسن حظي أن سمح لي بالمشاركة فيه. هنا استعدتُ انطباعاتي عن **«بلاد الرافدين»** ـ العراق ـ ساعة وصولي إليها، والتي كانت تتألف من ولايات: بغداد، والموصل، والبصرة ـ التركية السابقة ـ التي لم تعرف التطور ولا التقدّم.

وبفضل الإسهام البريطاني، وتوفير المال والخبرة، أصبحت الأراضي الواقعة **«بين النهرين»** والبالغة مساحتها أكثر من مائة وسبعين ألف ميل مُربّع، مملكة ثريّة، وأخذت تزداد غنىً كل سنة، بعد إنتاج البترول، وزراعة القطن، والتبغ، واتساع نطاق الزراعة بصفة عامة.

لقد بدأ هذا التحوّل أثناء الاحتلال البريطاني، وسيطرة القوات العسكرية البريطانية والهندية خلال حرب سنة **١٩١٤ ـ ١٩١٨**. واستمرّ هذا التحوّل تحت التوجيهات البريطانية النافعة، عندما أصبحت بريطانيا هي الدولة المنتدبة، ولذلك تحقّق الاستقلال، والدخول في عُصبة الأمم في خريف سنة **١٩٣٢**.

تُعتبر بغداد مركزاً لا يبارى في تدريب صغار الدبلوماسيين من البريطانيين، وأستطيع أن أُعَدِّدَ اثني عشر، على الأقل، من هؤلاء الذين كانوا يعملون قناصل وأُمناء سر؛ خلال الفترة ما بين سنتي **١٩٣٢** و**١٩٤٦**، ممن رُفعوا إلى منصب سفير.

وأستطيع أن أتجرّأ وأقول: إنّ تحقيق السيادة القومية في فترةٍ تزيد

على اثنتي عشرة سنة بقليل، كان انعكاساً لكفاءة الموظفين البريطانيين، وإخلاصهم بصفة عامة. إنني أتذكّر خطاب التوديع الذي ألقاه السر هنري دوبس، وتحدّث فيه عن تصادم الآراء بين الموظفين البريطانيين وبينه هو. وقد اتهمنا ـ نحن الموظفين البريطانيين ـ في ذلك الخطاب، بأننا كنا: «عراقيين أكثر من العراقيين أنفسهم». ومع ذلك فقد أنهى خطابه بأن لا نغتاظ مما تكتبه بعض الصحف، وأن علينا أن نتأكد بأنّ حكومة العراق وشعبه يدركان جيّداً ما تمّ إنجازه، وأنهما يقدّران ذلك حق قدره.

لقد آلمتني فكرة تردّي العلاقات البريطانية العراقية منذ اندلاع نيران الحرب العالمية الثانية، الأمر الذي استغلّته الدعاية الألمانية أبشع استغلال. وقد ازدادت هذه العلاقات تأزّماً نتيجة تطرّف الحركة القومية، ومستقبل فلسطين. ولكن كيف يحدث في التاريخ أن تُقطع اليد التي أطعمت من جوع؟

لا يستطيع أحد أن ينكر بأنّ البلاد كانت ـ قبل دخول العراق عُصبة الأمم ـ تُحكم بصفة أفضل مما هي عليه الآن، وكانت أكثر استقراراً من الناحية السياسية، وأكثر ضمانةً من الجهة الاجتماعية، وأكثر رضاً من الوقت الحاضر، وأن هذا الأمر يحدث الآن على الرغم من التقدّم الاقتصادي الواسع.

* * *

ما إن اقتربنا من مضيق «مسّينا» حتى تلبّدت السماء بالسُحُب من فوقنا، واشتركت الرياح والأمواج في اللعب باليخت «سافارونا»، فغدا يعلو ويهبط بعُنف، الأمر الذي دفع بالرُكاب إلى تقبُّل استعمال الحبّات المضادة لدوار البحر، والبحث عن ملجأ مؤقت داخل «القمرات»، في الوقت الذي تبعثرت فيه قِطع الأثاث، وتحطّمت الصحون والأقداح. ومهما يكن الأمر، فقد كانت العاصفة قصيرة الأمد، حتى إذا ما انبلج الصباح كانت السماء ومياه البحر الأبيض المتوسط تنعم بزرقتها المعتادة.

تناولتُ وجبة الطعام مع السيدة «بَسك» والآنسة «نورا ستونهور بيرد»

والمربيّة «المس بورلاند» مع العائلة الملكيّة. أما «جوليان بت - ريفرز» ومرافقي الملك، فقد تناولوا وجبتهم في غرفة المنتدى. لم يكن «جوليات بت - ريفرز» قد التقى بالأميرات منذ وصوله إلى بغداد، ولذلك طلبتْ إليّ الملكة «عالية» بعد ركوب اليخت، تقديمه إليها.

وصلنا إلى «مارسيليا» في صباح اليوم السادس من شهر حزيران (يونيو)، وقد أسف كل واحد منّا لانتهاء هذه الرحلة الطريفة. كان وزير العراق المفوّض في باريس مع زوجته وعدد من موظفيه، ينتظرون وصول اليخت. وبعد أن شكرتْ الملكة عالية - وهي تتحدث اللغة التركية - ربّان اليخت وضبّاطه لما أبدوه من حُسن الضيافة، وصافح الملك فيصل كل واحد منهم، انتقلنا إلى محطة القطار، فاستقلّينا عربةً كانت حُجزت لنا، واتخذنا طريقنا إلى ميناء «كاليه» في الحال.

لم يكن القنال الإنكليزي آنذاك في وضع حسن. فقد ذُكر عن وقوع عدد من الضحايا أثناء عبوره، ومع ذلك فقد تنفّس الجميع الصعداء حين رسَونا في ميناء «دوفر». كان السفير العراقي الأمير زيد مع زوجته الأميرة «فاخر» وآخرين ممثّلي السفارة العراقية ينتظرون وصول الرّكب إلى هناك، وقد أعَدّوا حماية ترافق أعضاء البيت الملكي بقية الرحلة إلى محطة فكتوريا، ومن هناك، إلى مستقرّهم الصيفي في منزل أمير البحر «اللورد تشاتفليد» في منطقة «براكنيل».

وإذ استأذنتُ من الجماعة في محطة فكتوريا، تلقّينا، أنا وإلزي، دعوةً حارّةً وكريمةً جداً لتمضية عطلة الأسبوع التالية معهم، ولقد لبّينا الدعوة. غير أن هذه اللقاءات السارّة مع هؤلاء الأصدقاء المحبوبين، سواء في «براكنيل» أم في مستقرّهم الذي انتقلوا إليه مؤخراً في «ستانويل» أم في منزلنا نحن في «سوسّكس» كانت تطغى على النطاق الذي يضمّه هذا الكتاب من الذكريات.

وعلى هذه الشاكلة كانت آخر زيارة قمنا بها إلى العراق في سنة ١٩٥٣ عندما كنت أنا وإلزي، من بين ضيوف الملك فيصل الثاني أثناء الاحتفال بتتويجه. وعند هذه النقطة تنتهي حكايتي الموجزة!.

الفصل السابع عشر

ثورة الرابع عشر من تموز (يوليو) المجيدة[1]

(١) كان طبيعيا أن يكون موقف سندرسن من ثورة الرابع عشر من تموز ١٩٥٨، منطويا على منتهى الانتقاد، وتشويه الحقائق. فهذا الداعيةالاستعماري قد صب كل جام غضبه على تلك الثورة. فنعتها بأشنع النعوت، ووصفها بأقبح الأوصاف، كاشفا بذلك عن الهلع الكبير الذي أصاب الأوساط الاستعمارية في بريطانيا خاصة، وفي العالم عامة، من قيام تلك الثورة التي قضت على النظام العميل الفاسد المهترىء في العراق، وأحدثت رجة عنيفة في منطقة الشرق الأوسط برمته، وفتحت عيون العالم على ذلك الحدث العظيم، وبرهنت للأمم المغلوبة على أمرها أن في مستطاعها أن تتحرر وتستقل، ان هي عرفت كيف توحد قواها، وتعزز تضامنها، وتوجه ضربتها القاضية في اللحظة المواتية.

والحقيقة أنه لم يكن أمام ثورة تموز الا أن تفعل نفس ما فعلته، والا أن تسير في ذات الطريق الذي سارت فيه. فهي في كل ما رافقها في صبيحة ذلك اليوم، تعتبر بردا وسلاما على شعب العراق اذا ما قيست بالثورات الأخرى المعاصرة التي وقعت، وما تزال تقع في بلدان أخرى مستعبدة من العالم.

قامت الثورة في صبيحة اليوم الرابع عشر من تموز (يوليو) سنة ١٩٥٨. وكان القائمون بها يتألفون في الدرجة الأولى من العسكريين، وحلفائهم الثوريين، ومن أبناء المدن المستعدين دوماً للمشاركة في أية أعمال ثورية. وليس مستطاعاً اسناد عملية القضاء على العائلة المالكة في ذلك اليوم، إلى جهة محددة. غير أن ما وقع لا يمكن أن يمحى من التاريخ.

لم أكن أقيم في العراق عند قيام الثورة. لكن في مستطاعي ان أتطرق إلى عدد من الحوادث التي شاركت بطبيعتها في نشوب الثورة. ولذلك فإنني أشير إلى البعض منها لاتخذ منه مقدمة لما حدث. وكما سبق أن أشرت إلى ذلك قبلاً، فقد شهدت نهاية الحرب العالمية الثانية، اطلاق سراح عدد ممن كانوا يعطفون على دول المحور[٢] من المعتقلات،

---

(٢) لم تكن «النازية» أو العطف على دول المحور في العراق، ناجماً عن حب العراقيين لذلك المبدأ أو الدول التي تدين به. ولكن العداء الذي أظهره النازيون والفاشيون ضد اليهود الصهاينة، وضد الانكليز، قد أثر تأثيرا بالغا في نفسية الشعب العراقي. فبدافع من عداء هذا الشعب للانكليز ولخدمهم اليهود الصهيونيين، أصبح يؤيد النازيين والفاشيين. وقد تعاظم هذا الاحساس لدى الشعب العراقي أثناء ثورة أيار الوطنية سنة ١٩٤١ والتصادم الحقيقي الذي وقع بين الجيش العراقي والقوات الانكليزية خلال الثورة.
ولهذا عمدت الوزارات التي أعقبت فشل الثورة إلى اعتقال عدد كبير من الشباب الذين أظهروا كامل تأييدهم للثورة وأفصحوا عن آرائهم في معاداة الانكليز والصهاينة على حد سواء. كما =

ومن بينهم عدد غير قليل من الكتاب والصحفيين. وسرعان ما انطلقت في بغداد، وعن طريق زهاء خمس عشرة صحيفة يومية تافهة، دعاية حاقدة كاذبة ضد الأجانب.

وبمرور الزمن غدت تلك الدعاية مرتبطة بالاذاعات المزدرية التي كانت تنطلق من اذاعة القاهرة التي كانت تسمي نفسها باسم «اذاعة صوت العرب» ذلك الصوت الذي كان يهيء الذخيرة الواسعة للمحرضين على الثورة.

بلغت اللعنة على بريطانيا ذروتها العليا في سنة ١٩٥٦ بعد ان استولى «جمال عبد الناصر» على قناة السويس. في ذلك الوقت كان فيصل الثاني يقوم بزيارة رسمية للعاصمة البريطانية. ولذلك أصبحت الدعاية التي تبث من القاهرة ذات شوكتين، وهكذا ظلت تلك الدعاية متأججة طيلة السنتين اللتين أعقبا ذلك. وليس هناك أدنى شك في أن تلك الدعاية كانت واحداً من أهم العوامل التي وضعت النهاية للحكم الملكي في العراق.

ولا بد من التذكير هنا إلى أن الملك «فاروق» كان قد تنازل عن العرش في شهر تموز «يوليو» ١٩٥٢، في أعقاب ثورة عسكرية، إلى ولده الطفل الذي أصبح يدعى «الملك أحمد فؤاد الثاني». كما أن «اللواء محمد نجيب» رئيس مجلس الثورة العسكري قد أقدم، بعد سنة من ذلك التاريخ، على خلع ذلك الطفل عن العرش، وأعلن قيام الجمهورية في مصر، وأختير نفسه رئيساً لها.

وفي شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٤ قام العميد جمال عبد الناصر بإزاحة اللواء محمد نجيب عن الحكم، ومن ثم أصبح رئيساً للجمهورية في حزيران (يونيو) سنة ١٩٥٦. وحين تم إنشاء «الجمهورية العربية

= أن اطلاق سراح أولئك المعتقلين بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، لم يؤثر أبداً على الوضع السائد آنذاك في العراق. فقد أصبح العراق بعد فشل الثورة، يخضع خضوعا تاما للاحتلال الانكليزي الجديد الذي استمر قائما حتى ما بعد انتهاء الحرب العالمية.

المتحدة» في شباط ١٩٥٨، انتخب جمال عبد الناصر رئيساً لها(٣).

وضع انشاء الجمهورية العربية المتحدة (أي الاتحاد بين مصر وسوريا) نهاية للأحلام التي ظل نوري السعيد يحلم بها في إنشاء ما يسمى «سوريا الكبرى»، أي الاتحاد بين سوريا ولبنان وفلسطين والأردن، أو «دولة الهلال الخصيب» أي الاتحاد بين العراق، وسوريا، والأردن، بعد أن أصبحت الأخيرة: تدعى باسم المملكة الأردنية الهاشمية في أعقاب المعاهدة التي عقدتها مع بريطانيا سنة ١٩٤٦.

لقد تم ربط سوريا بمصر، نتيجة التخوف من أن يؤدي نجاح نوري السعيد في توحيد كل من سوريا والأردن مع العراق المعروف بموارده النفطية، إلى مساعدة هذه المجموعة من الدول، على انتزاع السيادة على الشرق الأوسط، من يد مصر. ولذلك سارع نوري السعيد إلى مجابهة هذا الانقلاب الذي قام به جمال عبد الناصر، فأعلن عن قيام الاتحاد بين العراق والأردن، في غضون عشرة أيام حسب من قيام الجمهورية العربية المتحدة، وقد شغل نوري السعيد نفسه منصب رئيس الوزراء لذلك الاتحاد.

أما جواب عبد الناصر على حركة نوري السعيد تلك، فقد تمثل في تجديد الهجوم على كل من «عبد الإله» و «نوري السعيد».

فقد أطلق عبد الناصر على عبد الإله اسم «عدو الله» ونعت نوري السعيد بأنه عميل للامبريالية، وكانت تعزى إلى الاثنين، وبصفة مستمرة، مسؤولية وفاة الملك غازي. ولذلك كانت مثل هذه الدعاية تحظى بالرضا من لدن الثوريين والساخطين(٤).

---

(٣) أخطأ المؤلف في تاريخ قيام الوحدة بين مصر وسوريا، إذ ذكر أن ذلك تم في شباط سنة ١٩٥٩ والصواب أنه حدث في شباط (فبراير) ١٩٥٨.

(٤) لم يكن تهجم سندرسن على الرئيس الراحل جمال عبد الناصر بالأمر المستغرب قط. فلقد اندفع كل الاستعماريين وعملائهم، وعلى الأخص في البلاد العربية، في توجيه سهام =

كانت بغداد متخلفة عن القاهرة في حرب الدعاية، وذلك بسبب قصر موجة اذاعتها. في حين كانت كل من القاهرة وموسكو تملكان محطات اذاعة طويلة المدى بشكل غير اعتيادي. وكانت مواقف روسيا من قضايا الشرق الأوسط مؤيدة لموقف مصر بشكل ظاهر. لكن روسيا كانت في الوقت ذاته تغتنم كل فرصة للتحدث عن فضائل الاشتراكية الماركسية، وعن استطاعة البروليتاريا العراقية الغاء الملكية الخاصة في العراق. ولذلك لم تكن هذه الأمور المشتركة أقل شهية من الدعاية التي كانت تطلقها اذاعة صوت العرب من القاهرة.

ولقد أبدت الاذاعة البريطانية مساعدة طيبة في تفنيد ما كانت تذيعه «صوت العرب»، لكنها كانت قاصرة عنها، ولم تستطع أن تنافسها فيما كانت تذيعه من افتراءات وأكاذيب عن الزيارات التي كان يقوم بها فيصل الثاني، وعبد الإله، ونوري السعيد، والتي كانت تصفها بأنها تأكيد على ولاء هؤلاء الأشخاص للغرب، واضرارهم بمصالح بلادهم.

* * *

كان فيصل الثاني قد أرسل إلى كلية «هارو» في لندن سنة ١٩٤٩. وكان آنذاك في سن الثالثة عشرة من عمره. وبعد أن أمضى سنة واحدة في مدرسة «ساندوير» التحضيرية انتقلت أمه «عالية» إلى لندن أيضاً لكي تكون قريبة منه، فاشترت هي واخوها عبد الإله، منزلاً في «ستانويل» على مقربة من «ستيينس» ليصبح مستقراً ريفياً للعائلة في انكلترا.

ولقد جاءت وفاة «عالية» بالسرطان سنة ١٩٥٠ ضربة قاصمة بالنسبة إلى فيصل

= انتقادهم إلى زعامة عبد الناصر، وإلى حبك مختلف المؤامرات الخفية والعلنية معاً لازاحته عن الحكم. وذلك لأن القومية العربية قد تصاعدت تصاعداً عظيماً جداً في عهد جمال عبد الناصر فأخذت تهدد مصالح الامبريالية العالمية وانظمة الحكم العميلة بالانهيار والسقوط ولذلك وجدنا الحكومات العربية العميلة تشعر بالغبطة والفرح عندما قامت كل من بريطانيا وفرنسا مع ربيبتهما إسرائيل بالعدوان على مصر في أواخر ١٩٥٦، وذلك بعد أن حرر جمال عبد الناصر أول ركيزة من ركائز الاستعمار في مصر وهي قناة السويس.

الثاني، وإلى عبد الإله بصفة خاصة. فقد كانت عالية امرأة ذات جمال، ومرح، ولطف، وذكاء نادر. وكانت صديقة عزيزة لي ولزوجتي «إلزي».

كان حضور فيصل الثاني مع أفراد آخرين من العائلة المالكة، ومعهم نوري السعيد إلى لندن للمشاركة في استعراض النصر الذي أقيم هناك، وزيارة فيصل وعبد الإله ونوري السعيد للولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٥٢، ومن ثم الزيارة الرسمية التي قام بها فيصل لبريطانيا فيما بعد، كانت كل هذه الأمور من الحوادث التي وفرت الفرص لاثارة النقد ضد حكام العراق، وسوء تفسير تلك الحوادث.

وفي الوقت الذي تم فيه تتويج فيصل الثاني في شهر ايار (مايو) سنة ١٩٥٣، اظهرت الحماسة الغامرة، وهتافات الجماهير المتواصلة، وكأنها تتنبأ بحكم سعيد ومجيد لهذا الملك الصغير الجذاب والموهوب، والمخلص. ذلك أنه لم يقع أثناء ذلك الاحتفال أي حادث مهما كان نوعه ضد الأجانب في العراق.

وإذ كنت أحضر ذلك الاحتفال، فقد طلب إلي وزير الشؤون الاجتماعية في ذلك الوقت[٥] أن أعود إلى العمل ثانية في العراق، وأن أتولى منصب المستشار في وزارته، وأن أقبل بالتعاقد لمدة خمس سنوات. وربما كنت على صواب تماماً حين رفضت ذلك العرض. فلو أنني قبلت به فلربما كنت ضحية أخرى من ضحايا الثورة.

كان الأصدقاء العراقيون يبدون قلقهم من أن تحويل الجيش العراقي إلى قوة ضاربة، قد يغريه على أن يلعب دوراً أكثر ثباتاً في الشؤون السياسية. ولقد كانت الثقة في هذا التحول الذي طرأ على الجيش العراقي، تعود في الدرجة الأولى إلى الفريق «كالوم رمتن» رئيس البعثة العسكرية البريطانية في العراق، والذي كان يشرف بنفسه على فحص كل

---

(٥) هو المرحوم ماجد مصطفى في وزارة جميل المدفعي السابعة وكان ماجد قد شغل منصب محافظ لواء الديوانية ولواء العمارة ووزع على الاهلين في العمارة قطعاً من أراضي السكن انشئت فيه ضاحية ما تزال تعرف حتى الآن باسم «الماجدية» نسبة إليه.

الأسلحة، وكل التجهيزات، وحتى كل التدريبات التي كان الجيش العراقي يقوم بها(٦).

غير أن الحالة المزرية التي كان عليها الجيش العراقي بعد الحرب العالمية الثانية، يمكن التدليل عليها بالغذاء الذي كان يوزع على الجنود كل يوم. ولقد وجدت بنفسي أن ذلك الغذاء الذي كان يوزع على الجيش، ينقص بمقدار يزيد عن ألف سعرة حرارية في الوجبة التي تعطي لكل فرد من أفراد معظم الجيوش الأوروبية.

منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية، أخذت أحداث فلسطين تسمم العلاقات بين بريطانيا والعراق. ولقد تعاظم هذا الاحساس السيء بعد أن أعلنت بريطانيا انتهاء انتدابها على فلسطين في ليلة الرابع عشر من أيار (مايو) ١٩٤٨، وأعلن المجلس القومي اليهودي في تلك الليلة ذاتها قيام دولة إسرائيل.

كانت معاهدة بورتسموت، التي أخذت اسمها هذا من المكان الذي وقعت فيه، قد ابرمت في الخامس عشر من شهر كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٤٨ أثناء رئاسة «صالح جبر» للوزارة العراقية. كانت تلك المعاهدة نافعة، لكن الحكومة العراقية لم تكن محبوبة. لذلك انطلقت التظاهرات العنيفة في كل أنحاء بغداد، فلجأ رجال الشرطة إلى مقاومتها باستعمال السلاح، مما أدى إلى سقوط ما لا يقل عن مائة قتيل، وجرح خمسة

---

(٦) لم يدع الانكليز بعد فشل ثورة أيار ١٩٤١، وسيلة من الوسائل الا وقد لجأوا اليها لاضعاف الجيش العراقي، وتمزيق وحدته، والحط من معنوياته. فبالاضافة إلى المئات من الضباط الذين أخرجوا من الجيش، توقف الانكليز بصفة متعمدة عن تجهيز الجيش بأي من المعدات الضرورية للقتال. ولقد تعاظم خوف الانكليز وعملائهم في العراق من الجيش العراقي، بعد أن نجحت الثورة التي قام بها الجيش المصري في الثالث والعشرين، من تموز (يوليو) سنة ١٩٥٢، واعلان الجمهورية المصرية، وتحرير مصر من كل القيود والمعاهدات الاستعمارية التي كبلت بها منذ سنين طويلة، وعلى الاخص اتفاقية قناة السويس. ثم هل ان سندرسن قام بلفت أنظار الحاكمين في العراق إلى نقص السعرات الحرارية في الطعام الذي كان يقدم لأفراد الجيش العراقي؟

أضعاف ذلك العدد. وسرعان ما تم الغاء تلك المعاهدة، ولكن بعد مضي سبع سنوات من ذلك التاريخ تم التوصل إلى اتفاق جديد بين بريطانيا والعراق، كان في جوهره تعديلاً لمعاهدة سنة ١٩٣٠ المعروفة(٧).

ومنذ الزيارة التي قام بها عبد الإله إلى تركيا في سنة ١٩٥٤، غدت العلاقات التركية العراقية ودية بشكل متزايد. وفي سنة ١٩٥٥ وجد نوري السعيد أن الوقت قد غدا ملائماً تماماً لإقامة تعاون مشترك بين البلدين، أضفيت عليه صفة المعاهدة بينهما. ولذلك قام نوري السعيد برحلة إلى «أنقرة» لهذا الغرض حيث تم في شهر شباط (فبراير) من تلك السنة، التوقيع على معاهدة اقتصرت على سبع مواد موجزة، وترك الباب مفتوحاً أمام عضوية أية دولة من دول الجامعة العربية، أو أية دولة أخرى تهتم بأمن المنطقة وسلامتها(٨).

وحين انضمت دول أخرى إلى تلك المعاهدة أطلق عليها اسم «حلف بغداد» وقد بقيت مواد هذا الحلف غير معلنة. ولكن عندما اتخذت الحرب الكلامية التي تشنها اذاعة القاهرة، ابعاداً جديدة، صمم نوري السعيد في شهر كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٦ على أن يذيع مواد هذا الحلف في خطاب مطول، فند فيه الاتهامات المصرية تفنيداً قوياً، وأدان فيه النشاط المشبوه الذي كان يقوم به الاتحاد السوفياتي في الشرق الأوسط.

كان من بين مطامح الرئيس جمال عبد الناصر أن يجري تحكيمه في شؤون السياسة الخارجية للدول العربية كلها. وبتحريض من روسيا راح جمال عبد الناصر يرفض بعنف الدعوة التي وجهها إليه نوري السعيد بقصد

(٧) يقصد المؤلف بذلك الاتفاق الذي وقعه نوري السعيد في سنة ١٩٥٥ مع بريطانيا بشأن انسحاب آخر القوات الجوية الانكليزية من العراق، وتسليم قاعدتي الحبانية والشعيبة الجويتين إلى العراق.

(٨) مهد الانكليز والأمريكيون بصفة خاصة لحلف بغداد بإقامة تحالف بين تركيا والباكستان تحت ستار الدفاع عن سلامة الشرق الأوسط. ولقد فضحنا ذلك الحلف وأغراضه الاستعمارية في كتابنا «الحلف التركي الباكستاني والدفاع المزعوم عن الشرق الأوسط» الذي صدر ببغداد سنة ١٩٥٤.

انضمام مصر إلى حلف بغداد. لكن عبد الناصر أبى أن ينضم إلى حلف يضم دولة عربية ليست حسب مفهومه الخاص، سيما وان قاعدة «فرق تسد» كانت إحدى مبادئه الستراتيجية.

كان «بات دومفيل»[٩] أحد أعضاء اسرة التعليم في الكلية العسكرية ببغداد، موجوداً في العراق عندما قامت الثورة في صبيحة الرابع عشر من تموز (يوليو)، وقد استطاع الهرب في غضون أربع وعشرين ساعة من وقوع تلك الثورة، حيث صادرت حكومة الثورة كل أمواله، وأثاث بيته، وحتى الرواتب التي كان يستحقها لقاء عمله، ولم يدفع له أي تعويض عنها. واعتماداً على ما حدثني به «دومفيل» شخصياً، قبيل وفاته بوقت قصير، فانني اقوم بسرد وقائع الثورة.

تم الكشف خلال سنة **١٩٥٧** عن أربع أو خمس مؤامرات ضد البيت المالك في كل من العراق والأردن، اشترك فيها العسكريون والقوميون وغيرهم. أما الثورة التي خططت ونفذت في الرابع عشر من تموز، فقد كانت عملية أكثر اتقاناً، وأعظم تعقيداً، وقد خضعت لدراسة وثيقة طيلة شهور عديدة من قبل الذين كانوا يخططون لها. ولقد شارك في الثورة لواءان من الفرقة العراقية المدرعة، كان يقود أحدهما العميد عبد الكريم قاسم ويقود اللواء الثاني العقيد عبد السلام محمد عارف.

كان معروفاً أن يغادر فيصل الثاني مطار بغداد في الساعة الثامنة من صباح الرابع عشر من تموز، لكي يحضر اجتماع حلف بغداد في تركيا، والذي يحضره رؤساء ووزراء الدول الإسلامية المنضمة إلى ذلك الحلف. وقد تقرر أن يطير فيصل الثاني من تركيا إلى انكلترا لكي يلتقي بعروسه

---

(٩) كان بات دومفيل يشغل في الواقع منصب رئيس الاستخبارات الانكليزية في العراق كله ويمتد نفوذه حتى إلى بلدان أخرى مجاورة للعراق في الوقت الذي كان يشرف فيه، بصفة خفية، على مناهج التعليم في الكلية العسكرية العراقية.

المقبلة الأميرة «فضيلة» وهي فتاة مصرية تركية خطبت له قبل حوالي سنة تقريباً(١٠).

أثار وصول وحدات الجيش إلى بغداد وضواحيها، بعد ظهر اليوم الثالث عشر من تموز، مزيداً من الدهشة. لكن رجال تلك الوحدات كانوا يتهامسون بأنهم في طريقهم إلى الأردن بناء على طلب من الملك حسين. وكانت تصحب وحدات الجيش تلك شاحنات تحمل قطاع الطرق الذين تم اطلاق سراحهم من أحد السجون اثناء الطريق(١١). أما الفريق «غـازي الداغستاني» قائد الفرقة المدرعة وصديق عبد الإله، فقد تم اعتقاله مسبقاً.

في الساعة الخامسة من صباح يوم الاثنين الرابع عشـر من تموز «يوليو» وصل لواء العقيد عبد السلام محمد عارف إلى «قصر الرحاب». وبعد أن أطلق حرس القصر بضع اطلاقات في الهواء انذاراً بالمقاومة، هبط فيصل الثاني يتبعه عبد الإله وبقية أفراد العائلة المالكة، إلى ساحة القصر، ووقفوا أمام الجيش المهاجم.

تقدم أحد الضباط يرافقه نائب ضابط وفي يديهما رشاشتان إلى فيصل ودعياه مع بقية أفراد العائلة إلى أن يتبعوهما خـلال الحشد الموجود إلى مكان أمين. وحين سار هؤلاء إلى أمام، استدار المسلحان نحوهم فاطلقا النار عليهم جميعاً، بحيث لم يبق أحد منهم إلا وركع على الأرض. أما المخلوق الوحيد الذي نجا من الموت فهي السيدة «هيام» الزوجة الثالثة لعبد الإله (١٢) فقد أصيبت هذه بجروح طفيفة، لكنها حين سقطت على الأرض تظاهرت بأنها ميتة. وحين لفتت أنظار أحد الحراس أقبل هذا عليها

---

(١٠) انظر الملحق الثاني في آخر الكتاب ففيه آخر رسالة كان فيصل الثاني قد بعث بها إلى سندرسن في أواخر شهر حزيران (يونيو) ١٩٥٨.

(١١) لا أساس لهذا القول اطلاقاً. ذلك لأن الجيش المتقدم من جلولاء إلى بغداد مروراً بمدينة بعقوبة لم يقدم على إطلاق سراح أي من السجناء أثناء طريقه كما أنه لم يصطحب أياً من الأهلين معه إلا بعد أن أحاط بقصر الرحاب في صبيحة يوم الثورة.

(١٢) ابنة محمد الحبيب الذي كان يعرف باسم «أمير ربيعة» وهو من كبار الاقطاعيين البارزين في العراق، الذين قضى قانون الاصلاح الزراعي على إقطاعياتهم بعد الثورة.

وحملها إلى مكان آخر تمهيداً لدفنها. وقد استطاعت أن تفلت من الجماهير المحيطة بالقصر بأن تبرقعت ببرقع فوصلت إلى بيت أحد الأصدقاء في بغداد، والذي قام بنقلها إلى منزل أبيها في مزرعته قرب «الكوت».

كـان بيت الأميرة «بديعة» وزوجها «الشريف حسين» يقع على مسافة بعيدة عن قصر الرحاب. وما أن سمعا المذياع يعلن قيام الثورة، حتى بادرا بالهرب مع أولادهما الصغار الثلاثة ومربيتهم الانكليزية. وبعد أن تجنبوا التفتيش لجأوا إلى السفارة السعودية، ومن هناك تم نقلهم إلى السعودية حيث أمضوا بضعة أيام في ضيافة «الملك سعود»، ومن ثم غادروا إلى القاهرة ومنها إلى لندن، حيث أسرعت أنا وزوجتي إلى ملاقاتهم.

* * *

كـان بيت نوري السعيد، وهو من نوع متوسط وحديث، يقع على الضفة الغربية من النهر مثل قصر الرحاب. ولقد خان نوري السعيد توقعه للأحداث. ذلك أنه لم يظهر أية مبالاة بـالنذر التي شهـدتها الأسـابيع الأخيرة. وإلى أن سمع أصوات النيران المنطلقة من ناحية القصر، تحقق له أن الهرب غدا أمراً ملزماً. لكم كانت أفكار ذلك الرجل شديدة الاضطراب في ساعاته الأخيرة!

لقد اتهم بالخيانة، وخصص مبلغ عشرة آلاف دينار ثمناً لرأسه. كان متأكداً بأن القتل هو مصيره إن ألقي القبض عليه، ولذلك تمثل أمله الوحيد في الهرب. ولكن نوري السعيد لم يكن قد استعد لمثل هذه الطوارىء، ولم يهيء أية خطط لمثل هذه الحاجة. كان كل تفكيره منصباً على إيجاد ملجأ له في بيت أحد أصدقائه من أعضاء مجلس الأعيان يقع على الضفة الشرقية من النهر.

ولكن حين قـرّب ملاح قاربه من ضفة النهر، ووقعت أنظاره على الحشد الكبير الهائج على الضفة الأخرى من النهر، أمر ذلك الملاح بأن يعود، ومن ثم سار على قدميه إلى بيت صديق يثق به، حيث تم نقله بسيارة إلى بيت أبعد، هو بيت العين محمود الاسترابادي الذي يقع على

مقربة من الكاظمية، حيث مكث هناك إلى صباح اليوم التالي. وإذ خشي افتضاح أمره، قرر أن يعود إلى منزل ذلك العين الذي أراد الالتجاء إليه أول الأمر. هنا تم الاتفاق على أن يذهب إلى هناك متنكراً في زي امرأة، وأن تصحبه زوجة الاسترابادي وإحدى الخادمات.

كان نوري السعيد معروفاً تمام المعرفة لدى الناس. ولذلك فلم يكن من المعقول أن حركاته خلال اليوم السابق لم تكن تحت المراقبة الشديدة. وهكذا تم الاشتباه بالمكان الذي لجأ إليه وهو بيت محمود الاسترابادي. وحين اقترب من السيارة التي كانت تنتظره تصدى له اثنان من أفراد الانضباط العسكري المسلحين. كان من المتوقع أن يساعده صوته على اخلاء سبيله. وعلى أمل أن يستطيع القفز إلى داخل السيارة، أطلق من تحت عباءته رصاصتين على ذينك العسكريين، وقد خاب فأله إذ سرعان ما أطلق العسكريان النار عليه فسقط هو وزوجة الاسترابادي على الأرض مصابين بجروح مميتة. أما ولده الوحيد «صباح» فقد اردي قتيلاً في يوم الثورة عندما اقتحم النادي العسكري محاولاً الانتقام من رجال الثورة، بينما كانت زوجة نوري السعيد آنذاك في لندن وهي تنتظر وصوله مع فيصل الثاني.

عين عبد الكريم قاسم رئيساً للوزراء، وعبد السلام محمد عارف نائباً له. ولم يمض وقت طويل حتى دب الخصام بين الاثنين، وانتهى بوقوع ثورة جديدة[١٣]. قتل فيها عبد الكريم قاسم، وتولى عبد السلام رئاسة الجمهورية. غير أن رئاسته تلك لم تدم طويلاً إذ مات محترقاً في أعقاب سقوط الطائرة التي كانت تقله. ولكن هل كان سقوط الطائرة من عمل الله أم من عمل البشر، فذلك أمر لم يتم الكشف عنه حتى الآن.

---

(١١) يقصد بذلك ثورة الرابع عشر من رمضان التي قادها حزب البعث العربي الاشتراكي في صبيحة اليوم الثامن من شهر شباط سنة ١٩٦٣.

الملاحق

الملحـق الأول

آخر رسالة من فيصل الثاني إلى سندرسن

اعتاد فيصل الثاني منذ أيام طفولته أن يلقب المؤلف بلقب «دوكي» وقد بقي هذا اللقب سارياً طيلة حياة الملك الشاب. فقد كان دؤوباً على التراسل، وتبادل الرسائل باستمرار. ومع أن الرسالة المصورة هنا من دون إذن خاص، إلا أنها تعتبر، دون شك، واحدة من آخر الرسائل الرسمية التي كتبها. فقد قتل بعد ذلك بزهاء أسبوعين.

. . . .

القصر. بغداد

٢٥ حزيران (يونيو) ١٩٥٨

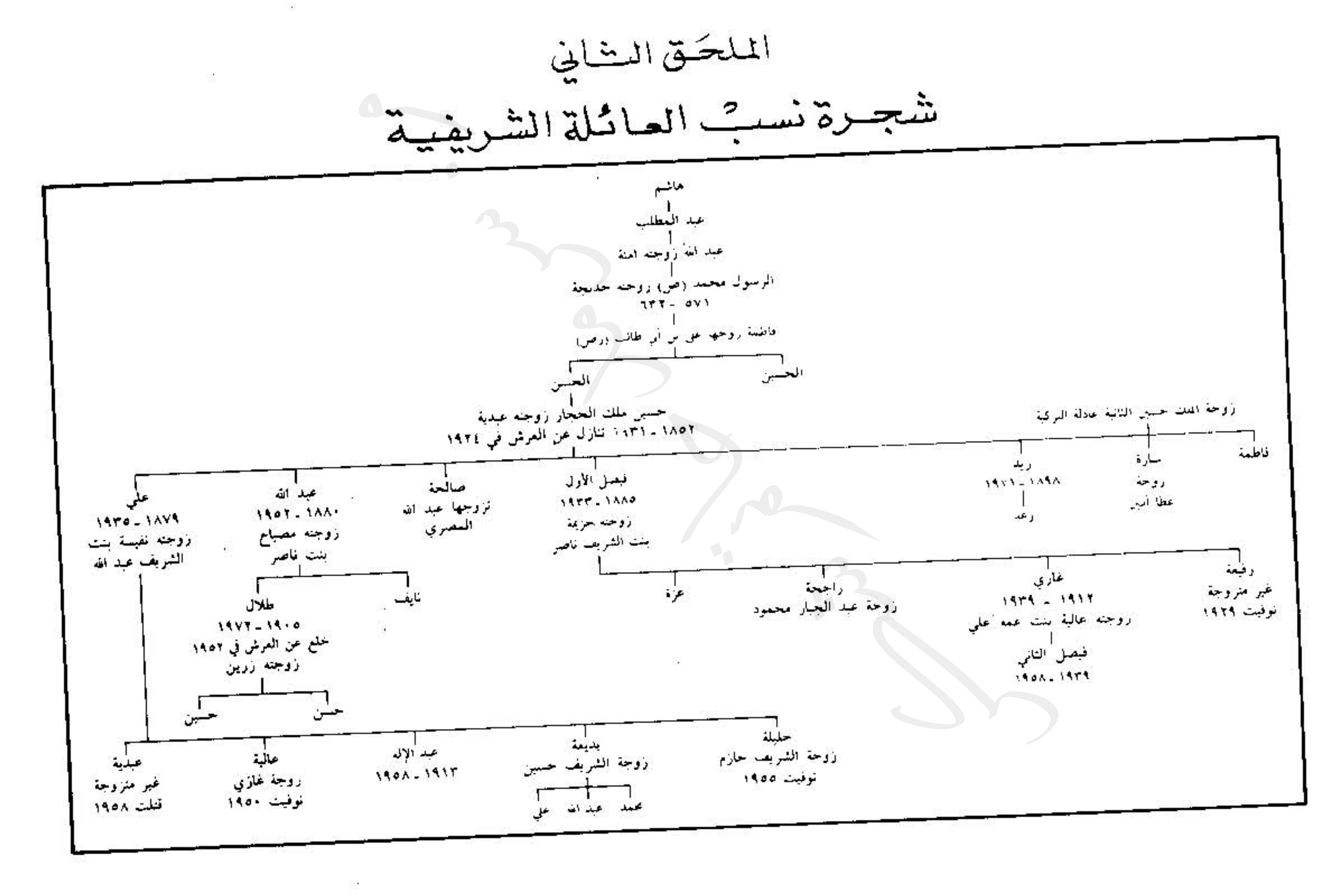
عزيزي دوكي

أشكرك كثيراً على محفظة الصور الجيبية الجميلة. لا أستطيع أن أعبر لك عن مدى تقييمي لهذه الفكرة. فهذه المحفظة مفيدة جداً، ولا أستطيع أن أحملها في أسفاري حسب، وإنما سوف تذكرني بك. أرجو أن تكون أنت والسيدة دوكي بخير. لم يكن الجو لطيفاً جداً عندكم كما أعتقد. الأسرة هنا كلها بخير. وخالي الآن في أسطنبول حيث أمضى فيها الأيام العشرة الأخيرة إثر عودته من انكلترا. إننا نعد العدة للسفر جميعاً إلى إنكلترا، ونأمل أن نغادر في العاشر من الشهر القادم. خالتي «بديعة» وذويها والأولاد مع مربيتهم سوف يقضون الصيف في لندن في الشقة التي أعدوها لذلك. أشكرك مجدداً على الهدية الرائعة، مع أفضل أمنياتي وأمنيات العائلة للسيدة دوكي ولك.

المخلص لك فيصل

الملحق الثاني

شجرة نسب العائلة الشريفية



صُــوَر تذكاريّة نـَادرة



المؤلف: هاري سندرسن «باشا».



إلزي (زوجة المؤلف) صورة غالية على قلبه

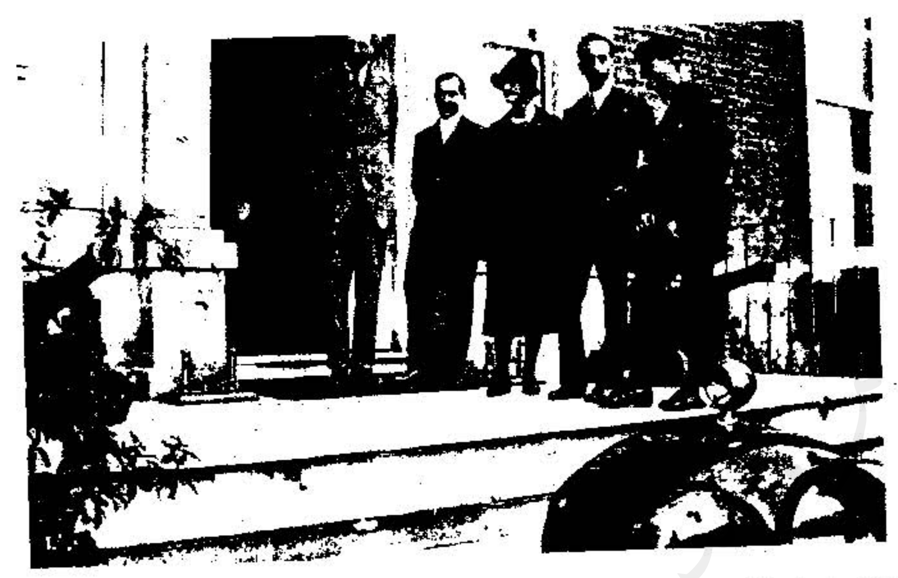


صورة موقّعة للأمير فيصل قبل تسلّمه عرش العراق بوقتٍ قصير.

سمح بنقل هذه الصورة عن اللوحة الأصليّة للفنان (ب. آ. دي لازلو، م. ف. و.).



حفلة توديع في حدائق دار المقيميّة البريطانية ببغداد للسر برسي كوكس وعقيلته الليدي كوكس، وذلك قبل مغادرتهما العراق عام ١٩٢٣. تبدو الليدي كوكس في منتصف الصف الأمامي، ويُشاهد على يسارها السر برسي في ملابس الصباح الرمادية.



الملك فيصل الأول مع لورنس «العرب» (في زي الطيارين) ضيوفاً على اللورد ونترتون ـ نائب ملك بريطانيا في الهند ـ وعقيلته الليدي ونترتون، وذلك في شلنكلي بارك، وهي من أجمل المناطق الريفية البهيجة في إنكلترا، (حدثت هذه الزيارة في خريف سنة ١٩٢٥).



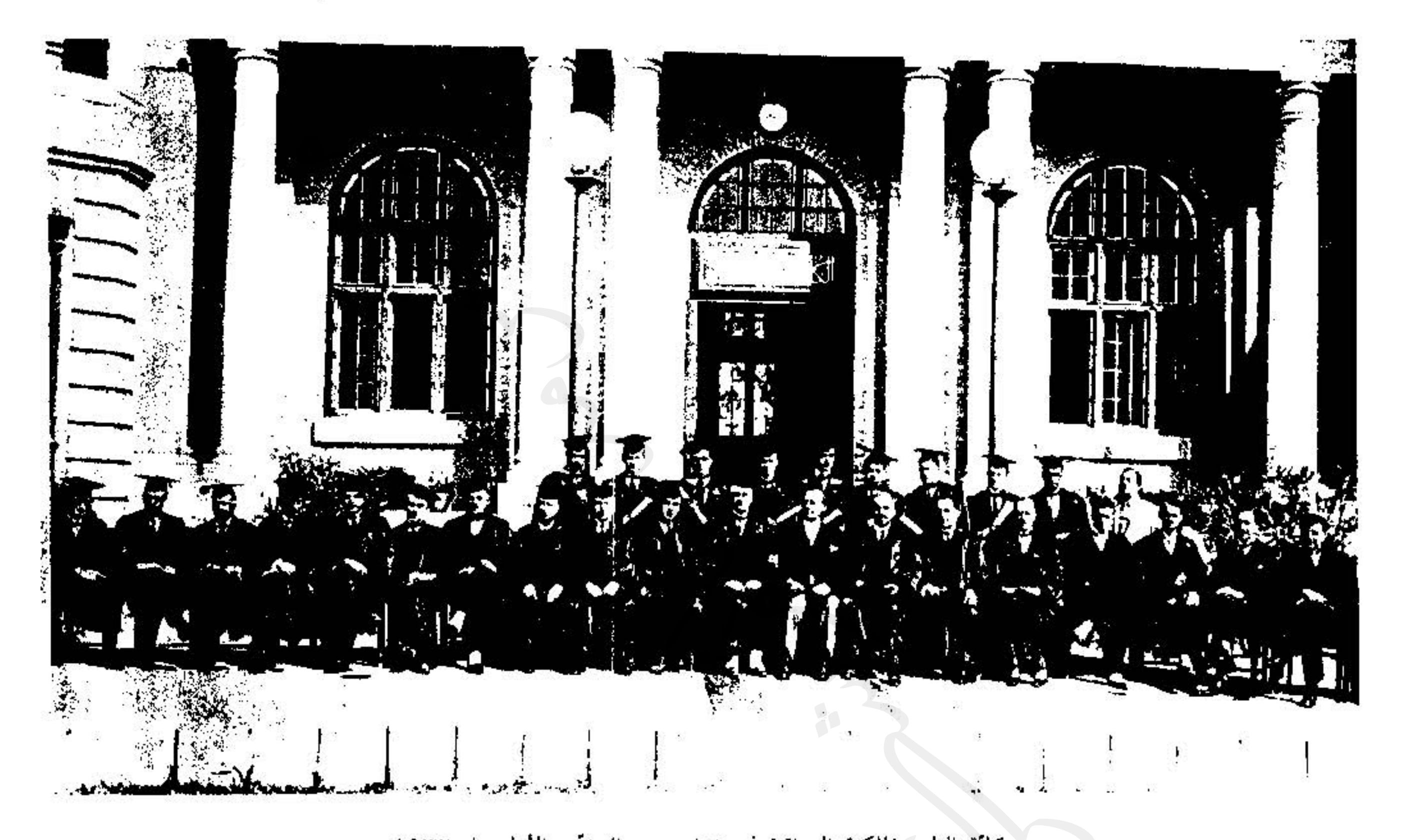
الملك فيصل الأول والمؤلف يتشاطران وجبةً خفيفةً عقب هبوط اضطراري في بادية الشام.



مؤتمر ملكي في ٢١ شباط (فبراير) عام ١٩٣٠، على ظهر السفينة ـ البارجة ـ الحربية البريطانية «لوبين». الجالسون من اليمين إلى اليسار: رئيس الوزراء ناجي السويدي، الملك عبد العزيز ابن سعود، الملك فيصل الأول، السر فرنسيس همفريز، القبطان السر جون آلين، ومارشال الجو لودلو هوت.

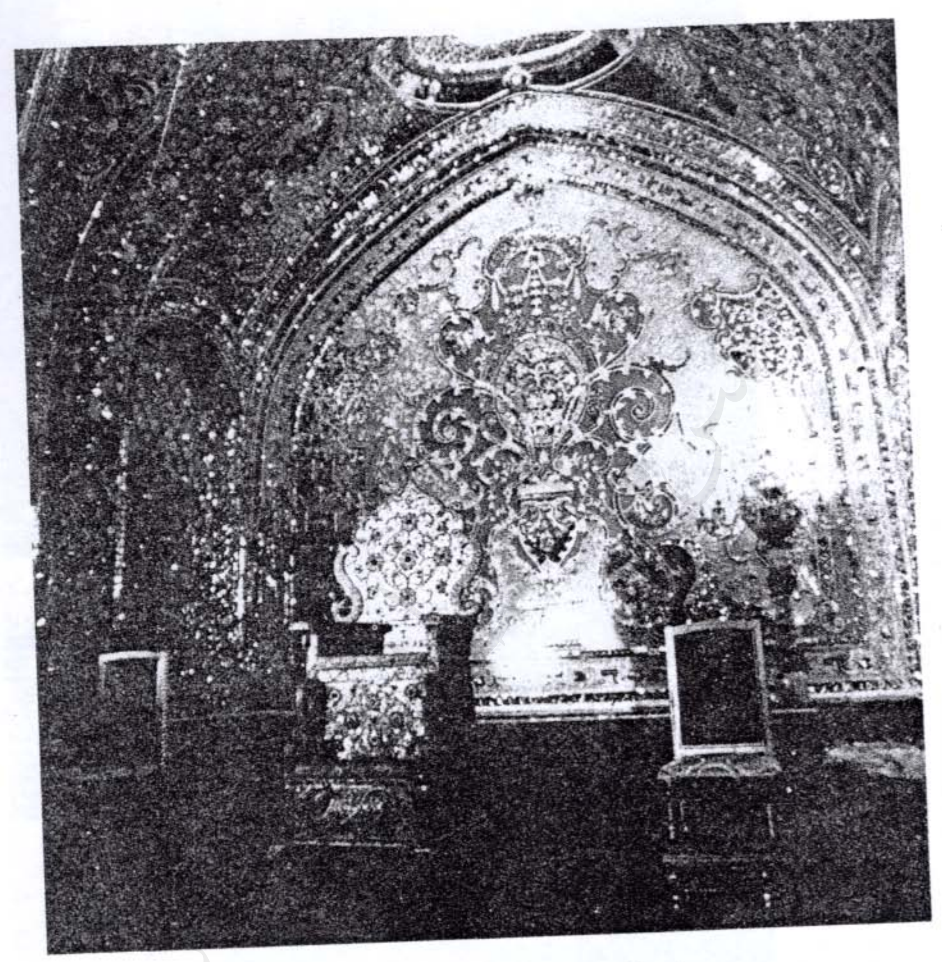


«النخل»: منزل المؤلف الذي سكنه مدة عشرين سنة، وأطلق عليه هذا الاسم تيمّناً بأشجار النخيل التي تظلله وتظهر في الصورة.



كليّة الطب الملكية العراقية في بغداد. يوم التخرّج الأول عام ١٩٣٢.

الجالسون: يضمّون العميد ومجموعة الأساتذة. عدد الخرّيجين تسعة، يقفون خلف العميد والأساتذة.



عرش الطاووس: الشهير باسم (تخت الطاووس).

مازال الجدل حول هذا العرش قائمًا، إذ يقول البعض: أن هذا العرش المُرصّع بالجواهر والمُنَضّد بالذهب ـ الذي يدخل في نفائس قصر غولستان ـ هو من بقايا الماضي، إذ كان العرش الطاووسي للأباطرة المغوليين، واستولى عليه الغازي الفارسي نادر شاه عام ١٧٣٩، أو أنه قد صُنع خصيّصاً لفتح علي شاه في أوائل القرن التاسع عشر. والذي لا جدال فيه، أنّ هذا العرش، يُعتبر مجمّعاً ضخمًا للأحجار الكريمة النادرة والنفيسة، وأنّ هذه التحفة الذهبية الباقية من أمجاد الماضي، فريدةٌ من نوعها ولا مُنازع لها في التاريخ.



الملك فيصل الأول بين ضيوفه في حفلة المأدبة الرسمية التي أُقيمت على شرفه من قبل الشاه رضا خان بهلوي، وذلك أثناء زيارته الرسمية لإيران في شهر نيسان (أبريل) عام ١٩٣٢. يُشاهد في أقصى اليسار نوري باشا السعيد رئيس الوزراء.



الملك غازي: الابن الوحيد للملك فيصل الأول، ووالد الملك فيصل الثاني في زيّه الرسمي.

قصر الزهور: (مَجْمَعْ بغداد الملكي) منزل الملك غازي والملك فيصل الثاني.





الملكة عالية: الابنة الثانية للملك عليّ، زوجة الملك غازي، وأُم الملك فيصل الثاني. شقيقة الأمير عبد الإله، الوصيّ على العرش ووليّ العهد، الذي كان يجد في الملكة «عالية» الناصح الرائع المؤتمن على الأسرار.

(اللوحة الزيتيّة الأصليّة موجودة في «ستانويل پلاس» حيث لا يظهر عليها اسم الفنان).



الأمير عبد الإلـه: الوصيّ على العرش والابن الوحيد للملك عليّ.



الأميرة عبديّة: أكبر بنات الملك عليّ (غير متزوجة) وجرى اغتيالها مع أفراد آخرين من العائلة المالكة عام ١٩٥٨.



الأميرة بديعة: البنت الثالثة للملك عليّ زوجة (الشريف حسين) الذي ينحدر من إحدى الإمارات المكّية وأب لثلاثة أولاد. نَجَتْ وأُسرتها مع بعض أفراد العائلة المالكة من القتل.



الأميرة جليلة: أصغر بنات الملك عليّ الأربع. تزوجت من الدكتور (الشريف) حازم. لم تُنجبْ، وتوفيتْ في شهر كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٥٥، حيث وقعت ضحيّة انهيار عقلي، ولم تُعلن وفاتها.



الملك فيصـــل الثـــاني: يمتطي صهوة أول مُهر له. وقد حُرم فيما بعد، بسبب الربو، من ممارسة هذه الهواية.



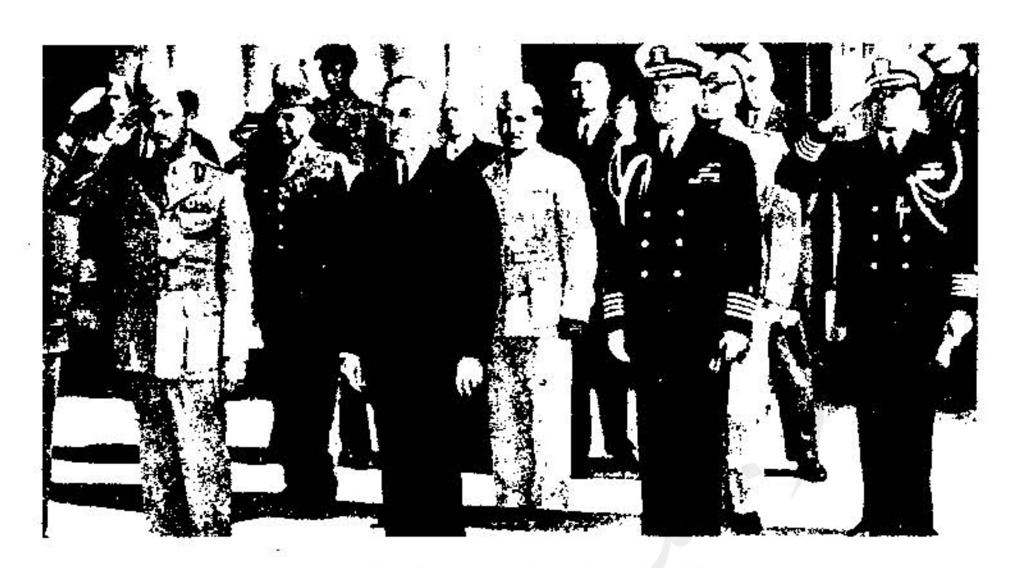
المؤلف «سندرسن باشا» وهو يقوم بإلقاء كلمته الليلية لمحتجزي السفارة البريطانية أثناء (حصار) عام ١٩٤١.



ذيل طائرة (جانكرز ٥٢) بين الركام في مطار حربي ألماني قرب بنغاري.
يُشاهد في أُفقِ الصورة هيكل هنغار (حظيرة للطائرات) محُطَّم.



الملك فيصل الثاني في أول احتفال رسمي له، تدشين نادي (سفينة نوح) عام ١٩٤٣ يجلس على يمينه، الأمير عبد الإله الوصيّ على العرش، ويُشاهد على يساره، اللفتنانت جنرال (الفريق) السر هنتري باونل القائد العام للقوات الإيرانية ـ العراقية آنذاك.



استقبال رسمي للأمير عبد الإله، الوصيّ على العرش، من قبَل الرئيس هاري ترومان لدى وصوله إلى البيت الأبيض.



النقيب «آرشي» روزفلت المكلّف بمرافقة الأمير عبد الإله، الوصيّ على العرش، في رحلته داخل الولايات المتحدة الأمريكية.



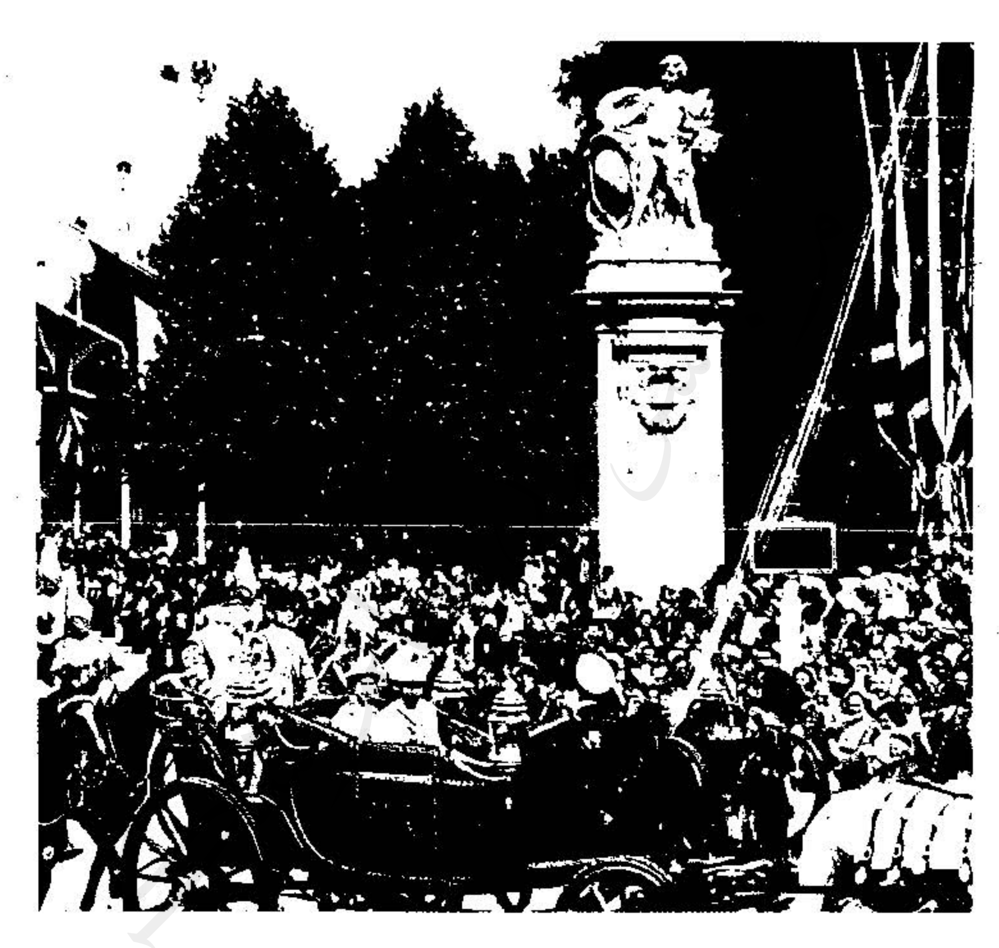
الملك فيصل الثاني والملك حسين في عمّان.



من اليسار إلى اليمين: الامير نايف بن عبد الله ملك الاردن، عبد الإله، محمد بن طلال، الملك حسين بن طلال، الملك فيصل الثاني، عبد الحميد والد خطيبة الملك حسين، محمد بن سعود رئيس الوفد السعودي للتهنئة بخطوبة الملك حسين.



الملك غازي الأول في الصيد ومعه الطيار محمد علي جواد.



زيارة رسمية للملك فيصل الثاني لمدينة لندن في شهر تموز (يوليو) عام ١٩٥٦. جرى استقبال الملك في محطة فكتوريا من قبل الملكة وأعضاء الأسرة المالكة، ثم استقل عربةً مكشوفةً مع الملكة إلزابيث الثانية في الطريق إلى قصر باكنغهام. كانت تلك الزيارة آخر عهد للملك الشاب بالأبهة والتشريفات.

فهرست

مؤلّفات المترجم المطبوعة

١ ـ أعلام الأدب الحديث، ١٩٤٠.
٢ ـ في الاتحاد السوفياتي (ترجمة)، ١٩٤١.
٣ ـ القضية البولونية، ١٩٤٢.
٤ ـ الأم: لمكسيم غوركي بالاشتراك مع جماعة، ١٩٤٣.
٥ ـ كيف أنشىء الاتحاد السوفياتي (ترجمة)، ١٩٤٤.
٦ ـ مكسيم غوركي، ١٩٤٥.
٧ ـ مشكلة المستعمرات (ترجمة)، ١٩٤٦.
٨ ـ الحرب العظمى الثانية (مجلد أول)، ١٩٥٠.
٩ ـ الانقلابات العسكرية في سوريا، ١٩٥٠.
١٠ ـ الحرب في كوريا، ١٩٥٠.
١١ ـ معركة النفط في إيران، ١٩٥١.
١٢ ـ مراحل الكفاح الوطني، في فيتنام، ١٩٥٢.
١٣ ـ فرموزا آخر معارك الصين، ١٩٥٢.
١٤ ـ الملك الأسير (ترجمة)، ١٩٥٣.
١٥ ـ المارشال رومل (ترجمة)، ١٩٥٣.
١٦ ـ معركة النفط في العراق، ١٩٥٤.
١٧ ـ الحلف التركي الباكستاني، ١٩٥٤.
١٨ ـ مهرجان السلام في برلين، ١٩٥٤.
١٩ ـ مشكلة الشرق الأوسط، ١٩٥٦.
٢٠ ـ حياة لويس باستور (ترجمة)، ١٩٥٧.
٢١ ـ فرنسا في طريق الدكتاتورية، ١٩٥٨.
٢٢ ـ حكومة كيرالا في الهند (ترجمة)، ١٩٥٩.
٢٣ ـ مرحلة ما بعد الاستقلال (ترجمة)، ١٩٥٩.

٢٤ـ سر الخلاف بين مصر والعراق (ترجمة)، ١٩٥٩.
٢٥ـ حزب الطبقة العاملة (ترجمة)، ١٩٥٩.
٢٦ـ أبطال السلام (ترجمة)، ١٩٥٩.
٢٧ـ جولة في الخليج العربي (ترجمة)، ١٩٦٢.
٢٨ـ مشاهدات بريطاني في العراق (ترجمة)، ١٩٦٢.
٢٩ـ الصراع على الخليج العربي، ١٩٦٤.
٣٠ـ رحلتي إلى العراق جمس بكنغهام ج ١ (ترجمة)، ١٩٦٨.
٣١ـ رحلتي إلى العراق جمس بكنغهام ج ٢ (ترجمة)، ١٩٦٩.
٣٢ـ نظرة في النظام الاقتصادي الاسلامي (ترجمة)، ١٩٦٩.
٣٣ـ الحياة الفكرية في عهد الخلفاء الراشدين (ترجمة)، ١٩٧٠.
٣٤ـ فن التصوير عند العرب (ترجمة)، ١٩٧٤.
٣٥ـ الفن في العراق القديم (ترجمة)، ١٩٧٦.
٣٦ـ العراق القديم (ترجمة)، ١٩٧٨.
٣٧ـ رحلة المشرق (ترجمة)، ١٩٧٩.
٣٨ـ سومر لاندري بارو (ترجمة)، ١٩٧٩.
٣٩ـ الحياة اليومية في بابل وأشور (ترجمة)، ١٩٧٩.
٤٠ـ معركة حطين وتحرير بيت المقدس، ١٩٧٩.
٤١ـ بلاد آشور لاندري بارو (ترجمة)، ١٩٨٠.
٤٢ـ مذكرات سندرسن (ترجمة)، ١٩٨٠.
٤٣ ـ مغامرات حجي بابا الاصفهاني في ج١ (ترجمة) ١٩٨٣
٤٤ ـ ثلاثة ملوك في بغداد (ترجمة) ١٩٨٣
٤٥ ـ المارشال رومل (ترجمة) ١٩٨٤
٤٦ ـ رحلتي الى بغداد (ترجمة) ١٩٨٤
٤٧ ـ حصار الكوت جزءان (ترجمة) ١٩٨٥
٤٨ ـ قصص اميل زولا (ترجمة) ١٩٨٥
٤٩ ـ قصص من غوركي (ترجمة) ١٩٨٥
٥٠ ـ من قصص الجاسوسية فى البلاد العربية ١٩٨٥
٥١ ـ الناهضات فى العراق (ترجمة) ١٩٨٥

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ١٥٥٨
لسنة ١٩٨٥

مطبعة الانتصار - خالد البربوني - بغداد

المؤلف والكتاب

● يُعَدّ الطبيب الإنكليزي سندرسن «باشا» من أشهر الشخصيات البريطانية التي عملتْ في العراق، وعاصرت أهم أحداثه الجسام فيما بين الحربين العالميتين.

● لقد كان «سندرسن» الطبيب الخاص للعائلة الملكية ابتداءً من فيصل الأول، وانتهاءً بفيصل الثاني. وبحُكم عمله في القصر الملكي، وارتباطه بالسفارة البريطانية، ومعرفته لعددٍ من كبار رجال السياسة العراقيين، استطاع أن يطّلع على أسرار هذه العائلة، وأن يلعب دوراً بارزاً في حياتها السياسية والاجتماعية، وأن يُسهم - من طرف خفي - في رسم بعض السياسات، الداخلية والخارجية، لحكومة بغداد آنذاك، وفق ما تتطلّبه مصلحة حكومته في لندن.

● إنّ هذه المذكّرات - التي تُغطّي فترة زمنية لا تَقلّ عن ثمانية وعشرين عاماً (١٩١٨ - ١٩٤٦) وهي المدة التي أمضاها «سندرسن» في العراق - تكشف لقراء العربية، عن كثيرٍ من النواحي التي بقيتْ خافيةً أو غير معروفةٍ بصفةٍ عامة، عن هذه الحقبة من تاريخ العراق الحديث.

● ونظراً للأهمية التي تضمنّتها هذه المذكّرات، ولا سيّما ما يتعلّق بأحداث العراق الداخلية؛ أيام الاحتلال الإنكليزي، وفي ظلال الحُكم الملكي، من أمثال: الثورة العراقية الكبرى (ثورة العشرين) وانقلاب بكر صدقي، وثورة رشيد عالي الكيلاني، وغيرها، أو تلك التي جرت على حدوده مع جيرانه، وهي بلا شك حلقة مهمة في تاريخ العرب المعاصر؛ فقد أقدمنا على ترجمتها والتعليق عليها، ونشرها، لكي نَسُدّ فراغاً في المكتبة العربية، والتاريخية على وجه الخصوص. . .

● لا شكّ أنّ «سندرسن» بحُكم مركزه كبريطاني وكطبيب للأسرة الملكية وللسفارة البريطانية، كان يمتلك رؤيةً أخرى لتلك الأحداث، كما أنّ آراءه في كثيرٍ من الشخصيات العراقية التي لعبتْ دوراً في سياسة البلاد بين (١٩٢٠ و ١٩٥٠) تختلف عن تلك الصورة، التي، نمتلكها نحن، عن تلك الحقبة وشخوصها. ولا يحتاج المرء إلى موافقة «سندرسن» في آرائه؛ لكنّ وجهة نظره هذه تستحق أن تُسمع.

الناشر

م. محمد حاتم شكر

طبع الغلاف بمطبعة ثويني - بغداد - هاتف : ٨٨٧٨٣٥١

السعر ٥٠٠ر٣ دينار